المنهج التربوي للسيرة النبوية

٣

التربية الجهادية

د. منير الغضبان

الجزء الثالث

دار الوفاء


منتدى إقراء الثقافي

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الطبعة الخامسة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



مكتبة المنار الزرقاء - الأردن - ص.ب ٨٤٢ ☎ ٩٨٣٦٥٩٠



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٢٤٢٧٧٢١ / ٢٥٦٢٢٠ / ٢٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٢٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الجزء الثالث

منير محمد الغضبان

مكتبة المنار

دار الوفاء



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول رب العالمين ، وقائد المجاهدين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من اهتدى بهديه وسار على طريقه إلى يوم الدين .

وبعـــــد :

فهذا هو الجزء الثالث من المنهج التربوي للسيرة النبوية ، والمختص مع الجزأين السابقين بالتربية الجهادية .

وكان الجزآن السابقان قد تناولا غزوات الرسول ﷺ حتى غزوة الفتح ، بينما يتناول الجزء الثالث – الذى بين أيدينا – الغزوات النبوية منذ غزوة الفتح فى العام الثامن للهجرة ، وحتى عام الوفود الذى سبقه إعلان براءة فى العام التاسع للهجرة .

وقد التزمت بمنهج واحد فى الأجزاء الثلاثة .

هذا المنهج هو العودة إلى القرآن الكريم ابتداء لاستعراض أحداث الغزوة ؛ لأن ورودها فى القرآن الكريم – ومعظم الأحيان يتم بعد وقوعها – إنما هو عرض تربوى أصلاً ، يهدف إلى معالجة النفوس وبنائها ، وتقديم العظة والعبرة من خلالها ، وأحداث السيرة إنما أسوقها لإيضاح هذا الهدف التربوى وتجليته ، وحين يكون العرض القرآنى للحدث أو الغزوة موجزاً ، يمكن اعتماد تسلسل أحداث الغزوة ، واستنباط المنهج التربوى من خلالها .

ولا أريد أن أطيل الفاصل بين الأخ القـارئ والكتاب ، فالكتاب يقدم نفسه ، راجياً الله تعالى أن يجعل هذه السلسلة نبراساً للدعاة والعاملين فى سبيل الله لاستئناف الحياة الإسلامية من جديد ، وأن يجعله فى صحيفة حسناتى يوم القيامة يوم تعز الحسنات ، وأن أنال به شفاعة المصطفى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وإلى لقاء مع الأجزاء القادمة من المنهج التربوى للسيرة النبوية والتى تتناول « التربية القيادية » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة

جمادى الآخرة - ١٤١٢ هـ

غـــزوة الفتـــح

مـن

سـورة الممتحنـة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللّه يحب المقسطين * إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) .

(وفى مضطرب الأحداث ، وفى تيار الحياة المتدفق ، تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلٰهى فى الأرض ، فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيمانى الجديد ، وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه فى أثناء التكوين النفسى لهذه الجماعة ، وكانت التربية المستمرة متجهة دائماً إلى إنشاء هذا التصور الإيمانى الخاص المميز ، المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة فى العالم كله يومذاك ، وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة ، أما الناس الذين ينشأ هذا التصور المتميز فى نفوسهم

(١) سورة الممتحنة : ١ - ٩ .

فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ، ومضطرب الأحداث ، بل كانوا يصهرون فى بوتقة الأحداث يوماً بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، ويعاد صهرهم فى الأمر الواحد ، والخُلق الواحد مرات كثيرة ، وتحت مؤثرات متنوعة؛ لأن الله الذى خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى ، وكان يعلم أن رواسب الماضى ، وجواذب الميول الطبيعية ، والضعف البشرى وملامسات الواقع ، وتحكم الإلف والعادة ، كلها قد تكون معوِّقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة ، وتحتاج فى مقاومتها إلى التذكير المتكرر ، والصهر المتوالى ، فكانت الأحداث تتوالى كما هى منسوقة فى قدر الله ، وتتوالى الموعظة بها ، والتحذير على ضوئها ، والتوجيه بهديها ، مرة بعد مرة .

وكان رسول الله ﷺ يقوم فى يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات فى كل فرصة ، واستخدامها بحكمة بالغة فى بناء هذه النفوس . والوحى والإلهام يؤيدانه ويسددانه ﷺ حتى تُصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله ، بتوفيق الله ،على يدى رسول الله ﷺ)[1] .

(هذه السورة حلقة فى سلسلة ذلك الإعداد الطويل ، تستهدف مع غيرها مما جاء فى مثل موضوعها ، إقامة عالم ربانى خالص فى ضمير المسلم ؛ عالم محوره الإيمان بالله وحده ، يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها ، ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى ، عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة ، ليجعل فى مكانها جميعاً عقدة واحدة ، وهى عقدة الإيمان بالله ، والوقوف تحت راية الله فى حزب الله .

إن العالم الذى يريده الإسلام عالم ربانى إنسانى ، ربانى بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله ، وإنسانى بمعنى أن يشمل الجنس الإنسانى كله – فى رحاب العقيدة – وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب ، وسائر ما يميز إنساناً عن إنسان ، عدا عقيدة الإيمان ، وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله المتضمن كيانه نفخة من روح الله .

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب رحمه الله / ٦ / ٣٥٣٦ .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة – كانت فى البيئة العربية وماتزال فى العالم كله إلى اليوم – عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض ، كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية .. وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله فى الجماعة التى يعدها لتحقيق منهج الله فى الأرض فى صورة عملية واقعة ،وكانت هذه السورة حلقة فى سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين ، الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل عقيدتهم ، ماتزال نفوسهم مشدودة ، إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوى قربى ، على الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى فى قريش ، فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التى تكلّفهم قتال أهليهم وذوى قرابتهم ، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه وهو سبحانه يعلم ثقل ضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ، ورواسب الجاهلية جميعاً ، وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالاً بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت ، فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث والتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث ، وليكون الطرق والحديد ساخن !)[1] .

روى البخارى – فى المغازى – عن عبد الله بن أبى رافع رضى الله عنه – ومسلم كذلك – قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[2] ، فإن بها ظعينة معها كتاب

---

(١) فى ظلال القرآن / ٦٠ / ٣٥٣٧ .

(٢) روضة خاخ : موضع على بعد اثنى عشر ميلاً من المدينة .

فخذوا منها » ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنَّ الكتاب أو لنلْقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا » ، قال : يا رسول الله ، لا تعجل علىَّ ، إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش – يقول كُنت حليفاً ولم أكن من أنفسها – وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسولَ الله ﷺ : «أما إنه قد صدقكم » ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فأنزل الله السورة – الممتحنة – ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفرو بما جاءكم من الحق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **... فقد ضل سواء السبيل** ﴾[1] .

١ ــ هذا هو سبب نزول هذه الآية الأولى من سورة الممتحنة كما أورده البخارى ومسلم ، وحتى ننفذ إلى أعماق الحادثة وأبعادها والتى وقعت قبيل فتح مكة ، نعود إلى السيرة النبوية ، ونلاحظ تعدد الروايات التى تنقلنا إلى الجو الذى تنزلت به الآية الكريمة ، والايات بعدها :

ذكر ابن عقبة ، وابن إسحاق ، ومحمد بن عمر رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ مكث بعد خروج أبى سفيان ما شاء الله أن يمكث ، ثم قال لعائشة : « جهزينا واخفى أمرك » ، وقال : « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة » ، وأمر رسول الله ﷺ جماعة أن تقيم بالأنقاب ، وكان عمر بن الخطاب يطوف على الأنقاب فيمر بهم فيقول : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ، وكانت الأنقاب مسلمة إلا من سلك إلى مكة فإنه يُتحفظ به ويسأل عنه .

---

(١) البخارى : كتاب المغازى : باب غزوة الفتح / ٢ / ٥ / ص ١٨٤ .

وروى الإمام أحمد والخمسة عن أبى رافع عن على ، وأبو يعلى والحاكم والضياء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والإمام أحمد وعبد بن حميد عن جابر ، وابن مردويه عن أنس رضى الله عنهم ، وابن إسحاق عن عروة ، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة ، ومحمد بن عمر عن شيوخه رحمهم الله تعالى : أن رسول الله ﷺ لما أجمع السير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى المسير إليهم ، ثم أعطاه امرأة – قال ابن إسحاق : زعم محمد بن جعفرأنها من مزينة ، وزعم لى غير محمد أنها سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب – وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لأهل مكة وقال لها : اخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرساً ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به ، فسلكت غير نقب عن يسار المحجة فى الفلوق[1] حتى لقيت الطريق بالعقيق[2] .

وذكر السهيلى رحمه الله تعالى أنه قد قيل : إنه كان فى كتاب حاطب : إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل . وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم فإنه منجز له وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه .

وفي تفسير ابن سلام أنه كان فيه : إن محمداً ﷺ قد نفر ، فإما إليكم وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر .

وذكر ابن عقبة أن فيه : إن رسول الله ﷺ قد آذن بالغزو ، ولا أراه إلا يريدكم ، وقد أحببت أن يكون لى يد بكتابى إليكم .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام – زاد أبو رافع المقداد بن الأسود وفى رواية عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على : أبا مرثد ، بدل المقداد – فقال رسول الله ﷺ : « أدرك امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذّرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم » ، ولفظ أبى رافع : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخرجوا – وفى لفظ : فخرجا – حتى إذا كان بالخليقة – خليقة بنى أحمد[3] ...

(١) المحجة فى الفلوق : اسم طريق وموقع . (٢) العقيق : وادٍ من أودية المدينة .

(٣) خليقة بنى أحمد : أرض بنواحى المدينة يدفع فيها سيل العقيق بعد خروجه إلى النقع والتقائه بوادي ريم. ويقال : إنها على اثنى عشر ميلاً من المدينة .

وقال ابن عقبة : أدركاها ببطن ريم ، فاستنزلاها ، فالتمساه فى رحلها ، فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبى طالب رضى الله عنه : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد ، قالت : أعرضا ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، فدعا حاطباً فقال : « يا حاطب ، ما حملك على هذا » ، قال : يا رسول الله إنى والله لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه .

... فقال عمر لحاطب : قاتلك الله !! ترى رسول الله ﷺ يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم ؟ دعنى يا رسول الله أضرب عنقه ؛ فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يدريك يا عمر أن الله اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فاغرورقت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . حين سمعه يقول فى أهل بدر ما قال)[1] .

٢ ــ لقد انتهت قصة حاطب بهذه المحاكمة التى يتحدث عنها سيد رحمه الله فيقول :

(والوقوف قليلاً أمام هذا الحادث وما دار بشأنه لا يخرج بنا عن « ظلال القرآن » والتربية به وبالأحداث ، والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله ﷺ القائد المربى العظيم .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة ، وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها ؛ وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذى يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل : « ما حملك على ما صنعت ؟ » فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٣١٧ وما بعدها .

نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » ليعينه وينهضه من عثرته ، فلا يطارده بها ولا يدع أحداً يطارده بها .. بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه ، فعمر رضى الله عنه ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم ، وإيمانه الجازم ، أما رسول الله ﷺ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية ، فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف .

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو فى لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيمانى الصحيح .. ذلك حين يقول : « أردت أن تكون لى عند القوم يد .. يدفع الله بها عن أهلى ومالى » فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها إنما يدفع الله بها ، ويؤكد هذا التصور فى بقية حديثه فيقول : « وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع .. الله .. به عن أهله وماله ، فهو الله حاضر فى تصوره .. وهو الذى يدفع لا العشيرة ، إنما العشيرة أداة يدفع الله بها .

ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحى فى قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله ﷺ : « صدق . لا تقولوا إلا خيراً » .

وأخيراً يقف الإنسان أمام تقدير الله فى الحادث ، وهو أن يكون حاطب من القلة التى يعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة ، وأن تدركه لحظة الضعف البشرى وهو من القلة المختارة ، ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين ، كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع ، ولا تنفج بالقول : ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه ، ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! ، فلم يرد من هذا شيء ، مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم بالظن بأنفسهم ، واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

والحادث متواتر الرواية ، أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخارى

ولا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولكن مضمون النص القرآنى - كما قلنا - أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذى تواترت به الروايات ، بمناسبة وقوع الحادث ، على طريقة القرآن ، كان يعالج مشكلة الأواصر القربية ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ، ليخرج بها من الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى .

وكان ينشئ فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيماً جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى .

وكان كأنما يجمع هذه النبتة الصغيرة الجديدة فى كنف الله ، ليعلمهم الله ويُبصِّرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمراً ، ويحقق بهم قدراً ، ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته ، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعاً فى الدنيا والآخرة ، وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته ، فى عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها فى هذا الاتجاه ، حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة فى آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات ، ومبايعة من يدخلن فى الإسلام ؟ والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار ، وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر ، فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهى عن موالاة أعداء الله ، ممن غضب الله عليهم سواء من المشركين أو من اليهود ، ليتم التمييز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة ، وغير وشيجة الإيمان)[1] .

٣ ــ لقد كان حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه ملء السمع والبصر ، وكان أحد ستة أوكل إليهم إبلاغ رسائله ﷺ إلى الملوك ، وكان لتوه عائداً من مهمته هذه قبل فتح مكة ، وكان موفد رسول الله ﷺ إلى المقوقس ، وها نحن نستمع له وهو المبعوث الشخصى للنبى ﷺ بين يدى المقوقس ملك مصر :

---

(١) فى ظلال القرآن / ٦ / ٣٥٣٨ .

روى الدولابى عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب ابن أبى بلتعة قال : (بعثنى النبى ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، فجئته بكتاب رسول الله ﷺ ، فأنزلنى فى منزله وأقمت عنده ، ثم بعث إلىّ وقد جمع بطارقته فقال : إنى سأكلمك بكلام ، وأحب أن تفهمه منى ، قلت : نعم ، هَلُمَّ ، قال : أخبرنى عن صاحبك ، أليس هو نبياً ؟ قلتَ : بلى ، هو رسول الله ، قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه ، قلت : عيسى ، أليس تشهد أنه رسول الله ، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ، ألّا يكـون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه إلى السماء الدنيا ، قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، هذه هدايا أبعث معك إليه ، فأهدى ثلاث جوارٍ منهن أم إبراهيم ، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لأبى جهم بن حذيفة العدوى وواحدة وهبها لحسان بن ثابت ، وأرسل بطُرَفٍ من طُرَفهم)[1] .

لقد كان فى سفارته على مستوى عال من اللباقة والحجة ، وجاء بحليف جديد للمسلمين فى المدينة ، مع قيامه بتحقيق أوثق العلاقات بين المقوقس والمسلمين .

وحاطب إذن ليس نكرة بين المسلمين جميعاً ، وهو من أهل بدر ، ويرد التساؤل بعدها : ألا يمكن أن يبقى هذا الأمر سراً بين رسول الله ﷺ وموفده الخاص حاطب ؟

أقول : يمكن لهذا الأمر أن يبقى كذلك ، ولكن الأهداف التربوية الكبيرة سوف تفوت لو تم ذلك .

فمن هذه الأهداف : بعد أن بدأ سيل المسلمين الجدد يفد إلى المدينة ، واكتظت المدينة بالآلاف التى تفد إليها كل يوم ، لابد أن يعرف هؤلاء المسلمون الجدد أنه ليس أحد فى حزب الله فوق المحاسبة ، والخطيئة التى تقع ، لابد أن تقوَّم مهما كان صاحبها .

وشاءت إرادة الله تعالى أن يتم هذا الضعف عند حاطب ، ويعلن هذا الضعف على الملأ ، ويشهد المسلمون الجدد خاصة درساً عالياً فى التربية النبوية ، وكيفية التعامل مع هذا الخطأ .

(١) المغازى للذهبى من تاريخ الإسلام / ت . التدمري / ٥١٢ .

ومن هذه الأهداف : أن يعرف المسلمون الجدد خطورة مثل هذا التصرف من الاتصال السرى بالعدو ، وأن جزاءه القتل ، وأن الذى يقدم عليه إنما يغوص فى النفاق إلى أخمص قدميه دون أن يدرى : ﴿ **إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً** ﴾[1] .

والمسلمون الوافدون لما تترسخ هذه المفاهيم فى تكوينهم بعد ، ولم تأخذ الإطار العملى ، فعلنية محاكمة خاطب ، رضى الله عنه ، تكبح جماح كل من تسوّل له نفسه أن يسقط هذه السقطة ، أن يكون جزاؤه والحكم عليه فى المجتمع الإسلامى هو النفاق والقتل ، وبذلك تنضبط الأمور انضباطاً تاماً ، ولا يتجرأ أحد على الصلة مع العدو لخطورة ذلك : ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ .

ومن هذه الأهداف : أن يتعرف المسلمون الجدد الوافدون إلى المدينة على فضل أهل السابقة من أهل بدر ، وأن أهل بدر قد حظوا برضوان الله تعالى الذى لا يعقبه سخط أبداً ، فلابد من معرفة فضل أهل الفضل والسابقة ، وأن لهم دوراً ريادياً لا يملكه أحد غيرهم ، إلا من تبعهم من أهل الحديبية ، ولذلك لم ينف رسول الله ﷺ الحكم على الحادثة وجزائها بالنفاق والقتل ، إنما تحدث عن استثناء حاطب وأهل بدر خاصة من هذه العقوبة أما ما دونهم فستطالهم هذه العقوبة .

ومن هذه الأهداف أيضاً : التركيز على الولاء لله ورسوله ، والتخلص من الولاء لغيره مهما كان للعشيرة أو للذات أو للبلد أو غير ذلك ، فرسول الله ﷺ أصدر أوامره الصريحة بكتمان الأمر ، وأمر بحراسة الأنقاب كلها لمنع كل من تسوّل نفسه الاتصال بمكة أو إخبارها بشيء مما يجرى فى المدينة لنجاح خطة الغزو فلا تتمكن قريش من المواجهة وتقع القتلى الكثيرة من جراء ذلك .

ورغم أن هذا الخطاب – كما أورده الصالحى عن السهيلى – هو حرب نفسية للمشركين من جهة ثانية يصب بالهدف نفسه الذى يريده رسول الله ﷺ :

(أن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأُقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم ، فإنه منجز له وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه) .

---

(١) سورة النساء : ١٤٠ .

ومع كل هذه المبررات ، فلم يكن هذا لينجى حاطباً رضى الله عنه من المحاسبة .

فالحرص على مصلحة الأهل والعشيرة والمال ، لا يجوز أن يكون مبرراً لنقل الأسرار إلى العدو أو التصرف الشخصى دون إذن القيادة .

٤ ـــ ومع أن رسول الله ﷺ رأى أن هذه المحاكمة العلنية كافية فى حق حاطب رضى الله عنه ، لكن جاء القرآن الكريم ليعلن الحادثة على الملأ ، فتصبح قرآناً يتلى فى الأرض كلها إلى قيام الساعة ، ويقول فى تقريع شديد عنيف :

﴿ يـأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

وبذلك بلغ الأمر كل جندى وكل مسلم ، ولم يكن محصوراً بحفنة قليلة سمعت هذه المحاكمة ، وذلك لخطورة هذه المعانى ، وضرورة التأكيد عليها لترسخ فى أذهانهم جميعاً ، وتصبح جزءا من كيانهم ، فموقف المسلمين الجدد ليس يحمل الكثير من الضغينة على أهل مكة ، وكثير منهم قبل أشهر كانوا يقفون موقف الحياد بين الفريقين ، فانضمامهم إلى الجيش الإسلامى لابد أن يقتلع من نفوسهم فكرة الحياد هذه ، لتحل محلها فكرة الولاء لله ورسوله ، وتتهيأ هذه النفوس لغزو مكة ، هذا الغزو الذى يتحرج منه المسلمون الجدد ، وفى مكة بيت الله الحرام ومقام إسماعيل ، ومقدسات العرب وعزهم ، لابد من أن يصل إلى قلب كل جندى مسلم أن يكون الحب فى الله والبغض فى الله ، والولاء والبراء على أساس العقيدة لا على أساس القبيلة ، وكثيرون انضموا إلى الإسلام اليوم لأن رؤساءهم انضموا لذلك ، ولا يكفى هذا الدافع للبناء ، بل لابد من الولاء للعقيدة الجديدة .

٥ ـــ ومما يؤكد هذا المعنى أن رواية البخارى تذكر أن الآية الأولى فقط هى التي نزلت بسبب حادثة حاطب ، أما بقية السورة سوى آيتين منها كلها تعالج هذه الظاهرة ، وتقوم بهذه التربية وتمضى لتوضح مفهوم المفاصلة الشعورية الكاملة بين المؤمنين والكافرين . فالآيات تمضى لتعمق هذه المعانى فى نفوس الجيل الإسلامى الجديد .

يجب ألا ننسى أننا على أبواب فتح مكة ، وأن الجيش الإسلامى الذى تحرك نحوها هو عشرة آلاف مقاتل ، بينما كان فى خيبر ألفين فقط . إذن نحن أمام خمسة أضعاف الجيش الإسلامي ، فلابد أن تكون التعليمات جاهزة ، وعملية البناء التربوى مستمرة ، إنها اتكأت على حادثة حاطب فقط ، لتكون الصورة حسية واضحة فى أخطارها التى يمكن أن تقع لو استجاب أحد لنوازع نفسه ، أو ماله أو عشيرته . وراح العرض القرآنى فى تسع آيات متتالية ، يشرح ويوضح ويأتى بالأمثلة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه ، وأن عليهم جميعاً أن يكونوا مثلهم :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ .

٦ ــ واختيار الحديث عن إبراهيم والذين معه وأنهم هم الأسوة الحسنة ، ذو أهمية بالغة جداً ، فهو هدم لكل مقولة قريش التى يزعمون فيها أنهم على ملة إبراهيم وإسماعيل ، لقد عادى إبراهيم قومه لشركهم ، وقال مع المؤمنين معه لقومهم : **﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾** .

ولابد أن يكون موقف المسلمين جميعاً – موقف محمد والذين معه من قريش – هو الموقف الأصيل مثل موقف إبراهيم والذين معه من قومهم ، فقوم محمد قريش ، وقوم إبراهيم يعبدون من دون الله ، فلابد أن يقال لهم ابتداء : **﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾** ، فتتم بذلك المفاصلة على أساس العقيدة ، ويتبع ذلك انتهاء أن يكون القلب فى حبه وبغضه تبعاً للعقيدة : **﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾** .

وبذلك يحس المسلم الذى حضر إلى المدينة ليمضى إلى غزو مكة بالتحرر الكامل من كل رابطة ، إلا رابطة العقيدة ، حتى لو صدرت له الأوامر الآن من رئيس عشيرته

حيث جاء بتوجيهين : أن يعود إلى مرابط قبيلته ، أو يكف عن غزو مكة ، فسوف يستعصى على هذه الأوامر ، بعد أن أشرق قلبه بالإيمان بالوحدانية والرسالة .

لقد كانت رسل رسول الله ﷺ قد مضت إلى أشجع ومزينة وجهينة وغفار بأن يكونوا مع أول رمضان بالمدينة .

(قال ابن عقبة وابن إسحاق ، ومحمد بن عمر وغيرهم : لما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى مكة ، بعث قتادة بن ربعى إلى بطـن إضم ، ليظنَّ الظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، وألا تذهب بذلك الأخبار ، وأبان رسول الله ﷺ المسير إلى قريش ، وأرسل إلى أهل البادية ، ومن حولهم من المسلمين يقول لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » ، وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ)[1] .

وعند محمد بن عمر ، قال : (حدثنى سعيد بن عطاء بن أبى مروان عن أبيه ، عن جده ، قال : أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ،.وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ جندباً ورافعاً ابني مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رحضة وأبا رهم كلثوم بن الحصين إلى بنى غفار وضمرة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونُعيم بن مسعود ، وبعث إلى مزينة بلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المُزنى ، وبعث إلى بنى سليم الحجاج بـن علاط السُلمى ثم البهزى ، وعرباض بن سارية ، وبعث إلى بنى كعب ابن عمرة بشر بن سفيان وبُديل بن ورقاء)[2] .

فقد بعث ﷺ لكل قبيلة أبناءها من الصحابة المهاجرين المقيمين فى المدينة يدعوهم للحضور إلى المدينة .

لقد كانت دورة تربوية مكثفة تمت خلالها أحداث هامة خلال العشر الأول من رمضان ، وقد شهدت الآلاف الوافدة ، حادثة حاطب رضى الله عنه ، وتلقت سورة الممتحنة بكل ما فيها من أحكام وأوامر ونواهٍ لابد من تبينها والتحرك على ضوئها

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٣٢٠ . (٢) المغازى للواقدى /٢ / ٧٩٩ .

قبيل الغزوة .

٧ ـــ ولابد أن نشير أخيراً من خلال أجواء هذه السورة الكريمة إلى أنها جاءت على أعقاب سورة الفتح ، سورة الفتح التى ختمت بالصورة الوضيئة الفريدة الخالدة :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[1] .

هذه الصورة الوضيئة الخالدة ، التى تتحدث عن المجتمع الإسلامى الملتحم المتراص الذى تكوَّن من المهاجرين والأنصار ، تأتى عقبه هذه الصورة :

﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

الصورتان متباعدتان بين الآية الأخيرة من سورة الفتح ، والآية الأولى وما تلاها من سورة الممتحنة .

وهذا التباعد ناشئ عن الأعداد الضخمة الجديدة التى جاءت إلى المجتمع الإسلامى الذى استوى ناضجاً قوياً ملتحماً بشهادة الله ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون الخطيئة من أبناء مجتمع بدر والحديبية ، فيتم تشخيصها ابتداءً من رسول الله ﷺ ، ويعقِّب الله تعالى عليها فى آياته ، فتتلقى هذه الأجيال الجديدة تعاليم الإسلام وقيمه ومقوماته لأول مرة ، وتقوم القاعدة الصلبة من مجتمع بدر والحديبية فى عملية التربية الدائبة الدائمة المستمرة للأجيال الجديدة على ضوء التعليمات القرآنية والتوجيهات النبوية ، والأحداث التى تلتهب فى الساحة وتتفاعل معها النفوس والشخصيات ، وتُبنى الأفكار والمشاعر والقيم لهذه الأمداد القادمة من البادية ومن حول المدينة من الأعراب .

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾[1] .

وسنعرض ما وسعنا الاختصار لنصر الله والفتح العظيم الذى تم فى مكة :

١ ـ الاعتداء على حلفاء النبى ﷺ :

فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول ﷺ وشرط لهم أنه « من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ مؤمنها وكافرها ، فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الديل أحد بنى بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً بأولئك الإخوة ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى قومه حتى بيّت خزاعة على الوتير – ماء لهم – فاقتتلوا ، وردفت قريش بنى الديل بالسلاح ، وقوم من قريش أعانت خزاعة بأنفسهم ، مستخفين بذلك حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فقال قوم نوفل : اتق الله ولا تستحل الحرم ، فقال : لا إلٰه لى اليوم ، والله يا بنى كنانة إنكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون فيه ثأركم ؟ فقتلوا رجلاً من خزاعة ، ولجأت خزاعة إلى دار بُدَيل ابن ورقاء الخزاعى ، ودار رافع مولى خزاعة .

فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ، كان ذلك نقضاً للهدنة التى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى ، فقدم على النبى ﷺ فى طائفة مستغيثين به ، فوقف عمرو عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهري الناس فقال :

---

(١) سورة النصر .

يارب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثمتَّ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصــر رسول الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكـدا ... وجعلوا لى فى كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهــم أذل وأقــل عــددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلـونا ركعـاً وســجدا
فانصر ، هداك الله نصراً أيِّدا

فقال رسول الله ﷺ : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء . فقال : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب – بنى خزاعة – ثم قدم بديل بن ورقاء فى نفرٍ من خزاعة على النبى ﷺ فأخبروه ، وقال رسول الله ﷺ : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة » .

٢ ــ أبو سفيان فى المدينة :

وكان القوم لما كانت الوقعة خرجوا من صبح ذلك اليوم فساروا ثلاثاً ، وخرجوا من ذلك اليوم إلى حيث لقيهم أبو سفيان ثلاثاً ، وكانت بنو بكر قد حبست خزاعة فى دارى بديل ورافع ثلاثة أيام يكلّمون فيهم وائتمرت قريش ، أن يخرج أبوسفيان ، فأقام يومين ، فهذه خمس بعد مقتل خزاعة ، وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة .

فدخل على ابنته أم حبيبة – زوج النبى ﷺ – فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أو بى عنه ؟! قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : يا بنية ، لقد أصابك بعدى شر ، فقالت : بل هدانى الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ؟ فقام من عندها ، فأتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال : يا محمد ، إنى كنت غائباً عن صلح الحديبية ، فاشدد

العهد وزدنا فى المدة ، فقال رسول الله ﷺ : « فلذلك جئت يا أبا سفيان؟»، قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل كان من قبلكم من حدث ؟ » ، قال : معاذ الله نحن عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل ، فقال رسول الله ﷺ : « فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل » ، فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول ، فلم يردَّ عليه شيئاً .

فذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فكلمه وقال : تكلّم محمداً أو تجير أنت بين الناس ، فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ...

فأتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر . فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ !! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله ، وماكان منه متيناً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله ، فقال أبو سفيان : جزيت من ذى رحم شرا .

فأتى عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال : إنه ليس فى القوم أحد أقرب رحماً منك ، فزد فى المدة ، وجدد العهد ، فإن صاحبك لا يردّه عليك أبداً ، فقال عثمان: جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى علياً رضى الله عنه فقال : يا علىّ ، إنك أمس القوم بى رحماً ، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلّمه فيه .

فأتى سعد بن عبادة رضى الله عنه فقال : يا أبا ثابت ، أنت سيِّد هذه البحيرة ، فأجر بين الناس ، وزد فى المدة ، قال : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، وما يجير أحد على رسول الله .

فأتى أشراف قريش والأنصار فكلهم يقول : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، ما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

فلما أيس مما عندهم دخل على فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، والحسن غلام يدب بين يديها فقال : يا بنت محمد ، هل لك أن تجيرى بين الناس ؟ فقالت : إنما أنا امرأة ، وأبت عليه ، فقال : مرى ابنك هذا – أى الحسن بن على – رضى الله

عنهما فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى اخر الدهر قالت ، والله ما بلغ ابنى ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

فقال لعلى : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى ، قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة قال : صدقت ، وأنا كذلك ، قال : فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ،قال: أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد ، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، قال رسول الله ﷺ : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » ، ثم ركب بعيره وانطلق .

وكان قد احتبس وطالت غيبته ،وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة : قالوا : والله إنا نراه قد صبأ ، واتبّع محمداً سراً وكتم إسلامه .

فلما دخل على هند امرأته ليلاً قالت : لقد احتبست حتى اتهمك قومُك ، فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل . ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من امرأته . فقالت : ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر وقال : لم أجد إلا ما قال لى علىّ ، فضربت برجلها فى صدره وقالت :

قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند إساف ونائلة ، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى ، إبراء لقريش مما اتهموه به ، فلما رأته قريش ، قاموا إليه فقالوا : ما وارءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد ، أو زيادة فى مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد ؟ فقال : والله لقد أبى علىّ — وفى لفظ : لقد كلمته ، فوالله ما ردَّ علىَّ شيئاً — وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ، وقد كلمت علّية أصحابه فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرموننى بكلمة واحدة ، وما رأيت قوماً أطوع لملك عليهم منهم له ، إلا أن علياً لما ضاقت بى الأمور قال : أنت سيد بنى كنانة ، فأجر بين الناس ، فناديت بالجوار ، فقال محمد : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » لم يزدنى .

قالوا : رضيت بغير رضى ، وجئت بما لا يغنى عنك ولا عنا شيئاً ، ولعمر

الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهين ، ما زاد على أن لعب بك تلعباً . قال : والله ما وجدت غير ذلك .

٣ ــ مشاورة أبي بكر وعمر :

روى ابن أبي شيبة عن محمد بن الحنفية عن أبي مالك الأشجعي رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ من بعض حجره فجلس عند بابها ، وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ، فقال : « ادع لى أبا بكر » ، فجاء فجلس أبو بكر بين يديه فناجاه طويلاً ثم أمره فجلس عن يمينه ، ثم قال : « ادع لى عمر » ، فجاء عمر فجلس إلى أبي بكر فناجاه طويلاً ، فرفع عمر صوته فقال : يا رسول الله ، هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنك كذاب ، وأنك كاهن ، وأنك مفتر، ولم يدع عمر شيئاً مما كان أهل مكة يقولونه إلا ذكره ، فأمره أن يجلس إلى الجانب الآخر ، فجلس أحدهما عن يمنيه ، والآخر عن شماله ، ثم دعا الناس فقال : « ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين » فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأقبل بوجهه إلى أبي بكر فقال : « إن إبراهيم كان ألين فى الله تعالى من الدهن اللّين » ، ثم أقبل على عمر فقال : « إن نوحاً كان أشد فى الله من الحجر . وإن الأمر أمر عمر ، فتجهزوا وتعاونوا » فتبعوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر ، إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ ، قال : قال لى : « كيف تأمرنى فى غزو مكة ؟ » قلت : يا رسول الله هم قومك حتى رأيت أنه سيطيعنى ، ثم دعا عمر فقال عمر : هم رأس الكفر حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه ، وايم الله وايم الله ، لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة ، وقد أمركم بالجهاد ليغزو مكة .

٤ ــ خروجه ﷺ قاصداً مكة :

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى : خرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من رمضان ، ونادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر ...

وقدم العباس على رسول الله ﷺ مسلماً فلقيه بالجحفة[1] ، فأرسل ثقله إلى

---

(١) الجحفة : بمنتصف الطريق بين مكة والمدينة .

المدينة وسار مع رسول الله ﷺ . قال البلاذرى : وقال رسول الله ﷺ : « هجرتك يا عم آخر هجرة ، كما أن نبوتى آخر نبوة » .

وروى مسلم ، والترمذى عن جابر ، والشيخان وأبو داود والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة فى غزوة الفتح فى رمضان يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد[1] بين عُسفان وقديد . بلغه أن الناس شقَّ عليهم الصيام وقيل له : إنما ينظرون ما فعلت ، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من لبن أو ماء .. فشرب فأفطر ، فناوله رجلاً إلى جنبه فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام ، فقال : « أولئك العصاة أولئك العصاة » ، ولم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال : سافرنا مع رسول الله ﷺ ، ونحن صيام ، فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم » ، وكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إنكم مصبحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فافطروا » ، فكانت عزيمة فأفطرنا .

٥ ــ أبو سفيان بين يدى المسلمين :

روى الطبرانى عن أبى ليلى رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران[2] فقال : « إن أبا سفيان بالأراك فخذوه » فدخلنا وأخذناه ...

وروى إسحاق بن راهويه بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، لما نزل مرَّ الظهران ، رقَّت نفس العباس لأهل مكة فقال : واصباح قريش ، والله لئن دخلها رسول الله ﷺ عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. فوالله إنى لفى الأراك ألتمس ما خرجت إليه إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء . وهما يتراجعان . وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، فقال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال العباس : فعرفت صوت أبى سفيان ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : لبيك يا أبا الفضل ، مالك

(١) الكديد : على بعد ٩٠ كم من المدينة .
(٢) مر الظهران : على بعد ٢٢ كم من مكة .

فداك أبي وأمي !! وعرف صوتي فقلت : ويلك !! هذا رسول الله ﷺ في عشرة آلاف ، فقال : واصباح قريش والله ، بأبي أنت وأمي فما تأمرني هل من حيلة ؟ قلت : نعم ، اركب عجز هذه البغلة ، فأذهب بك إلى رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فإنه والله إن ظُفِر بك دون رسول الله ﷺ لتُقتلن ، فركب خلفي ، فرجع صاحباه .

قال العباس : فجئت بأبي سفيان ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ! فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فرأى أبا سفيان خلفي ، فقال : أي عدو الله !! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد - ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة بالرجل البطيء ، فاجتمعنا على باب قبة النبي ﷺ ، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عمر على أثرى ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ،إني قد أجرته ، ثم التزمت رسول الله ﷺ ، فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه فقلت : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ، فقال : مهلاً يا عباس - وفي لفظ : يا أبا الفضل - فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم .... فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبح فائتني به » .

وعن ابن أبي شيبة عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : فلما أصبحوا قام المسلمون إلى طهورهم فقال أبو سفيان : ما للناس أمروا فيَّ بشيء ؟ قال : لا ، ولكنهم قاموا إلى الصلاة ، فأمره العباس فتوضأ وذهب به إلى رسول الله ﷺ فلما دخل رسول الله الصلاة ، كبر فكبروا ثم ركع فركعوا ثم رفع فرفعوا ثم سجد فسجدوا ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم طاعة ، قوم جمعهم من هنا وهنا ولا فارس الأكام ، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له ، يا أبا الفضل ، أصبح ابن

أخيك والله عظيم الملك ، فقال العباس : إنه ليس بملك ، ولكنها النبوة ، قال : أو ذاك ؟ قال العباس : فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟! » قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك: إنه لو كان مع الله إلـه لقد أغنى عنى شيئاً بعد ، لقد استنصرتُ إلـهى ، واستنصرت إلـهك . فوالله ما لقيتك من مرة إلا نُصرت على فلو كان إلـهى محقاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك ، فقال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك بأن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك ! أما هذه ففى النفس منها شيء حتى الآن ، فقال العباس : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق فقال : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعند ابن عقبة : قال أبو سفيان وحكيم بن حزام : يا رسول الله ، جئت بأوباش الناس من يُعرف ومن لا يُعرف إلى أهلك وعشيرتك ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم أظلم وأفجر ، قد غدرتم بعهد الحديبية وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله تعالى وأمنه » ، فقال حكيم وأبو سفيان : صدقت يا رسول الله . ثم قالا : يا رسول الله ، لو كنت جعلت جدك ومكيدتك لهوازن ، فهم أبعد رحماً ، وأشد عداوة لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأرجو أن يجمع الله لى ذلك كله : فتح مكة ، وإعزاز الإسلام بها ، وهزيمة هوازن ، وغنيمة أموالهم وذراريهم ، فإنى أرغب إلى الله تعالى فى ذلك »

قال ابن عقبة : قال أبو سفيان وحكيم بن حزام : يا رسول الله ادع الناس بالأمان : أرأيت إن اعتزلت قريش وكفت أيديها آمنون هم ؟ فقال رسول الله ﷺ: « نعم » ، قال العباس: قلتُ : يا رسول الله !! قد عرفت أبا سفيان وجه الشرف والفخر ، فاجعل له شيئاً .

وعند ابن أبى شيبة : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب السماع – يعنى الشرف – فقال : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » – ودار أبى سفيان بأعلى مكة – فقال ، وما تسع دارى ؟ زاد ابن عقبة : « ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن » – ودار حكيم بأسفلها – ومن دخل المسجد فهو آمن » فقال أبو سفيان : وما يسع المسجد ؟ . قال « ومن أغلق بابه فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : هذه واسعة .

قال ابن عقبة: فلما توجهوا ذاهبين قال العباس : يا رسول الله ، إنى لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه فاردده حتى يفقُه ، ويرى جنود الله تعالى معك .

وروى ابن أبى شيبة : أن أبا سفيان لما ولى ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، لو أمرت أبا سفيان فحبس على الطريق !

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : إن أبا سفيان لما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ للعباس : « احبسه بمضيق الوادى » . قال ابن عقبة ومحمد بن عمر : فأدركه العباس فحبسه ،فقال أبو سفيان: أغدراً يا بنى هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ، ولفظ ابن عقبة : إنا لسنا بغدر ، ولكن أصبح حتى تنظر جنود الله ، وإلى ما أعد الله للمشركين . قال ابن عقبة: فحبسهم بالمضيق دون الأراك إلى مكة حتى أصبحوا .

وروى ابن عساكر عن عطاء قال : لا أحسبه إلا رفعه لابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ليلة قربه من مكة فى غزوة الفتح : « إن بمكة لأربعة نفر أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم فى الإسلام » قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » .

قال ابن عقبة : وأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : لتصبح كل قبيلة ، قد أرحلت ، ووقفت مع صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعدة ، فأصبح الناس على ظهر ، وقدَّم بين يديه الكتائب قالوا : ومرت القبائل على قادتها ، والكتائب على راياتها .

قال محمد بن عمر : وكان أول من قدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى بنى سُليم ، وهم ألف ومعهم لواءان وراية ... فلما مروا بأبى سفيان : كبر ثلاث تكبيرات ، ثم مضوا ، فقال أبو سفيان : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فقال : هذا خالد ابن الوليد، قال : الغلام ؟ قال : نعم قال : ومن معه ؟ قال : بنو سُليم ، قال : ما لى ولبنى سليم . ثم مرَّ على أثره الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وأفناء العرب ، ومعه راية سوداء ، فلما مروا بأبى سفيان كبروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال : الزبير بن العوام ،قال: ابن أختك ؟ قال : نعم ، ثم مرت بنو غفار يحمل رايتهم أبو ذر ، ويقال – إيماء بن رمضة .. فلما حذوه كبروا ثلاثاً ،فقال: من هؤلاء ؟ قال :

بنو غفار ، قال : ما لى ولبنى غِفار ؟ . ثم مرت أسلم فى أربعمائة فيها لواءان .. فلما حاذوه كبروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : أسلم قال : ما لي ولأسلم ؟ ثم مرت بنو كعب بن عمرو في خمسمائة ... فلما حاذوه كبروا ثلاثاً . فقال : من هؤلاء ؟ قال العباس : بنو عمرو بن كعب إخوة أسلم ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد . ثم مرت مزينة فى ألف فيها ثلاثة ألوية ومائة فرس .. فلما حاذوه كبروا ثلاثاً ، قال : من هؤلاء ؟ قال العباس : مزينة ، قال : ما لى ولمزينة ؟ قد جاءتنى تقعقع من شواهقها . ثم مرت جهينة فى ثمانمائة ، فيها أربعة ألوية فلما حاذوه كبروا ثلاثاً ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : جهينة قال : ما لى ولجهينة ؟ . ثم مرت كنانة بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثى ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً ، فقال : من هؤلاء ؟ قال العباس : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله ! هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم ، قال العباس : قد خار الله تعالى لكم فى غزو محمد ﷺ ، أتاكم أمنكم ، ودخلتم فى الإسلام كافة . ثم مرت أشجع وهم آخر من مر وهم ثلاثمائة ، معهم لواءان ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً قال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : هؤلاء أشجع ، قال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ، قال العباس ، وأدخل الله تعالى الإسلام فى قلوبهم ، فهذا فضل من الله ، ثم قال أبو سفيان : أبعدُ ما مضى محمد ؟ فقال العباس : لا ، لم يمض بعد ، لو أتت الكتيبة التي فيها محمد رأيت فيها الحديد والخيل والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، قال : ومن لى بهؤلاء طاقة ؟ وجعل الناس يمرون كل ذلك يقول أبو سفيان : ما مر محمد ؟ فيقول العباس : لا ، حتى طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء التى فيها المهاجرون والأنصار ، وفيها الرايات والألوية ، مع كل بطن من بطون الأنصار لواء وراية ، وهم فى الحديد لا يُرى منهم إلا الحدقة ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه فيها زجل بصوت عالٍ وهو يزعها ويقول : رويداً حتى يلحق أولكم آخركم .

يقال : كان فى الكتيبة ألفا دارع ، وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة ، فهو أمام الكتيبة ، فلما مَّر سعد براية رسول الله ﷺ ، نادى أبا سفيان فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ... وفى الصحيح عن عروة أن كتيبة الأنصار جاءت مع سعد بن عبادة ومعه الراية قال : ولم يُر مثلها ، ثم جاءت

كتيبة هى أقل الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية رسول الله ﷺ مع الزبير . قال فى العيون : كذا وقع عند جميع الرواة ، ورواه الحميدى فى كتابه : هى أجل الكتائب وهو الأظهر .. فلما مر رسول الله بأبى سفيان . قال : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : كذا وكذا . وإنى أنشدك الله فى قومك . فأنت أبر الناس ، وأوصل الناس ، وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم تكسى فيه الكعبة ،اليوم يوم أعز الله قريشاً » .

وقال ضرار بن الخطاب الفهري - فيما ذكره محمد بن عمرو الأموى فى مغازيه - شعراً يستعطف رسول الله ﷺ على أهل مكة حين سمع قول سعد .

وعند ابن إسحاق وعند ابن عساكر : أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ بهذا الشعر ؛ فكأن ضراراً أرسل به المرأة ليكون أبلغ فى انعطاف رسول الله ﷺ على قريش :

يا نبى الهدى إليك لجا ... حىُّ قريش ولات حين لجاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأر ... ض وعاداهم إلٰه السماء
والتقت حلقتا البطان على القو ... م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهـ ... ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيـ ... ـظ رمانا بالنسر والعواء
وغِر الصدر لا يهم بشىء ... غير سفك الدماء وسبى النساء
قد تلظى على البطاح وجا ... ءت عنه هند بالسوأة السوآء
إذ ينادى بذل حى قريش ... وابن حرب بذا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى ... يا حماة الأديار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بُهمْ الخز ... رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريـش ... فقعة القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإن أسد الأسـ ... ـد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ ... ـر سكوناً كالحية الصماء

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فنزع اللواء من يده ، وجعله إلى ابنه قيس

ابن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه .

ويقال : إن رسول الله ﷺ أمر علياً فأخذ الراية فذهب بها إلى مكة حتى غرزها عند الركن .

قال الحافظ : والذى يظهر فى الجمع أن رسول الله ﷺ أرسل علياً لينزعها ، وأن يدخل بها ، ثم خشى تغير خاطر سعد ، فأمر بدفعها لابنه قيس ، ثم إن سعدا خشى أن يقع من ابنه شىء يكرهه رسول الله ﷺ فسأل رسول الله أن يأخذها ، فحينئذ أخذها الزبير ، ويؤيد ذلك ما رواه البزار بسند على شرط البخارى عن أنس رضى الله قال : كان قيس فى مقدمة رسول الله ﷺ لما قدم مكة ، فكلم سعد النبى ﷺ أن يصرفه عن الموضع الذى هو فيه مخافة أن يقدم على شىء ، فصرفه عن ذلك .

وفى حديث عروة عند الطبرانى : قال العباس : فقلت لأبى سفيان بن حرب : انج ويحك ، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ ، فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل مكة من كداء فصرخ بأعلى صوته :

يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، أسلموا تسلموا ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ ! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فقامت إليه هند بنت عتبة زوجته فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبح من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان :

ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به[1] .

* * *

١ ـ لقد كانت خزاعة طيلة حياتها مع النبى ﷺ ، وكانت عيبة نصح له مسلمهم ومشركهم ، وانتظرت الفرصة المواتية لتعلن انضمامها للنبى ﷺ فى الحديبية ، وقد نبت هذا الحلف على حلف جد النبى ﷺ عبد المطلب ، وجاؤوا بنص الكتاب إلى رسول الله ﷺ : (هذا حلف المطلب بن هاشم لخزاعة ، إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأى ، غائبهم مقر بما قاضى عليه شاهدهم ، إن بيننا وبينكم

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ، مقتطفات / ٥ / ٣٠٤ - ٣٣٨ .

عهود الله وعقوده وما لا ينسى أبداً اليد واحدة ، والنصر واحد ما أشرف ثبير ، وثبت حراء مكانه ، وما بلّ بحر صوفة، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمدا ، فقال رسول الله ﷺ :

« ما أعرفنى بخلقكم وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف ، فكل حلف كان فى الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا حلف فى الإسلام »[1] .

ولم يكن دخول بكر مع قريش إلا مضادة لخزاعة لما بينهما من ثارات ، والغريب أن قريشاً بكل قياداتها تواطأت على نصر بنى بكر وبنى كعب بن لؤى ، وبنى عامر ابن لؤى ، والذين وقعوا العقد وشهدوا عليه ساهموا فى هذا الغدر ، وحسبوا أن محمداً ﷺ لن يعلم بالأمر ، وحضروا متنقبين مستنكرين إلا أبا سفيان بن حرب الذى غدا أخبر الناس برسول الله ﷺ ، فلم يُعلم بذلك أو أعلم ، ورفض ذلك وكذلك سهيل بن عمرو ، وما كادوا ينتهون من حماقتهم حتى أحسوا بجريمتهم وأسقط فى أيديهم ، وراحوا يقلبون الأمور لمعالجة الآثار السيئة للموقف المشين .

وبالتغلغل لأعماق المجتمع المكى نلاحظ تضارب الآراء فى اتخاذ الموقف المناسب :

فسهيل بن عمرو يدعو للتبرؤ من حلف بنى بكر ثأراً لأخواله خزاعة إذ يقول له شيبة :

حفظت أخوالك وغضبت لهم . ويُرفَضُ هذا الاقتراح .

وشيبة بن عثمان البدرى يقول : ندى قتلى خزاعة فهو أهون علينا .

فيقف التيار المتحمس الذى يمثله قرظة بن عبد عمرو ليقول :

لا والله لا يودَوْن ولا نبرأ من حلف بن نفاثة ، ولكننا ننبذ إليه على سواء .

ويواجهه التيار العاقل الذى يمثله أبو سفيان ، وذلك بعد معاناته عند قيصر الروم ، وكيف أن ملوك بنى الأصفر صارت تهاب محمداً ليقول :

ليس هذا بشىء ، وما الرأى إلا جحد هذا الأمر ، أن تكون قريش دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة ، وإنه قطع قوم بغير رضى منا ولا مشورة فما علينا .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٠٤ .

وترجح هذا الرأى ، الذى تم على ضوئه تكليف أبى سفيان بمهمته .

وكان قدوم وفد خزاعة إلى المدينة فى تظاهرة دعائية ضخمة ، وكانت امتحاناً لقوة هذا الحلف بين رسول الله ﷺ وخزاعة ، وعلى ضوء هذا الموقف سيكون للقبائل العربية موقف من محمد ، فقد أصبحت المواجهة على وشك الوقوع بين الفريقين ، ولو مضى الأمر دون ثأر ، فسترتفع أسهم قريش عند العرب ، والمخبرون موجودون فى كل مكان لينقلوا الأخبار والآراء والمواقف ، ووفد يضم فى أعضائه أربعين راكباً ويضم الشاعر الفحل الذى قدَّم هذا الغدر . وكأنه رأى عين ، من خلال شعره الذى أنشده فى المسجد ، وكل ما تم هو قول الرسول ﷺ تلك الكلمة الحاسمة القاطعة :

« نصرت يا عمرو بن سالم » .

٢ — وحين نرى ذلك الجو المتفكك المضطرب فى قريش ، وكيف انتهى رأيهم فى إقرار أبى سفيان على رأيه :

(هذا والله أمر لم أشهده ، ولم أغب عنه ، لا يحمل هذا إلا على ، ولا والله ما شوورت فيه ، ولا هويته حين بلغنى ، والله ليغزونا محمد إن صدقنى ظنى ، وهو صادق ، وما بد من آتى محمداً فأكلمه أن يزيد فى الهدنة ويجدد العهد) .

وحين نرى شخصية أبى سفيان بكل ذكائه ودهائه يدرك طبيعة مهمته ، ويلتقى مع بديل بن ورقاء الخزاعى ، ويكشف أنه جاء محمداً ﷺ ، حين فتَّ أبعار إبلهم فوجد فيها نوى تمر يثرب فيقول : أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً ، وبذلك يقدم على تصور يؤكد له أن خبر الغدر قد بلغ محمداً ﷺ ، فلابد له من اتخاذ الحيطة والحذر التامين للوصول إلى الهدف .

لم يكن أبو سفيان – فى مستوى التخطيط البشرى – بأدنى من المسلمين أبدا ، ولكن الشيء الذى لم يستطع أن يصل إلى أبعاده وأعماقه هو طبيعة هذا المجتمع المسلم الذى قام فى هذه الأرض ، وعظمة هذا المجتمع والولاء فيه لله ورسوله .

لقد نزل أول مانزل على ابنته ، وهو يحسب أنه دخل إلى قلب بيت النبى ﷺ ، ولا غرو أن يزور ابنته ، ويتعرف بذلك على كل الأسرار والأخبار للتحركات النبوية ، ففى تصوره أن هذا البيت هو بمستوى السفارة له فى المدينة ، وكيف لا يكون ذلك

وفيه ابنته وأقرب الناس إليه .

وكان سيد القادة ﷺ يعرف من أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ويعرف حقيقة الإيمان الذى ملأ كيانها رضى الله عنها ، فلم يصدر أمره بمنع لقائها مع أبيها خشية أن تلين قناعتها معه ، أو يهتز بعض قناعاتها من سيد قريش وداهيتها أبى سفيان ، حتى لم تمل لنا كتب السير ، ولو تحذيراً بسيطاً لها من هذا اللقاء ، وتوعية لها لذلك ، فأى ثقة فى هذا الوجود أعظم من هذه الثقة ، أن يرضى عليه الصلاة والسلام فى دخول أعدى العدو على بيته ، ويلتقى مع زوجه دون حرج ؟! .

وبين هذين التصورين :

— تصور أبى سفيان الذى سيبذل قصارى جهده ، ومنتهى دهائه لاكتشاف كل الأخبار والأسرار من ابنته .

— وتصور الرسول الأعظم ﷺ وثقته بزوجه بحيث تركها تلتقى مع أبيها بكامل حريتها ورأيها .

ماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن خرج أبو سفيان من بيت ابنته محطم النفس ، ممتلىء الغيظ ، فلم يلق عندها إلا الإهانة حتى لتطوى فراش رسول الله ﷺ عنه ، وتتجرأ أكثر ، فتهاجمه ، وتهاجم شركه ، وتدعوه إلى الدخول فى الإسلام . وكان ارتفاع إيمانها وعظمة ولائها تحتاجان إلى شىء من الكف ، حفاظاً على حق والدها عليها على شركه وعدائه .

هذا النموذج الذى واجهه أبو سفيان منذ الخطوة الأولى فى تحركه الدبلوماسى ، هو الذى التقى معه فى كل خطواته ، وفى كل محاولات لقائه مع القيادات الإسلامية ، فقد انتهت مهمته عملياً منذ لقائه مع رسول الله ﷺ :

— يا محمد ، إنى كنت غائباً عن صلح الحديبية ، فاشدد العهد وزدنا فى المدة .

— « فلذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ » .

— نعم .

— « هل كان من قبلكم من حدث ! » .

ـــ معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل .

ـــ « فنحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية ولا نغير ولا نبدل » .

فماذا بقى لأبى سفيان بعد هذا الجواب ؟!

كانت المحاولة الثانية أن يلتقى القيادات الإسلامية جميعاً بلا استثناء فى محاولة لفتح الأبواب المغلقة ، فلو كان الأمر فى مكة لبرزت الصراعات والأهواء والعصبيات على أعنف ما يكون ، أما هنا فقد فات أبا سفيان أنه يتحرك فى مجتمع ربانى ، صاغه سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام .

إن اللهجة وإن اختلفت مع أبى سفيان عنفاً أو رقة وليناً ، لكن المضمون واحد : لا يجير أحد على رسول الله ﷺ . التقى القادة الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلى ، أقرب القرابة وأعدى القرابة ، والموقف واحد ، والأبواب موصدة .

وكانت المحاولة الثالثة ، وكانت جرأة نادرة فى الحقيقة ، أن يقرع باب الأنصار لعله يفتح له مع أسيد بن حضير أو سعد بن عبادة ، ولكن دون جدوى ، فهو مجتمع مستعصٍ على الولاء لغير الله ورسوله . ولا يجير على رسول الله ﷺ أحد ، والكل يعرفون هوى رسول الله ﷺ ، فلن يقدم أحد على التفكير فى الحوار معه فيما يهواه ، عليه الصلاة والسلام .

كل هذا كان يتم دون أجهزة المخابرات ودون المراقبة على الأنفاس ، ودون البلاغات المحذرة والمهددة ، دون هذا كله ، إنه يصطدم بجدار صلب ، لا يتفتت ، فلم يركوة واحدة يشهد خيط ضوء منها .

كانت المحاولة الرابعة الأجرأ ، مع من ؟ مع بنت رسول الله ﷺ ، بعد أن فشل مع ابنته أم حبيبة ، فلعل جاه فاطمة عند رسول الله ﷺ أعظم من جاه ابنته .

فراح يرجوها أن تضع شفاعتها بين يدي أبيها ، ويعلم حب أبيها لها .

والموقف واحد ، وطالب حتى بشفاعة الغلام الصغير الحسن ، فلا يرد جاهه عند جده .

وقالت فاطمة : لم يبلغ ابنى هذا أن يجير بين الناس .

ولم ينس أبو سفيان – وهو الخبير بكل الأحداث والأشخاص – أن يذكر فاطمة

رضى الله عنها بإجارة أختها زينب لأبى العاص بن الربيع :

ــ أجيرى بين الناس .

ــ إنما أنا امرأة .

ــ إن جوارك جائز ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع فأجاز ذلك محمد .

ــ ذلك إلى رسول الله ﷺ ! وأبت ذلك عليه .

ــ مرى أحد بنيك يجير بين الناس .

ــ إنهما صبيان وليس مثلهما يجير)[1] .

إن أبا سفيان يعلم أنه يجير بين المسلمين أدناهم ، ولكن هذا فى أمر شخصى ، أما الأمر العام فهو لرسول الله ﷺ ، ولن يقبل مسلم أن يتحدث فى هذا الموضوع – مجرد حديث – بعد أن عزم رسول الله ﷺ على الغزو .

وبعد أن جاب أبو سفيان المدينة كلها ومع كل قياداتها ، عاد إلى على رضى اللّه عنه ابن عمه فهما من بنى عبد مناف ، واستنصحه :

ــ إن الأمور قد اشتدت علىَّ فانصحنى .

ــ والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة .

ــ صدقت وأنا كذلك .

ــ فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك .

ــ أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟

ــ لا والله ولكن لا أجد لك غير ذلك .

وقام أبو سفيان وأجار بين الناس ثم دخل على رسول الله ﷺ وقال : يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، فقال له : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

وكان هذا الرد من أعنف الردود عليه ، فهو اتفاق من طرف واحد ، لم يقره عليه أحد .

ولم يستطع أبو سفيان رغم كل صلاته وعلاقاته أن يعرف شيئاً عن توجه محمد

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٧٩٣ .

ﷺ ، هل سيغزو مكة أم لا ؟ ورغم ترجيحه للغزو ، فلم يسمع كلمة واحدة فى أرجاء المدينة كلها عن ذلك .

وكان الجميع موقفهم هو موقف قائدهم عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى يظهرون به أمام أبى سفيان ، إن لم يكن هناك حدث ، فنحن على عهدنا ومدتنا .

وفى أقصى حماس المتحمسين وأقصى لين المعتدلين ، لم يجد أبو سفيان شيئاً يعطيه دليلاً على ترجيحه للغزو أو عدمه .

فأى مجتمع هذا الذى بناه عليه الصلاة والسلام ؟ وأى تربية هذه التى أنشأ بها هذا الجيل إمام المربين عليه الصلاة والسلام ؟

وكانت مهمة أبى سفيان قد فشلت فشلاً كاملاً ، عبَّر عن هذا الفشل هند بنت عتبة زوج أبى سفيان :

ولقد احتبست حتى اتهمك قومك فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل .

ولما أخبرها الخبر قالت : قُبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

وكان رأى قريش : (رضيت بغير رضى ، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئاً . ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهين ، ما زاد على أن لعب بك تلعباً) .

وفى الحقيقة ، ليس فشل أبى سفيان عن قلة دهاء ، أو ندرة ذكاء ، أو قلة خبرة ، ولكنه فشل أمام الإيمان الراسخ الذى لا يتزعزع ، والولاء الكامل ، والجنديةُ الخالصة لله تعالى ولرسوله .

٣ ــ ولن نترك أبا سفيان القائد العام لقريش ، فقد حمل العبء كله فى مواجهة الرسول ﷺ ، ولم يكن أحد أعمق منه غوراً فى التعامل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو الذى خرج ثانية يتحسس الأخبار ، خشية أن يغزوهم محمداً ، وتباد خضراء قريش ، وكان القدر أن التقى مع العباس رضى الله عنه فى بهيم الليل ، وتعارفا من خلال الصوت ، وقد راع أبا سفيان تلك النيران التى بمر الظهران وعلى مشارف مكة .

يقول بُديل بن ورقاء : هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

لقد كانت الحرب النفسية التى وجهها عليه الصلاة والسلام ضد قريش – ضمن خطة محكمة – تهدف إلى سقوط مكة بدون قتال ، فكان أن طلب عليه الصلاة والسلام من كل مسلم فى الجيش ، أن يشعل ناراً فى الليل .

فاشتعلت عشرة آلاف نـــار ومن ذا الذى يطيق هذه المواجهة ، مع أنه كان يكفى عشر ذلك للحاجة ، ولكنها الحرب النفسية ضمن الخطة النبوية ، لتسقط فى يد العدو ، وييأس من المواجهة .

ومن هذه الحرب النفسية كذلك : حبس أبى سفيان بمضيق الوادى ليرى جنود الله حيث تمر كالسيل الجارف لا يقف فى وجهها شيء ، فلا تسوّل له نفسه أن يجمع الجموع للمواجهة .

ومن هذه الحرب كذلك : حبسه فى رحل العباس حتى الصباح ، وإجراء هذا الحوار العظيم معه ، ليتخذ الموقف المناسب ويعلن إيمانه بالله :

(لقد استنصرت إلـٰهى ، واستنصرت إلـٰهك ، فوالله ما لقيتك من مرة إلا نصرت على ، فلو كان إلـٰهى محقاً وإلـٰهك مبطلاً لقد غلبتك) .

بينما تلكأ بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ ، فجاءه جواب العباس :

أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق .

ولكون الإسلام جاء بهذه الصيغة ، فقد حرص عليه الصلاة والسلام أن يريه جنود الله بمضيق الوادى .

٤ ــ لقد كان توجه الجيش الإسلامى إلي المعركة ذا هدفين واضحين ، **الأول** : فتح مكة ، **والثانى** : فتح القلوب العربية كلها فى الطريق من المدينة إلى مكة ، والاستعراض العسكرى للقوى الإسلامية فى الساحة العربية . وكانت التوجيهات :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان فى المدينة » .

وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ .

وكانت أشعار حسان بن ثابت تمثل الحرب الإعلامية المعلنة :

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تُجنَّ ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي سهيل بن عمرو حرها وعقابها
فلا تأمننّا يابن أم مجالدٍ[1] إذا احتُلبت صرفاً[2] وأعصل[3] نابها
ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها[4]

ومن التوجيهات : السماح بالفطر ابتداءً ، والأمر به انتهاء ، ليكون أقوى لهم على مواجهة العدو .

ومن التوجيهات : الأمر بالتجهيز وإعداد العدة الكافية .

ومع كل هذه التوجيهات ، فقد بقي الخط العام عدم إعلام المسلمين عن مكان الغزو .

والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف ، فهم يحبون أن يعلموا ، فجلس ﷺ أصحابه بالعرج وهو يتحدث فقال كعب ابن مالك : آتي رسول الله ﷺ ، فأعلم لكم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفا
فلست لحاضرٍ إن لم تروها بساحة داركم منها ألوفا
فننتزع الخيام ببطن وجٍ ونترك دورهم منهم خلوفا

فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بيّن لك رسول الله شيئاً ، ما ندري بم يُبدى بقريش أو ثقيف أو هوازن)[5] .

---

(١) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبي جهل . (٢) الصِّرف : اللبن الخالص .
(٣) أعصل : اعوج .
(٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٢١ . (٥) المغازى للواقدى / ٥ / ٨٠٢ .

لقد تربى هذا الجيل على الأدب مع قيادته ، وكم كان حريصاً على أن يعرف أين وجهته فى القتال ، وتضاربت أبيات حسان مع أبيات كعب ، بأيهن يبدأ ، حتى لا تنقل الأخبار إلى مكة ، وأقصى ما فكر به المسلمون للسؤال هو محاولة كعب هذه ، وجاء التبسم هو الجواب ، ومضى القوم تحت إمرة قائدهم عليه الصلاة والسلام ، ولا يدرون أين يتوجه ؟ وبم يبدأ ؟ بل فعل عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك ليزيد الأمر إبهاماً على قريش :

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن إضم[1] ، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار .

وبقيت الخطة النبوية ذاتها منذ ابتداء السير ، حتى وصل القديد فعقد الألوية وجعل الرايات ، وحتى هناك فلم يعرف أين يتوجه رسول الله ﷺ ، وهو على بعد أقل من مائة كيلو متر من مكة .

٥ ــ فى لقاء عمر وأبى سفيان والعباس رضى الله عنهم وقفة هامة ، فقد كان حرص عمر رضى الله عنه شديداً على قتل أبى سفيان ، كما كان حرص العباس رضى الله عنه على حمايته شديداً لذلك ، وفى سورة الانفعال لم يتمالك العباس رضى الله عنه أن يقول لعمر : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، وكان من الممكن لهذه الكلمة أن تشكل شجاراً عنيفاً أمام هذا الاتهام الخطير الذى يكيله العباس لعمر رضى الله عنهما ، والعباس حديث عهد بالإسلام – على الظاهر – فلم يمر عليه ساعات بعد فى الصف الإسلامى ، وهو يتهم عمر رضى الله عنه بالاندفاع وراء عصبته لبنى عدى ، وكان من الممكن لعمر أن يرد الصاع صاعين وهو من هو قِدماً وسابقة فى الإسلام ، ولكننا نجد أنفسنا أمام نموذج من الإيمان الخالص ينطق فيقول : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم .

وما بى إلا أن قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم .

---

(١) بطن إضم : ماء بين مكة واليمامة .

وهذه الدرجة العالية من التدرج والاستعلاء على النفس والذات ، هى التى ميزت الجيل الإسلامى كله ، فكان حب رسول الله ﷺ فوق حب النفس والمال والأهل والولد والناس أجمعين ، ومن حبه عليه الصلاة والسلام حب ما يحبه ، وبغض ما يبغضه .

٦ ـ ولا يفوتنا أن نقف عند انبهار أبى سفيان بعظمة الرسول ﷺ ، وهو يتوقع أن تضرب عنقه ، ولا يكلفه ذلك إلا تحرك شفتيه عليه الصلاة والسلام بذلك ، وحيث كان يتوقع الانتقام والثأر ، والاستعلاء ، إذ به يواجه بالدعوة إلى الله ورسوله قائلاً :

ـ « يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلٰه إلا الله ؟ » .
ـ بأبى أنت وأمى يا محمد ! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك .
ـ « يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » .
ـ بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك .

فهو أمام قمة البشرية التى تركت حرب عشرين عاماً معه ، وراحت تدعو هذا العدو اللدود إلى الله ورسوله ويعطيه عليه الصلاة والسلام ما يحب من الشرف : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ، لكن ليس على حساب الدين أو العقيدة ، فدخول مكة قائم لا محالة .

واستطاع أبو سفيان رضى الله عنه أن يقدِّم شيئاً لقومه يوم سمع قول سعد : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، ولجأ إلى رسول الله ﷺ يشكو سعداً إليه ، فنزع الراية من سعد إلى ابنه قيس ، وعاد يحذر قريشاً لتغلق عليها أبوابها ، وعندما يقف القائد العام ليعلن ذلك فهذا يعنى الاستسلام التام وإلغاء المقاومة المسلحة ، وفتح مكة على مصراعيها للرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت محاولة هند اليائسة ، فى الدعوة إلى قتل زوجها ، لدعوته قريشاً للاستسلام ، لم تثنِ أبا سفيان عن إيضاح الحقيقة : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، وليست أشعار ضرار بن الخطاب فى استعطاف رسول الله ﷺ بأقل أثراً من أشعار عمرو بن سالم فى استثارة الجو على قريش ، وهى التى هيأت الجو لأن تفتح مكة دون أن تثار الأحقاد على قريش ، اليوم أعز الله قريشاً ، اليوم

تعظم الحرمة ، اليوم يوم المرحمة .

ولو كان الثأر والتشفى هو الجو السائد ، لسالت الأودية بالدماء . إن الهدف هو أن تكون كلمة الله هى العليا ، وليس الهدف هو القتل والذبح والإبادة ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن القتال ، إلا أناساً بأعيانهم أمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة .

لقد تنقل أبو سفيان من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصل إلى إعلان إسلامه واستسلامه ، وهو الذى راح بشخصه وعينه يكف رسول الله ﷺ عن مكة ضارعاً راجياً ، بعد أن جاءه فى الخندق يستأصل شأفته ، فقال له عليه الصلاة والسلام :

« وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح » .

وجاء هذا اليوم الذى يدافعه بالراح عن مكة لا بالسلاح ، وجاء اليوم الذى يسمع فيه جواب عمر رضى الله عنه ، عندما سأل وهو يدعى إلى الإسلام : فما أصنع بالعزى .

فأجابه عمر من خارج القبة : تخرأ عليها .

وجاء الوقت الذى تكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة ، وجاء نصر الله الذى وعد الله به جنده ، ليكون بعده الفتح الأعظم لجيل جديد قوامه عشرة آلاف مقاتل .

لقد كان أبو سفيان وهو متجه إلى الخندق بعشرة آلاف مقاتل ليستأصل شأفة رسول الله ﷺ ، ويهدد بيوم تقتل فيه الرجال ، وتبقر فيه النساء يوم فاته أن ينتصر فى الخندق ، إذ بالآلاف كلها تصبح جند الله ، وتهوى إلى مكة ، تردد شعار التوحيد ، فمن هذه الآلاف العشرة التى تم استعراضها أمام أبى سفيان ؟!

٧ ــ مضى بين الحديبية وفتح مكة سنتان ، وقد تكون جيل جديد خلال هاتين السنتين يمثل الطبقة الثالثة فى الأمة بعد أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم الذين أطلق عليهم : من أسلم من قبل الفتح ، وجاء القرآن الكريم ليؤكد هذه الطبقة بقوله عز وجل :

﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين

أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾[1] .

وحين نعود إلى كتب التراجم والطبقات نلاحظ هذا التقسيم قائماً ، حتى ليطلق على من أسلم بعد الفتح : المؤلفة قلوبهم أو على فئة منهم على الأقل .

وإذا كان أهل الحديبية وهم صفوة الله من خلقه قد بلغوا ألفاً وأربعمائة ، فقد بلغ عدد الذين أسلموا قبل الفتح حوالى عشرة آلاف ، وهو عدد ضخم يبلغ خمسة أضعاف العدد السابق .

وحين نرجع إلى السيرة – كما مر معنا من قبل – نلاحظ هذا التوزيع واضحاً على الصورة التالية :

قال محمد بن عمر : (وحدثني سعيد بن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن جده قال :

أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ جندباً ورافعاً ابني مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رحضة وأبا رهم كلثوم بن الحصين إلى بني غفار وضمرة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونعيم بن مسعود ، وبعث إلى مزينة بلال بن الحارث وعبد الله بن عمرو المزني ، وبعث إلى بني سُليم الحجاج بن علاط السُلمي ثم البهزي وعرباض بن سارية ، وبعث إلى بني كعب بشر بن سفيان وبُديل ابن ورقاء ، فلقيه بنو كعب بقديد وخرج معه من بني كعب من كان معه بالمدينة ، وعسكر رسول الله ﷺ ببئر أبي عنبة ..)[2] .

ولو تابعنا الرواية نفسها لوجدنا أعداد كل قبيلة حضروا غزوة الفتح :

(... وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفاً فيها من الخيل مائة فارس ومائة دارع ، وفيها ثلاثة ألوية ... وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً ولواءان ... وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرساً فيها أربعة ألوية ... وكانت بنو

(١) سورة الحديد : ١٠ . (٢) المغازي للإمام الواقدي / ٢ / ٧٩٩ .

كعب بن عمر خمسمائة فيها ثلاثة ألوية ... ومن لم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقديد ... وخرجت بنو سليم تسعمائة على الخيول والقنا والدروع الظاهرة)[1] .

فإذن نلاحظ أن القبائل العربية المجاورة للمدينة هى التى تمثل هذا الجيل الجديد وهى : أشجع ، وأسلم ، ومزينة ، وجهينة ، وغفار ، وسليم ، وبنو عدى بن كعب من خزاعة ، وهم يمتدون كذلك بين مكة والمدينة .

ولكن الملاحظ كذلك أن هذه القبائل العربية لم تكن ذات وزن ضخم فى الأرض العربية ، فقد كانت من الدرجة الثانية ، وهذا ما يفسر لنا موقف أبى سفيان كلما مرت عليه كتائب القبائل ليقول : ما لى ولمزينة ، ما لى ولأشجع ، ما لى ولغفار ، ما لى ولأسلم ، ما لى ولجهينة .

إنها لم تكن مما يؤبه لها من قبل ، حتى إن غفاراً كانت تسمى بسراق الحجيج ، ولم يكن يخيف أبا سفيان حقيقة إلا الكتيبة الخضراء ، من المهاجرين والأنصار الذين كانوا تقريباً نصف الجيش .

ولتأكيد هذه الفكرة . نقف أمام الحديث التالى : عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أرأيتم إن كان جهينة وأسلم وغفار ومزينة خيراً عند الله من بنى أسد ومن بنى تميم ومن بنى عبد الله بن غطفان ومن بنى عامر ابن صعصعة » ، فقال رجل : قد خابوا وخسروا ، فقال النبى ﷺ : « هم خير من بنى تميم ومن بنى عامر بن صعصعة ومن بنى أسد ومن بنى عبد الله ابن غطفان »[2] .

فهذا الحديث النبوى يوضح أن القبائل المعتد بها عند العرب هى هؤلاء الأربعة ، ومن فى مستواها : تميم وغطفان وأسد وبنو عامر بن صعصعة .. أما هذه القبائل مزينة وجهينة وأسلم وغفار هى فى الميزان القبلى أدنى منها ، ومن أجل ذلك تم توضيح هذا الأمر للمسلمين حتى لا يأخذوا بهذا الميزان .

وحيث إن العصبية القبلية كانت أضعف لدى هذه القبائل ، فكان بالإمكان

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٨٠٠ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢ / ٨١١ . وإسناده صحيح .

التفلت منها والانضمام إلى الصف الإسلامى ، ووجدنا كثيراً من أفرادها ، قد انضموا فى المدينة مع الأنصار يتلقون التربية النبوية منذ الهجرة ، وبعضهم كان يعلن إسلامه فى قبيلته دون حرج ، وقد انتشر الإسلام فى هذه القبائل ولم يكن يخشى المسلمون فيهم من سطوة القبيلة عليهم ، وحين مر معنا حادث أبى بصير ، ولاحظنا أن المئات من أفراد القبائل عادوا إلى قبائلهم ليتابعوا نشر الدعوة هناك ، وذلك بعد أمر رسول الله ﷺ أبا بصير بالعودة إلى المدينة هو ومن معه .

لقد أتيح لهذا الجيل فرصة كافية كى يتلقى التربية المباشرة على يد النبى ﷺ ، وإن كانت ليست تربية يومية كما هو الحال لدى السابقين الأولين ، ولكنها بالتأكيد أفضل من تربية جيل مسلمة الفتح ، وأصبح كل مسلم ينسلخ من الانتماء لقبيلته لينضم مباشرة إلى الصف الإسلامى ، وعندما أصبح العدد وافراً ، انضم كيان القبيلة كله إلى الصف الإسلامى ، وعاد أولئك الأفراد ليكونوا على رأس قبائلهم ، فهم مهاجرون من جهة وهم أبناء قبائلهم من جهة ثانية ، وكان ميثاق الحديبية هو الذى هيأ لهذه الكيانات القبلية أن تنضم إلى الإسلام ، فلم تعد تخشى بطش قريش أو رهبتها فى الانقضاض عليها .

وحين اقتربت هذه الكيانات القبلية من الصف الإسلامى ، وقام المجتمع الإسلامى فى داخلها ، أصبح الحكم عليها مثل الحكم على المهاجرين والأنصار يفسر هذا المعنى لنا قول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع موالى ليس لهم مولى دون الله ورسوله »[1] .

وقد لاحظنا أن الرسول ﷺ كان يحرص على البناء القبلى المنصهر فى الكيان الإسلامى ، فالأنصار الذين بلغوا أربعة آلاف كان فيهم حوالى اثنتا عشرة راية تمثل فروع الأوس والخزرج ولكنهم جميعاً من الأنصار ، أما المهاجرون فهم الفئة الوحيدة التى ذابت كياناتها القبلية فى الصف الإسلامى ، وإن كان معظمهم من قريش فى ابتداء الأمر ، فكانت رايتهم واحدة وقد تصل إلى ثلاث رايات دون توزيع على أساس الانتماء لفروع قريش .

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل / ٢ / ٨١٠ . وإسناده صحيح .

وخلاصة القول : أن الحديث عن المنهج التربوى للسيرة النبوية يؤكد لنا أن قيمة الفرد والقبيلة فى الإسلام مرهون بمدى ما تلقاه من التربية على يد الرسول ﷺ ، ومدى ما عاشه فى الصف الإسلامى والمجتمع الإسلامى ، ومدى قدرته على تمثل القيم التى يطرحها الإسلام .

ولكن هذا المنهج لا يعنى أنه ليس هناك قادة أفذاذ ، أو شخصيات نادرة استطاعت الوصول إلى القمة بما تملك من طاقات ومؤهلات وصلاح وتقوى ، فالباب مفتوح لذلك ، ولكن هذه النوادر لا تنفى القاعدة المذكورة بل تؤكدها ، فالشذوذ دليل على القاعدة .

الفتح الأعظم

رسول الله ﷺ يدخل مكة :

قال ابن إسحاق – رحمه الله تعالى – وغيره : لما ذهب أبو سفيان إلى مكة بعد ما عاين جنود الله تعالى تمر عليه ، فانتهى المسلمون إلى ذى طوى ، فوقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتى تلاحق الناس ، وأقبل رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء ، وهو على ناقته القصواء معتجراً بشق برد حبرة حمراء .

وعن أنس رضى الله عنه قال : لما دخل رسول الله ﷺ استشرفه الناس ، فوضع رأسه على رحله متخشعاً ، رواه الحاكم بسند جيد قوى وأبو يعلى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداء ورايته سوداء ولواؤه أسود حتى وقف بذى طوى ، وتوسط الناس ، وإن عثنونه ليمس واسطة رحله ، أو يقرب منها تواضعاً لله عز وجل حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى ، وكثرة المسلمين ثم قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » ، وجعلت الخيل تمعج[1] بذى طوى من كل وجه ، ثم ثابت وسكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ . رواه محمد بن عمر .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ دخل مكة ، وعليه عمامة سوداء من غير إحْرام ، رواه الإمام أحمد ومسلم والأربعة ...

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح ، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فتبسم إلى أبى بكر فقال : « يا أبا بكر ، كيف قال حسان ؟ » فأنشده أبو بكر قول حسان :

عدمت بُنَيَّتى إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مسرجات ... يُلَطِّمهن بالخُمُر النساء

---

(١) تمعج : تسير فى كل اتجاه .

فقال رسول الله ﷺ : « ادخلوها من حيث قال حسان » .

وفى الصحيح وغيره عن عروة أن رسول الله ﷺ أمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداء من أعلى مكة ، وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

خالد بن الوليد وقتال قريش :

قال : وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وكان على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب أن يدخلوا من الليط وهو أسفل مكة ، وأمره أن يغرز رايته عند أدنى البيوت .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن رباح : أن أبا عبيدة كان على البيادقة يعنى الرّجالة .

قالوا : وأمر رسول الله ﷺ أمراءه أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر – رحمهما الله تعالى– إن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو – أسلموا بعد ذلك – دعوا إلى قتال رسول الله ﷺ وجمعوا أناساً بالخندمة ، وضوى إليهم ناس من قريش ، وناس من بنى بكر ، وهذيل ، ولبسوا السلاح يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوة أبداً . وكان رجل من بنى الديل يقال له حماس بن قيس بن خالد لما سمع بدخول رسول الله ﷺ جعل يصلح سلاحه ، فقالت له امرأته : لمن تُعِدُّ هذا ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم فإنك محتاجة إليه ، قالت : ويلك لا تفعل ، ولا تقاتل محمداً ، والله ليُضلَّن عنك رأيك لو قد رأيت محمداً وأصحابه قال : سترين ، ثم قال :

إن يُقبلوا اليوم فما لى عله   هـذا سـلاح كامـل وألَّه[1]

وذو غرارين[2] سريع السله

ثم شهد الخندمة مع صفوان ، وسهيل بن عمرو وعكرمة ، فلما دخل خالد بن الوليد من حيث أمره رسول الله ﷺ وجد الجمع المذكور ، فمنعوه الدخول ،

---

(١) ألة : الحربة التى فى نصلها عرض .   (٢) ذو غرارين : شفرتا السيف .

وشهروا له السلاح ، ورموه بالنبل وقالوا : لا تدخلها عنوة ، فصاح فى أصحابه فقاتلهم ، وقُتل منهم أربعة وعشرون رجلاً من قريش وأربعة من هُذيل .

وقال ابن إسحاق : أصيب من المشركين قريب من اثنى عشر أو ثلاثة عشرة وانهزموا أقبح الانهزام ، حتى قتلوا بالحزورة ، وهم مولون فى كل وجه ، وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال ، وأتبعهم المسلمون .

قال محمد بن عمر : وجعل خالد رضى الله عنه يتمثل بهذه الأبيات :

إذا ما رسول الله فينا رأيته ... كلجة بحر[1] نال فيها سريرها
إذا ما ارتدينا الفارسية[2] فوقها ... ردينية[3] يهدى الأصم خريرها
رأينا رسول الله فينا محمداً ... لها ناصراً عزَّت وعزَّ نصيرها

وجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزم يصيحان : يا معشر قريش ، علام تقتلون أنفسكم ؟! من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن . فجعل الناس يقتحمون الدور ، ويغلقون عليهم ويطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذه المسلمون ، ورجع حماس منهزماً حتى انتهى إلى بيته ، فدقَّعه ففتحت له امرأته ، فدخل وقد ذهبت روحه ، فقالت له : أين الخادم الذى وعدتنى ؟ مازلت منتظرة منذ ذلك اليوم - تسخر منه - فقال : دعى هذا عنك ، وأغلقى على بابى ، ثم قال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وبو يزيد[4] كالعجوز المؤتمة[5] ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا نسمع إلا الغمغمة
لهم نهيت[6] خلفنا وهمهمة ... لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

وأقبل الزبير ، رضي الله عنه بمن معه من المسلمين حتى انتهى إلى الحجون عند منزل رسول الله ﷺ ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجلان من أصحاب الزبير أخطآ الطريق فسلكا غيره فقتلا ... ومضى رسول الله ﷺ فدخل مكة من أذاخر ، فلما ظهر على أذاخر ، نظر إلى البارقة مع فضض المشركين فقال : « ما هذه البارقة ؟!

---

(١) لجة البحر : معظمه . (٢) الفارسية : لعلها الدروع . (٣) الردينية : القناة والرمح الردينى .
(٤) أبو يزيد : سهيل بن عمرو . (٥) المؤتمة : التى لها أيتام .
(٦) النهيت : نوع من صياح الأسد .

ألم أنه عن القتال ؟ » قالوا : يا رسول الله ، خالد بن الوليد قوتل ولو لم يقاتل ما قاتل .. وما كان يا رسول الله ليعصيك ، ولا ليخالف أمرك ، فقال رسول الله ﷺ : « قضاء الله خير » .

وروى الإمام أحمد ومسلم والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(لما كان يوم فتح مكة ، وبشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً ، فقالوا : نقدّم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا . فرآنى رسول الله ﷺ فقال : «ياأبا هريرة » ، قلت : لبيك . قال : « اهتف بالأنصار ، ولا يأتينى إلا أنصارى » قال : ففعلت ما أمرنى به ، فأتوه فقال : « انظروا قريشاً وأوباشهم فاحصدوهم حصداً » ، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى ، فانطلقنا فما أحد يوجه إلينا شيئاً ، وما منا أحد يريد أحداً منهم إلا أخذه،فجاء أبو سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن » ، فألقى الناس سلاحهم .

وروى محمد بن عمر عن جابر رضى الله عنه قال : كنت ممّن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح ،فلما أشرف رسول الله ﷺ من أذاخر ، ورأى بيوت مكة ، وقف عليها فحمد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قبته فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت علينا قريش فى كفرها » . قال جابر : فذكرت حديثاً كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة : « منزلنا إذا فتح الله علينا مكة فى حنيف بنى كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر » .

وروى البخارى ، والإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « منزلنا إن شاء الله تعالى إذا فتح الله بخنيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » يعنى بذلك المحصب . وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ .

وروى محمد بن عمر عن أبي رافع رضى الله عنه قال : قيل للنبى ﷺ : ألا تنزل منزلك من الشّعب ! فقال : « وهل ترك لنا عقيل داراً » ، وكان عقيل قد باع

منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل فى بعض بيوت مكة غير منازلك ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » .

ولم يزل رسول الله ﷺ مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتى المسجد لكل صلاة من الحجون .

وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا ما وعدنى ربى » ثم قرأ ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ....**﴾[1] .

اغتساله ﷺ وصلاته :

عن أم هانئ رضى الله عنها قالت : لما كان عام يوم الفتح ، فرَّ إلَّى رجلان من بنى مخزوم فأجرتهما ، قالت : فدخل علىَّ عَلِىّ فقال : أقتلهما ، قالت : فلما سمعته يقول ذلك أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فلما رآنى رسول الله ﷺ رحبَّ وقال : « ما جاء بك يا أم هانئ ؟ » قالت : قلت : يا رسول الله ، كنت أمَّنتُ رجلين من أحمائى ، فأراد علىّ قتلهما . فقال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرت » ، ثم قام رسول الله ﷺ إلى غسله فسترته فاطمة ثم أخذ ثوباً فالتحف به ، ثم صلى رسول الله ﷺ ثماني ركعات سُبحة الضحى . رواه مسلم والبيهقى .

وعنها أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة اغتسل فى بيتها ، وصلى ثمانى ركعات، قالت : لم أره صلى صلاة أخف منها ، غير أنه يتم ركوعها وسجودها . رواه البخارى والبيهقى .

رنُّ إبليس وحزبه :

روى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَ إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته فقال : ايأسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن افشوا فيها – يعنى مكة – النوح والشعر .

دخوله ﷺ المسجد وطوافه وما وقع من الآيات :

قالوا : مكث رسول الله ﷺ فى منزله ساعة من النهار حتى اطمأن الناس

(١) سورة النصر .

فاغتسل ، ثم دعا براحلته القصواء ، فأدنيت إلى باب قبته ، وعاد للبس السلاح والمغفر على رأسه ، وقد حف الناس به ، فركب راحلته والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون ، ومر رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر الصديق يسير معه يحادثه ، فمرَّ بينات أبي أُحَيْحة وقد نشرن شعورهن يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت ، فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ومعه المسلمون ، تقدم إلى راحلته واستلم الركن بمحجنه ، وكبَّر ، فكبَّر المسلمون معه ، فرجَّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً ، حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت ، آخذًا بزمام الناقة محمد بن مسلمة، فأقبل على الحجر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت .

وروى أبو نعيم والبيهقي من طريق عبد الله بن دينار ، وأبو نعيم عن طريق نافع كلاهما عن ابن عمر ، وأبو نعيم والبيهقي وابن إسحاق ومحمد بن عمر عن ابن عباس رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم فتح مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص ، وكان هُبَل أعظمها وهو وجاه الكعبة ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح ، وفي يد رسول الله ﷺ قوس وقد أخذ بسية القوس ، فجعل رسول الله كلما مر بصنم منها يشير إليه ، ويطعن فى عينه ويقول : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾[1] ، فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه – وفى لفظ : لقفاه – من غير أن يمسه ، وفى ذلك يقول تميم بن أسد الخزاعى :

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

قال أئمة المغازى – رحمهم الله تعالى –: فطاف رسول الله ﷺ سبعاً على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه كل طواف ، فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته .

وعند ابن أبي شيبة عن ابن عمر ، قال : فما وجدنا مناخاً فى المسجد حتى

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

أنزل على أيدى الرجال ثم خرج بها . قالوا : وجاء معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرج الراحلة فأناخها الوادى ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة ، والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه ، فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : « لولا أن تُغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً » ، فنزع له العباس ابن عبد المطلب دلواً فشرب منه وتوضأ ، والمسلمون يبتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصبونه على وجوههم ، والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا وما سمعنا به .

وأمر بهبل فكُسر ، وهو واقف عليه ، فقال الزبير بن العوام لأبى سفيان ابن حرب : يا أبا سفيان ، قد كُسِر هُبَل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه أنعم . فقال أبو سفيان : دع عنك هذا يابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إلـٰه محمد غيره لكان غير ما كان . ثم انصرف رسول الله ﷺ فجلس ناحية من المسجد والناس حوله . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يوم الفتح قاعداً ، وأبو بكر قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف . رواه البزار .

وروى ابن أبى شيبة والحاكم عن على رضى الله عنه ، قال : انطلق رسول الله ﷺ حتى أتى بى الكعبة ، فقال : « اجلس » ، فجلست بجنب الكعبة ، فصعد رسول الله ﷺ على منكبى فقال : « انهض » ، فنهضت فلما رأى ضعفى تحته قال : « اجلس » ، فجلست ، ثم قال : « يا على اصعد على منكبى » ،ففعلت. فلما نهض بى ، خُيِّل إلى لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة ،وتنحى رسول الله ﷺ فقال : « ألق صنمهم الأكبر » ، وكان من نحاس موتد بأوتاد من حديد إلى الأرض ، فقال رسول الله ﷺ : « عالجه » ويقول لي : « إيه إيه ، ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ » ،فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه .

ذكر طلبه ﷺ مفتاح الكعبة :

روى محمد بن عمر ، وابن أبى شيبة عن عبد الله بن عمر وأبى هريرة وعلقمة ابن أبى وقاص الليثى ، قال عبد الله : كان عثمان قد قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة مسلما مع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص قبل الفتح ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة ، فجاء بلال إلى عثمان ،

فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتى بالمفتاح فقال : نعم هو عند أمى سلافة ، فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره أنه قال نعم ، وأن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ رسولاً فجاءها، فقالت :لا ، واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً ، فقال عثمان : يا رسول الله أرسلنى أخلصه لك منها فأرسله فقال : يا أمه ادفعى إليه المفتاح فإن رسول الله ﷺ أرسل إلى ، وأمرنى أن آتيه به . فقالت أمه : لا ، واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً . فقال : لا لات ولا عزى ، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى ، فأنت قتلتينا ، فوالله لتدفعنَّه أو ليأتين غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته فى حجزتها وقالت : أى رجل يدخل يده هنا ؟

قال الزهرى – فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى –: فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ قائم ينتظره حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ، ويقول : « ما يحبسه فيسعى إليه رجل » . فبينما هما على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى الدار ، وعمر رافع صوته حين أبطأ عثمان ، يا عثمان ، اخرج فقالت أمه : يا بنى ، خذ المفتاح ، فأن تأخذه أنت أحب إلى من أن يأخذه تيم وعدى ، فأخذه عثمان ، فخرج يمشى به حتى إذا كان قريباً من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح ، فقام رسول الله ﷺ إلى المفتاح فحنى عليه بثوبه ...

ذكر أمره ﷺ بإزالة الصور من البيت :

روى أبو داود ، وابن سعد ، ومحمد بن عمر واللفظ له : أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر قد ترك صورة إبراهيم فلما دخل رسول الله ﷺ رأى صورة إبراهيم ، فقال : « يا عمر ، ألم آمرك ألا تدع فيها صورة ؟ قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام » ثم رأى صورة مريم ، فقال : « امسحوا ما فيها من الصور قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما وابن أبى شيبة عن عكرمة أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة – يعنى الأصنام – فأمر بها فأخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله ﷺ : « قاتلهم الله ، لقد علموا أنهما لم يستقسما بهـا قط » ، زاد ابن أبى شيبة : ثم أمر بثوب فبُلّ ومحا به صورهما .

وعند ابن أبى شيبة عن ابن عمر : أن المسلمين تجردوا فى الأزر ، وأخذوا الدلاء وانجروا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها ، فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه وغسلوه .

ذكر دخول رسول الله ﷺ البيت :

روى البخارى - فى الصلاة والمغازى - ومسلم - فى الحج - والنسائى ، وابن عوانة ، وابن ماجه ، وأحمد والطبرانى ، وابن أبى شيبة بسند حسن ، وأبو جعفر الطحاوى ، وأبو داود ، والبزار بسند ضعيف ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عدد من الصحابة دخول الكعبة فقالوا :

قال يونس بن يزيد : إن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته ، وهو مردف خلفه أسامة ، ومعه بلال وعثمان بن طلحة ، حتى أناخ فى المسجد - ولفظ فليح : عند البيت - وقال لعثمان : « ائتنى بالمفتاح » ، قال أيوب : فذهب إلى أمه . فأبت أن تعطيه المفتاح فقال: والله لتعطينه ، أو لأخرجن هذا السيف من صلبى ، فلما رأت ذلك أعطته إياه فجاء به ، ففتح عثمان له الباب - ثم اتفقوا - فدخل رسول الله ﷺ وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة . وقال ابن عوف - كما عند النسائى : والفضل بن عباس ، ولم يدخلها أحد معهم . زاد مسلم : فأغلقوا عليهم الباب .

وعند ابن أبى شيبة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : إن رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة كبر فى زواياها وأرجائها وحمد الله تعالى ثم صلى ركعتين بين اسطوانتين ، فمكث فيها ملياً ، وفى روايات : ساعة ونهاراً طويلاً ، وزماناً طويلاً . وفى رواية فليح : صلى بين العمودين من السطر المقدم وجعل باب البيت خلف ظهره ، وعند المكان الذى صلى فيه مرمرة حمراء .

ذكر خروج رسول الله ﷺ من البيت وخطبته :

روى أن رسول الله ﷺ لما خرج من البيت صلى ركعتين قبل الكعبة وقال : « هذه القبلة » ، قال محمد بن عمر : ثم خرج رسول الله ﷺ من البيت والمفتاح فى يده وخالد بن الوليد يذب الناس عن الباب حتى خرج رسول الله ﷺ . ثم روى

عن برة بنت أبى تجراة قالت : نظرت رسول الله ﷺ وفى يده المفتاح ثم جعله فى كمه .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما ، والبخارى فى صحيحه عن مجاهد وابن إسحاق وابن أبى شيبة عن صفية بنت شيبة قالوا :

إن رسول الله ﷺ لما خرج من البيت استكف[1] له الناس ، وأشرف على الناس وقد ليط[2] بهم حول الكعبة وهم جلوس فقام على بابه فقال :

« لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده .. ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، ماذا تقولون ؟ ماذا تظنون ؟ » قالوا : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، نبى كريم ، وأخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾[3] ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، ودخلوا فى الإسلام ، ثم قال رسول الله ﷺ :

« ألا إن كل رباً فى الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدَّعى فهو تحت قدمى هاتين ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ،ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون فى بطونها أولادها ، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يـأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[4] .

« يـأيها الناس ، الناس رجلان ؛ فبر تقى كريم ، وكافر شقى هيِّن على الله ، ألا إن الله تعالى حرَّم مكة يوم خلق السمـٰوات والأرض ووضع هذين الأخشبين ، فهى حرام بحرمة الله ، لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد كائن بعدى ، لم تحلّ

(١) استكف له الناس : اجتمعوا . (٢) ليط بهم : سقطوا بين يديه .

(٣) سورة يوسف : ٩٢ .

(٤) سورة الحجرات : ١٣ .

لى إلا ساعة من نهار – يقصرها ﷺ بيده هكذا – ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضاهها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ، ولا تختلى خلاها » ، فقال العباس – وكان شيخاً مجرباً –: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد لنا منه للقين وظهور البيوت . فسكت رسول الله ﷺ ساعة ثم قال :

« إلا الإذخر فإنه حلال ، ولا وصية لوارث ، وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، وهم يرد عليهم أقصاهم ، ويعقل عليهم أدناهم ومشدهم على مضعفهم ، ومثريهم على قاعدهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد من عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب ولا جنب ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر ، وعن لبستين ألا يحتبى أحدكم بثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، وألا يشتمل الصماء » ، فقام رجل وقال : يا رسول الله ، إنى قد عاهرت فى الجاهلية ، فقال : « من عاهر بامرأة لا يملكها ، أو أمة قوم آخرين لا يملكها – ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ، ولا يرث ولا يورث ، ولا أخالكم إلا قد عرفتموها . يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح ، إلا خزاعة عن بنى بكر من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر منه » ، فخبطوهم ساعة ، وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ ، ولم تحل لأحد قبله – ثم قال لهم : « كفوا السلاح » ،فقام أبو شاة فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال : « اكتبوا لأبى شاة . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم » .

قال الزهرى – فيما رواه عبد الرزاق ، والطبرانى –: ثم نزل رسول الله ﷺ ومعه المفتاح فتنحى ناحية من المسجد فجلس عند السقاية .

قال شيوخ محمد بن عمر : وكان ﷺ قد قبض مفتاح السقاية من العباس ، ومفتاح البيت من عثمان .

وروى ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عبيدة : أن رسول الله ﷺ بعد خطبته عدل

إلى جانب المسجد ، فأتى بدلو من ماء زمزم فغسل منها وجهه ، ما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان إن كانت قدر ما تحسوها حساها وإلا مسح بها جلده . والمشركون ينظرون فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم من اليوم .

ذكر المفتاح وعثمان بن طلحة :

روى ابن سعد عن إبراهيم بن محمد البدرى عن أبيه ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

قال عثمان بن طلحة : لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة ، فدعانى إلى الإسلام فقلت : يا محمد ، العجب لك حيث تطمع أن أتبعك ، وقد خالفت دين قومك ، وجئت بدين محدث . وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية الاثنين والخميس ، فأقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت عليه ، ونلت منه ، فحلم عنى ثم قال : « يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت » فقلت : لقد هلكت قريش وذلت . قال : « بل عمرت يومئذ وعزت » ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعاً فظننت أن الأمر سيصير كما قال ، فأردت الإسلام ، فإذا قومى يزبروننى زبراً شديداً ، فلما كان يوم الفتح قال لى : « يا عثمان ، ائت بالمفتاح » ، فأتيته به فأخذه منى ، ثم دفعه إلى وقال : « خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما وصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » ، فلما وليت نادانى فرجعت إليه ، فقال : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » فذكرت قوله بمكة قبل الهجرة : « لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت » ، فقلت : بلى ، أشهد أنك رسول الله ، فقام على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة ؟ » ، فدعا عثمان بن طلحة فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء » ، قالوا : وأعطاه المفتاح ورسول الله ﷺ مضطجع بثوبه عليه وقال : «خذوه إن الله تعالى رضى لكم بها فى الجاهلية والإسلام » ... وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن مليكة أن رسول الله ﷺ قال لعلى يومئذ حين كلمه فى المفتاح : « إنما أعطيتكم ما تُرزؤون ، ولم أعطكم ما تَرزؤون » يقول : أعطيتكم السقاية لأنكم تغرمون فيها ولم أعطكم البيت . قال عبد الرزاق : أى أنهم يأخذون من هديته .

ذكر أكله ﷺ عند أم هانئ :

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأم هانئ يوم الفتح : « هل عندك من طعام نأكله ؟ » ، قالت : ليس عندي إلا كسر يابسة ، وإني لأستحي أن أقدمها إليك ، فقال : « هلمي بهن » فكسرهن في ماء ، وجاءت بملح ، فقال : « هل من أدم ؟ » ، فقالت : ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خل ، فقال : « هلمي » ، فصبه على الطعام وأكل منه ثم حمد الله ثم قال : « نعم الأدم الخل ، يا أم هانئ لا يفقر بيت من أدم فيه خل » .

١ ـ قادة الفتوح يدخلون دائماً والغطرسة والكبرياء يملآن كل ذرة من كيانهم ، شامخو الأنوف ، يكادون يطالون السماء بانتصاراتهم ، بل أصحاب المناصب العسكرية والرتب والنياشين ، ولو جلبوا العار لأممهم بهزائمهم يكادون يناطحون السحاب بزهوهم ، أما نحن هنا مع سيد ولد آدم ولا فخر ، وقد دانت له مكة التي حاربته عشرين عاماً ، وأخرجته وآذته وأبعدته ، ها هو اليوم يدخلها فاتحاً : (فوضع رأسه متخشعاً ، وإن عثنونه ليمس واسطة رحله ، تواضعاً لله عز وجل حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين ثم قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة ») .

وعلى جنود مدرسة النبوة أن يلتزموا هذا المنهج ، ويخروا ساجدين لله تعالى على ما رزقهم من نصر ، أو كتب على أيديهم من فتوح ، وهذا أمر لا نلقاه في عالم الأرض إلا عند الأنبياء وأتباعهم .

اللباس بسيط ، عمامة سوداء ، قد أرخى طرفها بين كتفيه ، على ناقته القصواء ، ورايته العقاب ، ولواؤه أبيض .

٢ ـ ولكن لابد أن يشعر العدو أن هذا الجيش ، جيش رسول الله ﷺ هو جيش القدر ، فلقد قال قائد قريش ذات يوم : والله لا أومن حتى أرى الخيل تطلع من كداء ، وبقيت كلمة تاريخية .

سئل يومها : ما تقول ؟ فقال : لا أدري كلمة ساقها الله على فمي فقلتها ، وها هو اليوم يراها بأم عينه ، ويطلب رسول الله ﷺ بغرز رايته في كداء في أعلى مكة ، ليراها كل أهل مكة .

وعندما أطلق حسان بن ثابت رضى الله عنه أشعاره :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع مطلعها كداء

لابد أن يعرف أعداء الله تعالى أن جند الله يفعلون ما يقولون ، وينفذون ما يقررون ، وأن كلامهم يقال ليكون قدراً قائماً ، لا تبجحاً وصلفاً بلا مضمون ، ومن أجل هذا أمر رسول الله ﷺ جيشه فقال : « ادخلوها من حيث قال حسان » .

وجاء قدر الله كذلك أن يخرج نسوة مكة متمثلات ببنات ابن عزيز مكة أبى أحيحة سعيد بن العاص ، وقد نشرن شعورهن يصرخن ويندبن الهزيمة النكراء ، ويلطمن وجوه الخيل بخمرهن ، ليكون هذا تنفيذاً كذلك لقدر الله عز وجل :

ينازعن الأعنة مسرجات   يلطمهن بالخمر النساء

أما مكان القيادة الذى اختاره وارتاده عليه الصلاة والسلام ليكون موقع قبته ، ومقر قيادته، فقد كان موقفاً تاريخياً ، لابد أن يطوى تاريخ الدعوة كلها بين حافتيه .

هذا الموقع التاريخى هو المكان الذى تحالفت فيه قريش وبنو كنانة على بنى المطلب وبنى هاشم ألا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، (فصاروا محصورين مضيقاً عليهم أشد التضييق نحواً من ثلاث سنين ، وقد قطعوا عنهم المادة والميرة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد)[1] .

وفى كلام السهيلى : (كانوا إذا قدمت العير مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئاً من الطعام بقتاته ، فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يده شىء يعللهم به)[2] .

هذه المحنة التى تواطأت بها قريش وكنانة على حصار المسلمين ومحاولة إبادتهم، وخططوا لاغتيال رسول الله ﷺ ، وحسبوا أنهم قادرين على إطفاء نور الله .

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٢٥ .   (٢) السيرة الحلبية / ٢ / ٢٦ .

هذا المكان الذى تم فيه هذه العهود هو الذى اختاره رسول الله ﷺ ليكون منزلاً له ومقراً لقيادته .

يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى والإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » .

يعني بذلك المحصب ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى المطلب ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ .

وها هو عليه الصلاة والسلام ينزل فى المكان نفسه على رأس الجيش الإسلامى المكون من عشرة آلاف مقاتل ، وأين أولئك الذين تقاسموا على الكفر ؟

قد هلكوا ، أو وقفوا الآن قلوبهم واجفة ينتظرون الحكم فيهم ممن حكموا عليه بالإعدام من محمد عليه الصلاة والسلام .

٣ ـ ومع حرص رسول الله ﷺ ألا تراق قطرة دم واحدة فى مكة ، لحرمة مكة عنده ، ولحفاظه على أرواح بنيها الذين يدخرهم للإسلام ، ومع نهيه عن القتال ، لكن شاء قدر الله أن تقع المواجهة ، وشاء الله تعالى أن تكون بين رفاق الدرب الطويل فى مواجهة النبى ﷺ .

لقد كان على رأس التيار المتشدد صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وزوجة القائد العام هند بنت عتبة وهم يقسمون ألا يدخلها محمد عليهم عنوة أبداً ، أما الذى كان يقود الجيش الإسلامى فهو خالد بن الوليد رضى الله عنه .

إننا حين ننظر إلى إسلام خالد بن الوليد ، نلاحظ أن الذين اصطفاهم ليعرض عليهم قصة إسلامه أو التفكير فيه هم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وعثمان ابن طلحة .

يقول خالد رضى الله عنه : (فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى

ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس[1] ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ، فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً ، فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً قد قتل أخوه وأبوه ببدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطو ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره ، وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تخرج إلى فخرجت بها)[2] .

وقد استطاع خالد بن الوليد رضى الله عنه الذى أشرق نور الإسلام فى قلبه منذ ساعة ، أن يحدد سبب إباء رفيقيه عن الإسلام ، إنه الثأر لآبائهم ، وإخوانهم ، فعكرمة بن أبى جهل كذلك قتل أبوه فى بدر ، وهو من ألد العدو ، وفرعون هذه الأمة ، وبين خالد وعكرمة قرابة قريبة ، فكلاهما من بنى مخزوم ، خالد بن الوليد ابن المغيرة ، وعكرمة بن عمرو بن هشام بن المغيرة ، وقد أمضوا عمرهم فى حرب رسول الله ﷺ .

أقول : شاءت إرادة الله تعالى أن يلتقى الأصدقاء والرفاق وجهاً لوجه ، ولكن المستغرب هو انضمام سهيل بن عمرو للمواجهة ، وهو من قال فيه عليه الصلاة والسلام : « أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا » ، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام من بين الكبار فى مكة مع ثلاثة آخرين :

« إن فى مكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتاب بن أسيد ،وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو »[3] .

والذين انضموا إلى القتال هم فريق من الشباب المتحمس ، ولا ننسى دور هند بنت عتبة ، ودعوتها قريش لقتل زوجها أبى سفيان ، وهو يدعو أهل مكة للاستسلام ، وإلقاء السلاح ، والدخول فى بيوتهم آمنين :

(اقتلوا الحميت[4] الدسم[5] الأحمس[6] ، قبح من طليعة قوم) .

---

(١) إنما نحن أكلة رأس : أى تشبعنا رأس واحدة لقلتنا . وفى رواية أخرى : إنما نحن بمنزلة ضب فى جحر لو ألقى عليه ذنوب ماء لخرج . فهو يشير إلى قلتهم وانحصارهم فى مكة بعد النصر الإسلامى .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٧٤٧ . (٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٣١ .

(٤) الحميت : زق السمن . (٥) الدسم : الكثير الودك . (٦) الأحمس : الذى لا خير عنده .

فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به .

ونحن نعلم هند وأنها الموتورة الثائرة ، فهى التى قتل أبوها وعمها وأخوها وبكرها فى بدر ، وهى التى بقرت عن كبد حمزة رضى الله عنه ولاكته لتبلعه غيظاً وحقداً ثم لفظته ، وقد غرت الناس عن أنفسهم واستجاب لها فريق من الشباب الذين لم يدركوا حقيقة النصر الإسلامى، وقد مثل هذا الحماس حماس الذى كان يتغنى ويستخف برأى امرأته :

إن يقبلوا اليوم فما لى عله　　هذا سلاح كامل وألَّه
وذو غرارين سريع السله

والذين انضموا مع قريش هم من بنى هذيل ، الذين لم يجربوا قتال رسول الله ﷺ ، ومن بنى بكر الذين يرون أنهم مقتولون لو انتصر محمد رسول الله حليف أعدائهم .

وما هى إلا جولة واحدة ، وكان القادة الثلاثة يلوذون بالفرار ، والجيش الإسلامى يطاردهم ، وحماس الذى أراد أن يخدم زوجته أحد المسلمين ، قد سقط رعباً وهو يقول : اغلقى على بابى ، وما يكاد يصدق أنه نجا .

يقابلنا مع هذه الرواية رواية أخرى صحيحة ، رواها الإمام مسلم وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة ، وهى التى دعا فيها رسول الله ﷺ الأنصار وحدهم ، فقال لهم :

« انظروا قريشاً وأوباشهم فاحصدوهم حصداً » ثم قال بيديه على الأخرى ، فانطلقنا فما أحد يوجه إلينا شيئاً ، وما منا أحد يريد أحداً إلا أخذه ، فجاء أبو سفيان ابن حرب فقال : يا رسول الله أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن » .

ولا أرى تعارضاً بين الروايتين ، فالأمن لمن دخل بيته ، وأغلق بابه ، وألقى سلاحه ، أما الذين يصرون على الحرب والمواجهة ، فلا أمن لهم ، ولا غرابة أن يطالب بحصدهم من الأنصار سيوف الله تعالى المسلولة ،التي لا تعرف هوادة مع أحد .. وشاءت إرادة الله تعالى أن يسقط أربعة وعشرون قتيلاً على أكبر تقدير ونصفهم على

أقل تقدير ، وتصبح مكة ساحة خالصة للإسلام والمسلمين .

٤ — لئن كان إبليس فى بدر قد مضى ذليلاً حقيراً يوم رأى جبريل يزع الملائكة ، وقال :

﴿ **إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾(١) ، ورأى تساقط الملأ من قريش قتلى هناك ، فلا عجب أن يدعو جنوده وخاصة فى الأرض بعد فتح مكة من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقد احتل مكة منذ عمرو بن لحى الذى أدخل الوثنية إليها ، والشرك كذلك ، وبقى سيد الموقف فى مكة قرابة عدة قرون ، فكان دخول مكة ، انعطافة جديدة فى تاريخ البشرية ، فأول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين ، ومعقل التوحيد فى الأرض كان مكة ، فإذا بإبليس يتسلل فى شخص عمرو بن لحى ، ويجعل مكة معقل الشرك والوثنية ، وها هو يرى الآن رسول الله ﷺ يستلم زمام مكة ، وهذا يعنى طرده ودحره ، ويرى أن هذا الدحر ليس مؤقتاً ، فهو دحر أبدى من مكة :

(ايأسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن أفشوا فيها — يعنى مكة — النوح والشعر) .

والتعبير النبوى عن هذا التحول الجديد فى التاريخ :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً لكن إن يطع فيما دون ذلك فقد رضى مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم »(٢) .

ولهذا كانت أول خطوة تتم عند دخول مكة ، هى تحطيم الأوثان والأصنام فيها ، لقد طاف عليه الصلاة والسلام قبل عام حول البيت ، والأصنام قائمة ، ولم يكن يملك سلطة تؤهله لإزالتها . من خلال عهد الحديبية . وكل ما أمكنه أن يرفع شعار التوحيد ، والأصنام جاثمة على صدر البيت الحرام ، أما الآن فلابد أن تقتلع الوثنية من جذورها ، فقد دخل مكة يوم فتح مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص ، وكان هُبَل أعظمها وهو وجاه الكعبة ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح ، وفى يد رسول الله ﷺ قوس وقد أخذ بسية القوس ،

---

(١) سورة الأنفال : ٤٨ .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٦٠٤ .

فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم يشير إليه ويطعن فى عينه ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾[1] فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه – وفى لفظ : لقفاه – من غير أن يمسه ، وفى ذلك يقول تميم بن أسد الخزاعى :

ففى الأصنام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب أو العقابا

وحتى تحقق موعود الله في إحقاق الحق وإزهاق الباطل على يد سيد خلقه ، احتمل الأمر عشرين عاماً وأكثر ، والآية : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل ..** ﴾ آية مكية فى سورة الإسراء ، حقق موعودها بعد عشرة أعوام في فتح مكة ، مع أن الإسراء إلى القدس ، والمعراج إلى السمٰوات العلى تم منها ، وهى تعج بالوثنية .

وهُبَل الذى نادى أبو سفيان باسمه وهتف بمجده فى أحد : اعل هُبَل ، ها هو الآن يسقط ، فى الرغام ، أمام عينى أبى سفيان ، ولا يترك الزبير الفرصة تفوت دون أن يكبت أبا سفيان ويذكّره بموقفه فى أحد ، فيجيبه القائد العام لمكة :

دع عنك هذا يابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إلٰه محمد غيره لكان غير ما كان.

وصنم قريش الأكبر الذى جعله على ظهر الكعبة ليكون رمزاً لها ، ها هو على ابن أبى طالب رضى الله عنه يعالجه حتى يسقط ، وترتفع الآن كلمة التوحيد ، وتمرغ كلمة الشرك والوثنية فى التراب ، وتغدو كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا.

الكعبة لم تخل من الوثنية ، فقد كانت تعج بالصور للملائكة والأنبياء والقديسين ، نقلوها عن كنائس النصارى وبيع اليهود ، ولوثوا بها بيت الله الحرام ، ولم يدخل عليه الصلاة والسلام الكعبة إلا بعد أن محى كل ما فيها من الصور التى تمثل معالم الوثنية فيها .

يتم هذا كله ، وقيادات قريش وجيشها تنظر منكسة الرأس ، ولا تستطيع أن تفوه بكلمة واحدة ، بل حياتها رهن كلمة منه عليه الصلاة والسلام ، فقد فتحت مكة ، دونما عقد ولا عهد ، ولا شرط ، وحقق الله تعالى رجاء نبيه :

« اللهم خذ العيون والأبصار – أو خذ على أسماعهم وأبصارهم – فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » .

---

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

٥ — « ألا وكل مأثرة ودم فى الجاهلية تحت قدمى هاتين ، إلا سقاية الحاج وسدانة البيت » .

أما المآثر الخمس فكانت : الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة ، وكانت موزعة بين بنى هاشم وبنى عبد الدار ، وكانت هناك مآثر دونها فى القبائل الأخرى لا ترق إلى مستوى هذه .

أما اللواء ، فكان لبنى عبد الدار ، وأين بنو عبد الدار اليوم من عشرات الألوف من أبناء القبائل ليكون اللواء فى يدهم ، وأين تكون الندوة حيث لا يقطع أمر إلا بها ، وقد أصبح الإسلام يملأ الأفق والمهاجرون والأنصار أصحاب الكلمة العليا فيه ، لقد انتهت الندوة مع هذا الفتح ، وكان يمكن أن يكون لها دور عندما كانت خاصة بأمر قريش وحدها ، أما الآن فالأمر أكبر وأضخم من ذلك . والرفادة التى كانت لبنى هاشم سيعجزون عنها ، أمام الجحافل الجرارة التى ستأتى كل عام إلى الحج ، لقد كان الخطب يسيراً عندما كان الحجيج عشرات أو مئات أما الآن فمن يقوم بأود إطعام هذا الحجيج كله .

وبقيت السقاية والحجابة .

أما السقاية ، فزمزم التى أخرجها الله تعالى من جديد على يد عبد المطلب ، وتكون مأثرة لأولاده من بعده ، لا تزال هى هى حتى الآن تسقى الحجيج ، وقد بارك الله فيها منذ أن أعاد نبعها :

« لا تنزف أبداً ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم » .

وهى تسقى الحجيج وقد غدا مئات الألوف واقترب من الملايين .

وأما حجابة البيت ، فعالمية البيت من الأزل ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فليس أمره أمــر الندوة التى تقرر مصير قريش أو اللواء الذى تحمله بنو عبد الدار نيابة عن قريش ، بل الأمر أعظم من ذلك ، إنه أمر أول بيت وضع للناس فى الأرض لعبادة الله .

وإذا كانت السقاية لم ينازع عليها أحد ، فهى بئر أبيهم عبد المطلب ، لكن أمر الحجابة قد رأينا أبعاده ، من خلال قصة المفتاح الذى كان مع عثمان بن طلحة سيد بنى عبد الدار .

ونشير ابتداء إلى أن هذه المأثرة قد انتقلت حكماً لرسول الله ﷺ منذ أن أعلن عثمان بن طلحة دخوله فى الإسلام ، وأصبحت ملك المسلمين .

يحدثنا خالد بن الوليد رضى الله عنه عن رفقته مع عثمان بن طلحة إلى المدينة للدخول فى الإسلام فيقول :

(فأمرت براحلتى تخرج إلى ، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت : إن هذا لى لصديق ولو ذكرت له ما أريد ! ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أذكِّره . ثم قلت : وما علىَّ وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جُحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج . قال: وقلت له نحواً مما قلت لصاحبه ، فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفخ مناخة قال : فاتعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقنى أقام ، وإن سبقته أقمت عليه . قال : فأدلجنا سمراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ...)[1] .

ويتابع خالد رضوان الله عليه حديثه فيقول : (... وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان)[2] .

فقد كان معدن عثمان بن طلحة مثل معدن خالد ، وخفق قلبه بالإسلام كما خفق قلب خالد ، ولم يُعمه ثأره عن الحق ، فقد قتل أبوه وأعمامه وإخوانه فى أحد ، لقد قتل من بنى عبد الدار قرابة ثمانية من أبطالهم وقادتهم تحت اللواء ، ولم يبق منهم أحد يحمله إلا مولى لهم هو صؤاب غلامهم ، أما قتلى بنى عبد الدار فكانوا طلحة ابن أبى طلحة وأبا شيبة بن أبى طلحة وأبا سعد بن أبى طلحة ثلاثة إخوة ثم جاء دور الشباب بعدهم مسافع بن طلحة بن أبى طلحة، ثم كلاب بن طلحة بن أبى طلحة، ثم الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة، ثلاثة أخوة كذلك قتلوا بعد أبيهم وأعمامهم. ثم حمله أرطأة بن شرحبيل ثم حمله شريح بن قارظ ، وأبيدوا جميعاً ، لم نر عثمان بن طلحة يتقدم لحمل اللواء ، أو غلبه عليه أرطأة بن شرحبيل ضنا به عن القتل بعد مقتل إخوته الثلاثة وأبيه وعميه .

---

(١) و (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٧٤٧ .

لقد شهد عثمان هذه المشاهد كلها ، ولم تكن حاجزاً دون تسلل نور الإيمان إلى قلبه ، ومضى يسرع الخطا بعد الحديبية مع خالد بن الوليد ليبايع رسول الله ﷺ على الإسلام .

وبدخوله فى الإسلام . أصبح مفتاح الكعبة ملكاً للمسلمين وملكاً لرسول الله ﷺ يضعه حيث يشاء .

ويدور الزمن دورته ، منذ أن حال عثمان بن طلحة بين رسول الله ﷺ وبين دخول الكعبة ، وأغلظ فى القول قبل الهجرة ونال منه ، واعتبر دعوته للإسلام إهانة له من رسول الله ﷺ ، إلى أن يرى نفسه بعد الحديبية يهوى على ناقته مع خالد ابن الوليد ليبايع على الإسلام .

ويذكره عليه الصلاة والسلام بموقفه ذاك .

إنها العبرة تمر ، والزمن يمضى ، والإسلام يرتفع ويرتفع ، وتحسب أم عثمان أن الأمر أمر بنى عبد الدار ، فتحجز المفتاح فى حجزتها ، قائلة : لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً . فقال لها وهو يتحدث عن التحول الجديد فى التاريخ :

(لا لات ولا عزى إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى فأنت قتلتينا ، فوالله لتدفعنه أو ليأتين غيرى فيأخذه منك) .

وحين راعها صوت الصديق وابن الخطاب ،ولا يزال ابن الخطاب فى ذهنها كما كان فى الجاهلية ، يدخل الرعب فى القلوب ، عادت فسارعت وأعطت المفتاح ابنها عثمان ، وذلك خير من أن تأخذه تيم وعدى .

ووصل المفتاح ليدى رسول الله ﷺ ، وأراد على بن أبى طالب رضى الله عنه أن تجتمع المآثر كلها بيد بنى هاشم ، ولم لا ، ومنهم رسول الله ﷺ :

إذا افتخرت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها

والله اختار رسوله من بنى هاشم كما فى نص الحديث النبوى ، ولكنها إرادة الله تعالى ، شاءت أن ينزل من السماء آية تحث على إعادة المفتاح لأهله ، بنى عبد الدار .

روى ابن عائذ والأزرق عن ابن جريج رحمه الله تعالى أن علياً رضى الله عنه

قال للنبي ﷺ : اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت : **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾**[1] ، فدعا عثمان فقال : « خذوها يا بنى شيبة خالدة مخلدة » وفى لفظ : « تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى ، أن يخلد بنى شيبة فى التاريخ ، ويجعلهم سدنة بيته من دون الناس جميعاً ، ويعود المفتاح إلى أهله كما كان .

وها قد مر خمسة عشر قرناً على هذا الأمر ولا يزال المفتاح بيد بنى عبد الدار ، تنفيذا لحكم الله عز وجل : « خالدة تالدة إلى يوم القيامة » .

ولو نُزع منهم ، فلا ينزعه إلا ظالم .

٦ ــ ثم كانت الصلاة فى الكعبة ، وكانت الخطبة الخالدة يوم الفتح .

فمن الذى دخل مع رسول الله ﷺ إلى أقدس بيت فى هذا الوجود ، وهو عز العرب إلى آخر الدهر من لدن إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؟

دخل معه أسامة بن زيد ، مولاه بن مولاه ، وبلال بن رباح العبد الحبشى الأسود وعثمان بن طلحة سادن البيت ، هذا الوفد الذى اختاره عليه الصلاة والسلام ليرافقه فى دخول الكعبة من بين عشرة آلاف صحابى ، فيهم من أكرم البيوتات العربية ، وفيهم قادة العرب وسادتهم ، ومع ذلك كان عضوى الوفد العبد والمولى ، بلال وأسامة ، وسادن البيت عثمان .

وذلك لتحويل الكلام النظرى إلى موقف عملى :

« يـٰأيها الناس ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها لآبائها ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : **﴿ يـٰأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**[2] .

أ ــ « يـٰأيها الناس ، الناس رجلان : فبر تقى كريم وكافر شقى هين على الله » .

إن تحويل هذه المبادئ إلى واقع عملى حى ، له دلالته العظمى فى البناء التربوى

---

(١) سورة النساء : ٥٨ . (٢) سورة الحجرات : ١٣ .

للأمة ، فزيد بن حارثة أبو أسامة يوم شاءت إرادته تعالى أن يلغى التبنى من المجتمع الإسلامى ، كان التنفيذ العملى برسول الله عليه الصلاة والسلام ليكون أول مطبق لهذا الحكم ، ويتزوج مطلقة متبناه ، ويوم أراد رسول الله ﷺ أن يعلن للناس الكرامة للتقوى لا للنسب كان رفيقاه إلى عز العرب الكعبة بلالاً الحبشى وأسامة بن زيد مولاه ، برعاية سادن البيت عثمان وإقراره ، ليكون درساً لبنى شيبة كذلك أن يكون البيت لعبادة الله ، فقريش غيرت دين الله يوم ألغت باب الكعبة الثانى ورفعت الباب الأول ، حتى تدخل من تشاء ، وتمنع من تشاء بما يناسب هواها ، لا ما يناسب شريعة الله ، أما الآن ولو عاد المفتاح لبنى عبد الدار من قريش ، فعليهم أن يتعاملوا مع عباد الله جميعاً بالسواء ، وأكرمهم عند الله أتقاهم .

ب ــ والمبدأ الذى حرص عليه الصلاة والسلام أن يعلمه للمسلمين فى هذا الاجتماع الحاشد ، هو أن الله تعالى هو الذى يملك النصر ، وجنده إن هم إلا ستار لقدره :

« لا إلٰه إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

جـ ــ ومن خلال هذا المبدأ نفسه سيكون تعامله عليه الصلاة والسلام مع قريش التى حاربته عشرين عاماً أو تزيد ، وخرجت تحاد الله وتكذب رسوله ، وليس الحكم فى قريش حكماً موتوراً ثائراً ، يود أن يثأر لنفسه ، إنه حكم رسول رب العالمين ، عبد الله ومصطفاه من خلقه الذى نصره وهزم أعداءه ، ومن هذا المنطلق يتم الحكم .

وتعرف قريش رغم حربها الضروس العنيفة أنها تحارب أشرف مخلوق فى هذا الوجود ، تعرف هذا فى أعماقها ، فقد ربّته على يدها وهو صغير ، وعاملته حرباً وسلماً وهو كبير . فهو الأمين عندها قبل البعثة ، وهو الفحل الذى لا يقرع أنفه بعد البعثة ، وهو الذى قال فيه سيد قريش بنى كنانة بعد ما فداه بأبيه وأمه :

(ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، وأعظم عفوك) .

ولهذا لم تجد حرجاً أن تقول له : (نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم) .

وكما قال عنه علىّ رضى الله عنه – وهو يدل ابنى عمه وعمته على طريق الوصول إلى قلب الحبيب المصطفى –: « ائته من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف :

﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾[1] ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً » ، ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام :

﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾[2] .

لقد عرفت هذه المدرسة النبوية الفريدة فى التاريخ والتى لا توجد إلا فى معادن الأنبياء .

﴿ **قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾[3] .

« ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » .

ـــ نظن خيراً ونقول خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

ـــ « فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام .

د ـــ وحتى لا يتحول دخول الناس فى الإسلام إلى مأسدة فى كل بيت ، ومقتلة فى كل قبيلة ، ومأتم فى كل موقع ، بثارات الجاهلية ، فقد صدر الحكم الصارم :

« ألا إن كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » ومع هذا الحكم الصادر وما يعتمل فى قلب الموتورين الحاقدين الذين يتلمظون للثأر ، ويحسبون أن هذه الغلبة دورة من دورات أيام العرب يمكن أن تعود فيها الكرة من جديد ، جاء التطبيق العملى الذى يسرى على سيد ولد آدم :

« وإن أول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » .

هـ ـــ وحتى لا ينفلت الناس من آثار مواقفهم ، فيلجؤون إلى الالتواء على النصوص ، ويقدمون على القتل بغير وسائل القتل المعهودة ، جاء الضمان الثانى للدماء :

---

(١) سورة يوسف : ٩١ . (٢) سورة يوسف : ٩٢ . (٣) سورة يوسف : ٩٠ – ٩٢ .

« ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة ، مائة ناقة ، أربعون فى بطونها أولادها » .

ز ــ والنهى عن القتل عامة لكنه فى مكة أخص لحرمتها :

« ألا وإن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض ، ووضع هذين الأخشبين ، فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ، ولن تحل لأحد كائن بعدى ، لم تحل لى إلا ساعة من نهار » .

إنها تعليمات صارمة ، وكلها موجهة لجيشه ، كى يكون منضبطاً فى تصرفاته ، ملتزماً فى سلوكه ، والجيش مدجج بالسلاح ، خميس عرمرم . فجاءت هذه التعليمات المشددة للحفاظ على الأرواح والأموال وبقيت حرمة مكة ، ليس فقط للناس فيها بل للطير والنبات ، واللقطة :

« لا ينفر صيدها ، ولا يختلى[1] خلاها[2] ، ولا يعضد[3] عضاهها[4] ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد » .

ح ــ وإذا ضمنت حرمة الأنفس ، وحرمة الأموال فلابد من ضمان حرمة الأعراض كذلك :

« وإن الولد للفراش ، وللعاهر الحجر – أى الرجم – ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها » .

ط ــ وتم إلغاء أخوة العصبية لتحل محلها أخوة العقيدة ، وحقوق هذه الأخوة ، وتكاليفها :

« والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، وهم يرد عليهم أقصاهم ، ويعقل عليهم أدناهم ، ومشدهم على مضعفهم ، ومتريهم على قاعدهم » ، فالتكافل قائم بين أبناء المجتمع كله ، ثمرة لهذه الإخوة .

ي ــ واختار عليه الصلاة والسلام مجموعة من الأحكام لأهميتها فى هذا اللقاء

---

(١) يختلى : يقطع .   (٢) الخلى : الرطب من الحشيش .   (٣) لا يعضد : لا يقطع .
(٤) عضاهها : شجر الشوك .

الحاشد لتبليغه للناس ، ومعظم هذه الأحكام استثناءات ومنهيات – فى الميراث والصدقة والبيع والقضاء والنكاح والمرأة والصلاة والصيام واللباس – :

– « لا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد بعهده » .
– « ولا جلب[١] ولا جنب[٢] ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم » .
– « ولا تنكح المرأة على خالتها وعلى عمتها » .
– « والبينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .
– « ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم » .
– « ولا صلاة بعد الصبح وبعد العصر » .
– « وأنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم الفطر » .
– « وعن لبستين ، ألاّ يحتبى[٣] أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، وألا يشتمل الصماء[٤] ».
– « كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر فى ضحوة من نهار الفتح إلى صلاة العصر منه » .

٧ – وحين تقام الحفلات والمهرجانات التى تستمر أياماً وليالى وأشهراً عقب الانتصارات والفتوح ، وتقام الولائم الضخمة وتذبح الذبائح لذلك وتكلف الملايين من الأموال ، فماذا كانت وليمة سيد الخلق يوم الفتح عند ابنة عمه أم هانئ رضى الله عنها ؟ لقد كانت كسر خبز يابسة بللت بالماء ، وقليلاً من الخل والملح ، (فصبه على الطعام ، وأكل منه ثم حمد الله ثم قال : « نعم الأدم الخل ، يا أم هانئ لا يفقر بيت من أدم فيه خل » .

وحق للبشرية كلها أن تفخر بسيد المجاهدين والفاتحين ، وقد أقر عينه كسر الخبز وأدم الخل .

* * *

(١) لا جلب : أى لا يكلف رب الماشية حليبها إلى البلد ليأخذ الساعى منها الزكاة .
(٢) ولا جنب : أى إذا كانت الماشية فى الأفنية فتترك فيها ولا تخرج إلى المرعى فيخرج الساعى إليها .
(٣) الاحتباء : أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشده عليهما .
(٤) اشتمال الصماء : أى يجلل جسده كله بكساء أو إزار لا يرفع شيئاً من جوانبه .

﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾[1]:

١ ـ إسلام أبى قحافة :

روى الإمام أحمد ، والطبرانى برجال ثقات ، ومحمد بن عمر ، والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : لما كان عام الفتح ، ونزل رسول الله ﷺ بذى طوى قال أبو قحافة لابنة له - كانت من أصغر ولده -: يا بنية ، أشرفى بى على أبى قبيس - وقد كُفَّ بصره - فأشرفت به عليه ، فقال : أى بنية ؟ ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً ومجتمعاً كثيراً ، وأرى رجلاً يشتد بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً فقال : ذلك الرجل الوازع . ثم قال : ماذا ترين ؟ قالت : أرى السواد قد انتشر وتفرق ، فقال : والله إذن انتشرت الخيل فأسرعى بى إلى البيت ، فخرجت سريعاً حتى إذا هبطت به الأبطح لقيتها الخيل ، وفى عنقها طوق لها من وَرق ، فاقتلعه إنسان من عنقها ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد ، خرج أبو بكر بأبيه رضى الله عنهما يقوده ، وكان رأس أبى قحافة ثغامة ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا الذى آتيه فيه ؟ » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه ، فأجلسه بين يدى رسول الله ﷺ ، فمسح رسول الله ﷺ صدره وقال : « أسلم تسلم » ، فأسلم ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشدكم بالله والإسلام طوق أختى ، فوالله ما جاء به أحد فقال : يا أخية ، احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة بالناس لقليل قال ابن وهب : وأخبرنى عمر بن محمد عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه .

٢ ـ إسلام فضالة :

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول

(١) سورة النصر : ٢ .

الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شيء أحب إلى منه ، ورجع فضالة إلى أهله . قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقال : لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى على الله والإسلام
إذ مارأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

ذكره أبو عمر فى الدرر ، ولم يذكره فى الاستيعاب وهو على شرطه وذكره القاضى فى الشفاء ونحوه .

٣ ـ ذكر اطلاعه ﷺ على ما همَّ به أبو سفيان :

روى ابن سعد عن أبى إسحاق السبيعى رحمه الله تعالى والحاكم فى الإكليل ، والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالا : رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشى والناس يطؤون عقبه ، فقال بينه وبين نفسه : لو عاودت هذا الرجل القتال ، وجمعت له جمعاً ، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره فقال : « إذن يخزيك الله » فقال : أتوب إلى الله تعالى ، وأستغفر الله مما تفوهت به ، ما أيقنت أنك نبى حتى الساعة ، إنى كنت لأحدث نفسى بذلك .

وروى محمد بن يحيى الذهلى – جمع حديث الزهرى عن سعيد بن المسيِّب – رحمه الله تعالى قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة ليلة الفتح لم يزالوا فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا ، فقال أبوسفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم هذا من الله . قال : ثم أصبح فغدا أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « قلت لهندٍ أترين هذا من الله ؟؟ قالت : نعم هذا من الله » ، فقال أبو سفيان : أشهد أنك عبد الله ورسوله ، والذى يُحلف به ما سمع قولى هذا أحد من الناس إلا الله عز وجل وهند .

وروى ابن سعد والحارث بن أسامة وابن عساكر عن عبد الله بن أبى بكر ابن حزم رحمه الله تعالى قال : خرج رسول الله ﷺ وأبو سفيان جالس فى المسجد ، فقال أبو سفيان : ما أدرى بم يغلبنا محمد ؟ فأتاه رسول الله ﷺ فضرب صدره وقال : « بالله تعالى نغلبك » ، فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله .

٤ ــ ذكر مبايعته ﷺ الناس على الإسلام :

روى الإمام أحمد ، والبيهقى عن الأسود بن خلف رضى الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح . قال : جلس عند قرن مسفلة ، فبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

وقال الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله تعالى : اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام فجلس لهم – فيما بلغنى – على الصفا ، وعمر ابن الخطاب أسفل من مجلس الرسول ﷺ ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ، ولرسوله فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنقبة متنكرة ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يخبرها بما كان من صنيعها بحمزة ، فهى تخاف أن يأخذها بحدثها ذلك ، فلما دنين من رسول الله ﷺ قال : « بايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً » فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال ، فقال : « ولا تسرقن » ، فقالت : والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدرى ذلك أحلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان – وكان شاهداً لما تقول –: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ، عفا الله عنك ، ثم قال : « ولا تزنين » ، فقالت : يا رسول الله ، أو تزنى الحرة ؟ ! ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً . فضحك رسول الله ﷺ وعمر ثم قال : « ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن » فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، ثم قال : « ولا تعصين » ، فقالت : فى معروف ، فقال رسول الله ﷺ لعمر :

« بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » ، فبايعهن عمر ، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس جلد امرأة لم يحلها الله تعالى له أو ذات محرم ، وروى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها : (والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط) . وفى رواية : (ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول : « إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة ») .

قالوا : ونادى منادى رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره .

ذكر إسلام السائب بن عبد الله المخزومى :

روى ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد عن مجاهد عن السائب : أنه كان شارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام فى التجارة ، فلما كان يوم الفتح أتاه فقال : « مرحباً بأخى وشريكى ، كان لا يدارى ولا يمارى، يا سائب ، قد كنت تعمل أعمالاً فى الجاهلية لا تتقبل منك وهى اليوم تُقبل منك » ، كان ذا سلف وخُلَّة .

وروى الإمام أحمد عن مجاهد عن السائب بن عبد الله قال : جىء بى إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فجعل عثمان وغيره يثنون على ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تعلمونى به ، كان صاحبى » .

ذكر إسلام الحارث بن هشام :

روى محمد بن عمر عن الحارث بن هشام قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة دخلت أنا وعبد الله بن ربيعة دار أم هانئ ، فذكر حديث أن النبى ﷺ أجاز جوار أم هانئ ، قال : فانطلقنا فأقمنا يومين ، ثم خرجنا إلى منازلنا فجلسنا بأفنيتها لا يعرض لنا أحد ، وكنا نخاف عمر بن الخطاب ، فوالله إنى لجالس فى ملاءة مورسة[1] على بابى ما شعرت إلا بعمر بن الخطاب ، فإذا معه عدة من المسلمين فسلم ومضى ، وجعلت استحيى أن يرانى رسول الله ﷺ ، وأذكر رؤيته إياى فى كل موطن مع المشركين ، ثم أذكر بره ورحمته وصلته ، فألقاه وهو داخل المسجد ، فلقينى بالبشر ، فوقف حتى جئته فسلمت عليه ، وشهدت بشهادة الحق ، فقال : « الحمد لله الذى

---

(١) مورسَّة ، مصبوغة بالورس .

هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام » ، قال الحارث : فوالله ما رأيت مثل الإسلام جُهِل .

ذكر إسلام سهيل بن عمرو :

روى محمد بن عمر رحمه الله عن سهيل بن عمرو قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر ، اقتحمت بيتى ، وأغلقت بابى علىّ ، وأرسلت إلى ابنى عبد الله : أن اطلب لى جواراً من محمد فإنى لا آمن أن أقتل ، فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أبى تؤمنه ؟ قال : « نعم هو آمن بأمان الله فليظهر » ، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : « من لقى سهيل بن عمرو فلا يحُدَّ النظر إليه ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أن لم يكن بنافعٍ له » ، فخرج ابنه عبد الله إلى أبيه فأخبره بما قاله رسول الله ﷺ فقال سهيل : كان والله براً صغيراً ، وبراً كبيراً ، فكان سهيل يقبل ويدبر آمناً ، وخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة .

ذكر إسلام عتبة ومعتب ولدى أبى لهب :

روى ابن سعد عن ابن عباس عن أبيه رضى الله عنهما قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة فى الفتح قال لى : « أين ابنا أخيك عتبة ومعتب ابنى أبى لهب ، لا أراهما ؟ » ، قلت : تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش ، قال : « ائتنى بهما » ، فركبت إليهما بعُرنة فأتيت بهما ، فدعاهما إلى الإسلام ، فأسلما وبايعا ، ثم قام رسول الله ﷺ فأخذ بأيديهما وانطلق بهما إلى الملتزم ، فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى فى وجهه ، فقلت : يا رسول الله،سرَّك الله إنى أرى السرور فى وجهك ، فقال : « إنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى فوهبهما لى » .

ذكر إسلام عبد الله بن الزبعرى :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قال : هرب عبد الله بن الزُبعرى إلى نجران فأرسل حسان بن ثابت رضى الله عنه أبياتاً يريد بها ابن الزبعرى :

لاتعـدمن رجلاً أحلك بغضه	نجران فى عيش أحذّ[1] لـئيم
بليت[2] قناتُك فى الحروب فألفيت	خوَّارة[3] جوفاء[4] ذات وصوم[5]
غضب الإلٰه على الزبعرى وابنه	وعذاب سوء فى الحياة مقيم

فلما جاء ابن الزبَعْرى شعر حسان خرج إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال : « هذا ابن الزبعرى ، ومعه وجه فيه نور الإسلام » ، فلما وقف على رسول الله ﷺ قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنك عبده ورسوله ، الحمد الله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتك ، وأجلبتُ عليك ، وركبت الفرس والبعير ، ومشيت على قدمىَّ فى عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران ، وأنا أريد ألا أقر بالإسلام ، ثم أرادنى الله منه بخير ، وألقاه فى قلبي ، وحببَّه إلى ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة ، واتباع ما لا ينبغي من حجر يذبح له ويعبد ، لا يدرى من عبده ولا من لا يعبده ، قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجُب ما كان قبله » .

وقال عبد الله حين أسلم :

يا رسول المليك إن لسانى	راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله - مثبور	
آمن اللحم والعظام لربى	ثم قلبى الشهيد أنت النذير
إننى عنك زاجر ثم حياً	من لؤى وكلهم مغرور

ذكر إسلام عكرمة بن أبى جهل :

روى محمد بن عمر عن شيوخه : أن عكرمة رضى الله عنه قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ نذر دمي يوم الفتح ، وكنت فى جمع من قريش بأسفل مكة - وقد ضوى إلي من ضوى - فلقينا هناك خالد بن الوليد ، فأوقع بنا ، فهربت منه أريد والله أن ألقي بنفسى فى البحر ، وأموت تائهاً فى البلاد قبل أن

---

(١) الأحذ : القليل المنقطع . (٢) بليت : فنيت . (٣) خوّارة : ضعيفة .
(٤) جوفاء : واسعة . (٥) ذات وصوم : فتور وكسل وتوانٍ .

أدخل فى الإسلام ، فخرجت حتى انتهيت إلى الشعيبة ، وكانت زوجتى أم حكيم بنت الحارث امرأة لها عقل ، وكانت قد اتبعت رسول الله ﷺ فدخلت على رسول اللّه فقالت : يا رسول اللّه ، إن ابن عمى قد هرب يلقى نفسه فى البحر فأمِّنْهُ .

وروى ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائىّ عن سعد بن أبى وقاص ، رضى الله تعالى عنه ، والبيهقى عن عروة رحمه الله تعالى : أن عكرمة ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فنادى عكرمة اللات والعزى ، فقال أهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً ، فقال عكرمة : والله لئن لم ينجنى من البحر إلا الإخلاص ، فإنه لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم لك عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفواً غفوراً كريماً ، فجاء فأسلم .

وروى البيهقى عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه : أن أم حكيم امرأة عكرمة بن أبى جهل قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، قد ذهب عكرمة عنك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله ، فأمِّنْهُ يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هو آمن » فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومى ، فراودها عن نفسها فجعلت تُمنيه حتى قدمت به على حى من عك فاستعانتهم عليه ، فأوثقوه رباطاً . وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى البحر ، فركب سفينة ، فجعل نوتى يقول له : أخلص أخلص ، قال : أى شىء أقول ؟ قال : قل : لا إلٰه إلا الله ، قال عكرمة : ما هربت إلا من هذا ، وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواتى !! ما الدين إلا ما جاء به محمد ، وغيَّر الله قلبى .

وجاءتنى أم حكيم على هذا الأمر ، فجعلت تليح إلى وتقول : يا بن عم ، جئتك من عند أبر الناس ، وأوصل الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك ، فوقف لها حتى أدركته ، فقالت له : إنى استأمنت لك رسول الله ﷺ فأمَّنك ، فرجع معها وقالت: ما لقيته من غلامك الرومى ، وأخبرته خبره فقتله وهو يومئذ لم يسلم ، فلما وافى مكة قال رسول الله ﷺ : « يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى ، ولا يبلغ الميت » ، فجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها فتأبى عليه وتقول : أنت كافر وأنا مسلمة . فقال : إن أمراً منعك منى لأمر كبير .

قال ابن عقبة والزهرى فيما رواه البيهقى عن عروة وغيرهما : فلما رأى رسول الله ﷺ عكرمة وثب إليه ، وما على رسول الله ﷺ رداء فرحاً بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف عكرمة بين يديه ومعه زوجته متنقبة ، فقال : يا محمد ، إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ، فأنت آمن » قال عكرمة : فإلام تدعو يا محمد ؟ قال : « ادعو إلى أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتفعل وتفعل » ، حتى عد خصال الإسلام ، فقال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى خير وأمرٍ حسن جميل ، قد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه ، وأنت أصدقنا حديثاً ، وأبرُّنا براً ، ثم قال عكرمة : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فسر بذلك رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله ، علمنى خير شىء أقوله ، قال : « تقول : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله » ، قال عكرمة : ثم ماذا ؟ قال رسول الله ﷺ : « وتقول : أشهد الله وأشهد من حضر أنى مسلم مجاهد مهاجر » فقال عكرمة ذلك .

ذكر إسلام صفوان بن أمية :

روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير ، والبيهقى عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبى الله ، إن صفوان بن أمية سيِّد قومى وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه فى البحر ، فأمَّنه ﷺ : قال : « هو آمن » ، فخرج عمير بن وهب حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر ، وقال صفوان لغلامه يسار وليس معه غيره : ويحك !! انظر من ترى ؟ قال : هذا عمير بن وهب ، قال صفوان : ما أصنع بعمير ابن وهب : والله ما جاء إلا يريد قتلى قد ظاهر علىَّ محمداً ، فلحقه فقال : يا أبا وهب ، جعلت فداك جئت من عند أبر الناس ، وأوصل الناس ، فداك أبى وأمى . الله الله فى نفسك أن تهلكها ، هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به ، قال : ويحك ، اغرب عنى فلا تكلمنى ، قال : أى صفوان فداك أبى وأمى ، أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك عِزُّه عِزُّك وشرفه شرفك وملكه ملكك ، قال : إنى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم قال : ولا أرجع معك حتى تأتينى بعلامة أعرفها ، فقال : امكث مكانك حتى آتيك بها، فرجع عمير إلى رسول

الله ﷺ فقال : إن صفوان أبى أن يأنس لى حتى يرى منك أمارة يعرفها ، فنزع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه إياها - وهى البرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ معتجراً به ، برد حبرة - فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلى بالمسلمين العصر فى المسجد فلما سلم رسول الله ﷺ صاح صفوان : يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى ببردك ، زعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتنى شهرين فقال : « انزل أبا وهب » ، قال : لا والله حتى تبيِّن لى . قال : « بل لك تسيير أربعة أشهر » ، فنزل صفوان ، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن وفرق غنائمها ، فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعمًا وشاءً ورعاء ، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : « يا أبا وهب ، يعجبك هذا الشعب ؟ » قال : نعم ، قال : « هو لك بما فيه » ، فقبض صفوان ما فى الشعب وقال عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبى ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأسلم مكانه .

ذكر إسلام هند وما وقع لها من الآيات :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قالت هند بنت عتبة : يا رسول الله ، ما كان على ظهر الأرض خباء - أو قالت : من أهل خباء - أريد أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض خباء - أو قالت : من أهل خباء - أحب إلىَّ من أن يعزوا من أهل خبائك . رواه الشيخان .

وروى محمد بن عمير عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، أن هند أتت رسول الله ﷺ وهو بالأبطح فأسلمت وقالت : الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه ، لمستنى رحمتك يا محمد ، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة به ، ثم كشفت عن نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مرحباً بك » ، فقالت : يا رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض من أهل خباء أحب إلى من أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلىَّ من أن يعزوا من أهل خبائك[١] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٧٠ - ٢٨١ مقتطفات .

١ ــ بعد أن أصدر رسول الله ﷺ عفوه وقال لقومه : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ ، « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، لم يذهب هؤلاء ليخططوا فى الخفاء على حرب رسول الله ﷺ ، ويمثلوا شبكات تجسس ، وحزب معارضة سرى منافق .

لقد رأوا أمام أعينهم كيف تكسر الأصنام وتهوى فى الرغام ، ورأوا الأرض تموج فى الإسلام ، فأقبلوا يدخلون فى دين الله أفواجاً ، (فبايع الناس على الإسلام فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله) .

ومن الذى ينظم هؤلاء الناس ليبقيهم على شركهم ، لقد فرت قياداتهم واختفت ، ورأوا بأم أعينهم عظمة الرسول والرسالة ، ورأوا تعظيم الحرمة وتعظيم البيت ، ولم تشهد مكة منذ أن وضع البيت فيها مثل هذه الأمواج البشرية بين قائم وقاعد وراكع وساجد وطائف وساع ، كلهم يذكرون الله ويوحدونه ، فكيف لا يدخل الناس فى هذا الدين ؟ .

٢ ــ والذين يسيطر عليهم الحقد بإمكانهم أن ينزووا فى بيوتهم ، ولا يتعرض لهم أحد ، لكن بعضهم وهو فضالة ، وكما يسمع عن قتال العرب رآها فرصة سانحة أن يتربص بمحمد ويقتله ، فهو من بنى بكر أعداء محمد ﷺ ، وقد رأى كيف أبيح لخزاعة أن تثأر من بكر ساعة من نهار ، وأراد الله تعالى به الخير ، فنفذت نظرة محمد ﷺ إلى أعماقه ، ولم يحر جواباً وهو يرى رسول الله ﷺ يسأله : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال : « استغفر الله » ، وكانت اللمسة النبوية الحانية التى قلبته إنساناً آخر كما يقول : (والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خُلق شيء أحب إلى منه) ، بعد أن كان أبغض الناس إليه ويهم بقتله والثأر منه ، ثم كان أن دعى إلى الحديث مع خليلته ، فكان جوابه القاطع :

أيقنت دين الله أضحى بيننا   والشرك يغشى وجهه الإظلام

إن عظمة هذا الدين وجديته ، حين تنال الإنسان من أعماقه ، تحيله خلقاً آخر كأنما ولد من جديد، وكما يقول التعبير القرآنى الفريد المعجز :

﴿ أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾[1] .

إنها ساعة فقط ، وينخلع من جاهليته ، ومن الهوى الذى كان محور شخصه ، فما بال مسلمينا اليوم حين يتحكم الهوى بأحدهم ، نـراه يبقى سنين طوالاً حتى يقتلع منه .

إن جدية الأمر عند الجيل الأول ، أزالت هذا التناقض من حياتهم ، فهو إما محارب لله ورسوله ، يبذل ماله وأهله وحياته فى حرب هذا الدين ، وإما مسلم صادق الإسلام ، يحارب أهله وإخوانه وأقرب الناس إليه فى سبيل الله ، مع أن الفاصل الزمنى قد لا يتجاوز الساعات .

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ... ﴾ .

هكذا دعى المؤمنون ليفعلوا ، واستجابوا ، وبهذه المعادن والنماذج أمكن تغيير الأرض من الضلال إلى الهدى ، بعد أن كان التغيير فى النفوس كاملاً من الظلمات إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة .

٣ ــ وحين ننتقل إلى الحديث عن المعادن ، نجدنا مساقين للوقوف أمام هذه القيادات الكبرى فى الجاهلية ، والتى حملت له الحرب الشرسة ضد الإسلام سنوات طوالاً ، فنشهد كيف تم تحولها إلى الإسلام .

ولابد أن نشير إلى أن هذه الظاهرة ظاهرة فريدة فى التاريخ ، أن ينقلب أعدى العدو ، وقيادة الطاغوت ، إلى قيادات فى الصف الإسلامى تأخذ موقعها مباشرة دون أى فاصل زمنى .

وإذا عدنا إلى هذه القيادات ، التى رفضت الهدنة والصلح والاستسلام ، نجد أنها محصورة فى أربعة نماذج ، هى : هند بنت عتبة زوجة القائد العام ، وعكرمة بن أبى جهل ، سيد بنى مخزوم ، وصفوان بن أمية سيد بنى جمح ، وسهيل بن عمرو سيد بنى عامر بن لؤى .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

هؤلاء الأربعة الكبار كان لدخولهم فى الإسلام دور جديد ، جعل مكة كلها معقل الإسلام الثانى بعد المدينة المنورة ، ولنقف مع كل واحد منهم على حدة :

٤ ــ هند بنت عتبة حتى اللحظة الأخيرة وهى تطالب بقتل زوجها ، وتؤلب الناس ضد رسول الله ﷺ ، وها هى تحدثنا عن نفسها فتقول - كما روى محمد ابن عمر بسنده عنها - :

وأنا عاديته كل العداوة ، وفعلت يوم أحد ما فعلت من المثلى بعمه وأصحابه ، وكلما سيرت قريش مسيرة فأنا معها بنفسى أو معينة لقريش ، حتى إنى كنت لأعين كل من غزا إلى محمد حتى تجردت من ثيابى) .

هذه هند عارية قبل دخولها فى الإسلام وحتى اللحظات الأخيرة التى أوتى فيها إلى بيتها ، مغلقة بابها عليها وقلبها يتنزى حقداً على الإسلام والمسلمين ، وفى هدأة الليل ، الذى شق سكونه الأصوات المجلجلة من البيت الحرام (فلم يزالوا فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا) ، وكان أبو سفيان يرى ذلك الوجوم الذى نزل بها فألقى قنبلة ولا يدرى أتنفجر عليه أم تقتل براثن الشرك فى نفس هند :

(أترين هذا من الله ؟ . قالت : نعم هذا من الله) .

وبهذا التسلل الخفيف إلى قلب هند كأنما نفذ سهم إلى أحشائها ، فأصاب كبد الشرك فى قلبها فنحره .

وتحدثنا وقد هدَّها الإعياء خلال ليالى الفتح ماذا ترى كلما أخلدت إلى النوم :

(فرأيت فى النوم ثلاث ليالٍ ولاء بعد فتح مكة ، رأيت كأنى فى ظلمة لا أبصر سهلاً ولا جبلاً ، وأرى تلك الظلمة انفرجت على بضوء كأنه الشمس ، وإذا رسول الله ﷺ يدعونى ثم رأيت فى الليلة الثانية كأنى على طريق يدعونى ، وإذا هُبَل عن يمينى يدعونى ، وإذا إساف عن شمالى يدعونى ، وإذا برسول الله ﷺ بين يدىَّ يقول : « هلمى إلى الطريق » ، ثم رأيت الليلة الثالثة كأنى واقفة على شفير جهنم يريدون أن يدفعونى فيها وإذا بهبل يقول : أدخلوها ، فالتفت ، فأنظر رسول الله ﷺ من ورائى آخذ ثيابى ، فتباعدت من شفير النار فلا أرى النار ، ففزعت فقلت : ما هذا ؟)[1] .

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

إن أعماقها بدأت تناديها بالاتجاه إلى الإسلام ، وكانت الأحلام هى المتنفس الوحيد لهذه الأعماق ، أما ذاتها العليا وكبرياؤها ، فكانت تكبت هذه الأحلام ، وتكتم هذه النداءات ، لكنها استمرت إلى حد حطمت فيه هذه الذات بكل مظاهرها المشركة الوثنية ، وبطبيعتها ومعدنها الذى لا يعرف الازدواجية ، والذى لا يستطيع أن يكون إلا عدواً لدوداً أو صديقاً حميماً ، لا يستطيع إلا أن يكون كفراً بواحاً أو إسلاماً بواحاً ، بطبيعتها وسجيتها التى لا تعرف التذبذب والخور والغدر ، تعرف أن تكون على رأس الموقف الذى تختاره ما تمالكت فى الليلة الثالثة أن حطمت شركاً بيدها كما تقول :

(فقلت : ما هذا ؟ وقد تبين لى . فغدوت من ساعتى إلى صنم فى بيت كنا نجعل عليه منديلاً ، فأخذت قدوماً فجعلت أفلذه[1] وأقول : طالما كنا منك فى غرور . وأسلمت)[2] .

وانتظرت انبلاج الصبح فراحت مع نسوة مكة ، وهى على رأسهن متنقبة متنكرة ، لتحفظ حياتها بالإسلام ، قبل أن تقتل مشركة ، وكانت من الوضوح ، والقوة والإيمان الذى غمر كل ذرة فى كيانها ، تعبّر بصراحة وقوة عما فى نفسها :

(يارسول الله ، ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أريد أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما عاد على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزوا من أهل خبائك ، قال : « وأيضاً والذى نفسى بيدى »)[3] .

ولمعرفة رسول الله ﷺ بطبيعة هذا البيت وطبيعة معدنه ، يقسم عليه الصلاة والسلام على أن أحب البيوت أن تعز إليه هى بيت أبى سفيان وهند بنت عتبة بعد أن دخل فى الإسلام ، « وأيضاً والذى نفسى بيده » .

٥ ـــ وحديثنا عن سيد بنى عامر بن لؤى سهيل بن عمرو ، والذى كان رسول الله ﷺ يربأ به عن الشرك ، رغم كل ما أبدى من تجهم ومحادة لله ورسوله فى

---

(١) أفلذه : أقطعه .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى / ٧ / باب فضائل أصحاب النبى ﷺ .

الحديبية ، لقد كان عليه الصلاة والسلام يخبر معدن سهيل بن عمرو منذ أن وقع بين يديه أسيراً فى بدر ، ففى الوقت الذى أمر فيه عليه الصلاة والسلام بقتل النضر ابن الحارث، وقتل عقبة بن أبى معيط صبراً ، يأتى إليه عمر رضى الله عنه فيقول :

يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو ، ويدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً .

فقال ﷺ : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً » .

قال ابن إسحاق : وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لعمر فى هذا الحديث : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه »[1] .

وجاء مكرز بن حفص فوضع رجله فى القيد ، وأفدى سيد قومه بنفسه وقال :

رهنت يدى والمال أيسر من يدى ... علىَّ ولكنى خشيت المخازيا
وقلت سهيل خيرنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى ندير الأمانيا

ورغم كل ما أبدى من حلف الحديبية ، قال عنه عليه الصلاة والسلام حين رآه : « لقد سهل عليكم أمركم ، لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا » .

وهو نفسه الذى قال عنه عليه الصلاة والسلام وهو متجه إلى مكة ليفتحها :

« إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام » ، قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتَّاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم ابن حزام ، وسهيل بن عمرو » .

ومع ذلك ، فقد كان سهيل على رأس المحاربين بعد استسلام مكة مع صفوان وعكرمة ، وحين فر من المعركة وأغلق عليه بابه ، لم يفعل كما فعل رفيقا دربه ، بل كان يطمح بالعفو من خلال ابنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وحصل على العفو الكريم الصريح : « هو آمن بأمان الله فليظهر » .

وعاد عليه الصلاة والسلام ليؤكد الثناء على سهيلٍ رغم حربه له : « من لقى سهيل بن عمرو فلا يحد النظر إليه ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ١ / ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

سهيل يجهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافعٍ له » .

لم يكن عليه الصلاة والسلام يلقى كلمات الثناء جزافاً ، وحاشاه من ذلك ، لقد كان بنفاذبصره بسهيل وسبره لمعدنه النفيس يعرف فعل هذا الثناء فى نفسه ، لقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك أعماق سهيل أكثر مما يدركها سهيل نفسه .. وتركه حتى يُزيح الغطاء من نفسه ، ورأى حقيقة الأمن الذى تمتع به ، حتى ليمر به عمر رضى الله عنه فيسلم عليه ويبتسم له ، وفاض قلبه بعظمة محمد عليه الصلاة والسلام :

(وكان والله براً صغيراً ، وبراً كبيراً) .

وعلى طبيعته وهدوئه ، استمر على شركه حتى أسلم بالجعرانة ، بعد أن حضر حنيناً مشركاً. ولم يكن لأمنه الذى أخذه حد ، ولم يقبل على الإسلام رهبة من السيف ، أو خوفاً من العقوبة ، ولم يؤذ عليه الصلاة والسلام شخصه ، بل وجه جميع المسلمين إلى احترامه – وهو على شركه – ويطلب منهم أن من رآه فلا يحد النظر إليه ، وهكذا يعامل سادات القوم ، وتحترم أشخاصهم وإرادتهم ، ولا تثلب كرامتهم أو تجرح كبرياؤهم حتى يدخلوا فى الإسلام بكامل قناعتهم وعميق إحساسهم .

وهذا سهيل رضى الله عنه ، الذى رأينا تثاقله عن الإسلام حتى الجعرانة بعد حنين ، أين نراه يوم ارتدت الأرض العربية ، هل كانت فرصة له لينقض من جديد ، ويرتد إلى الشرك بعد إذ أنقذه الله منه . لقد انقض فعلا ولكن كيف ؟

قال ابن هشام : (حدثنى أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتّاب ابن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عمّا هموا به ، وظهر عتَّاب بن أسيد)[1] .

وهذا هو الموقف الذى قال عنه عليه الصلاة والسلام لعمر :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٦٦٥ ، ٦٦٦ .

« عسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه » .

٦ ــ أما القائدان الآخران ، فكانا صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، وكان كلاهما يحمل الأحقاد الموروثة كابراً عن كابر ، فعكرمة هو ابن أبى جهل فرعون هذه الأمة ، وقتيل بدر ، وأمية بن خلف قتيل بدر ، وابنه على كذلك . ولذلك بقيا يذودان عن ثأرهما ودينهما حتى آخر لحظة من حياتهما ، وعرفا أن لا مقام لهما بمكة ، وعكرمة بالذات قد أهدر رسول الله ﷺ دمه ، وكان الذى أنقذ صفوان صديق صباه ، والذى أنقذ عكرمة شريكة حياته أم حكيم .

ولا ننسى التاريخ المشترك بين عمير بن وهب وصفوان بن أمية ، فعمير هو الذى قال لصفوان بعد بدر :

(أما والله لولا دين علىَّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهن الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبيلهم علة : ابنى أسير بين أيديهم ؛ فاغتنمها صفوان وقال : علىَّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء وأعجز عنهم . فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك قال: أفعل)[1] .

وانتهى عمير بن وهب رضى الله عنه مسلماً ، وقال للحبيب المصطفى صلوات الله عليه :

(يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ؟ فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه فحلف ألاَّ يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً)[2] .

---

(١) و (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ١ / ٦٢١ وما بعدها .

لقد مضت ستة أعوام ، وعمير يتربى على يدى رسول الله ﷺ ويجاهد فى سبيل الله ، وصفوان يزداد حنقاً وغيظاً على محمد وصحبه ، وعلى صديق صباه وقريبه عمير ، ولذلك عندما قال له مولاه يسار : هذا عمير بن وهب ، وهو يعرف أن هؤلاء المسلمين يقتلون أباهم وأخاهم وأقرب الناس إليهم فى سبيل دينهم ، فلم يتمالك أن قال : (وماذا يريد منى عمير ، والله ما جاء إلا يريد قتلى قد ظاهر علىَّ محمداً) ، فهو لم يره بعد مؤامرة الحجر وتبيت قتل النبى ﷺ ، ولكن عميراً كان يُكبر صفوان ويعرف له فضله وسيادته فى قومه ، وبذل جهداً مضنياً لإقناع صفوان رضى الله عنه بالعودة إلى مكة ، وعداء صفوان الشديد لم يفسح له صدره ولو فسحة أمل بسيطة فى إمكانية الأدلة . فهو يرى أن محمداً لابد قاتله ، ولم يطمئن حتى جاءته علامة واضحة وهى عمامة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجاء بشخصه وقناعاته وغيظه الذى يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، هل صحيح أن محمداً أمَّنهُ ، فلا يكاد عقله يصدق ذلك ، ويتودد له عليه الصلاة والسلام فيقول له: « انزل أبا وهب » . ويأبى النزول ليتأكد من الأمان ، ويبقى على راحلته حتى أخذ أمانا منه لفترة شهرين مددت لأربعة أشهر .

كان صفوان يحيا الحياة الإسلامية فى مكة وبين المسلمين وهو على شركه ، وبدأ يحس مرحلة التناقض الضخمة التى تصدّع الرأس ، ولا تدفعه إلى قرار معين ، فالمسلمون حول الحرم قائمون راكعون ساجدون طائفون ، وقد دخل الناس جميعاً فى الإسلام ، وتأبى عليه زعامته وثأره أن ينضوى تحت قيادة محمد ﷺ ، رغم حسن معاملته له ، ومن أجل ذلك عندما طلب رسول الله ﷺ من صفوان مالاً يستقرضه ، وأدراعاً يستعيرها ، نعرته جاهليته ، فقال : أغصبا يا محمد ، قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح[1] ، وأقرضه خمسين ألف درهم .

لقد شعر أنه مناط ثقة محمد ﷺ ، لكن قيمة المال لم تنقص عنده ، فمحمد ﷺ قد استقرض منه واستعار .

وكانت تلك اللحظة ، فمحمد عليه الصلاة والسلام ، والمسلمون ومعهم صفوان

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٩٢ .

يقاتلون هوازن فى حنين ، ورضى أن يكون فيها متريثاً بدون قتال .

قال ابن عقبة : (ومر رجل من قريش بصفوان بن أمية . فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لايجبرونها أبداً ، فقال صفوان : أتبشرنى بظهور الأعراب ، فوالله لرب من قريش أحب إلى من رب الأعراب .

وغضب صفوان لذلك ، وبعث صفوان غلاماً له ، فقال : اسمع لمن الشعار ، فجاءه فقال : سمعتهم يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، فقال : ظهر محمد ، وكان ذلك شعارهم فى الحرب)[1] .

لقد أحس بذوبان جليد الحقد عن نفسه ، وأحس بتعاطف شعورى عميق مع محمد ﷺ ، وبعث غلامه وهو فى قلق شديد يود أن يعرف لمن الدبرة ، ولمن الجولة .

لقد أصحبت الهوة بينه وبين محمد ﷺ هوة النبوة ، أما هوة الحقد فقد ردمت ، فكيف تحطمت هوة الشرك عن صفوان .

كان ذلك وهما يسيران يتناجيان، فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعماً وشاء ورعاء ، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : « يا أبا وهب ، يعجبك هذا الشعب ؟! » قال : نعم . قال : « هو لك بما فيه » .

وفى لحظة خالدة من لحظات العمر ، استعاد فيها نفسه الكريمة الجوادة ، ولاحظ المدى الذى يجود فيه ، ورأى هذا الشعب كله قد صار له ، فقال : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبى .

لقد رأى النبوة رأى عين ، وهو يرى معادن الرجال بدون نبوة أين تقف ، لكن هذا الجود لا يطيقه بشر ، فأسلم وحسن إسلامه ..

(يقول معروف بن جرمود : كان صفوان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ، ووصله لهم الإسلام من عشر بطون)[2] .

وفى الخط نفسه والأعماق نفسها فى النفس يتم الحديث عن عكرمة بن أبى جهل

---

(١) المصدر نفسه / ٥ / ٤٧٣ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة / ٢ / ٢٤٧ دار الكتب العربية ، لبنان .

فكلاهما فر إلى اليمن ، لكننا نجد أن الهزة الوجدانية قد أزاحت الركام عن نفس عكرمة ، وهو على وشك الركوب فى البحر .

لقد حدثنا عن أعماق ذاته فقال : بلغنى أن رسول الله ﷺ ، نذر دمى يوم الفتح ، وكنت فى جمع من قريش بأسفل مكة ، وقد ضوى إلى من ضوى ، فلقينا هناك خالد بن الوليد فأوقع بنا ، فهربت منه أريد والله أن ألقى بنفسى فى البحر ، وأموت تائهاً فى البلاد قبل أن أدخل فى الإسلام .

لقد تقطعت كل الحبال بينه وبين محمد ﷺ ، وبينه وبين الإسلام ، فدمه مهدور ولم يكتف حتى ألب الناس لقتال محمد ﷺ وقاتله .

أما الهزة الوجدانية التى حولت المجرى فى أعماقه بعد المجرى السابق ، فكانت حين أراد أن يركب البحر . (فجعل نوتى يقول له : أخلص أخلص ، قال : أى شىء أقول ؟ . قال : قل : لا إلـه إلا الله . قال عكرمة : ما هربت إلا من هذا ؟) .

ولئن هرب فى جسده ، فأين يهرب فى قلبه ، لقد سد الأمر عليه أفق الشرك كله :

(قلت : وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواقى ! ما الدين إلا ما جاء به محمد ، وغير الله قلبى) .

إنه عرض سينمائى صادق لأعماق ذاته : (وغير الله قلبى) .

وفى هذه الأثناء ، حضر من يقود جسده وشخصه إلى رسول الله ﷺ ، وينزع كل أفاعى الإصرار على الشرك ، أفاعى الذات ، والخوف من القتل .

لقد زال الحقد فى نفس صفوان قبل أن يسلم .

وأسلم عكرمة قبل أن تزول عوامل الحقد من الخوف من قلبه ، وذلك حسب التجربة الشعورية التى مر بها كل واحد منهما ، وحسب الظروف التى واجهتهما .

ولئن أنقذ صفوان صديقه الحميم ، وخليل صباه عمير بن وهب الجمحى ، فقد أنقذ عكرمة بن أبى جهل شريكة عمره ، وزوجه الحبيب أم حكيم بنت الحارث بن هاشم ، وكانت – كما قال عنها عكرمة – امرأة لها عقل ، وكانت قد اتبعت رسول الله ﷺ) .

وفى لقائه مع زوجه تم قتل كل أفاعى الذات والأنا عند عكرمة :

يابن عم جئتك من عند أبر الناس ، وأوصل الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك ، ووقف لها حتى أدركته ، فقالت له : إنى قد استأمنت لك رسول الله ﷺ فأمنك .

لقد كان هذا الجانب هو الذى يرعبه ، فلما بلغه الأمان مضى ، لأن الحواجز بينه وبين دين الإسلام قد سقطت منذ قال له النواتى : قل : لا إلـه إلا الله .

وزادت أعماق هذا الدين فى قلبه على الطريق ، لقد لامس هناك الإسلام عقله ، ها هو الآن يلامس قلبه ، فزوجه التى أمضى عمره معها ، وما تلكأت لحظة عن طلبه ، ها هى الآن غير ذلك :

(فجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها ، فتأبى عليه وتقول : أنت كافر وأنا مسلمة . فقال :

إن أمراً منعك منى لأمر كبير) .

ولكن كيف كان اللقاء بين أعظم البشر وبين عكرمة ؟

إن رسول الله ﷺ لا ينسى ، وقد لاح عكرمة من بعيد ،أنه ابن العدواللدود له ، ابن فرعون هذه الأمة ، ابن أبى جهل ، لكن أوامره عليه الصلاة والسلام - وهو يعرف أن كل النفوس معبأة ضد عدو الله أبى جهل ، وضد عكرمة ، الذى بقى يقاتلهم على خط أبيه حتى آخر لحظة من وجوده فى مكة ، وفر منهزماً حتى لا يسلم - كانت أوامره :

« يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ، ولا يبلغ الميت » .

إننا نعجز فى كل ماتملك أن نتحدث ، ولو بطرف يسير جداً ، عن عظمة هذا النبى ، وهو يتلقى هؤلاء الأعداء الألداء ، ولن يدرك التعبير عن هذا إلا من هو فى أفق النبوة ، لكننا نتحدث عن أعماق هؤلاء الناس الذين كانوا يتحرقون غيظاً ، وينزون حقداً على رسول الله ﷺ .

وقال عليه الصلاة والسلام عنه : « يأتيكم عكرمة مؤمناً مهاجراً » ، وذلك قبل أن يلتقى به ، فقد أعلمه ربه ذلك ، عليه الصلاة والسلام ، ولقدوم عكرمة ، وثب إليه وما على رسول الله ﷺ ، رداء فرحاً بعكرمة .

وكان عكرمة يفجر أنهار الحب والإعجاب فى قلبه ، وأنهار الإيمان فى قلبه وهو يقول :

(والله ما دعوت إلا إلى خير ، أمر حسن جميل ، قد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه ، وأنت أصدقنا حديثاً ، وأبرنا براً) ثم قال : فإنى أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولم يكتف بذلك ، فكيف يسر محمداً ﷺ أكثر وأكثر : يارسول الله ، علمنى خير شيء أقوله ... قال : ثم ماذا قال : « تقول : أُشهد الله وأُشهد من حضر أنى مسلم مجاهد مهاجر » فقال عكرمة ذلك .

وترجم عكرمة رضى الله عنه هذا الكلام واقعاً عملياً ، فقد كان من قادة الفتوح بعد أن قاد الجيوش ضد المرتدين ، وحضر فتح الشام فى معارك عديدة ، ويروى الطبرى بسنده عن سبب قصة استشهاده باليرموك ، فيقول :

(قاتلت رسول الله فى كل موطن ، وأفر منكم اليوم ، ثم نادى : من يبايعنى على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحة وقتلوا إلا ضرار بن الأزور)[1] .

وفى فتح فحل عن الزهرى قال :

(إن عكرمة بن أبى جهل يومئذ كان أعظم الناس بلاء ، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقيل له : اتق الله ، وارفق بنفسك ، فقال : كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فأبذلها لها أفأستبقيها عن الله ورسوله ؟! لا والله أبداً .

قالوا : فلم يزدد إلا إقداماً حتى قتل رحمه الله تعالى)[2] .

---

(١) و (٢) أسد الغابة فى تاريخ الصحابة لابن الأثير / ٤ / ٧٢ ط . كتاب الشعب .

لقد كان كفئاً كريماً فى الجاهلية والإسلام ، ومثل صورة المعدن النفيس الذى غمرته أوحال الجاهلية ، كما تكون المعادن فى قلب الأرض ، ومنذ أن أزيح هذا الركام عنه تبينت نفاسته وجوهره .

٧ ــ وبصدد الحديث عن عكرمة بن أبى جهل بن هشام ، فلابد من عرض عمه الحارث بن أبى هشام وهما اللذان انتهت إليهما زعامة مخزوم ، وهو الذى دخل فى جوار أم هانئ ، وكما يقول : (فانطلقنا فأقمنا يومين ثم خرجنا إلى منازلنا ، فجلسنا بأفنيتها لا يعرض لنا أحد ، وكنا نخاف عمر بن الخطاب ، فوالله إنى لجالس فى عباءة مورسة على بابى ما شعرت إلا بعمر بن الخطاب ، فإذا معه عدة من المسلمين فسلم ومضى) والغريب أن يخافه الحارث وهو ابن أخته حنتمة ، وهو خاله ، لكنه خوف التبكيت والحياء وليس خوف القتل والضرب ، فبعد أمان رسول الله ﷺ لن يعرض له أحد .

وقد تحول على مستوى تحول ابن أخيه عكرمة ، وذلك من خلال معيشته فى المجتمع الإسلامى ، فقد كان إسلامه وإكباره لمحمد فى وقت واحد :

(وجعلت أستحيى أن يراني رسول الله ﷺ ، وأذكر رؤيته إياى فى كل موقف مع المشركين – إن الرجال لتستحى من الرجال ، وإن الأشراف ليقدرون الأشراف – ثم أذكر بره ورحمته وصلته ، فلقينى بالبشر) .

وكان هذا البشر هو الذى قدم اللمسة الحانية التى مسحت غشاوة الجاهلية عن قلبه وبصره : (فوقفت حتى جئته فسلمت عليه وشهدت بشهادة الحق) .

لئن احتاج عكرمة إلى النوتى يذكره بالله الواحد ، واحتاج صفوان للشعب بنعمه وشائه ليدرك من عطائه أنه نبى ، واحتاجت هند إلى رؤى متتالية حتى تبين لها الحق ، فإن الحارث بن هشام ، قد كانت بشاشة رسول الله ﷺ له وبشره وحفاوته به كفيلين أن يغيرا قلبه كله ، وعندما أعلن إسلامه قال له عليه الصلاة والسلام : « الحمد الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام » .

قال الحارث : فوالله ما رأيت مثل الإسلام جُهِل .

ومضى الحارث شهيداً على خط ابن أخيه عكرمة ، حيث بايعه على الموت ، وقتل شهيداً تحت راية ابن عمه خالد .

٨ ـــ ولئن كان عدو الله أبو جهل قد دخل أخوه وابنه فى الإسلام وطويت صفحة عداء مخزوم للإسلام إلى الأبد لتفتح صفحة جديدة فى الذود عن الإسلام ، فلا يزال فى بنى هاشم من لم تلن قناته للإسلام بعد .

وحين يُذكر العدوان الألدان للإسلام كثيراً ما يقترنان مع بعضهما وهما أبو جهل وأبو لهب ، وقد نزل فيهما قرآن لا يزال يتلى إلى يوم القيامة .

وإن كان جيب أبى جهل قد انتهى ، فلابد أن ينتهى جيب أبى لهب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لعمه العباس : « أين ابنا أخيك عتبة ومعتب ابنى أبى لهب لا أراهما ؟ » ، قلت : تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش ، قال : « ائتنى بهما » ، فركبت إليهما بعرنة ، فأتيت بهما ، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما وبايعا .

لكن رسول الله ﷺ يريد لهما أن يكونا فى قلب هذا الدين لا على هامشه ، وأن يأخذا موقعهما بجوار رسول الله ﷺ وفى الصف الأول .

فانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى فى وجهه ، فقلت : يا رسول الله ، سرك الله إنى أرى السرور فى وجهك فقال : « إنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى فوهبهما لى » .

وبذلك انتهى أبناء أبى لهب وأبى جهل أبطالاً فى الصف الإسلامى ، فقد كانا بجوار رسول الله ﷺ فى حنين يوم فرَّ من فرَّ من الآلاف المؤلفة .

٩ ـــ وكان بجوارهما ممن ثبت فى حنين أبو سفيان بن الحارث ، ابن عم رسول الله ﷺ ، الذى شهر لسانه فى هجاء الرسول عليه الصلاة والسلام طيلة عشرين عاماً ، دون كلل . قال عنه عليه الصلاة والسلام فى أبلغ تعبير : « أما ابن عمى فقد هتك عرضى ، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » .

وهذان قد مضيا ليلقيا رسول الله ﷺ قبل دخول مكة ، وينالا شرف الهجرة ، وأبى رسول الله ﷺ أن يلقاهما لما يحس من ألم منهما ، لكن علياً رضى الله عنه هو الذى دلهما على مفتاح قلبه ، فقال لهما : ائتياه من قبل وجهه فقولا له ما قال

إخوة يوسف : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾[1] ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل أبو سفيان فقال له ﷺ : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾[2] .

وانتقل أبو سفيان بن الحارث رضى الله عنه ليكون من الصف الأول كذلك ، فهو ابن عمه وأخوه من الرضاعة ، كما كان حمزة عمه وأخاه من الرضاعة ، ورفعه إلى مقام خاصته فقال له :

« أرجو الله أن تكون خلفاً لى من حمزة »[3] .

ومع هؤلاء السائب بن عبد الله شريك الرسول ﷺ فى شبابه .

وبذلك انضم أقرباء الرسول ﷺ جميعاً إلى الإسلام ، كما انضم كذلك أبو سيد المسلمين أبى بكر الصديق ، أبو قحافة ، الذى جاء وأسلم بين يدى رسول الله ﷺ ، وأكرمه عليه الصلاة والسلام ، فقال له :

« هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه » .

وهو إكرام لوزيره الأول عليه الصلاة والسلام فى إكرام أبيه ، ودخوله فى الإسلام .

١٠ ــ وحين يذكر فتح مكة ، لابد من الوقف عند النفر الذين أهدر رسول الله ﷺ دمهم ، ونلاحق أوضاعهم ، فيبقون هم أعدى العدو .

وأسلم منهم هند بنت عتبة وعكرمة بن أبى جهل ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، شفع فيه عثمان يوم الفتح ؛ لأنه أسلم ثم ارتد ، فحُقن دمه ، وأسلم وحسن إسلامه ، ومات وهو ساجد فى صلاة الصبح ، وهبار بن الأسود ، الذى نخس الناقة بزينب بنت رسول الله ﷺ فأسقطت .

ونشهد قصة إسلام – هبار بن الأسود – كما رواها الواقدى عن جبير بن مطعم قال :

كنت جالساً مع رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة ، فطلع هبار ، فقالوا : يا رسول الله ، هبار بن الأسود ، قال : « قد رأيته ، فأراد رجل القيام إليه فأشار

---

(١) سورة يوسف : ٩١ . (٢) سورة يوسف : ٩٢ . (٣) شرح المواهب للزرقانى / ٢ / ٣٠٣ .

إليه أن اجلس ، فوقف هبار فقال : السلام عليك يا نبى الله ، أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقد هربت منك فى البلاد ، وأردت اللحاق ، بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك ، وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح عن جهلى وعما كان يبلغك عنى ، فإنى مقر بسوء فعلى معترف بذنبى ، فقال ﷺ : « قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك إذ هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما قبله »[1] .

وكعب بن زهير،وجاء بعد ذلك وأسلم ومدح رسول الله ﷺ ببردته المشهورة وكان هؤلاء الثلاثة شعراء قريش ، كعب وأبو سفيان ، وكان ثالثهم ابن الزبعرى الذى جاء يلقى نفسه بين يدى رسول الله وقال له :

يا رسول المليك إن لسانى ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
آمن اللحم والعظام لربى ... ثم قلبى الشهيد أنت النذير

لقد انتهى قادة مكة أبطالاً وشعراء جنوداً بين يدى النبى ﷺ .

وباتت مكة بكل ما فيها مسلمة .

لأن الآخرين الذين أهدر دمهم قد قتلوا ، فعن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على رأسه المغفر ، فلما نزعه جاء رجل فقال : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقتلوه » رواه الإمام مالك والشيخان .

ولم لا يُقتل ابن خطل ، وقد ارتد بعد إسلامه ، وقتل مولاه المسلم ؛ لأنه لم يصنع له طعاماً ، وهرب إلى مكة ، وقال الشعر يهجو به رسول الله ﷺ .

وجاريتاه اللتان كان يعلمهما الشعر فى هجاء الرسول ﷺ ، فأهدر دمهما معه ، فنجت إحداهما فأسلمت وقتلت الأخرى .

ومقيس بن صبابة ، كان قد أسلم ثم أتى على رجل من الأنصار قد قتل أخاه خطأً فقتله ، بعد أن أخذ دية أخيه من قاتله ، وخرج إلى مكة مرتداً يقول :

شفى النفس أن قد مات بالقاع مسنداً ... تضرج ثوبيه دماء الأخادع

---

(١) المصدر نفسه / ٢ / ٣١٦ .

وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم فتحمينى وطاء المضاجع
حللت به وترى وأدركت ثؤرتى ... وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فهراً وحمَّلْتُ عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع

وقتله نميلة بن عبد الله الليثى يوم الفتح .

والحويرث بن منعذ ، كان يؤذى رسول الله ﷺ ، ونخس بزينب بنت رسول الله ﷺ ، لما هاجرت إلى المدينة ، فبينما هو فى منزله قد أغلق عليه بابه ، فسأل عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقيل هو بالبادية ، فأخبر الحويرث أنه يُطلب ، فتنحى على عن بابه فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقاه على فضرب عنقه .

١١ ــ ومع انتهاء فتح مكة ودخول الناس فى الإسلام طويت صفحة الهجرة والمهاجرين .

فعن عطاء بن أبى رباح رحمه الله تعالى قال : زرت عائشة رضى الله عنها مع عبيد بن عمير الليثى ، وهى مجاورة بثبير ، فسألها عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عنه ، فأما اليوم فقد أظهر الله تعالى الإسلام ، فالمؤمن يعبد ربه حيث كان ، ولكن جهاد ونية ، رواه الشيخان[١] .

وهكذا نجد دخول الناس فى دين الله أفواجاً بعد فتح مكة ، لينشأ الجيل الأخير من الإسلام ، جيل ما بعد الفتح ، وتنتهى الهجرة معه كما يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا »[٢] .

* * *

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٨٩ .
(٢) البخارى / ٢ / ٥ / ٧٢ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر رضى الله عنه يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم .

فدعا ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيت أنه دعانى إلا ليريهم ، قال :

ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** .. ﴾ فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً .

فقال لى : أكذا تقول يابن عباس ؟ فقلت :

هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به ، قال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾[1] .

١ ــ والملاحظ حسب رواية البخارى أن هذه السورة قد نزلت فى حجة الوداع ، فلأبى يعلى من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة فى أوسط أيام التشريق فى حجة الوداع ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع .

وقيل : عاش بعدها واحداً وثمانين يوماً ، وليس منافياً الذى قبله ، بناءً على بعض الأقوال في وقت الوفاة النبوية ، وعند ابن أبى حاتم من حديث ابن عباس : عاش بعدها تسع ليالٍ وعن مقاتل : سبعاً وعن بعضهم : ثلاثاً .

ويقول سيد رحمه الله بصدد نزولها والترجيح بين الروايات :

(قالت عائشة – فيما روى الإمام أحمد عنها – كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قوله : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى / ٨ / ٧٣٤ .

إنه كان تواباً ، فقد رأيتها : ﴿ إذا جاء نصر الله ... ﴾ » ، ورواه مسلم من طريق داود بن أبى هند .

وقال ابن كثير فى التفسير : أو المراد بالفتح هنا فتح مكة ، قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم أى تنتظر بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليهم مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان يوم الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى ... الحديث[1] .

فهذه الرواية هى التى تتفق مع ظاهر النص فى السورة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح .. ﴾ ، فهى إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجىء بعد ذلك ، مع توجيه النبى ﷺ إلى ما يعمله عند تحقيق هذه البشارة وظهور هذه العلامة ...

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقى بإسناده عن ابن عباس كذلك قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح .. ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : إنه قد نعيت إلى نفسى ، فبكت ثم ضحكت وقالت : أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه ، فبكيت ، ثم قال : اصبرى فإنك أول أهلى لحوقاً بى ، فضحكت .

ففى هذا الحديث تحديد لنزول السورة ، فكأنها نزلت والعلامة حاضرة ، أى أن الفتح قد تم ، ودخول الناس أفواجاً قد تحقق ، فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله ، إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقاً مع ظاهر النص القرآنى ، وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة رضى الله عنها وضحكها قد روى بصورة أخرى تتفق مع هذا الذى نرجحه ، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : دعا رسول الله ﷺ فاطمة عام الفتح فناجاها ، فبكت ، ثم ناجاها فضحكت ، قالت: فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها ، قالت : أخبرنى رسول الله أنه سيموت ، فبكيت ، ثم أخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت . (الترمذى) .

(١) البخارى / ٢ / ٥ / ١٩١ باب مقام النبى بمكة .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآنى ، ومع الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم فى صحيحه من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺ وربه وهى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ..** ﴾ ، فلما كان الفتح وعرف أن قد قُرب لقاؤه ربه فناجى فاطمة رضى الله عنها بما روته أم سلمة)[1] .

ويؤكد نزول السورة عقب فتح مكة ، ما رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم الفتح : « هذا ما وعدنى ربى » ثم قرأ : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ..** ﴾ .

هذا ، وإن كان الراجح نزولها فى حجة الوداع أو بعد ذلك ، لكن الثابت أن المقصود بنصر الله والفتح هو فتح مكة بلا خلاف ، كما قال ابن كثير : (والمراد هنا بالفتح فتح مكة قولاً واحداً) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى النبى ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ...** ﴾ إلا يقول فيها : « سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى »[2] .

وفى رواية : وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى » يتأول القرآن[3] .

وقال عمرو بن مرة : سمعت أبا البخترى يحدث عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ..** ﴾ قرأها رسول الله ﷺ ثم قال : « إنى وأصحابى حيز ، والناس حيز ، لا هجرة بعد الفتح ، فحدثتُ به مروان بن الحكم ، وكان على المدينة ، فقال : كذبت ، وعنده زيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، وكانا معه على السرير فقلت : إن هذين لو شاءا لحدثاك ، ولكن هذا – يعنى زيداً – يخاف أن تنزعه عن الصدقة ، والآخر يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، قال : فشد عليه بالدرة ، فلما رأيا ذلك قالا : صدق[4] .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٦ / ٣٩٩٤ .
(٢) و (٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى/ ٨ / ٧٣٢ ، الحديث ٤٩٦٧ و ٤٩٦٨ كتاب التفسير .
(٤) انظر : المغازى للإمام الذهبى من تاريخ الإسلام/٣/٥٦٤ ، ومسند الإمام أحمد/٣/٢٢ و ١٨٧/٥ .

ونلحظ من هذا النص ارتباط نزول السورة بفتح مكة ، حيث انقسم الناس فريقين :

ــ فريق ومعهم رسول الله ﷺ وهم الذين أسلموا وهاجروا قبل الفتح .

ــ وفريق ثانٍ هم حيز آخر ، وبقية الناس ، وفيهم من أسلم بعد الفتح ، لكنه حُرِم الهجرة .

ونرى من هذا الحديث كذلك ، الطبقة الثالثة التى تكونت بعد طبقة بدر ، وطبقة الحديبية ، وحددها رسول الله ﷺ ، وبلغت من الفضل أن على رأسها رسول الله ﷺ .

ولم يغضب مروان بن الحكم من الحديث إلا لأنه كان وأبوه من مسلمة الفتح ، وكاد أن يبطش بأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه لولا أن يصدّقه أخواه زيد بن ثابت ورافع بن خديج .

٢ ــ ونسأل أخيراً ما هى المخالفات التى تمت فى فتح مكة لهذا الجيش القوى الفتى الجديد !

إنه عندما يفتح جيش غاز مدينة معادية يستبيح أهلها ونساءها وممتلكاتها ودماءها ، ويزهق من الأرواح ويسلب من الأموال والأملاك ما لا يحصى ، ويظهر مباشرة أن الجندى المحتل هو الحاكم المسيطر ، والشعب هو المقهور المستباح ، فكيف إذا كان الذى فتح البلدة هو الملاحق المطارد المحارب ، وصاحب السيطرة هو العدو المعادى الظالم الغاشم ؟

فى مثل هذا الموطن تبرز جيوش العقيدة ، ويتجلى أثر التربية القرآنية والنبوية فى هذا الجيش ، أما الأحداث فأربعة فماذا كان الموقف منها :

أ ــ طوق أم فروة أخت أبى بكر : (لقيتها الخيل وفى عنقها طوق لها من ورق (فضة) ، فاقتطعه إنسان من عنقها .. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشد الله والإسلام طوق أختى ، فوالله ما أجابه أحد . ثم قال الثانية ، فما أجابه أحد ، فقال : يا أخية ، احتسبى طوقك ، فوالله إن الأمانة اليوم فى الناس لقليل) .

ورضى الله عن أبى بكر ، إذ اعتبر الأمانة فى الناس قليلة ، لأن عقداً من فضة

فقد فى احتلال مدينة .

ب ـــ عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها : أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقيل : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ . ففزع قومها إلى أسامة ابن زيد يستشفعون به إلى رسول الله ﷺ ، فلما كلّمه أسامة فيها تلّون وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « أتكلّمنِي ؟ » وفى لفظ : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » ، قال أسامة : استغفر لى ، فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد : فإنما أهلك الناس – وفى لفظ : « هلك بنو إسرائيل » ، وفى لفظ : « الذين من قبلكم » – أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف– وفى لفظ : « الوضيع قطعوه » ، وفى لفظ : « أقاموا عليه الحد » – فوالذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة ، وفى رواية النسائى : « قم يا بـلال ، فخذ بيدها فاقطعها » ، فحسنت توبتها بعد ذلك . وتزوجت رجلاً من بنى سليم قالت عائشة : فكانت تأتينى فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائى والبيهقى[1] .

وفى الرواية الثانية لمسلم : (أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت) .

فنحن إذن أمام مخالفة قامت بها امرأة من أعرق بيوتات مكة ، ومن أعز بيوت قريش ، من مخزوم ، من قبيلة خالد وعكرمة والحارث بن هشام ، القبيلة التى قال عنها أبو جهل :

(تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الرئاسة ، أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا ، فلما تحاذينا على الركب ، وصرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى ، لا والله لا يكون هذا أبداً) .

من بنى مخزوم إذن المرأة السارقة ، وقطع يدها إهانة لعشيرتها كلها ، ولذلك تحركت قريش كلها للاستشفاع لها ، وكان الوسيط أحب الناس إلى قلب رسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٣٨٧ ، وهى عند البخارى / ٢ / ٥ / ١٩٢ باب مقام النبى بمكة .

ﷺ ، أسامة بن زيد – الحبيب بن الحبيب– وكانت هذه عملية اختبار لقريش ، ومدى المحافظة على سلطانها ، فى ظل محمد ﷺ ، فهو ابنها البار ، فهل ستجلس على رقاب الناس به ، وهل تسود المحسوبية ، والزعامة فوق العقيدة كما يخطر ببالهم ، أن النصر نصر قريش على العرب .

وجاء جواب رسول الله ﷺ حاسماً جازماً قاطعاً ، لا يقبل التردد :

« والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

فليس فى حدود الله كبير ، ولو كانت سيدة نساء العالمين ، وأحب الناس إلى قلب رسول رب العالمين ، فلابد من تنفيذ الحد عليها .

وحتى تأخذ القضية أعظم أبعادها فى أذهان الجيش كله ، وفى أذهان قريش ، كان المكلف بالقطع بلال بن رباح ، العبد الأسود الذى كان قبل قليل يؤذن على ظهر الكعبة بقدميه السوداوين ، والذى كان قبل سنوات خلت يجرجر على رمضاء مكة ، ويلعب بالحبل فى عنقه غلمان مكة ، لأنه أعلن كلمة التوحيد ها هو الآن الوزير التنفيذى المسؤول عن قطع يد المرأة المخزومية .

وبهذا الحد الذى تم تنفيذه ، تم استئصال الظلم أن يقع فى ظل الإسلام ، تحت أى ستار وباسم أى قناع ، فلا شفاعة فى حد من حدود الله ، وهلاك الأمم :

« إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

وإذا نجا من سرق عقد أخت أبى بكر ، فلأنه لم يعرف ، أما وقد عرف وضبط بالجرم المشهود ، فلا شفاعة ولا محسوبية :

« والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

جـ ـــ هذا حد السرقة ، وأما حد الخمر :

(فقد روى ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن الأزهر رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ عام الفتح – وأنا غلام شاب – ينزل عند منزل خالد بن الوليد ، وأتى بشارب فأمرهم فضربوه بما فى أيديهم ، فمنهم من ضربه بالسوط ، وبالنعل ، وبالعصا وحثا رسول الله ﷺ التراب .

د ـ وكانت مخالفة القتل :

(لما كان بعد الفتح بيوم دخل جنيدب بن الأدلع الهذلى مكة يرتاد وينظر والناس آمنون ، فرآه جندب بن الأعجم الأسلمى فقال : جنيدب بن الأدلع قاتل أحمر بأساً ؟ قال : نعم فَمه ، فخرج جندب يستجيش عليه حيه ، فكان من أول من لقى خِراش ابن أمية الكعبى فأخبره، فاشتمل خراش على السيف ثم أقبل إليه والناس حوله ، وهو يحدثهم عن قتل أحمر بأساً. فبينما هم مجتمعون إذ أقبل خراش بن أمية فقال : هكذا عن الرجل ، فوالله ما ظن الناس إلا أنه يفرِّج الناس عنه لينصرفوا ، فانفرجوا فحمل عليه خراش بن أمية بالسيف فطعنه به فى بطنه ، وابن الأدلع مستند إلى جدار من جدُر مكة ، فجعلت حشوته تسيل من بطنه ، وإن عينيه لتُزنقان فى رأسه ، وهو يقول : فعلتموها يا معشر خزاعة ، فانجعف فوقع فمات ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فقال : « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر القتل ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه إن خِراشاً لقتال – يعيبه بذلك – لو كنت قاتلاً مؤمناً بكافر لقتلت خراشاً »[1] .

ولكن هذا الأمر لا يعالج بمواجهة فردية فقط ، فقد خطب عليه الصلاة والسلام فى اليوم الثانى للفتح من أجل هذا الموضوع بالذات ، فقال – بعد أن ركب راحلته وحمد الله وأثنى عليه – :

« أيها الناس ، إن الله حرَّم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين ، ولم يحرِّمها الناس فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد فيها شجراً ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولم تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تُحلَّ إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله ﷺ قاتل فيها فقولوا له : إن الله تعالى قد أحلَّها لرسول الله ﷺ ولم يحلها لكم . أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل فى الحرم أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية . يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع ، فقد قتلتم قتيلاً لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاؤوا فقتله » .

---

(١) رواه ابن أبى شيبة والشيخان والترمذى وأحمد والبيهقى مع اختلاف فى الألفاظ .

ثم ودى رسول الله ﷺ هذا الرجل الذى قتلته خزاعة ، قال ابن هشام : مائة ناقة . وقال ابن هشام : وبلغنى أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ .

وهكذا أقيمت الحدود ، ودفعت الدية ، وتمت العقوبة على المخالفات .

ورأى الجيش كله كيف تسود شريعة الله تعالى فوق كل اعتبار .

غـزوة حنيـن

غـــزوة حنيـــن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾[1] .

انتهى فتح مكة ، الذى مثل أعظم الفتوح العسكرية ، والذى كان ثمرة من ثمار الفتح المبين فى الحديبية .

﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾[2] .

وتزيل الذين آمنوا بعد أمر أبي بصير ، وانضموا إلى الصف الإسلامى ، وأدخل الله فى رحمته من شاء ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وجاء نصر الله والفتح .

(قال محمد بن عمر ، حدثنى معمر عن الزهرى قال : افتتح رسول الله ﷺ مكة لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأنزل الله تعالى : **﴿ إذا جاء نصر الله والفتح .. ﴾**)[3] .

(قالوا : وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان ، فأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة يصلى ركعتين ، ثم غدا يوم السبت لست ليال خلون من شوال ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يصلى بهم ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن

---

(١) سورة التوبة : ٢٥ – ٢٧ . (٢) سورة الفتح : ٢٥ . (٣) المغازى للواقدى/٣/٨٨٩ .

والفقه .

قالوا : وخرج رسول الله ﷺ فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف من أهل المدينة ، وألفين من أهل مكة ، فلما فصل قال رجل من أصحابه : لو لقينا بنى شيبان ما بالينا ، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ...** ﴾[1] .

وأخرج الفريابى عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ...** ﴾ قال : هى أول ما أنزل الله تعالى من سورة براءة[2] .

وأخرج ابن أبى شيبة وسنيد وابن حرب وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد رضى الله عنه قال : أول ما نزل من براءة : ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ...** ﴾ يعرفهم نصره ، ويوطنهم لغزوة تبوك[3] .

-القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ...** ﴾ : يقول تعالى ذكره : لقد نصركم الله أيها المؤمنون فى أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة ويوم حنين ، يقول : وفى يوم حنين أيضاً قد نصركم . وحنين واد فيما ذكر بين مكة والطائف ..)[4] .

وتسمى أيضاً غزوة هوازن ؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ .

قال محمد بن عمر الأسلمى : حدثنى ابن أبى الزناد عن أبيه : أقامت هوازن سنة تجمع الجموع وتسير رؤساؤهم فى العرب تجمعهم . انتهى .

قال أئمة المغازى : (لما فتح رسول الله ﷺ مكة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض ، وأشفقوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وقالوا : قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا ، والرأى أن نغزوه ، فحشدوا وبغوا وقالوا : والله إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال ، فأجمعوا أمركم ، فسيروا فى الناس وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم ، فأجمعت هوازن أمرها ، وجمعها مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة النصرى – وأسلم

---

(١) المصدر نفسه / ٣ / ٨٨٩ .

(٢) و (٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام السيوطى / ٤ / ١٠ / ١٥٨ .

(٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / ٦ / ١٠ / ٧٠ .

بعد ذلك - وهو يوم حنين ابن ثلاثين سنة ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال وهم قليل ، قال محمد ابن عمر : لا يبلغون مائة . ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، مشى فيها ابن أبى براء فنهاها عن الحضور ، وقال : والله لو ناوأ محمد مَن بين المشرق والمغرب لظهر عليهم .

وكان فى جشم دريد بن الصمة وهو يومئذ ابن ستين ومائة ، ويقال : عشرين ومائة سنة ، وهو شيخ كبير قد عمى ، ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرباً ، قد ذكر بالشجاعة والفروسية وله عشرون سنة ، فلما عزمت هوازن على حرب رسول الله ﷺ سألت دريداً الرئاسة عليها فقال : وماذاك وقد عمى بصرى ، وما أستمسك على ظهر الفرس ، ولكن أحضر معكم لأن أشير عليكم برأى على ألا أخالف ، فإن كنتم تظنون أنى أخالف أقمت ولم أخرج ، قالوا : لا نخالفك ، وجاءه مالك بن عوف ، وكان جماع أمر الناس إليه . فقالوا له : لا نخالفك فى أمر تراه .

فقال له دريد : يا مالك ، إنك تقاتل رجلاً كريماً ، قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ومن بالشام ، وأجلى يهود الحجاز ، إما قتلاً ، وإما خروجاً على ذل وصغار ، ويومك هذا الذى تلقى فيه محمداً له ما بعده .

قال مالك : إنى لأطمع أن ترى غداً ما يسرك .

قال دريد : منزلى حيث ترى ، فإذ أجمعت الناس صرت إليك ، فلما خرج من عنده طوى عنه أنه يسير بالظعن والأموال مع الناس .

فلما أجمع مالك المسير بالناس إلى رسول الله ﷺ ، أمر الناس فخرجوا ومعهم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم ، ثم انتهى إلى أوطاس[١] فعسكر به ، وجعلت الأمداد تأتى إلى جهة - أو تأتيه من كل جهة - وأقبل دريد بن الصمة فى شجار[٢] له يقاد به من الكبر ، فلما نزل الشيخ لمس الأرض بيده وقال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن[٣] ضرس[٤] ولا سهل دهس[٥] ، مالى

---

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن ، والصحيح أنه غير وادى حنين .
(٢) الشجار : مركب مكشوف دون الهودج . (٣) الحزْن : ما غلظ من الأرض .
(٤) ضِرْس : الأكمة الخشنة . (٥) دَهَسْ : لين كثير التراب .

أسمع بكاء الصغير ، ورغاء البعير ونهاق الحمير ، ويُعار الشاء وخوار البقر ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، فقال دريد : قد شرط لى ألا يخالفنى فقد خالفنى ، فأنا أرجع إلى أهلى وتارك ما هنا ، قيل : أفتلقى مالكاً فتكلمه ؟ فدعى له مالك فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، ما لى أسمع بكاء الصغير ورغاء البعير ونهاق الحمير ويُعار الشاء وخوار البقر ؟! قال : قد سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل إنسان أهله وماله يقاتل عنهم ، فانقض به[1] دريد وقال : راعى ضأن والله ، ما له وللحرب ، وصفق دريد بإحدى يديه على الأخرى تعجباً وقال : هل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم البيضة[2] ، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، فارفع الأموال والنساء والذرارى إلى عُليا قومهم ، وممتنع بلادهم ، ثم الق القوم على متون الخيل والرجال بين أصفاف الخيل أو متقدمة دريئة[3] أمام الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

فقال مالك بن عوف : والله لا أفعل ولا أغيّر أمراً صنعته ، إنك قد كبرت وكبر علمك – أو قال: عقلك – وجعل يضحك مما يشير به دريد ، فغضب دريد وقال : هذا أيضاً يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، إن هذا فاضحكم فى عورتكم ، وممكّن منكم عدوكم . ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه . فسل مالك سيفه ثم نكّسه ، ثم قال :

يا معشر هوازن ، والله لتطيعننى أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون فيها لدريد ذكر أو رأى فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : والله لئن عصينا مالكاً وهو شاب ، ونبقى مع دريد وهو شيخ كبير لا قتال معه ، فأجمعوا رأيكم مع مالك . فلما رأى دريد أنهم قد خالفوه قال :

---

(١) انقض به : زجره كما تزجر الدابة وهو أن يلصق اللسان بالحنك الأعلى ويصوّت به .
(٢) البيضة : الجماعة . (٣) دريئة : حماية .

يا لتينى فيها جذع[1] أخب فيها وأضع[2]
أقود وطفاء الزمع[3] كأنها شاة صدع[4]

ثم قال دريد : ليتنى فيها جذع يا معشر هوازن ، ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : ما شهدها منهم أحد ، قال : غاب الحد[5] والجد[6] ، لو كان يوم علاء ورفعة ما تخلفوا عنه ، يا معشر هوازن ، ارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء ، فأبوا عليه ، قال : فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عكرمة وعوف بن عامر ، قال : ذانك الجذعان[7] من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران ، قال مالك لدريد : هل من رأى غير هذا فيما حضر من أمر القوم ؟ قال دريد : نعم ، تجعل كمينا ، يكونون لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم ، وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد فذلك حين أمر مالك أصحابه أن يكونوا كميناً فى الشعاب وبطون الأودية، فحملوا الحملة الأولى التى انهزم فيها أصحاب رسول الله ﷺ ، قال دريد : من مقدمة أصحاب محمد ؟ قالوا : بنى سُليم ، قال : هذه عادة لهم غير مستنكرة ، فليت بعيرى ينحى من سنن خيلهم ، فنحّى بعيره مولياً من حيث جاء)[8] .

وروى ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عن جابر عن بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، وعمرو بن شعيب وعبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم (أن رسول الله ﷺ لما سمع بخبر هوازن بعث عبد الله بن أبى حدرد رضى الله عنه ، فأمره أن يدخل فيقيم فيهم وقال : « اعلم لنا علمهم » ، فأتاهم فدخل فيهم فأقام فيهم يوماً وليلة أو يومين حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك . وأمر هوازن وماهم عليه .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر)[9] .

وعند محمد بن عمر : (أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف فيجد فيه رؤساء

---

(١) جذع : شاب .
(٢) أخب فيها وأضع : ضرب من السير . (٣) أقود وطفاء الزمع : الدابة الطويلة الشعر فوق مربط قيد الدابة .
(٤) شاة صدع : هنا كأنها الوعول الوسط . (٥) الحد : المنع . (٦) الجِد : الشجاعة والجرأة .
(٧) الجذعان : الضعيفان فى الحرب .
(٨) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٥٩ - ٤٦٢ . (٩) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٤٠.

هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السحر ، فصفوا مواشيكم ونساءكم من ورائكم ثم صُفوا ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم ، فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أنه الغلبة لمن حمل أولاً)[1] .

هذه صورة جيش المشركين من هوازن ، كان لابد من عرضها بين يدى الحديث عن حنين حتى نتعرف على ضراوة الحرب التى خاضها المسلمون هناك .

لم يكن بين رسول الله ﷺ وبين أعدائه حرب مواجهة شاملة إلا مع اليهود وقريش ، غير أن الحروب الخاطفة مع غيرهم كانت تعطى مؤشراً على القوة النبوية فى الساحة العربية ، أما القبائل الضخمة فى الأرض العربية ، فلم يتم بينها وبين رسول الله ﷺ حرب مواجهة سافرة ، اللهم إلا غطفان التى انضمت إلى قريش يوم الأحزاب ، وحيل بينهم وبين المواجهة المباشرة بالخندق ، وعادوا آيسين من النصر .

أما لقاء هوازن فقد كان مع مركز ضخم من مراكز القوة فى الأرض العربية .

وهوازن أصل من أصول العرب .

فمنها : تتحدر ثقيف الذين يمثلون قوة مكافئة لقريش فى الطائف :

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[2] .

والقريتان مكة والطائف ، وعند ثقيف اللات أعظم أصنام العرب التى تقابل العزى وبهما يقسم العرب .

ومن هوازن : بنو عامر بن صعصعة ، حيث البيت والعدد والعدة ، وكانوا من أعز العرب .

ومن هوازن : هلال بن عامر بن صعصعة ، الذين قادوا حروباً عنيفة ضخمة قبل الإسلام مع خصومهم .

ومن هوازن : كعب وكلاب ابنا ربيعة ، الذين يضرب بهم المثل فى العزة .

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٨٩٣ .

(٢) سورة الزخرف : ٣١ .

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ومن هوازن : بنو سعد بن بكر ، الذين استرضع فيهم رسول الله ﷺ .

ولذلك نرى رقما لم نسمع أكبر منه فى المواجهة على الأرض العربية ، كما نقل الواقدى عن ابن أبى حدرد رضى الله عنه وهو فى خباء مالك بن عوف قائد هوازن :

(واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد) .

وهذا يعنى أن تعداد الجيش عشرون ألف مقاتل .

وفى أقل الأرقام التى وردت عن تعداد هذا الجيش ، لم ينزل عن ثمانية آلاف مقاتل .

ومن أجل هذا وجدنا عمر رضى الله عنه وهو يسمع ما نقله ابن حدرد عن لسان مالك بن عوف ، يسارع إلى القول :

(ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر ابن الخطاب : « ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد ؟ » فقال عمر : كذب .

فقال ابن أبى حدرد : والله لئن كذبتنى يا عمر لربما كذبت بالحق ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت ضالاً فهداك الله »)[1] .

وهذا الحوار يشى بقوة جيش العدو ، وأن عمر لم يكد يصدق مقالة ابن أبى حدرد .

هذا من حيث العدد .

لكن إذا سبرنا أغوار هذا العدو ، من خلال الحوار الذى تم بين القائدين ، دريد ابن الصمة ومالك بن عوف – نلاحظ جوانب أخرى وراء هذا التجمع الضخم .

من هذه الجوانب : أن المقاتلين الأشداء ، والأبطال المجربين ، لم يكونوا فى عداد هذا الجيش ، ويتمثلون بثلاث فروع ضخمة :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٤٠ .

بنى هلال ابن عامر ، وبنى كعب بن ربيعة بن عامر ، وبنى كلاب بن ربيعة ابن عامر .

بينما حضرها من بنى عامر : بنو عمرو وبنو عوف ابنا عامر ، وهما اللذان قال عنهما دريد : ذانك الجذعان من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران .

فأين غابت الفروع الثلاثة ، والتى تمثل ثقل عامر بن صعصعة ؟

تقول النصوص :

ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، مشى فيها ابن أبى براء فنهاها عن الحضور ، وقال : والله لو ناوأ محمداً مَنْ بين المشرق والمغرب لظهر عليهم .

أما بنو هلال ، فتقول الرواية : (وناس من بنى هلال ، وهم قليل . قال محمد ابن عمر : لا يبلغون مائة ، ومَنْ ابن أبى براء ؟

أبو براء بن مالك سيد بنى عامر الذى زار رسول الله ﷺ فى المدينة ، والملقب بملاعب الأسنة ، والذى دعاه رسول الله ﷺ للإسلام فلم يقرب ولم يبعد ، وطلب من النبى ﷺ : أن يرسل دعاة إلى قومه يدعونهم إلى الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخشى عليهم أهل نجد » .

قال أبو براء : أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ...

فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهى بين أرض بنى عامر، وحرَّة بنى سُلَيم ، كلا البلدين منها قريب ، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر ابن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عُصية ورِعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم - يرحمهم الله - إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتث من

بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً)[1] .

ولم يكن أبو براء مخادعاً ، ولا حانثاً ، وقد وفت بنو عامر معه ، إلا أن قبائل من سليم استجابت لعدو الله عامر بن الطفيل وأوقعت بشهداء بئر معونة .

وبقى هذا الحلف الخفى بين أبى براء الذى آذاه ما حل بالمسلمين ، وبين رسول الله ﷺ ، وكان حلفاً غير معلن ، فعندما عبأت هوازن للمواجهة جاء دور ابن أبى براء الذى خذَّل عن رسول الله ﷺ ، وقال لأبطال بنى ربيعة بن عامر :

والله لو ناوأ محمداً ما بين المشرق والمغرب لظهر عليهم .

وبنو سليم أو بعض فروعهم ، الذين أوقعوا بالمسلمين فى بئر معونة ، هم اليوم فى الصف الإسلامى ، بل هم خيالة المسلمين ، الذين بلغوا ألف فارس ، كانوا مقدمة الجيش الإسلامى المتجه إلى فتح مكة ، وكانوا مقدمة الجيش الزاحف لحنين ، وعلى رأسهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

وبنو سليم هم أبناء عمومة بنى هوازن ، وهم الذين حملوا عبء الصدام الأول ضدهم فى حنين .

ومن الجوانب التى نلقاها كذلك : تصور دريد بن الصمة القائد المحنك المجرب عن قوة الرسول ، وتصور مالك بن عوف القائد الشاب المغامر الجرىء :

(يا مالك ، إنك تقاتل رجلاً كريماً ، قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ومن بالشام ، وأجلى يهود الحجاز ، إما قتلاً وإما خروجاً على ذل وصغار ، ويومك هذا الذى نلقى فيه محمداً له ما بعده) .

فابن الصمة يقدِّر القوة الإسلامية حق قدرها ، والتى أوطأت العرب وأهابت الشام والعجم ، وكسرت شوكة اليهود ذلاً وصغاراً ، وكانت هذه ثمار فتح مكة فى أرض العرب أما القائد الغمر الفتى مالك ، فقد اغتر بعدده وسيوفه وقوته وقال لقومه :

(إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٨٤ ، ١٨٥ .

والحقيقة أن هذه الحروب بهذه الصلابة وهذا الاستمرار جديدة على الأنصار وقريش ، لكن عظمة العقيدة عجمت عودهم ، وأظهرت عظمة معدنهم ، وفى كل مواجهة جديدة تظهر القوة المذخورة عندهم التى أبقاها الله تعالى محفوظة ، لمواجهة أعدائه .

ومن الجوانب التى برزت كذلك : إصرار مالك بن عوف على رأيه ، والذى سماه دريد على إثره : (راعى ضأن والله) .

ورأى أن حمل الذرية والأموال والأعراض إلى ساحة المعركة هى منتهى الحمق ، بل وقف يدعو قومه إلى عصيان مالك ، والامتناع عن المواجهة مع رسول الله ﷺ ، وقال لهم عندما رأى غياب كعب وكلاب :

(لو كان يوم علاء ورفعة – وفى لفظ : لو كان ذكراً وشرفاً – ما تخلفوا عنه . يا معشر هوازن ارجعوا ، وافعلوا ما فعل هؤلاء) .

وأعاد عليهم الكرة ينصحهم بعدم المواجهة عند إصرار مالك على أن يسوق مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم . فقال :

(إن هذا فاضحكم فى عورتكم ، وممكن منكم عدوكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه) .

وكان حقاً كما قال دريد .. وهو الذى قاله قبله عليه الصلاة والسلام :

(فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا بهوازن قد جاءت عن بكرة أبيها بظعنهم ونعمهم وشائهم ، اجتمعوا ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله »)[1] .

والقوة التى برزت عند مالك بن عوف ، كانت فى تطبيق خطة دريد فى استعمال الكمائن ، والهجوم مع عماية الصبح .

والذى نفيده من هذا العرض : هو أن نتعرف على يوم حنين ، وعلى العدو الذى

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٦٦ .

واجهه المسلمون بعد قريش ، وحين نعرف العدو على حقيقته ، يمكننا أن نعرف خطورة هذا اليوم ، والمن على المسلمين فيه بالنصر .

ويمكننا أن نقول : إن هذه المعركة لم يكن بد منها لإنهاء الوجود الوثنى فى الأرض العربية ، فبنو عامر بن صعصعة هم الذين تحدوا المسلمين ، أو زعيمهم عامر بن الطفيل على الأقل ، وهو الذى قتل حرام بن ملحان رسول رسول الله ﷺ .. وحتى تتضح ساحة المعركة جلياً ، نشير إلى أن العرب كانوا يرون أن هذا الصدام لا مفر منه ، وحتى قبل الفتح :

قال ابن عقبة ومحمد بن عمر رحمهم الله تعالى : (ثم بعد فتح مكة خرج رسول الله ﷺ لحنين ، وكان أهل حنين – وفى رواية : أهل مكة – يظنون حين دنا منهم رسول الله ﷺ أنه مبادر بهوازن ، وصنع الله لرسوله أحسن من ذلك ، ففتح له مكة وأقر بها عينه وكبت بها عدوه ، فلما خرج إلى حنين خرج معه أهل مكة ، لم يغادر منهم أحداً ركباناً ومشاة حتى خرج معه النساء يمشين على غير دين نُظاراً ينظرون ويرجون من الغنائم ، ولا يكرهون أن تكون الصدمة لرسول الله ﷺ)[1] .

هذا هو جيش الشرك يوم حنين ، فماذا عن جيش المسلمين يوم حنين ؟

* * *

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ :

لقد رأينا تركيب الجيش الإسلامى قبل الفتح ، وأن هذه الطبقة التى ارتفعت من ألف وأربعمائة إلى عشرة آلاف قد تكونت خلال أقصر مدة زمنية فى البناء ، خلال سنتين فقط ، وكانت مادتها الرئيسية هى القبائل المتناثرة بين مكة والمدينة ، والتى صار ولاؤها المباشر لعقيدتها ودينها ، كما مر معنا فى الأحاديث المشهورة :

« أسلم وغفار ، وشىء من مزينة وجهينة خير عند الله من أسد وتميم وهوازن وغطفان »[2] .

« أسلم وغفار ومزينة خير من تميم وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة »[3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٦٥ . (٢) أحمد والبخارى ومسلم . (٣) مسلم والترمذى .

« أسلم وغفار وأشجع ومزينة وجهينة ومن كان من بنى كعب موالىَّ دون الناس ، والله ورسوله مولاهم »[1] .

ونلاحظ هنا أن هذه القوى الفتية – أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع – هى التي كانت معدة لمواجهة القوى العظمى فى الجزيرة العربية – تميم وأسد وغطفان وطيئ وهوازن وعامر بن صعصعة – وأن هذه القوى الفتية قد كوَّنت نواة الجيش الإسلامى الذى مضى لفتح مكة ، علماً بأنه لم يخض معركة مواجهة سافرة ، إنما فتحت مكة بدون قتال ، ثم رأى نفسه وجهاً لوجه مع هوازن إحدى القوى الكبرى فى الجزيرة ، وقد أضيفت إليه قوة قريش .

وهذه القوى الفتية الجديدة من قريش – الطلقاء – وأسلم ومزينة وجهينة وأشجع وكعب ، بجوارها قوة العقيدة الخالصة من المهاجرين والأنصار .

(روى أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى رحمه الله تعالى قال :

كان مع رسول الله ﷺ أربعة آلاف من الأنصار ، وألف من جهينة ، وألف من مزينة ، وألف من أسلم ، وألف من غفار ، وألف من أشجع ، وألف من المهاجرين وغيرهم . فكان معه عشرة آلاف ، وخرج باثنى عشر ألفاً . وعلى قول عروة والزهرى وابن عقبة : يكون جميع الجيش الذى سار بهم رسول الله ﷺ أربعة عشرة ألفاً لأنهم قالوا : إنه قدم مكة باثنى عشرة ألفاً[2] ، وأضيف إليهم ألفان من الطلقاء .

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى : غدا رسول الله ﷺ يوم السبت لست خلون من شوال .وقال ابن إسحاق: لخمس ، وبه قال عروة ، واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن مسعود)[3] .

وزها المسلمون بهذا العدد الضخم حيث انضمت جحافل مكة إلى المدينة .

(وروى يونس بن بكير فى زيادات المغازى عن الربيع بن أنس قال : قال رجل يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ وكانت الهزيمة .

(١) الحاكم ، والأحاديث الثلاثة فى صحيح الجامع الصغير / ١ / ٣٢٨ رقم / ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٨٧ .
(٢) الفرق بين الرقمين العشرة آلاف والاثنى عشر ألفاً ، هو أن سُليماً وبنى كعب لم تذكرا فى هذه الرواية .
(٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٦٤ .

وروى ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا مما أعجبهم من كثرتهم ، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد على أحد .

وروى أبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبزار عن أنس رضى الله عنه قال : لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم : اليوم والله نقاتل . ولفظ البزار : فقال غلام من الأنصار يوم حنين : لن نغلب اليوم عن قلة . فما هو إلا أن لقينا عدونا فانهزم القوم وولوا مدبرين .

وروى محمد بن عمر عن ابن شهاب الزهرى : قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : لو لقينا بنى شيبان ما بالينا ، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة .

قال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهل مكة : أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة من معه من جنود الله تعالى : « لن نغلب اليوم من قلة » كذا فى هذه الرواية: والصحيح أن قائل ذلك غير النبى ﷺ – كما سبق .

قال ابن إسحاق : وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكر قالها .

وروى محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، لن نغلب اليوم من قلة . كذا فى هذه الرواية ، وبذلك جزم ابن عبد البر)[1] .

ومثّل هذه الصورة من الإعجاب عباس بن مرداس رضى الله عنه إذ قال :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... منى رسالة نصح فيه تبيان
إنى أظن رسول الله صابحكم ... جيشاً فى فضاء الأرض أركان
فيهم سليم أخوكم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفى عضادته اليمنى بنو أسدٍ ... والأجربان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض ترهبه ... وفى مقدّمـــه أوس وعثمان

هذا عن العدد ، فماذا عن العُدة ؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

روى ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عن جابر وعن عمرو بن شعيب وابن حزم الزهرى : (أن رسول الله ﷺ لما أجمع السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال : « يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » ، فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فسأله رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها فحملها إلى أوطاس)[1] .

قال السهيلى : واستعار رسول الله ﷺ فى غزوة حنين من نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فقال عليه الصلاة والسلام : « كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهور المشركين » .

امتحان على الطريق :

روى ابن إسحاق والترمذى - وصححه - والنسائى وابن أبى حاتم عن أبى قتادة الحارث بن مالك رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة يقال لها : « ذات أنواط » ، يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا « ذات أنواط » كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون** ﴾[2] ، إنها لسنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة[3] بالقذة »)[4] .

لقد كان تجربة بنى إسرائيل ماثلة فى ذهن النبى ﷺ ، ولقد طلبوا من موسى

(١) المصدر نفسه/٥/٤٦٣ ، وهى عند ابن هشام فى السيرة/٢/٤٤٠ ، وقد رواه أحمد والنسائى وأبو داود .
(٢) سورة الأعراف : ١٣٨ . (٣) القِذَّة : وهو سَيْر يقدُّ من جلد غير مدبوغ .
(٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٦٥ ، وهى عند ابن هشام / ٢ / ٤٤٢ .

عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم آلهة ، ولما تجف أقدامهم من ماء البحر ، وقد أغرق الله عدوهم أمامهم .

وهذه هى المعجزة النبوية ، فلم يكد المسلمون يغادرون مكة ، وقد فتحها الله عليهم وكبت عدوهم ، ها هم يطلبون ذات أنواط ، كما لكفار العرب ذات أنواط ، وهو حنين إلى الوثنية التى عافاهم الله منها .

ولا شك أن الطلقاء من قريش هم الذين طلبوا ذلك كما يقول الحارث رضى الله عنه : (ونحن حديثو عهد بجاهلية) ، ويؤكد عليه الصلاة والسلام خطاً أصيلاً من خطى هذه الأمة على خطى الأمم قبلها : « لتركبن سنن من كان قبلكم » ، ولقد كان لمواقف بنى إسرائيل أن حيل بينهم وبين النصر أربعين عاماً فى التيه ، أما هذا الجيل فالأقلية فيه هى المتأثرة بالجاهلية ، والتى لم يمر على إسلامها أكثر من شهر وقد حضرها بعضهم وهو على وثنية .

من أجل هذا لم تحل هذه السنة دون النصر المؤزر الذى تم فى حنين ، لكننا لا نبعد أن الهزيمة الأولى فيها كانت مرتبطة بالإعجاب بالكثرة ، كما ذكر القرآن الكريم ، هذه الكثرة التى لم تحقق المستوى الإيمانى المطلوب .

* * *

﴿ فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ :

وإذا كان درس أحد جاء بعد النصر الخارق فى بدر ، فلا غرو أن يأتى درس حنين بعد نصر الله والفتح المؤزر فى مكة ، ولم يعودوا يبالون بملاقاة أحد بعد هذا الجيش العرمرم الذى ساروا فيه .

روى ابن إسحاق والإمام أحمد وابن حبان عن جابر بن عبد الله ، والإمام أحمد من طريقين ، وأبو يعلى ومحمد بن عمر عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنهما :

لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف حطوط له مضايق وشعاب ، وإنما ننحدر فيه انحداراً ، وفى عماية الصبح ، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادى فمكثوا في شعابه وأجنابه ومضايقه ، وتهيؤوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وكانوا رماة .

قال أنس رضى الله عنه : استقبلنا من هوازن شىء لا والله ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط ، من كثرة السواد ، قد ساقوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم ثم صفوا صفوفاً ، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك ؛ لئلا يفروا بزعمهم ، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم ، فلما انحدرنا فى الوادى ، فبينما نحن فى غبش الصبح إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى وشعبه ، فحملوا حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل ، خيل بنى سليم مولية ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه .

وقال جابر : وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال : « أيها الناس ، هلمَّ إلَيَّ أيها الناس ، هلم إلَيَّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » .

قال : فلا شىء ، وحملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس .

وذكر كثير من أهل المغازى : أن المسلمين لما نزلوا وادى حنين تقدمهم كثير ممن لا خبرة لهم بالحرب وغالبهم من شبان أهل مكة ، فخرجت عليهم الكتائب من

كل جهة ، فحملوا حملة رجل واحد ، والمسلمون غارون ، فرَّ من فر ، وبلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كرُّوا بعد .

وفى الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : عجل سرعان القوم – وفى لفظة : شبان – أصحاب رسول الله ﷺ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح ، فإنا لما حملنا على المشركين انكشفوا ، فأقبل الناس على الغنائم ، وكانت هوازن رماة ، فاستقبلتنا بالسهام فإنما رجل[1] جراد ، لا يكاد يسقط لهم سهم .

وروى محمد بن عمر عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : مضى سرعان الناس من المنهزمين حتى دخلوا مكة ، ساروا يوماً وليلة ، يخبرون أهل مكة بهزيمة الرسول ﷺ ، وعتاب بن أسيد على مكة ومعه معاذ بن جبل ، فجاءهم أمر غمَّهم ، وسر قوم من أهل مكة ، وأظهروا الشماتة ، وقال قائل منهم : ترجع العرب إلى دين آبائها وقد قتل محمد وتفرق أصحابه ، فتكلم عتَّاب بن أسيد يومئذ فقال : إن قتل محمد فإن دين الله قائم ، والذي يعبده محمد حى لا يموت .

(شاءت إرادة الله تعالى أن يذكر من الغزوة أول ما يذكر ، منُّ الله تعالى بنصره على المؤمنين ، وأن النصر من عنده عز وجل ، وإذا كانت الأعوام الثمانية التى مرت على جيل بدر والحديبية فى المدينة ، والأعوام الثلاثة عشرة على المهاجرين فى مكة ، قد رسخت هذه المعانى فكراً وواقعاً ، لكن الجيل الجديد جيل الفتح الذى لم يمر على إسلامه سنتان ، كانت هذه المعانى جديدة عليه ، وهى تسعة أضعاف أو عشرة أضعاف الجيل السابق ، فقد عاش مع مفهوم النصر بيد الله يهبه لمن يشاء فترة وجيزة ، ومدة قصيرة ، قد قرأها فى كتاب الله عز وجل ، ولكنها لم تترسخ بعد فى أعماقه ، ولم يعشها واقعاً حياً كما عاشها من قبله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والمعنى الرئيسى الذى يرتبط بذهنه ، هو ارتباط النصر بالعدد والعدة ، والجيش الذى فتح مكة ، يؤكد هذا المعنى ، فهو عشرة آلاف مقاتل ، نصفهم من المهاجرين والأنصار الذين لا يرى منهم إلا الحدق لكثرة سلاحهم وعددهم ، فلم يغير فتح مكة من هذا المعنى فى أعماق القلب ، بل رسَّخه لوفرة العدة واستسلام مكة دون قتال ، وزيادة العدد بألفين لمواجهة هوازن ، يؤكد هذا المعنى كذلك ، وهو ارتباط النصر

(١) نَبْت كالبقلة اليمانية .

بالكثرة العددية ووفرة السلاح ، والحروب التى ألفها هؤلاء العرب فى أيامهم مرتبطة كذلك بهذا المعنى ، وما ذكر القرآن الكريم عن الإعجاب بالكثرة ، وأنها طريق النصر أو أداته ، يؤكد مدى تغلغل هذا المعنى فى نفوس الجيل الجديد جيل الفتح ، فكان لابد من تجربة عملية حية يعيشها المسلمون ، ويرون واقعاً لا نظراً ، أن النصر بيد الله وليس بيد البشر ، وأن البشر لا يحققون نصراً لم يأذن به الله ، وهذه قضية من أهم قضايا العقيدة الإسلامية ، وهى أن النفع والضر ، والنصر والشفاء وكل ذلك بيد الله عز وجل ، وما النصر إلا من عند الله ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده** ﴾[1] .

لقد رسخ نصر بدر ومحنة أحد هذا المعنى واقعاً حياً فى نفوس جيل بدر والحديبية ، وأما جيل الفتح فلم يشهد شيئاً من ذلك ، ولعل هذه أول آية عاشوها حقيقة لا خيالاً ، وشهدوا بأم أعينهم كيف يحقق الله تعالى نصره :

﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ﴾ .

لقد غدا المسلم وهو يقرأ هذه الآية بعد حنين تحرك فى نفسه أعمق المشاعر ، وتبنى فى قلبه أعظم المعانى ، وقد عاش هذه الهزيمة الماحقة ، وعاش تولى الآلاف المؤلفة ، وانفضاضها عن رسول الله ﷺ .

وهذه حلقة رئيسية من حلقات البناء لهذا الجيل المسلم الجديد .

(إن معركة حنين التى يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية ، حقيقة القوى التى تعتمد عليها كل عقيدة ، إن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هى القلة العارفة المتصلة بالله ، الثابتة المتجردة للعقيدة ، وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً فى الهزيمة لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين فى غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة ، فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف فوق ما تخدع الكثرة أصحابها ، فتجعلهم يتهاونون فى توثيق الصلة بالله ،

---

(٢) سورة آل عمران : ١٦٠ .

انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة .

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذى يذهب جفاء ، ولا بالهشيم التى تذروه الريح)[1] .

والمؤكد أن هذه الكثرة الكاثرة قد زلزلت الصفوة المختارة فى بداية الأمر ، فإذا كان الفرار فى أحد قد وقع به أعداد من الصفوة المختارة ، لكن فرار حنين كاد يشملها كلها ، فالروايات تؤكد أن الذين ثبتوا ابتداء وقبل النداء لا يتجاوزون على أكبر التقارير المائة ، وقد أصاب الفرار إذن أكثر أهل بدر وأكثرية أهل الحديبية ، وذلك للوهلة الأولى ، لتكون الضربة العنيفة موقظة لهذه المعانى بنفس المستوى من العنف كذلك ، ولتطرد من الذهن تماماً فكرة الاعتقاد بالنصر من خلال الكثرة العددية .

لقد تم انتزاع مفهوم النصر تماماً من خلال العدد ، فهذه التجربة أكدت الهزيمة الماحقة للصف كله ، ودخل عنصر جديد على الساحة كل الجدة ، فغير هذه الهزيمة ، وحقق النصر الجديد المؤزر .

* * *

﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ :

روى ابن إسحاق ، والإمام أحمد عن جابر ، وابن إسحاق وعبد الرزاق ومسلم عن العباس عم رسول الله ﷺ ، قال العباس : شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه ، ورسول الله ﷺ على بغلة له شهباء... فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ – وفى رواية : أكفها ألا تسرع – وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين ، وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ – وفي رواية : بغرزه ، وفى رواية : بثغره – فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بن الحارث وهو مقنع فى الحديد ، فقال : « من هذا ؟ » فقال : ابن عمك يا رسول الله . وفى حديث البراء : وأبو سفيان بن عمه يقود به . قال ابن عقبة رحمه الله تعالى : وقام رسول الله ﷺ فى الركابين وهو

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦١٨ .

على البغلة فرفع يديه إلى الله تعالى يدعو يقول : « اللهم أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » .

قال العباس : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ، ناد يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » .

قال العباس : وكنت رجلاً صيتاً ، فقلت بأعلى صوتى : أين الأنصار ؟ أين أصحاب السمرة ؟ أين أصحاب سورة البقرة ؟ قال : والله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها .

وفى حديث عثمان بن شيبة عند أبى القاسم البغوى ، والبيهقى :

« يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آووا ونصروا » . قال : فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها ، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه فى حرجة ، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندى على رسول الله ﷺ من رماح المشركين ، فقالوا : يالبيك يالبيك يالبيك . قال : فيذهب الرجل يثنى بعيره ولا يقدر على ذلك - أى لكثرة الأعراب المنهزمين - فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا هم والكفار ، والدعوة فى الأنصار : يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركابيه ، فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا حين حمى الوطيس » ، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصياتٍ ، فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال : « انهزموا ورب محمد » ، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ما هو ، إلا أن رماهم بحصياته ، فمازلت أرى حدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً ، فوالله ما رجع الناس إلا وأسارى عند رسول الله ﷺ مكتَّفون قتل الله تعالى منهم من قتل ، وانهزم منهم ، وأفاء الله تعالى على رسوله أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

وروى ابن سعد ، وابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والبغوى وابن مردويه ، والبيهقى برجال ثقات عن أبى عبد الرحمن بن يزيد الفهرى رضى الله عنه قال :

كنت مع رسول الله ﷺ فى حنين فى يوم قائظ شديد الحر ، فنزلت تحت ظلال السَّمُر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتى ، وركبت فرسى فأتيت رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمته ، الرواح قد حان ، الرواح يا رسول الله ؟! قال : « أجل » ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بلال » ، فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك ، وأنا فداؤك . قال : « أسرج لى فرسى » ، فأتاه بسرج دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر ، فركب فرسه ، ثم سرنا يومنا فلقينا العدو ، وتشامت الخيلان فقاتلناهم ، فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا عباد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، يأيها الناس ، إنى عبد الله ورسوله » ، فاقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه . وحدثنى من كان أقرب إليه منى أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها فى وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه . قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب ، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست .

وروى الإمام أحمد ، والطبرانى ، والحاكم ، وأبو نعيم ، والبيهقى برجال ثقات عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى الناس عنه ، وبقيت معه فى ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار . فقمنا على أقدامنا ولم نولّهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله تعالى عليهم السكينة ، ورسول الله ﷺ على بغلته لم يمض قدماً فحادت به بغلته فمال عن السرج ، فقلت له : ارتفع رفعك الله ، فقال : « ناولنى كفاً من تراب » ، فناولته ، فضرب وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً ، ثم قال : « فأين المهاجرون والأنصار ؟ » ، قلت : هم أولاء ، قال : « اهتف بهم » ، فهتفت بهم ، فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم .

وروى ابن سعد ، وابن أبى شيبة ، والبخارى وابن مردويه ، والبيهقى من طرق عن أبى إسحاق السبيعى رحمه الله تعالى . قال : جاء رجل من قيس إلى البراء بن عازب رضى الله عنهما فقال : أكنتم وليتم ؟ - وفى رواية : أوليت ؟ ، وفى أخرى : أوليتم مع رسول الله ﷺ ؟ وفى أخرى : أفررتم يوم حنين يا أبا عمارة ؟ - فقال : أشهد على رسول الله ﷺ أنه ما ولى - وفى رواية : لا والله ما ولى رسول الله ﷺ يوم حنين دبره - ولكنه خرج بشبان أصحابه وهم حسر ليس عليهم سلاح أو كثير

سلاح ، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام كأنما رجل جراد ، لا يكادون يخطئون ، وأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله على بغلته البيضاء . وأبو سفيان ابن الحارث يقود به ، فنزل رسول الله ﷺ ودعا واستغفر ، وقال ﷺ : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، اللهم أنزل نصرك » .

قال البراء : وكنا إذا احمر البأس نتقى برسول الله ﷺ ، وإن الشجاع منا الذى يحاذيه ، يعنى النبى ﷺ .

وروى البخارى ، ومسلم ، والبيهقى ، عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً ، فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية ، فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم ، وتوارى عنى ، فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم ، فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وأصحاب رسول الله ﷺ ، فولى أصحاب رسول الله ﷺ ، فأرجع منهزماً وعلىَّ بردتان مؤتزراً بإحداهما مرتدياً الأخرى ، فاستطلق إزارى . فجمعتهما جميعاً ، ومررت برسول الله ﷺ ، وأنا منهزم ، وهو على بغلته الشهباء ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد رأى ابن الأكوع فزعاً » ، فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ، ثم إنه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلَّى الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين .

وروى البخارى فى التاريخ ، والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سفيان رضى الله عنه قال : قبض رسول الله يوم حنين قبضة من الحصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا ، فما خيَّل إلينا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا ، وروى ابن عساكر عن الحارث ابن زيد مثله .

وروى ابن أبى شيبة والإمام أحمد – برجال الصحيح – عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان من دعاء النبى ﷺ يوم حنين : « اللهم إنك إن تشاء لا تعبد بعد اليوم » .

وذكر محمد بن عمر – رحمه الله تعالى – قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ

حين انكشف الناس ، ولم يبق معه إلا المائة الصابرة : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان » . فقال له جبريل: لقد لقّنت الكلمات التى لقّن الله تعالى موسى يوم فلق البحر ، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه .

وروى ابن أبى شيبة عن الحكم بن عتيبة رحمه الله تعالى قال : لما فرَّ الناس يوم حنين عن النبى ﷺ جعل يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلم يبق معه إلا أربعة : ثلاثة من بنى هاشم ، ورجل من غيرهم ، على بن أبى طالب ، والعباس وهما بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود من جانبه الأيسر . قال : فليس يقبل أحد إلا قتل ، والمشركون حوله صرعى ، فمن أهل بيته : عمه العباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأخوه ربيعة ابنا عم النبى ، والفضل بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وجعفر بن أبى سفيان بن الحارث ، وقثم ابن العباس – قال فى الزهر : وفيه نظر ، لأن المؤرخين قاطبة فيما أعلم عدوه فيمن توفى رسول الله ﷺ وهو صغير فكيف شهد حنيناً !! –وعتبة ومعتّب ابنا أبى لهب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، وأخوه لأمه أيمن بن أم أيمن وقتل يومئذ . ومن المهاجرين أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم . روى البزار عن أنس رضى الله عنه أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ضرب كل واحد منهم يومئذ بضع عشرة ضربة ، وابن مسعود . ومن الأنصار : أبو دجانة ، وحارثة بن النعمان ، وسعد بن عبادة ، وأبو بشير .. وأسيد بن الحضير ، ومن أهل مكة ، شيبة بن عثمان الحجبى .

ومن نساء الأنصار أم سُلَيم بنت ملحان أم أنس بن مالك ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم الحارث جدة عمارة بن غَزية ، وأم سليط بنت عبيد .

قال محمد بن عمر : يقال إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وستة وستون من الأنصار[1] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٧٥ – ٤٨٥ مقتطفات .

انتهينا من عرض النصوص فى ظل هذه الفقرة من الآية القرآنية : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ ، وسنعرض التعقيب على هذه النصوص ، ونشهد المستويات الإيمانية الفائقة .

١ ــ رسول الله ﷺ :

وقد أخذت الهزيمة المسلمين كل مأخذ وولوا الأدبار ، لكن رسول الله ﷺ هو الذى تنحى ذات اليمين ، وراح يقول :

ــ « إلى إلى أنا عبد الله ورسوله .

ــ أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

ــ أنا ابن العواتك » .

والذين ثبتوا معه منذ البدء ، إنما ثبتوا بثباته ﷺ فلو ولى الدبر ، لما وقف أحد أمام هذا الجيش العرمرم من الشرك ، وكما يقول البراء : كنا إذا احمرَّ البأس نتقى برسول الله ﷺ ، وإن الشجاع منا الذى يحاذيه .

(ويجمع بين قول أنس رضى الله عنه : بقى رسول الله ﷺ وحده ، وبين الأخبار الدالة أنه بقى معه جماعة ، بأن المراد بقى وحده متقدماً مقبلاً على العدو ، والذين ثبتوا كانوا وراءه أو الوحدة بالنسبة لمباشرة القتال ، وأبو سفيان بن الحارث وغيره كانوا يخدمونه فى إمساك البغلة ونحو ذلك . وقال العلماء : ركوبه ﷺ البغلة يومئذ دلالة على النهاية فى الشجاعة والثبات ؛ لأن ركوب الفحولة مظِنّة الاستعداد للفرار والتولى ، وإذا كان رأس الجيش قد وطَّن نفسه على عدم الفرار والأخذ بأسباب ذلك ، كان ذلك أدعى لاتباعه)[1] .

وهذا الثبات النبوى لم يعهد عن مخلوق مثله ، فإذا ثبت عليه الصلاة والسلام فى وجه ثلاثة آلاف فى أحد ، فقد ثبت فى حنين فى وجه عشرين ألفاً ، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الخلف ، إنما كان عليه الصلاة والسلام يركُض بغلته قِبَل الكفار ، والعباس يحاول أن يخفف من ركضها وهو آخذ بلجامها خوفاً على حبيبه عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥١١ ، ٥١٢ .

والارتباط بين هذا الثبات والشجاعة الخارقة ، وبين الثقة بصدق عبوديته ورسالته لله ، ارتباط مهم ، فهو أولاً وقبل كل شيء عبد الله ورسوله ، وهو يعلنها صريحة بينة مجلجلة ، يسمعها أعداء الله المحيطون به من كل جانب . ويعلن عليه الصلاة والسلام ولو تفرق عنه كل الأبطال والرجال والمقاتلين الأشداء ، وبقى وحده أنه النبى لا كذب ، فهذا التولى عنه وهذا الفرار لا يغير ذرة واحدة من صدق نبوته ، ويعلن هذا أمام عشرات الألوف من الأصحاب والأعداء أنه النبى لا كذب .

﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾[1] .

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

قالها عليه الصلاة والسلام أمام عمه أبى طالب ، حين خطر بذهنه خاطر خذلانه وحده .

وقالها عليه الصلاة والسلام اليوم ، وقد فرَّ عنه الآلاف المؤلفة ، والنتيجة واحدة .

أنا النبى لا كذب .

وحين ينتسب عليه الصلاة والسلام إلى عبد المطلب جده ، الذى طبقت شهرته الآفاق العربية كلها ، وارتبط اسمه بحادثة الفيل فى مكة ، وجاب اليمن والشام ، وتحدث الناس عن خروج رجل من ضئضئه ، يكون نبياً للعرب والعجم يربط هؤلاء العرب الذى حوله بأصالة محتده ، وأنه يمثل قريشاً التى اصطفاها الله ، وكنانة التى اصطفاها الله ، وعبد المطلب هو رمز قريش وبنى هاشم .

فهو من حيث أرومته ونسبه عليه الصلاة والسلام سليل شجاعة وقوة وطيب محتد ، وهو حيث اصطفاء الله تعالى له لرسالته النبى لا كذب .

وحتى انتسابه للعواتك من سُليم ، يعنى أنه قد تنقل فى كل الأصلاب العربية والأرحام العربية العظيمة ، فهو ينتهى نسباً أماً وأباً إلى خير الخلق ، والخلق كلهم

(١) سورة النساء : ٨٤ .

أخذوا خيريتهم منه عليه الصلاة والسلام . فهو سيد ولد آدم .

ولابد أن يعرف العدو بألوفه العشرين ، والصحب بألوفه العشر ، أن ابن عبد المطلب هو النبى لا كذب ، وأنه لا يسامى شرفاً ولا أصلاً ولا خلقاً ولا اصطفاء ، فهو عبد الله ورسوله إلى خلقه كافة ، وذلك فى مجتمع يجعل للأنساب أعلى القيم وأرفعها .

وسيد القادة فى الأرض حين يكون بهذا الثبات ،وبهذه الشجاعة ، يستطيع أن ينادى جنده الذين رباهم ليثبتوا معه ، أمام هذا الهجوم الشرس الرهيب ، لكن ترى من يلبيه ، لـو كان بعيداً عن ساحة المعركة يوجه النداءات والأوامر كما يفعل قادة الأرض؟ وفى هذه اللحظات العصيبة حين يقف وحده والسهام والسيوف والرماح كلها تتقصف حوله ، ينادى جنده وأحبابه لا غرو أن يفيئوا إليه ، وهو فى مجتلد القوم ، ويقدموا أرواحهم فداءً له .

٢ ــ ونظرة فاحصة في هؤلاء الذين ثبتوا معه :

أربعة ، وتسعة ، واثنا عشر ، وثمانون ومائة .

أما الأربعة ، فمن الرعيل الأول : على رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، ومن جيل الفتح الجديد : العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث .

أما العباس : فهو خليفة أبى طالب أخيه ، الذى ربط حياته بحياة ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام منذ اللحظات الأولى ، سواءً كان ظاهراً على الشرك أو مسلماً يخفى إسلامه ، لكن نصره لابن أخيه أمر لم يتغير لحظة واحدة فى حياته ، ويكفى أنه حضر معه أخطر بيعة فى الإسلام بيعة العقبة الأخيرة ، وكان الناطق باسم النبى ﷺ .

أما الرمز الثانى ، فكان أبا سفيان بن الحارث : ويصعب جداً المرور على هذا الاسم العظيم دون عرضٍ شاملٍ له ، حيث انتقل من ألدَّ الأعداء إلى واحد من أربعة يذود عن رسول الله ﷺ ، ويفديه بروحه ودمه .

قال محمد بن عمر : حدثنى سعيد بن مسلم بن قمادين ، عن عبد الرحمن ابن سابط وغيره قال :

كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة ، أرضعته حليمة أياماً ، وكان يألف رسول الله ﷺ ، وكان له تربا ، فلما بعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يُعادَها أحد قط ، ولم يكن دخل الشِّعب ، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه ، وهجا حسان فقال :

ألا مبلغ حسان عنى رسالة   فخلتك من شر الرجال الصعالك
أبوك أبو سوء وخالك مثله   فلست بخير من أبيك وخالك

فقال المسلمون لحسان : اهجه ! قال : لا أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فقال : كيف آذن ذلك فى ابن عمى أخى أبى ؟ قال : أسلك منه كما تسل الشعرة من العجين ، فقال حسان شعراً ، وأمره أن يذاكر أبا بكر الصديق رضى الله عنه ببعض ذلك فذاكره .

فمكث أبو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه ، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ ، ثم إن الله ألقى فى قلبه الإسلام . فقال أبو سفيان :فقلت: من أصحب ؟ ومع من أكون ؟ قد ضرب الإسلام بجرانه فجئت زوجتى وولدى فقلت : تهيؤوا للخروج فقد أظل قدوم محمد عليكم ، قالوا : قد آن لك تبصر العرب والعجم قد تبعت محمداً وأنت مُوضع فى عدائه، وكنت أولى بنصره ! فقلت لغلامى مذكور : عجل بأبعرة وفرس ، قال : ثم سرنا حتى نزلنا الأبواء ، وقد نزلت مقدمته الأبواء فتنكرت وخفت أن أقتل ، وكان قد هدر دمى ؛ فخرجت وأجد ابنى جعفر على قدمى نحواً من ميل فى الغداة التى صبح فيها رسول الله ﷺ الأبواء ، فأقبل الناس رسلاً رسلاً فتنحيت فرقاً من أصحابه ، فلما طلع مركبه تصديت له تلقاء وجهه ، فلما ملأ عينيه منى أعرض عنى بوجهه إلى الناحية الأخرى ، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى ، وأعرض عنى مراراً ، فأخذنى ما قرب وما بعد ، وقلت : أنا مقتول قبل أن أصل إليه ، وأتذكر بره ورحمته وقرابتى فيمسك ذلك منى ، وقد كنت لا أشك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سيفرحون بإسلامى فرحاً شديداً لقرابتى من رسول الله ﷺ ، فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله ﷺ عنى ، أعرضوا عنى جميعاً ، فلقينى ابن أبى قحافة معرضاً ، ونظرت إلى عمر ، ويغرى بى رجلاً من الأنصار ، فألزَّ بى رجل يقول :

يا عدو الله ، أنت الذى كنت تؤذى رسول الله ﷺ وتؤذى أصحابه ، قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها فى عداوته ! فرددت بعض الرد عن نفسى ، فاستطال عليَّ ورفع صوته حتى جعلنى فى مثل الحرجة من الناس يسرون بما يفعل بى .

قال : فدخلت على عمى العباس فقلت : يا عباس ، قد كنت أرجو أن سيفرح رسول الله ﷺ لقرابتى وشرفى ، وقد كان منه ما كان رأيت ، فكلِّمه ليرضى عنى ! قال : لا والله لا أكلِّمه فيك أبداً بعد الذى رأيتُ منه إلا أن أرى وجهاً ، إنى أُجِلُّ رسول الله ﷺ وأهابه . فقلت : يا عمى ، إلى من تكلنى ؟ قال : هو ذاك ، قال : فلقيت علياً رحمة الله عليه فكلَّمتُه فقال لى مثل ذلك ، فرجعت إلى العباس فقلت : يا عم ، فكف عنى الرجل الذى يشتمنى ، قال : صفه لى ، فقلت : هو رجل آدم شديد الأدمة ، قصير دحداح بين عينيه شجّة ، قال : ذاك نعمان بن الحارث النجارى ، فأرسل إليه فقال : يا نعمان ، إن أبا سفيان ابن عم رسول الله ﷺ وابن أخى ، وإن يكن رسول الله ﷺ ساخطاً فسيرضى ، فكُفَّ عنه ، فبعد لأى ماكف ، وقال : لا أعرض عنه .

قال أبو سفيان : فخرجت فجلست على باب منزل رسول الله ﷺ حتى خرج إلى الجمعة ، وهو لا يكلمنى ولا أحد من المسلمين ، وجعلت لا ينزل منزلاً إلا أنا على بابه ومعى ابنى جعفر قائم ، فلا يرانى ، إلا أعرض عنى ، فخرجت على هذه الحال حتى شهدت معه فتح مكة ، وأنا على حيلة تلازمه حتى هبط من أذاخر حتى نزل الأبطح ، فدنوت من باب قبته فنظر إلىَّ نظراً هو ألين من ذلك النظر الأول قد رجوت أن يتبسم ودخل عليه نساء بنى المطلب ، ودخلت معهن زوجتى فرققته على ، وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال حتى خرج إلى هوازن ، فخرجت معه ، وقد جمعت العرب جمعاً لم يجمع مثله قط ، وخرجوا بالنساء والذرية والماشية ، فلما لقيتهم قلت : اليوم يرى أثرى إن شاء الله ، ولما لقيتهم حملوا الحملة التى ذكر الله : ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ ، وثبت رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء ، وجرَّد سيفه ، فأقتحمُ عن فرسى وبيدي السيف صلتا ، قد كسرت جفنه والله أعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلى ، فأخذ العباس بن عبد المطلب بلجام البغلة ، فأخذت بالجانب الآخر . فقال : « من هذا ؟ » فذهبت أكشف المِغفَر ، فقال العباس : يا رسول الله ، أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث فارض عنه ، أى رسول الله ! قال :

« قد فعلت » فغفر الله له كل عداوة عادانيها ! فأقبل رجله فى الركاب ، ثم التفت إلى فقال : « أخى لعمرى » ، ثم أمر العباس فقال : «ناد يا أصحاب البقرة ، يا أصحاب السمرة يوم الحديبية ! يا للمهاجرين يا للأنصار ، يا للخزرج » ،فأجابوا: لبيك داعى الله ! وكرّوا كَرّة رجل واحد قد حطّموا الجفون ، وشرعوا الرماح ، وخفضوا عوالى الأسنة ، وأرقلوا إرقال الفحول فرأيتنى وإنى لأخاف على رسول الله ﷺ شروع رماحهم حتى أحدقوا برسول الله ﷺ ، وقال لى رسول الله ﷺ : « تقدم فضارب القوم » ، فحملت حملة أزلتهم عن موضعهم ، وتبعنى رسول الله ﷺ قُدُماً فى نحور القوم ، ما نالوا ما تقدم ، فما قامت لهم قائمة حتى طردتهم قدر فرسخ . وتفرَّقوا فى كل وجه ، وبعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه على الطلب ، فبعث خالد بن الوليد على وجه ، وبعث عمرو بن العاص فى وجه ، وبعث أبا عامر الأشعرى إلى عسكر بأوطاس فقتل ، وقتل أبو موسى قاتله[1] .

هذا الوافد الجديد هو الذى انضم فكان أحد الأربعة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى محا عداوة عشرين عاماً بهذا الثبات العظيم . حتى ليقول فيه عليه الصلاة والسلام :

« إنى لأرجو أن يكون لى فيك خلفاً من عمى حمزة »[2] .

أما التسعة ، فهم آل بيت رسول الله ﷺ ، فإضافة إلى الأربعة السابقين :

ربيعة بن الحارث أخو أبى سفيان المذكور ، وجعفر بن أبى سفيان بن الحارث ، والفضل بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن أم أيمن أخوه وقتل يومئذ .

أما الاثنا عشر ، فمن أهل بيته عليه الصلاة والسلام – إضافة إلى التسعة السابقين –:

عتبة ومعتّب ابنا أبى لهب ، ونوفل بن الحارث . وفى رواية يضاف إليهما : عقيل ابن أبى طالب .

ومن أهل مكة : شيبة بن عثمان الحجبى – العبدرى .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٨١٠ . وهناك رواية أخرى ساقها الواقدى عن إسلام أبى سفيان قبل فتح مكة ، وهى التى رواها ابن إسحاق ، وهى أثبت وأصح ، لكن ليس فيها التفصيلات المذكورة .

(٢) المغازى للواقدى / ٣/ ٩٠٠ ، ٩٠١ .

ومن المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، كما روى البزار عن أنس رضى الله عنه : أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ضُرِبَ كل واحد منهم يومئذٍ بضع عشرة ضربة ، وابن مسعود .

ومن الأنصار : أبو دجانة ، وحارثة بن النعمان ، وسعد بن عبادة ، وأبو بشير ، المازنى ، وأسيد بن الحضير .

ومن نساء الأنصار : أم سليم بنت ملحان ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم الحارث جدة عمارة بن غزية ، وأم سليط بنت عبيد .

قال محمد بن عمر :يقال: إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وسبعة وستون من الأنصار .

قال محمد بن عمر يقال : إن رسول الله ﷺ لما انكشف الناس عنه يوم حنين ، قال لحارثة : « يا حارثة ، كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟ » قال : فما التفت ورائى تحرجاً ، فنظرت عن يمينى وعن شمالى فحزرتهم مائة . فقلت : يا رسول الله هم مائة . فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مررت على النبى ﷺ وهو يناجى جبريل عند المسجد ، فقال جبريل : يا محمد من هذا ؟ . قال : « حارثة بن النعمان » فقال جبريل : هو أحد المائة الصابرة يوم حنين لو سلم لرددت عليه، فأخبر رسول الله ﷺ حارثة ، فقال : ما كنت أظنه إلا دحية الكلبى واقفاً معك[1] .

وإذا كان أبو سفيان بن الحارث أحد الأربعة ، وقد تهيأ للإسلام قبيل فتح مكة ، فلم نبعد وعندنا شيبة بن عثمان ، أحد الاثنى عشر ، وهو ابن الإسلام لتوه؟ نستمع إليه يحدثنا بقصته : (لما رأيت رسول الله ﷺ غزا مكة فظفر بها ، وخرج إلى هوازن قلت : أخرج لعلى أدرك ثأرى ! وذكرت قتل أبى يوم أحد قتله حمزة ، وعمى قتله على ، فلما انهزم أصحابه جئته عن يمينه ، فإذا العباس قائم ، عليه درع بيضاء كالفضة ينكشف عنها العجاج ، فقلت : عمُّه لن يخذله ، ثم جئته عن يساره فإذا بأبى سفيان ابن عمه ، فقلت : ابن عمه لن يخذله ! فجئته من خلفه ، فلم يبق إلا أن أسوِّره[2] بالسيف إذ رفع ما بينى وبينه شواظ من نار كأنه برق وخفت أن

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٠٠ ، ٩٠١ .
(٢) أي : أعلوه .

يمحشني ، ووضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى ، والتفت إلىَّ فقال : « يا شيب ، ادن منى » ! فوضع يده على صدرى ، وقال : « اللهم أذهب عنه الشيطان » ! قال : فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلىَّ من سمعى وبصرى وقلبى ، ثم قال : « يا شيب ، قاتل الكفار » ، قال : فتقدمت بين يديه أحب والله أقيه بنفسى وبكل شىء ، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله ، ودخلت عليه فقال :

« الحمد لله الذى أراد بك خيراً مما أردت » ، ثم حدثنى بما هممت به)[1] .

إن هذه النماذج التى ثبتت مع رسول الله ﷺ من أهل بيته ، ولأول مرة تبرز فى معركة لتشى بعمق التحول عندها ، بحيث تمثل أصالة بنى هاشم ، الذين اصطفاهم الله تعالى من كنانة ، وأنهم عندما نوَّر الإسلام قلوبهم ، وأتيح لهم أن يكونوا فى ساحة المعركة ضد المشركين ، كانوا على قدم صدق مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واختصروا الزمن كله والذى بلغ عشرين عاماً ، ليكونوا على مصاف الصفوة الأولى التى تلقت التربية منذ فجر الإسلام .

والحقيقة أن الإسلام الذى يدخل إلى القلب ويمتزج به ، ويكون له أرضية خصبة ، وخليقة جيدة ، يمكن أن يحقق التحول العجيب الذى يلف الزمن فى أحشائه ، ويرفع المستوى الإيمانى إلى الذروة ، وهو غير الصورة البطيئة التى يتسلل الإيمان فيها إلى العقل خطوة خطوة ، فيسير وئيداً مع الزمن ، وفى كثير من الأحيان نجد أن شدة العداوة التى تنطلق من قناعة فكرية عميقة ، عندما تنشد فى هذه القناعة وتنهار ويحل محلها الإيمان ، فيكون الوافد الجديد من القوة والصلابة والفدائية على مستوى ذلك العداء ، وهو ما رأيناه واضحاً من نموذجى أبى سفيان وشيبة .

والجهاد هو المعمل العجيب العظيم الذى تتفاعل داخل أفرانه كل مستويات النفوس ، ويعطى من الطاقات أضعاف ما يعطيه الكلام والقناعة الفكرية الباردة .

والتربية الجهادية إذن تؤهل المعادن النفيسة إلى أن تبرز بجواهرها ولآلئها على التو ، كما تبرز المعادن الخسيسة من خلالها كذلك .

وإنا فى الحقيقة لنعجب من ثبات هذه الحفنة القليلة من أهل بيت رسول الله

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩١١ .

ﷺ ، وفرار عددٍ ليس بالقليل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

نجد هنا أهمية انتساب رسول الله ﷺ إلى جده عبد المطلب ، وهذه الحفنة العظيمة كلها منه :

العباس بن عبد المطلب ، الفضل بن العباس ، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، جعفر بن أبي سفيان ، عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب ، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، معتب بن أبي لهب بن عبد المطلب ، فقد كانوا جميعاً من هذه الأرومة الكريمة ، وذلك عندما كانت المواجهة المباشرة خارج قريش ، ومع القبائل العربية العريقة ، كان بنو عبد المطلب جميعاً تحت راية سيدهم رسول الله صلوات الله تعالى عليه ، وكانوا يفدونه بالأرواح والمهج ، ومصدقيه برسالته .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

٣ ـ ولا عجب أن نرى المائة الصابرة ، أو الثمانين الصابرة ، حول رسول الله ﷺ ، من الصفوة المختارة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، لكن العَجَب كذلك أن نرى بينهم تلك النماذج النسائية الخالدة ، التي ما هلع فؤادها ، ولا طار قلبها في الوقت الذي هلعت الأبطال ، وطارت فيه أفئدة الرجال .

روى ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : اتخذت أم سليم خنجراً أيام حنين ، فكان معها فلقى أبو طلحة – زوجها – أم سليم ومعها الخنجر ، فقال أبو طلحة : ما هذا ؟ . قالت : إن دنا مني بعض المشركين أبعج به بطنه ، فقال أبو طلحة : أما تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ فضحك رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، أُقتل من يعدونا من الطلقاء ، انهزموا عنك ، فقال : « إن الله تعالى قد كفى وأحسن يا أم سليم »[1] .

وروى محمد بن عمر عن عمارة بن غزية قال : قالت أم عمارة : لما كان يوم حنين والناس منهزمون في كل وجه ، وكنا أربع نسوة وفي يدي سيف لي صارم ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٨٦ .

وأم سليم معها خنجر قد حزمته فى وسطها ، وإنها يومئذ لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، وأم سليط وأم الحارث .

قال شيوخ محمد بن عمر : فجعلت أم عمارة تصيح يا للأنصار ، أية عادة هذه مالكم والفرار ؟ قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله فى إثر المسلمين ، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل ، فوقع على عجزه ، وأشدُّ عليه ، ولم أزل أضربه حتى أثبتُّه ، وأخذت سيفاً له ، ورسول الله ﷺ قائم مصلتُ السيف بيده وقد طرح غمده ينادى « يا أصحاب سورة البقرة » ، فكثر الأنصار ، ووقفت هوازن قدر حلب ناقة فتوح[1] ، ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة قط كانت مثلها ، وقد ذهبوا فى كل وجه ، فرجع إلى أبنائى جميعاً : خبيب وعبيد الله أبناء زيد بأسارى مكتفين ، فأقوم إليه من الغيظ فأضرب عنق واحد منهم ، وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت في بني مازن وبني النجار ثلاثين أسيراً ، وكان المسلمون بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد وتراجعوا ، فأسهم له رسول الله ﷺ جميعاً ، وكانت أم الحارث الأنصارية آخذة بخطام جمل الحارث زوجها ، وكان يسمى المجسار فقالت : يا حارث ، أتترك رسول الله ﷺ والناس يولون منهزمين ؟! وهى لا تفارقه ، قالت : فمر علىَّ عمر بن الخطاب فقلت : يا عمر ، ماهذا ؟ قال : أمر الله تعالى[2] .

٤ ــ وحين تقع المحنة وتشتد الأزمات ، تستدعى القاعدة الصلبة لتأدية مهمتها ، وإثبات دورها ، ومن بين الآلاف المؤلفة التى دعاها الرسول ﷺ لمرة واحدة : (فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا عباد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، أيها الناس ، إنى أنا عبد الله ورسوله » .

وراح يخصص النداء بعدها إلى الصفوة المختارة ، التى أثبتت فى كل محنة أنها أهل للمواجهة ففى رواية مسلم :

« يا عباس ، ناد يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » .

---

(١) ناقة فتوح : واسعة الإحليل .

(٢) المصدر نفسه / ٥ / ٤٨٧ .

فكان النداء فى التخصيص الأول إلى الأنصار عامة ، ثم النداء فى التخصيص الثانى إلى أصحاب السمرة ، إلى جيل الحديبية ، أكرم الأجيال على الله ، ومن ضمنهم جيل بدر .. إنه نداء إلى الذين بايعوا على الموت ، وبايعوا على ألا يفروا ، وتذكير بتلك البيعة التى رضى الله عن المؤمنين بها ، والتى عاهدوا الله فيها ، والفرار نكث ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، إنه نداء موجه إلى أولئك الألف والأربعمائة من الاثنى عشر ألفاً ، لأنهم هم الذين رضى الله عنهم فى بيعتهم وعهدهم ، وهم الجيل الفذ فى البشرية الذى يستدعى فى حالة الأزمات ليلبى النداء .

وكيف كانت الاستجابة للنداء النبوى الخالد ؟؟!!

(فقلت بأعلى صوتى : أين الأنصار ؟ أين أصحاب السُمرة ؟ أين أصحاب سورة البقرة ؟ .

قال : والله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها) .

وفى الرواية الثانية عند البغوى والبيهقى :

« يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آووا ونصروا » .

فالمهاجرون والأنصار هم أصحاب القضية المعنيون بهذا الدين،هم الذين ترعرعوا عليه ورضعوا من لبانه ، وتغلغل فى حنايا قلوبهم ، وحشايا صدورهم ، وامتزج بدمائهم وأرواحهم ، ومن أجل ذلك ما أن تناهى لسمعهم النداء ، حتى مضوا نحوه بفطرتهم .

(فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها ، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه فى حرجة ، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندى على رسول الله ﷺ من رماح الكفار ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك يا لبيك . قال : فيذهب الرجل يثنى بعيره ولا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين – كما ذكره أبو عمر بن عبد الله – فيأخذوا درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره فيخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا هم والكفار .

لقد أصبح حب رسول الله ﷺ فى أعماقهم أحب إليهم من أنفسهم وأبكارهم وأزواجهم ، عطفة البقر على أولادها ، أو عطفة الإبل على أولادها ، يؤسون نحو الصوت .

ثم كان التخصيص الرابع بعد المهاجرين والأنصار ، وأصحاب السمرة ، على الخزرج :

(ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب ، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركابيه ، فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمتطاول عليهم إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ : « هذا حين حمى الوطيس » .

إن عودة المائة الصابرة ، أو ثبات الثمانين الصابرة ، هو الذى أعاد الحرب السافرة بين الفريقين ، وعوضاً من أن يلوذ الجميع بالفرار ، كانوا يلوذون برسول الله ﷺ ويأوون إليه ، وكانت الأعداد فى ازدياد، والمعركة محتدمة ، والدماء تتفجر ، أنهاراً ، ولبى الخزرج النداء ، ولم تأت الدعوة فقط من رسول الله ﷺ للثبات ، فقد جاءت كذلك من القيادات العظيمة للأوس والخزرج :

(روى محمد بن عمر عن محمد بن عبد الله بن أبى صعصعة : أن سعد بن عبادة جعل يصيح يومئذٍ يا للخزرج ثلاثا ، وأسيد بن الحضير يصيح ، يا للأوس ثلاثا ، فثابوا من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبها)[1] .

والمرجح من الروايات أن ثمانين على الأقل من المهاجرين والأنصار ، بما فيهم الحفنة الهاشمية من أهل بيت رسول الله ﷺ ، لم يولوا الأدبار ، قد يكونون نكصوا على الخلف أو تراجعوا قليلاً ، لكنهم لم ينهزموا أو يتراجعوا ، وباكتمالهم للمائة عادوا فكروا على العدو ، ثم بدأت الأعداد تتزايد حتى بلغت الألف ، وذلك حين بدأ تراجع الكفار وانهزامهم .

٥ ـــ الكف من الحصباء ، هذا السلاح الذى استعمله رسول الله ﷺ فى بدر ، وقال الله تعالى له : **﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم ﴾**[2] .

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٠٤ . (٢) سورة الأنفال : ١٧ .

ها هو يستعمله عليه الصلاة والسلام فى حنين ، والذى كان سلاحاً فعالاً أفتك من آلاف السيوف وآلاف الأسنة ، ولكن رسول الله ﷺ لم يستعمل هذا السلاح الذرى إلا بعد مجتلد القوم ، وبعد التحام المعركة مع الكفار ، وهو السلاح الذى لا يملكه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فقد أعطاه الله تعالى له ، ليستعمله فى اللحظة المناسبة ، فيغير نتيجة المعركة ، وكما نعلم - مع فارق التشبيه - أن القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية هى التى حسمت المعركة ، وكانت السلاح الفعال الذى قلب الموازين ، كانت هذه الكف من الحصباء كذلك هى التى قلبت الموازين ، وغيَّرت الأوضاع .

ففى رواية مسلم : (.. ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات ، فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال : « انهزموا ورب محمد » ، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فمازلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً) .

وفي رواية البيهقى ، وأحمد ، وأبى داود ، والبغوى ، والطبرانى عن كرز بن يزيد الفهرى قال :

(حدثنى من كان أقرب إليه منى أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » ، قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب) .

وفى رواية البخارى - فى تاريخه - وعبد بن حميد - فى مسنده - والبيهقى ، وابن الجوزى عن يزيد بن عامر السوائى قال :

(أخذ رسول الله ﷺ يوم حنين قبضة من الأرض ثم أقبل على المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال : « ارجعوا ، شاهت الوجوه » ، قال : فما من أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو القذى فى عينيه ويمسح عينيه .

وفى رواية أحمد ، والطبرانى ، والحاكم ، وأبى نعيم ، والبيهقى برجال ثقات عن ابن مسعود :

(فحادت به بغلته ، فمال عن السرج ، فقلت له : ارتفع رفعك الله ، فقال : « ناولنى كفاً من تراب » ، فناولته ، فضرب وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً) .

وفى رواية البخارى ، ومسلم ، والبيهقى عن سلمة بن الأكوع :

(فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ، ثم إنه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلّى الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة) .

وروى البخارى – فى التاريخ – والبيهقى – فى الدلائل – عن عمرو بن سفيان رضى الله عنه قال :

قبض رسول الله ﷺ يوم حنين قبضة من الحصباء فرمى بها وجوهنا ، فانهزمنا ، فما خيِّل إلينا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا) .

وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون مفعول القبضة هو ملء العيون والأفواه من التراب ، وهذا كاف ليحول دون المواجهة ، وكافٍ ليقعوا أسرى بيد المسلمين ، وكافٍ لتمكين المسلمين منهم ، فلم تكن كف الحصباء أو التراب قاتلة ، إنما كان القتل بيد المسلمين أنفسهم ، لينالوا شرف الجهاد ، وشرف القتال للمشركين .

٦ـ وإذا كانت العناية الربانية تترى دائماً لأنبياء الله تعالى ، فقد قال الله تعالى لموسى حين كان البحر من أمامه والعدو من خلفه :

﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

وبين ضربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام وكف حصباء محمد عليه الصلاة والسلام صلة وثيقة ، فقد انتمت ضربة العصا ورمية الكف بهلاك العدو ، غير أن السنة فى أمة محمد ﷺ أن يكون للجيل المسلم والقاعدة الصلبة دور فى تحقيق الهزيمة ، بصفتهم ستار لقدر الله عز وجل ، بينما كانت السنة مع قوم موسى أن يتم الهلاك ابتداءً ، والجيل المسلم ينظر هلاك هذا العدو ، ويستخلف بنى إسرائيل فى الأرض لينظر كيف يعملون .

(١) سورة الشعراء : ٦١ – ٦٨ .

ولقد توحد الموقف بين النبيين ابتداءً ، كما روى محمد بن عمر :

(كان من دعاء النبى ﷺ حين انكشف عنه الناس ولم يبق معه إلا المائة الصابرة : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وأنت المستعان » ، فقال له جبريل : « لقد لُقِّنْتَ الكلمات التى لقَّن الله تعالى موسى يوم فلق البحر » ، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه .

وتوحد الموقف بين الأمتين على أثر كف الحصباء ، وضربة العصا ، فأهلك عدوهم .

وتوحد الموقف بين الأمتين ، يوم طلب حديثو العهد بالجاهلية أن يجعل رسول الله ﷺ لهم ذات أنواط كما كان لكفار قريش ذات أنواط ، حيث لم تبرأ عقولهم ، وقلوبهم من آثار الوثنية بعد ، كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اجعل لنا إلـٰهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوماً تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلـٰهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾[1] .

فتميزوا عن بنى إسرائيل فى الموقف الأول :

(والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون) .

وتميزوا فى الموقف الثانى يوم حنين حين جاءهم النداء : « يا للخزرج ، يا للأنصار ، يا للمهاجرين ، أين أصحاب السمرة أين أصحاب سورة البقرة » .

فهبوا جميعاً يرددون : يا لبيك يا لبيك يا لبيك . وانعطفوا على الصوت انعطافة البقر أو الإبل على أولادها .

إن الضعف يعترى الأمتين معاً ، لكن بنى إسرائيل غلب عليهم الضعف ، وسقطوا فى الامتحان ، وضاعوا فى التيه أربعين عاماً حتى تكون الجيل الجديد ، أما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين رباهم الله تعالى على عينه ، كانوا ملء السمع والبصر ، يحيطون بنبيهم ، إحاطة السوار بالمعصم ، يفدونه بأكبادهم

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠ .

وأولادهم ، ولو أصابهم الوهن فى بعض اللحظات ، فسرعان ما يفيئون إلى الله ورسوله ، ويحقق الله تعالى بهم موعوده .

وكان التميز الثالث لدى القاعدة الصلبة والصفوة المختارة التى وقفت بعد وفاة رسول الله ﷺ تعلن :

(من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) .

بينما لم يكن من الصفوة المختارة فى بنى إسرائيل يوم مضى موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاة ربه إلا أخاه هارون :

﴿ فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[1] .

واحتاجت عودتهم عن ردتهم إلى عودة موسى عليه الصلاة والسلام لهم ، أما هارون المسلمين أبو بكر ، فقد استجابت له العصبة المؤمنة ، وقاتل بها المرتدين ، ودانت الجزيرة بالتوحيد ، فاستحق هذا الجيل الخلافة فى الأرض ، والوراثة عن بنى إسرائيل .

ولابد لنا أن نشير إلى بعض البطولات الفردية التى برزت فى حنين من الذين أنزل الله سكينته عليهم ، علماً بأن الهزيمة قد تمت بقدر الله عز وجل على أثر كف الحصباء ، لكن هذه المعجزة لم تعط إلا لأن المائة الصابرة لم تنكص ، وتلاحقت المئات بها على أثر النداء .

أ ــ أبو بشر المازنى والأنصار :

(... وأكِرُّ وأنا يومئذ غلام شاب وقد علمت أن رسول الله ﷺ متقدم ، فجعلت أقول : يا للأنصار ، بأبى وأمى عن رسول الله ﷺ تولون ؟ وأكِرُّ فى وجوه المنهزمين ليس لى همة إلا النظر إلى سلامة رسول الله ﷺ ، حتى صرت إليه وهو

(١) سورة طه : ٨٧ - ٩١ .

يصيح : « يا للأنصار » ، فدنوت من دابته ، والتفتُّ من ورائها ، وإذا الأنصار قد كروا كرة رجل واحد ، ورسول الله ﷺ واقف على رايته فى وجوه العدو ، ومضت الأنصار أمام رسول الله ﷺ يقاتلون ورسول الله ﷺ سائر معهم يفرجون العدو عنه حتى طردناهم فرسخاً وتفرقوا فى الشعاب)[1] .

ب ـــ أنس بن أبي مرثد :

(.. ثم قال : « من يحرسنا الليلة ؟ » ، قال أنس بن أبى مرثد : أنا يا رسول الله ، قال : « فاركب » ، فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : « استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ولا نغّرن من قبلك الليلة» ، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : « هل أحسستم فارسكم ؟ » ، قالوا : يا رسول الله ، ما أحسسناه ، فثوِّب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلى وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ صلاته قال : « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » ، فجعل ينظر إلى خلال الشجرة فى الشِّعب ، وإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشِّعب حيث أمرنى رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة ؟ » قال : لا . إلا مصلياً أو قاضى حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها »[2] .

جـ ـــ وروى عبد الرزاق وابن عساكر عن عبد الرحمن بن أزهر رضى الله عنه قال : كان خالد بن الوليد جرح يوم حنين ، وكان على خيل رسول الله ﷺ ، فجرح يومئذ ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ بعدما هزم الله الكفار ، ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشى فى المسلمين ويقول : « من يدلنى على رحل خالد بن الوليد ؟ » ، فمشيت – أو قال : سعيت – بين يدى رسول الله ﷺ وأنا غلام محتلم أقول : من يدل على رحل خالد ؟ حتى دللنا عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله ، فأتاه

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٧٢ .
(٢) المصدر نفسه / ٤٦٦ ، وقال : رواه أبو داود والترمذى وهو عند أبى داود ، كتاب الجهاد / باب فضل الحماسة فى سبيل الله .

رسول الله ﷺ ، فنظر إلى جرحه فتفل فيه فبرأ رضى الله عنه)[1] .

د ــ وروى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن أبى قتادة الحارث ابن ربعى رضى الله تعالى عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنينٍ . فلما التقينا كان للمسلمين جولة ، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين – وفى رواية : نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين وآخر من المشركين يختله[2] – فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع ، وأقبل علىّ فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلنى ، فلحقت عمر ، فقلت : ما بال الناس ؟ قال : أمر الله عز وجل ثم رجعوا ، وجلس النبى ﷺ فقال : « من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سَلَبُه » ، فقلت : من يشهد لى ؟ ثم جلستُ ، ثم قال النبى ﷺ مثله ، فقمت ، فقلت : من يشهد لى ثم جلست ، ثم قال النبى ﷺ مثله ، فقمت ، فقال : « مالك يا أبا قتادة ؟ » فأخبرته ، فقال رجل : صدق ، سَلَبُه عندى فارضه منى ، فقال أبو بكر : لاها الله ، إذاً لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ فيعطيك سلبه ، فقال النبى ﷺ : « صدق فأعطه » ، فأعطانيه ، فابتعت به مخرفاً[3] فى بنى سلمة ، فإنه لأول مال تأثلته[4] فى الإسلام)[5] .

هـ ــ (وكان رجل على جمل له أحمر بيده راية سوداء على رمح طويل ، أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإن فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينما هو كذلك إذ هوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه على بن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه ، فانجعف عن رحله ، واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ)[6] .

و ــ قال ابن هشام : وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٩٢ . (٢) يختله : يأخذه على غرة . (٣) مخرفاً : بستان تمر .
(٤) تأثلته : تأصلته . (٥) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٩٤ وهو عند البخارى / ٢ / ١٩٦ .
(٦) السبل : ٥ / ٤٧١ .

فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قوماً واضعى رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم : فقال : هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم ؛ فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ؛ فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضى رماحهم أغفالاً على خيلهم ! فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم ، ثم طلع فارس ؛ فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طويل الباء ، واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاءة حمراء ، فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم ، فاثبتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم ، فصمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها)[1] .

ز ـــ وروى البخارى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن ، فبينما نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ ، إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ، ثم انتزع طلقاً من حقبه فقيَّد به الجمل ، ثم تقدم فتغدى مع القوم وجعل ينظر ، وفينا ضعفة ورقة فى الظهر ، وبعضنا مشاة إذ خرج يشتد فأتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناخه فقعد عليه ؛ فاشتد به الجمل ، واتبعه رجل من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء – وفى رواية : أتى عين من المشركين إلى رسول الله ﷺ وهو فى سفر فجلس عند أصحابه يتحدث – ثم انفتل فقال رسول الله ﷺ : «اطلبوه واقتلوه » ، قال سلمة : وخرجت أشتد ، فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل ، فأنخته ، فلما وضع ركبته على الأرض ، اخترطت سيفى فضربت رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه ، فاستقبلنى رسول الله ﷺ ، والناس معه ، فقال : « من قتل الرجل ؟ » قالوا : ابن الأكوع ، قال : « له سلبه أجمع » .

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٥٥ .

﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ... ﴾ :

كان للكف من الحصباء دور فى المعركة ، ولجنود الله تعالى من الملائكة دور آخر ، فحين لا يبقى من الجيش إلا المائة الصابرة على أكبر التقادير ، فهذا يعنى أن ينتهوا بلمحة خاطفة ، لكن ، هل هذه هى الحقيقة التى واجهت المشركين ؟

١ ـ (روى ابن أبى حاتم عن السدى الكبير - رحمه الله تعالى - فى قول الله عز وجل ﴿ **وأنزلِ جنوداً لم تروها ..** ﴾ ، قال : هم الملائكة ، ﴿ **وعذَّب الذين كفروا** ﴾ : قتلهم بالسيف . وروى أيضاً عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال : فى يوم حنين أمدَّ الله تعالى رسوله ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويومئذ سمى الله تعالى الأنصار مؤمنين قال : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾[1] .

٢ ـ وروى ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقى عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : (رأيت قبل هزيمة القوم - والناس يقتتلون - مثل البجاد[2] الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزيمة القوم)[3] .

٣ ـ وروى مسدد - فى مسنده - والبيهقى ، وابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم برثن ، قال : حدثنى رجل كان من المشركين يوم حنين قال : التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة أن كببناهم ، فبينما نحن نسوقهم فى أدبارهم إذ التقينا بصاحب البغلة - وفى رواية : إذ غشينا فإذا هو رسول الله ﷺ - فتلقتنا عنده - وفى رواية : إذ بيننا وبينه - رجال بيض حسان الوجوه ، قالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا . فرجعنا وكانت إياها)[4] .

٤ ـ وروى ابن مردويه ، والبيهقى ، وابن عساكر عن مصعب بن شيبة ابن عثمان الْحَجَبِىّ[5] عن أبيه رضى الله عنه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والله ما خرجت إسلاماً ، ولكن خرجت أنفاً[6] أن تظهر هوازن على قريش ، فإنى لواقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت : يا رسول الله ، إنى لأرى خيلاً

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٨٢ .
(٢) البجاد : نمل مبثوث متفرق . (٣) المصدر نفسه / ص ٤٨٢ .
(٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٨٢ . (٥) أنفاً : أنفة . (٦) المصدر نفسه / ٤٨٣ .

بلقاً ، قال : « يا شيبة ، إنه لا يراها إلا كافر » ، فضرب بيده على صدرى وقال : « اللهم اهد شيبة » ، فعل ذلك ثلاث مرات ، فوالله ما رفع رسول الله ﷺ الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله تعالى أحب إلىَّ منه ، فالتقى المسلمون فقتل من قتل[1] .

٥ ــ وروى عبد بن حميد ، والبيهقى عن يزيد بن عامر السوائى رضى الله عنه ، وكان حضر يومئذ ، فسئل عن الرعب ، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطنُّ فيقول : أن كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا)[2] .

٦ ــ وروى محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون : لقد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الرَّمية من الحصى ، فما منا أحد إلا يشكو القذى فى عينه ، ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقاناً كوقع الحصى فى الطاس ما يهدأ ذلك الخفقان ، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق عليهم عمائم حمر ، وقد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئاً ، ولا نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم)[3] .

٧ ــ وروى أيضاً عن ربيعة بن أبزى قال : حدثنى نفر من قومى حضروا يومئذ قالوا : كمنَّا لهم فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء ، وحوله رجال بيض حسان الوجوه ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إياها ، وجعلنا نلتفت ، وإنا لننظر إليهم يكدوننا فتفرقت جماعتنا فى كل وجه ، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى لحقنا بعلياء بلادنا ، فإن كان ليحكى منا الكلام ما ندرى به لما كان بنا من الرعب)[4] .

٨ ــ وروى أيضاً عن شيوخ من ثقيف ، أسلموا بعد ما كانوا حضروا ذلك اليوم ، قالوا : مازال رسول الله ﷺ فى طلبنا فيما نرى ونحن مولون ، حتى إن الرجل ليدخل منا حصن الطائف ، وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة)[5] .

* * *

---

(١) المصدر نفسه / ٤٨٣ .   (٢) و(٣) و(٤) و(٥) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٠٦ - ٩٠٨

﴿ .. وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ :

١ ــ (وكانت راية الأحلاف من ثقيف مع قارب بن الأسود بن مسعود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا رجلان من بنى غيرة : وهب واللجلاج ، وقال النبى ﷺ حين بلغه قتل اللجلاج : « قتل اليوم سيِّد شبان ثقيف ، وإلا ما كان من ابن هنيدة » ، وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ، فلما انهزمت هوازن تبعهم المسلمون ، ويستحصى القتل من ثقيف ببنى مالك ، فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم ، فيهم عثمان ابن عبد الله ، فقاتل بها ملياً ، وجعل يحث ثقيف وهوازن على القتال حتى قتل)[1] .

٢ ــ (واستحر القتل من بنى نصر فى بنى رئاب ، فزعموا أن عبد الله بن قيس وهو الذى يقال له : ابن العوراء ، وهو أحد بنى وهب بن رئاب ، قال : يا رسول الله ، هلكت بنو رئاب ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اجبر مصيبتهم »)[2] .

٣ ــ (قال ابن إسحاق : وبعث رسول اللّه ﷺ فى آثار من توجّه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال ...

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه : أن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله ، أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر ، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر ، وحمل عليه أبو عامر ، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد على . فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال : « هذا شريد أبى عامر » .

ورمى أبا عامر أخوان العلاء وأوفى ابنا الحارث من بنى جشم بن معاوية ،

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٠٧ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٥٥ .

فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته ، فقتلاه ، وولى الناس أبا موسى الأشعرى ، فحمل عليهما فقتلهما)[1] .

٤ ـــ (لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقى دريد بن الصمة، فقتِل دريد وهزم اللّه أصحابه، قال أبو موسى: وبعثنى مع أبى عامر ، فرمى أبو عامر فى ركبته ، رماه جشمى بسهم فأثبته فى ركبته ، فانتهيت إليه فقلت : يا عم ، من رماك ؟ فأشار إلى أبى موسى ، فقال : ذاك قاتلى الذى رمانى ، فقصدت إليه فلحقته ، فلما رآنى ، ولّى فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحى ، ألا تثبت ، فكفَّ فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ، ثم قلت لأبى عامر : قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء ، قال : يابن أخى ، أقرئ النبى ﷺ السلام وقل له : استغفر لى ، واستخلفنى أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على النبى ﷺ فى بيته على سرير مرتل ، وعليه فراش قد أثّر رمال السرير على ظهره وجنبه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر ، وقال قل له : استغفر لى ، فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لُعبيد أبى عامر » ، ورأيت بياض إبطيه ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس » ، فقلت : ولى فاستغفر ، فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً »)[2] .

* * *

﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ :

١ ـــ (ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دُحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سبى كثير وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : يا رسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم » .

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يدرى ما عدته .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٥٧ .

(٢) البخارى ، باب غزاة أوطاس / ٢ / ٥ / ١٩٧ .

٢ ـ قال ابن إسحاق: فحدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله ابن عمرو: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك ، قال: وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له زهير ، يكنى أبا صرد ، فقال : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كنَّ يكفلنك ، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين)[١] .

٣ ـ وفى الصحيح عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « معى من ترون ، وأحب الحديث إلىَّ أصدقه . فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبى وإما المال وقد كنت استأنيت بكم » ، وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يُطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل » ، فقال الناس : قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممنَّ لم يأذن » . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[٢] .

٤ ـ وعن أبى عمرو وزياد بن طارق ، وكان قد أتت عليه مائة وعشرون سنة ، قال : (سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمى يقول : لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ويوم هوازن ، وذهب يُفرِّق السبى والشاء أتيته ، وأنشأت أقول هذا الشعر :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٨٨ .
(٢) البخارى ، كتاب المغازى والسير ، باب قول الله تعالى : ﴿ ويوم حنين ﴾ / ٢ / ٥/ ١٩٥ .

امنن علينا رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر مشتَّتٌ شملها فى دهرها غير
أبقيت لنا الدهر هتافاً على حزنٍ على قلوبهم الغماء والغِمرُ
إن لم تداركهمو نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها وإذ يزمنك ما يأتى وما يذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعما إذا كفُرت وعندنا بعد هذا اليوم مدَّخَر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو مشتهر
ياخير من مرحت كمت الجياد به عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا نؤمل عفواً منك تلبسه هادى البرية إن تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال : « ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، وقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله)[1] .

٥ ــ قال ابن إسحاق : فحدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله ابن عمرو قال : فقال رسول الله ﷺ : « أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا ، فقال لهم : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا ، فأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : « وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ،

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٧١ . وقال عنه : هذا حديث جيد الإسناد عالٍ جداً : رواه الضياء المقدسى فى صحيحه ، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن وبسط الكلام عليه فى لسان الميزان .

فقالت سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، قال : يقول عباس بن مرداس لبنى سليم : وهنتمونى فقال رسول الله ﷺ : « أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى ، فله بكل إنسان ست فرائض[1] من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم »[2] .

٦ ــ قالوا : وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » ، قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ :

« أخبروه أنّه إن أتانى مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » .

وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبى أمية ، فقال الوفد : يا رسول الله ، أولئك سادتنا وأحبنا إلينا ، فقال رسول الله ﷺ :

« إنى إنما أريد بهم الخير » ، فوقف مال مالك فلم يجر فيه السهام ، فلما بلغ مالك ما فعل رسول الله ﷺ فى قومه ، وما وعده رسول الله ﷺ ، وأن أهله وماله موفور وخاف مالك ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال : فيحبسوه ، فأمر راحلته فقدّمت له حتى وضعت لديه بدحنا ، وأمر بفرس له فأُتى به ليلاً فخرج من الحصن ، فجلس على فرسه ليلاً ، فركضه حتى أتى دحنا ، فركب بعيره حتى لحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجعرانة – أو بمكة – فردَّ عليه رسول الله ﷺ أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، فأسلم وحسن إسلامه ، فقال مالك حين أسلم :

ما أن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا احتذى ... ومتى تشأ يخبرك عما فى غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها ... بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر فى مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، ومن تلك القبائل من هوازن وفَهْم وسلمة وثمالة ، وكان قد ضوى إليه قوم مسلمون ، واعتقد له لواء ، فكان

---

(١) جمع الفريضة ، وهى البعير المأخوذ من الزكاة .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام /٢ / ٤٨٩ .

يقاتل بهم من كان على الشرك ويغير بهم على ثقيف فيقاتلهم بهم ، ولا يخرج لثقيف سرح إلا أغار عليه ، وقد رجع حين رجع ، وقد سرَّح الناس مواشيهم ، وأمنوا ، فما يرون حين انصرف رسول الله ﷺ عنهم ، وكان لا يقدر على سرج إلا أخذه ، ولا على رجل إلا قتله ، وكان يبعث إلى رسول الله ﷺ بالخمس مما يغنم ، مرة مائة بعير ، ومرة ألف شاة ، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق لهم ألف شاة في غداة واحدة (١)

٧ ـ قالوا : وهزم الله تعالى أعداءه من كل ناحية ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ، وغنَّمهم الله تعالى نساءهم وذراريهم وأموالهم ، وفرَّ مالك بن عوف حتى بلغ حصن الطائف ، هو وأناس من أشراف قومه ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله تعالى رسوله وإعزاز دينه ، قال ابن إسحاق : ولما هزم الله تعالى المشركين من أهل حنين وأمكن رسول الله ﷺ منهم ، قالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات   والله أحق بالثبات(٢)

* * *

ونقف بعض الوقفات أمام هذه الغزوة ، بعد عرضها القرآني ، وتتبع جزئياتها للطريقة القرآنية في التربية :

١ ـ لقد كان جيل الفتح قد حضر فتح مكة ، وهو الذي تكون من القبائل المجاورة ، وتحدثنا عنه بما فيه الكفاية من قبل ، وأكدنا أن أول تجربة جهادية خاضها هي غزوة حنين ؛ لأن فتح مكة قد تم بدون قتال إلا ساعة من نهار مع إحدى فرق الجيش الإسلامي التي كان يقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه .

٢ ـ وها هو جيل جديد ينضم ، جيل ما بعد الفتح ، قوامه ابتداء ألفان من الطلقاء من أهل مكة ، وهؤلاء انضموا إلى الجيش ولم يدخلوا الإسلام بعد ، إنما انضموا حمية قبلية رجاء انتصار محمد ﷺ القرشي على هوازن ومن معها من القبائل .

ولم تكن عواطفهم جميعاً موحدة ، فبعضهم كان يطلب غرة ليغتال رسول الله ﷺ ، وبعضهم كان يحب هزيمة محمد لما يحمل عليه في قلبه من الضغن ، ولعل ما

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٨٨ - ٥٩٠ .   (٢) المصدر نفسه / ٥ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

ذكرناه عن شيبة بن عثمان يؤكد هذا المعنى ، كما تؤكده الرواية الصريحة التالية عن النضير بن الحارث :

(قال محمد بن عمر : حدثنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدرى عن أبيه قال :

كان النضير من أحلم قريش ، وكان يقول : الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء – فذكر حديثاً طويلاً ، ثم قال – :

خرجت مع قوم من قريش ، هم على دينهم – بعد – أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ونحن نريد إن كانت دَبْرَة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير ، فلما تراءت الفئتان ونحن فى حيز المشركين ، حملت هوازن حملة واحدة ، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبداً ، ونحن معهم ، وأنا أريد بمحمد ما أريد ، وعمدتُ له فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه ، فأقبلت عامداً إليه ، فصاحوا بى : إليك ، فأرعب فؤادى ، وأرعدت جوارحى ، قلتُ : هذا مثل يوم بدر ، إن الرجل لعلى حق ، وإنه لمعصوم ، وأدخل الله تعالى فى قلبى الإسلام ، وغيَّر عما كنتُ أهم به ، فما كان حلب ناقة حتى كرَّ أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة ، وتنادت الأنصار بينها الكرة بعد الفرة : يا للخزرج ، يا للخزرج ، فحطمونا حطاماً ، فرقوا شملنا ، وتشتت أمرنا وهمت كل رجل نفسه ، فتنحيت فى غبرات الناس ، حتى هبطت بعض أودية أوطاس . فكمنت فى خَمَر شجرة لا يهتدى إلىَّ أحد إلا أن يدله الله تعالى على ، فمكثت فيه أياماً ما يفارقنى الرعب مما رأيت ....)[1] .

٣ ــ وهذا الجيل هو الذى كان أسرع الناس فى الهرب عندما وقع الهجوم الشرس ، ففى رواية أنس :

(فانكشفت أوائل الخيل – خيل بنى سليم مولية ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفَّه) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٧٤ .

(وذكر كثير من أهل المغازى : أن المسلمين لما نزلوا وادى حنين تقدمهم كثير مما لا خبرة لهم بالحرب – وغالبهم من شبان أهل مكة – فخرجت عليهم الكتائب من كل جهة ، فحملوا حملة رجل واحد والمسلمون غارّون ، فرَّ من فر ، وبلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد) .

وهذا ما حدا بـأم سليم رضى الله عنها أن تطالب بقتلهم – كما فى رواية مسلم وأحمد وابن أبى شيبة – .. فقالت : يا رسول الله ، أقتل من يعدونا من الطلقاء ، انهزموا عنك ، فقال : « إن الله تعالى كفى وأحسن يا أم سليم » .

لقد كفى الله تعالى المؤمنين القتال فلم يكن إلا حلب ناقة حتى هزم القوم وجىء بهم أسارى إلى رسول الله ﷺ .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تشارك جند الله فى هزيمة الكفار ، هذه الجند من كف الحصباء ومن الملائكة ، ومن الرعب الذى زلزل قلوبهم ، نتيجة هذين الجندين .

٤ ــ وكل الروايات التى وردت عن رؤية الملائكة ، تؤكد أن الكفار هم الذين رأوهم ، وهم الذين حالوا بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وهم الذين أوقعوا الرعب فى صفوفهم ، أما المؤمنون فلم تأت رواية تثبت أنهم رأوا الملائكة .

كان لابد لهذا الجيل الجديد من معجزات يشهدها ، وكانت هذه المعجزة الربانية الخالدة ، حيث رأى أنه عاجز عن إيقاع الهزيمة ، وعاجز عن اغتيال رسول الله ﷺ ، وعاجز عن تحقيق النصر له ، والله تعالى غنى عنه وعن المؤمنين جميعاً ، حين حمى نبيه بالرجال البيض على الخيل البلق ، يصدون الكفار عنه .

٥ ــ وهذه المعجزات التى برزت من نصر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أدخلت الكثيرين فى الإسلام ، لكن هذه التربية التى تمت خلال شهر واحد لم تكن كافية لرفع مستوياتهم إلى المستوى الإيمانى المطلوب ، وكانت مهمة المال والغنائم التى شارك بعضهم من أجلها أن تليِّن هذه القلوب ، وجعل الله تعالى هذه الغنائم من الضخامة والاتساع بحيث تسع الناس جميعاً ، وتجبر خواطرهم الكسيرة ، وتليِّن قلوبهم القاسية، وتجعلهم آخر اللبنات فى المجتمع الإسلامى ، مجتمع المؤلفة قلوبهم . والذين تحدثوا عنه باستفاضة هم أنفسهم يوم أعطاهم رسول الله ﷺ من غنائم حنين .

قال ابن إسحاق : أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف العرب ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

فإذن نحن أمام طراز جديد فى المجتمع ، وهو أن يتم تألف العشيرة من خلال رئيسها ، وبقى الارتباط قائماً بين أبناء العشيرة وسيد العشيرة ، وهذا لم يكن بهذه الصنعة من قبل ، حيث نذكر حديث رسول الله ﷺ :

« أسلم وأشجع ومزينة وجهينة وغفار وقريش والأنصار موالىّ ، ليس لهم مولى دون الله ورسوله » .

بينما نجد التجمع الجديد الآن قائما على إرضاء رئيس القبيلة ، حيث ترضى قبيلته بعد ذلك ، ولهذا بلغ عدد المؤلفة قلوبهم من أصحاب المئتين والخمسين ما ينيف عن الخمسين ، مثلوا هذه الآلاف المؤلفة ، وقد ألفوا المجتمع الجاهلى بعاداته وتقاليده ، ونخرت الزعامة فيهم نخراً فإعطاؤهم هذه الغنائم هو إقرار لزعامتهم وتألّف لقلوبهم .

روى البخارى عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال :

« إنى أعطى أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب » ، قال عمرو : فما أحببت أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم .

٦ ــ وفى مراجعة شاملة للذين أعطاهم رسول الله ﷺ هذا العطاء ، يلاحظ أن أكثرهم من قريش ، ثم من ثقيف ، ثم من قبائل متفرقة ، وبالعودة إلى نصوص الحديث الوارد فى التعليل النبوى لهذه الظاهرة نلاحظ جانباً آخر غير جانب التألف على الإسلام :

يقول عليه الصلاة والسلام : « إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم »[1] .

فلقد أفنت قريش مالها ورجالها فى حرب رسول الله ﷺ ، فتحت أرضهم بعد

---

(١) البخارى / ٢ / ٥ / ٢٠٢ .

الحرب العوان التى استمرت هذه الأعوام الثمانية ، ويريد رسول الله ﷺ لهذه القيادات من قريش أن تمارس دورها وفعاليتها ، وتكون مع الإسلام بحيث لا تحس أن الإسلام هو الذى رزأها وجاءها الغرم منه ، فكان الجواب منه عليه الصلاة والسلام واضحاً فى جبران مصيبة قريش من جهة ، وفى تألف هذه القيادات حديثة العهد بالكفر من جهة ثانية .

إن عظمة التربية النبوية هى فى إشعار هذه القيادات أن انضمامها للإسلام ليس فقداناً لثروتها ، أو فقداناً لزعامتها ، بل دخولها فى الإسلام يحفظ لها هذه المواقع ، ويحفظ لها هذا الشرف ، فتندفع ولا تكيد له ، ونعيد إلى الذاكرة قول أبى جهل ، الذى مثل كل قناعات القيادات المكية فى فلسفة الحرب ضد النبى ﷺ :

(تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وصرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، لا والله لا يكون ذلك أبداً) .

ولقد كانت قريش ترى شرفها فى انتصارها على رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت العرب تعرف لها ذلك :

(والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ونضرب الدفوف ، حتى يسمع العرب بمسيرنا هذا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً) .

بل كانت العرب جميعاً على الحياد تنتظر مصير الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فكان فتح مكة يعنى الهزيمة الماحقة لقريش ، والقيادات التى كانت تحمل لواء الحرب ضد رسول الله ﷺ معروفة ، من أعرق بيوتات قريش وسمعنا قول سعد بن عبادة رضى الله عنه يوم المسير إلى مكة :

(اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً) .

ويأتى الجواب النبوى الخالد :

« اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة ، اليوم أعز الله قريشاً » .

لقد كانت عظمة التربية النبوية أن أشعرت هذه القيادات ، أن عزها بعز محمد ﷺ ، وشرفها بشرفه ، بعد أن كانت ترى أن عزها بهزيمته ، وشرفها بسحقه والقضاء

عليه ، ومن أجل هذا مضوا على جاهليتهم مع رسول الله ﷺ إلى هوازن ، على أمل انتصاره ، فيكون انتصاراً لقريش على الأعراب .

وهذا ما كان يؤكد عليه الدعاة المسلمون ، وهم يناشدون القيادات المكية لتنضم إلى رسول الله ﷺ ، أمثال عكرمة وصفوان .

يقول عمير بن وهب الجمحى رضى الله عنه لصفوان : أى صفوان ، فداك أبى وأمى أفضل الناس ، وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك .

ويقول النضير بن الحارث – بعد فشل محاولته فى اغتيال رسول الله ﷺ – لنفسه : لو صرت إلى الجعرانة ، فقاربت رسول الله ﷺ ودخلت فيما دخل فيه المسلمون فما بقى ؟ فقد رأيت عبرا ، وقد ضرب الإسلام بجرانه ، ولم يبق أحد ، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ ، فعز محمد عز لنا ، وشرفه لنا شرف .

وفى رواية : عن شيبة بن عثمان يقول : خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والله ما خرجت إسلاماً ، ولكن خرجت أنفاً أن تظهر هوازن على قريش .

وأدرك صفوان بن أمية هذا المعنى ، حين قال أخوه لأمه كلدة بن الحنبل ، وقد رأى هزيمة المسلمين ، فقال : ألا بطل السحر اليوم ، قال صفوان : اسكت فضَّ الله فاك ، والله أن يُربِّنى رجل من قريش أحب إلىَّ من يربنى رجل من هوازن .

وفى رواية ابن عقبة : مر رجل من قريش بصفوان بن أمية فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً ، فقال صفوان : أتبشرنى بظهور الأعراب فوالله لرب من قريش أحب إلىَّ من رب من الأعراب ، وغضب صفوان لذلك ، وبعث غلاماً له فقال : اسمع لمن الشعار ، فجاءه فقال : سمعتهم يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله .

فقال : ظهر محمد – وكان ذلك شعارهم فى الحرب .

فإذن اتجهت العزيمة النبوية إلى امتصاص هذه القيادات ، وتذويب حقد بعضها بحيث تشعر بأن الإسلام عزها وشرفها وغناها ، وبذلك تؤلف القلوب ، وتُمسح على الجراح باليد الحانية ، ويُتحبب إلى الإسلام بهذه اللعاعات من الدنيا – كما قال عليه الصلاة والسلام .

٧ ــ ومعنى آخر لا غنى عن التعرض له هو أن قريشاً قد أعدت لتكون القيادة فيها ، ورسول الله ﷺ حريص على كل فرد فيها ليمارس دوره ومسؤوليته ، وليكون على مصاف الطبقة الأولى من المهاجرين والأنصار ، فالخلافة فى قريش ، ومن أجل هذا تفسَّر هذه الظاهرة ، ظاهرة أن تكون القيادات التى اختارها أبو بكر رضى الله عنه لتخوض الحرب ضد المرتدين ، أن يكون فيها عناصر من المؤلفة قلوبهم ، مثل عكرمة بن أبى جهل ، ويزيد بنَ أبى سفيان ، ومعاوية ، وشاركت القيادات كلها فى الجهاد بعد ذلك ، فشارك صفوان ، وأبو سفيان وأمثالهما من مشيخة قريش فى الحروب الإسلامية اللاحقة .

٨ ــ وتعامل رسول الله ﷺ مع ثقيف على المستوى نفسه الذى تعامل فيه مع قريش ، فبعد الحصار الذى استمر بضعاً وعشرين ليلة على رواية ابن إسحاق ، ترك الحصار .

(وروى الترمذى وحسنه عن جابر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، أحرقتنا نار ثقيف ، فادع الله تعالى عليهم . فقال : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم ») .

ولقد آذت ثقيف رسول الله ﷺ مرتين بأشد ما يكون الإيذاء ، مرة فى فجر الدعوة ، حين التجأ إليهم يطلب حمايتهم ، وجاءه الإذن الربانى بالقضاء عليهم فقال :

« إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إلٰه إلا الله » .

ومرة ثانية حين أرسلوا سكك الحديد المحماة على المسلمين فملؤوهم جراحاً ، واستشهد من المسلمين اثنا عشر شهيداً ، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » .

واستجاب الله تعالى لنبيه ، ولحق وفد ثقيف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفتحت الطائف أبوابها للإسلام ، ولهدم ربها اللات ، الذى كانت تفاخر به العرب .

٩ ــ وبعد حديثنا عن الطلقاء من أهل مكة ، نجد الوافدين الجدد دخلوا فى الإسلام ، وهم الذين كانوا يحاربونه آنفاً ، وفد هوازن الذى جاء مسلماً تائباً ، وراح يطالب بماله وعرضه ، ورأينا كيف أعاد رسول الله ﷺ سبايا هوازن لهوازن، وكيف قام شاعر هوازن يستجيش ما لدى رسول الله ﷺ من مشاعر :

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

وقول خطيبهم : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك . فهذه أفواج جديدة تدخل الإسلام خلال شهر من فتح مكة ، إضافة إلى الطلقاء ، وقد نزع عليه الصلاة والسلام فتيل الحقد من قلوبها حين أعاد إليها سباياها ، وقد كلّف ذلك رسول الله ﷺ رهقاً حتى تنازل المسلمون عنها .

١٠ ـــ وبالعودة إلى القيادات ، نلاحظ الموقف الخاص من مالك بن عوف ، قائد هوازن الذى دخل حصن ثقيف ليتابع حربه لرسول الله ﷺ ، وحرص النبى عليه بحيث لم يقسم ماله ولا أهله ، وأرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ، ويسترد ماله وأهله ، وإذا بالقائد الشاب الذى ينز حقداً على محمد ﷺ ، يتسلل ليلاً ، وينضوى تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام ، ويعود قائداً من جديد ، قائداً إسلامياً فذاً يقود الجموع لحرب ثقيف الكافرة ، ويستاق الغنائم منها ، ويفتك برجالها ، ويبعث بالخمس لرسول الله ﷺ ، ويوقف احتمالات هجوم ثقيف على الإسلام والمسلمين فى مكة والمدينة ، وأعجزهم وأعياهم ، حتى جاء وفدهم يدخل الإسلام ، ويوقف نزيف الدماء ، والأموال ، وكان مالك بن عوف ممن أعطى المائة من الإبل .

١١ ـــ ولا يفوتنا فى معرض الحديث عن القيادات أن نتعرض لشخصيتين شهيرتين ، هما الأقرع بن حابس سيد بنى تميم وعيينة بن حصن سيد بنى فزارة اللذان انضما مؤخراً لرسول الله ﷺ قبيل فتح مكة ، حيث رأوا الربح والدولة للمسلمين ، وحتى لا يفتح عليه الصلاة والسلام جبهة له مع هذه القبائل قبلهما ، حتى إنه دخل مكة بينهما ، وكانت مواقفهما ابتداء لا تتناسب مع الحس الإسلامى ، فهما اللذان رفضا إعادة سبايا هوازن مع قومهما فى تحدٍّ سافر ، وعيينة بن حصن بالذات يستأذن رسول الله ﷺ ليأتى أهل الطائف ، فيقف الموقف المشين معهم ، وذلك قبل أن يتمكن الإسلام من قلبه .

روى أبو نعيم ، والبيهقى عن عروة بن الزبير قال : استأذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ أن يأتى أهل الطائف يكلمهم ، لعل الله تعالى أن يهديهم ، فأذن له ، فأتاهم ودخل فى حصنهم وقال : بأبى أنتم تمسكوا بمكانكم ، فوالله لنحن بأذل من العبيد ، وأقسم بالله لو حدث به حدث ليملكن العرب عزاً ومنعة ، وإياكم أن تعطوا بأيديكم ، ولا يتكاثر عليكم قطع هذا الشجر ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال

له : « ما قلت لهم يا عيينة ؟ » ، قال : أمرتهم بالإسلام . ودعوتهم إليه ، وحذرتهم النار ، ودللتهم على الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ، بل قلت لهم كذا وكذا » ، وقص عليه قوله ، فقال : صدقت يا رسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك .

ومع ذلك ، فلا تزال الحمية الجاهلية تتنازعه ، فلا يتنازل عن سباياه إلا بإغراءات جديدة مثله مثل عيينة ، وقد أعطاهما عليه الصلاة والسلام لكل واحد منهما مائة من الإبل .

وتبدو نفسية عيينة فى مكان آخر حين آذن رسول الله ﷺ الناس بالرحيل : (فنادى سعد بن عبيد : ألا إن الحى مقيم ، قال : يقول عيينة بن حصن : أجل والله مجدة كراماً ، فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ ! فقال : إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكن أردت أن يفتح محمداً الطائف ، فأصيب من ثقيف جارية أتّطئها . لعلها تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفاً قوم مناكير)[1] .

(روى ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس مائة ، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه »[2] .

١٢ ــ ولا يفوتنا الحديث عن عباس بن مرداس السلمى الذى أراد أن يقلد عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس فى زعامة قبيلته ، لكنه كان دون ذلك ، لا لأنه أقل كفاءة من الرجلين ، ولكن لأن بنى سليم ارتفع بها إيمانها فغدا ولاؤها لله ولرسوله أكثر من الولاء للقيادات الجاهلية ، ورأينا كيف أنها انضمت بألف فارس إلى الجيش الإسلامى .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٤٨٥ .   (٢) المصدر نفسه / ٢ / ٥ / ٤٩٦ .

فعندما قال عيينة بن حصن عن السبايا : ما كان لى ولبنى فزارة فلا .

وقال الأقرع بن حابس : ما كان لى ولبنى تميم فلا .

فقال عباس بن مرداس : وما كان لى ولبنى سليم فلا .

فقالت سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال لهم : وهنتمونى .

فقد عتب على قومه ولاءهم لله ولرسوله لا له ، وهذا وهن له ، وإضعاف لزعامته .

ومن أجل هذا لم يعطه عليه الصلاة والسلام ما أعطى عيينة والأقرع ، فغضب وعاتب وقال :

كانت نهاباً تلافيتها ... بكرى على المهر فى الأجرع[1]
فأصبح نهبى ونهب العبيد[2] ... بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن نضع اليوم لا يرفع

وكان عباس شاعراً فحلاً ، فقد انتهت هوازن ، وقال فيها ما لا يقل عن سبع قصائد طوال .

ولمعرفة رسول الله ﷺ به ، قال : « اقطعوا عنى لسانه » ، ففزع منها ناس وقالوا : أمر بالعباس بن مرداس أن يمثَّل به ، وإنما أراد رسول الله ﷺ بقوله : « اقطعوا عنى لسانه » ، أن يقطعوه بالعطية من الشاء والغنم ، فأعطوه حتى رضى[3] .

١٣ ــ وبعد هذا الحديث عن القيادات فى هذا الجيل الجديد ، لابد من عرض سريع لقواعده .

فقد كان هؤلاء الأعراب ، وقد رأوا النصر المؤزر ، ورأوا هذه الغنائم الضخمة ، ولم يخالط الإسلام بعد حشاشة قلوبهم ، كانوا يطمعون فى الغنائم ، وعلى حد تعبير

---

(١) الأجرع : المكان السهل . (٢) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

عباس بن مرداس السلمى : أنها نهبة للمنتهب ، وحتى لا يسيطر هذا الجو الجاهلى ، ويتسارع الناس لانتهابها كانت التأكيدات النبوية على حرمة أخذ شيء من الغنائم قبل توزيعها :

فقد روى عبد الرزاق فى جامعه عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة ، وسيفه ملطخ دماً ، فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك فدفعها إليها ، فسمع منادى رسول الله ﷺ : من أخذ شيئاً فليرده حتى الخياط والمخيط ، فرجع عقيل ، وقال : ما أرى إبرتك إلا ذهبت منك ، فذهب وألقاها فى المغانم[1] . .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوم حنين إلى جنب بعير من الغنائم ، فلما سلم ، تناول وبرة بين أنملتين – وفى رواية : فجعلها بين أصبعيه – ثم قال : « أيها الناس ، إن هذه من مغانمكم ، وليس لى فيها إلا نصيبى معكم ، الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وأكثر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا ، فإنه عار ونار وشنار على أهله فى الدنيا والآخرة »[2] .

وبهذا الحسم والشدة ضبط الأمر ، وحفظت الغنائم ، لكن الإلحاح الثانى من هذا الجيل الجديد مضى باتجاه طلب القسمة :

(روى ابن إسحاق فى رواية يونس عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن ركب بعيره ، واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيئنا ، حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه ، فقال : « يأيها الناس ، ردوا علىّ ردائى ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى جباناً ولا كذاباً » .

ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بعيره ، فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصبعيه ، فقال : « أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول ، فإن الغلول عار

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٧٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه . وقد رواه عن الإمام أحمد وابن ماجة وهو عند أحمد / ٥ / ٣١٩ .

وشنار على أهله يوم القيامة » ، فجاء رجل من الأنصار بكبة خيط من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعيرٍ لى دبر[1] ، فقال رسول الله ﷺ : « أما حقى منها فهو لـك » ، فقال الرجل : أما إذا بلغ الأمر فيها هذا ، فلا حاجة لى بها ، فرمى بها من يده)[2] .

إن الانتقال من البداوة إلى الحضارة ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، ومن القبيلة إلى الدولة ، يحتاج فى غير المنهج الإسلامى قروناً حتى يترسخ هذا الانتقال ، ولأول مـرة يجـد الأعراب أنفسهم أمام نظام ضارب جذوره فى الأرض ، يحاسب على الإبرة ، وكبة الخيوط من الشعر ، وكان هذا الدرس الواقعى أبلغ وأعظم درس على مسامع هؤلاء الأعراب ، حيث قال عليه الصلاة والسلام للأنصارى : « أما حقى منها فهو لك » ، ورأى أن عليه أن يأخذ السماح من اثنى عشر ألف مقاتل فى الجيش .

ومن أجل ذلك سارع فرماها فى الغنائم قائلا : أما إذا بلغ الأمر فيها هذا ، فلا حاجة لى بها .

إنها تربية علنية تتم على رؤوس الأشهاد ، ومعان جديدة تطرق أذهان هؤلاء المسلمين الجدد لأول مرة .

ولابد أن نشير إلى أن ظاهرة خطف الرداء النبوى هى ظاهرة غريبة على الحس الإسلامى فى جيل ما قبل الفتح ، وجيل بدر والحديبية ، فقد كان الأدب مع رسول الله ﷺ يصل فى الحديبية إلى أن يتنخم عليه الصلاة والسلام ، فيسارعون إلى نخامته فيدلكون بها وجوههم . وإذا بنا أمام سرعان من الناس وفئات من الأعراب ، يلجئون رسول إلى ظل شجرة لتوزيع الغنيمة ، ويخطفون رداءه .

كما نشير كذلك إلى أن إعادة سبايا حنين حرَّك الذعر فى قلوب الأعراب ، خشية أن تذهب غنائمهم كما ذهبت سباياهم ، فسارعوا يلحون فى طلب قسمة الغنيمة .

ونشير ثالثاً إلى هذا التفاوت فى المستويات الإيمانية ، فعقيل بن أبى طالب ، وهو من مسلمة الفتح يسارع ، فيرمى إبرته بين الغنائم ، والأنصارى يرمى كبّة الشعر ، خوفاً من العار والشنار والنار .

---

(١) دَبِر : أصيب بجرح فى ظهره .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٩٢ .

وعقيل رضى الله عنه من النوعيات التى اختصرت الزمن ، فكان أحد العشرة حول رسول الله ﷺ ، والذين ثبتوا معه فى المعركة ، وها هو الآن يعيد الإبرة إلى الغنائم ، لنداء حبيبه عليه الصلاة والسلام .

١٤ ــ ويبتدئ توزيع الغنائم ، ونجد الجديد على الحس الإسلامى بعد التوزيع ، الجرأة على رسول الله ﷺ بصورة غير معهودة من قبل :

(روى الشيخان والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما قسم رسول الله ﷺ لنا هوازن يوم حنين آثر أناساً من أشراف العرب ، قال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فتغير وجهه حتى صار كالصِّرف. وقال : « فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؛ رحمة الله على موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر »)[1] .

لكن الغريب فى الرواية أن يقول هذا الكلام رجل من الأنصار ، وتزول الغرابة حين نعلم أن قائله معتب بن قشير ، أحد أعمدة المنافقين فى المدينة ، وهو صاحب القول :

(يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر ، ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى حاجته ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

ويكتفى رسول الله ﷺ بهذا التقريع : « فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله » .

وهى طريقة فذة من طرائق التربية ، يطبقها عليه الصلاة والسلام ، فإذا كان الشيطان ينفخ فى بعض الرؤوس العفنة أن يكون محمد ﷺ قد اتبع هواه ، فيأتى الجواب : أن المساس برسول الله ﷺ هو مساس برب العزة جل جلاله ، فكان الجواب :

« فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله » .

ومن جهة أخرى عاد فذكر نبى الله موسى عليه الصلاة والسلام ، وكيف آذاه قومه ، فقال : « رحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٨٧ .

أما الناعق الثانى فكان ذا الخويصرة التميمى :

(روى ابن إسحاق عن ابن عمر ، والإمام أحمد والشيخان عن جابر ، والشيخان والبيهقى عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ بينما هو يقسم غنائم هوازن ، إذ قام إليه رجل – قال ابن عمر وأبو سعيد : من تميم يقال له ذو الخويصرة – فوقف عليه وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت هذا اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « أجل كيف رأيت ؟ » ، قال : لم أرك عدلت ، اعدل ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « شقيت إن لم أعدل، ويحك إذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون ؟! » ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة ، ينظر فى النصل فلا يوجد فيه شىء ، ثم فى القدح فلا يوجد منه شىء ، ثم فى الفوق فلا يوجد منه شىء قد سبق الفرث والدم ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم » ، ولفظ رواية جابر : « إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم أن فيهم رجلاً أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس » .

قال أبو سعيد – الخدرى – : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس حتى أُتى به ، حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعت .

وهو درس عملى آخر على الملأ ، فقد كانت الوقاحة السافرة من ذى الخويصرة التميمى ، ونعيد إلى الأذهان أنه من أتباع عيينة بن حصن الذى سبق وتحدثنا عنه فى تلك المرحلة ، حيث لم يخالط الإسلام بشاشة قلبه بعد ، وكيف كان يعد جنده للغنيمة ، والصيت والشهرة ، فذو الخويصرة إذن من هؤلاء الأعراب الجدد الوافدين ، ويستجيب لنزوته ، فيعلن صراحة أمام رسول الله ﷺ أنه لم يعدل ، ويطلب عمر رضى الله عنه قتله ، فلا يستجيب له عليه الصلاة والسلام .

ونلاحظ أن مثل هذه المواقف قد اختفت بعد الخندق ، ولم يعد يجرؤ أحد على

المواجهة ، وها هى تنبت هنا من جديد ، لنلقاها على أشدها فيما بعد فى تبوك ، لقد أضيف إلى الجيل الخالص عناصر جديدة ، ونوعيات جديدة ، تحتاج إلى تربية مستمرة ، ولم تكن الفرصة كافية لتتم هذه التربية .

لكن رسول الله ﷺ لا يدع فرصة تمر دون تربية ، فحين يعلن عليه الصلاة والسلام ألّا يدع الفرصة لأعداء الله أن يقولوا : « إن محمداً يقتل أصحابه » ، فى الوقت نفسه نجد رسول الله ﷺ يتحدث عن هذا الرجل الذى سيكون ظاهرة فيما بعد ، والذى سيقود تياراً من الفرقة والخروج على إمام المسلمين ، والذى سيقود هذه الفرقة باسم الإسلام ، وبالراية الإسلامية . فالمظاهر إسلامية خالصة « تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم ، وصيامكم إلى صيامهم ... ويتعمقون فى الدين » ، لكن هذا التعمق يخرجهم من دين الله عز وجل كما يخرج السهم من الرمية .

وهو حديث مهم جداً يحذر القوم جميعاً من مغبة هذا الخط ، ومغبة هذا الاتجاه ، ويحذر من خطر هذه الشيعة التى تهدم الإسلام باسم البناء ، والتى تقتل الناس باسم الإسلام وهى قد خرجت منه ، إنه عليه الصلاة والسلام يحذر هذا الجيل الجديد جيل ما بعد الفتح أن ينضم إلى هذا الرجل الذى يشكك بالله ورسوله باسم العدل ، وباسم الحق ، وقد رأينا فيما بعد كيف تم قتل الرجل الرابع فى الإسلام باسم هذه الراية ، وباسم هذا الاتجاه .. قتل على بن أبى طالب وهو يقول له : لا حكم إلا لله ، لا لك يا على .

فإذا شكك بعدل رسول الله ﷺ ، فلابد أن يكفِّر علياً ويشكك فيه بعد ذلك .

١٥ ـــ وما نجده كذلك خارجاً من المنهج الإسلامى ، وغريباً على الحس الإسلامى ، هو هذا الموقف الذى رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : (كنت عند النبى ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ، ومعه بلال ، فأتى النبى ﷺ أعرابى فقال : ألا تنجز لى ما وعدتنى ، فقال له : « أبشر » ، فقال ، قد أكثرت علىَّ من أبشر ، فأقبل على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان ، فقال : « ردَّ البشرى ، فاقبلا أنتما » ، قالا : قبلنا ، ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه ، ثم قال : « اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا » ، فأخذا القدح ففعلا ، فنادت أم سلمة من وراء الستر : أفضلا لأمكما ، فأفضلا منه

طائفة)[1]. وهما صورتان متنافرتان تمام التنافر .

صورة هذا الجيل الذى يعهد رسول الله ﷺ مثل زعيم قبيلته ، يرد عليه قوله ، ويراجعه فى مقاله ، ويوجه النقد لتصرفاته ، بل لعله يخشى زعيم قبيلته أكثر ، لم يتلق من التربية النبوية شيئاً ، فيقول له عليه الصلاة والسلام : « أبشر » ، فيرد بسفاهة : قد أكثرت على من أبشر .

وصورة الجيل الأول ، جيل بدر والحديبية الذى اختلط حب رسول الله ﷺ بلحمه وعظمه ، فيخفف رسول الله ﷺ من غضبه بوضوئه فى هذا القدح ، ويمج فيه ، ويعطى عصارة مائه ، وخلاصة فمه لرجلين من أحب رجاله إليه ، بلال وأبى موسى فيتوضآن ويشربان ، ويباركان نحورهما ووجوههما وأعضاءهما .

وتغار أم سلمة أن تفوتها هذه البركة ، فتنادى من وراء الستر : أن أفضلا لأمكما فضلاً ، فيفعلان .

صورة جيل اختلط قلبه بقلب رسوله عليه الصلاة والسلام ، ودمه بدمه ، وحبه بحبه ، وصورة جيل بدأ يتكون الآن ، لا يعرف بعد شيئاً عن فضل سيد الخلق ، ولا طريقة مخاطبته ، ولا فقه التعامل معه .

١٦ ـ والحادثة البارزة مع قسمة الغنائم ، والتى كانت من أعلى مستويات الجيل الأول هى حادثة عتب الأنصار على رسول الله ﷺ ، حيث وزعت الغنائم كلها ، أما هم فلم يأخذوا منها شيئاً ، ولنشهد كذلك هذا الدرس التربوى :

(روى البخارى عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا[2] ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم ، فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى » ، كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ ، قال : « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ » قال : كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمنُّ قال : « لو شئتم لقلتم: جئتنا كذا وكذا » ، وفى رواية ابن إسحاق : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدّقتم : أتيتنا مكذباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً ، فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أترضون

(١) البخارى ٢ / ٥ / ١٩٩ .   (٢) وجدوا : حزنوا ، ووجد عليه فى نفسه : غضب .

أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار[1] ، والناس دثار[2] ، إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض »[3] .

وفى رواية أنس عند البخارى : (فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ، ولم يدع معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قام النبى ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم » ، فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبى ﷺ : « أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ، فوالله لما تنقلبون به خيراً مما ينقلبون به » . قالوا : يا رسول الله ، قد رضينا)[4] .

وفى رواية ابن إسحاق : (فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً) .

إنه لم يسبق أن غنم رسول الله ﷺ مثل هذه الغنائم فيما مضى من غزواته ، وها هى بمئات الألوف من الشياه ، وعشرات الألوف من الإبل توزع كلها دون أن ينال أنصار الله تعالى ورسوله شيئاً منها ، وتحركت فى نفوسهم المشاعر ، خاصة ورسول الله ﷺ يعطى قومه من قريش هذه الأعداد الوافرة ، وبلغت القالة النبى ﷺ ، وأحب أن يتأكد من صحتها ، وكان ذلك اللقاء السرى على مستوى القمة ، حتى إن المهاجرين لم يدعوا إليه .

كان هذا اللقاء مع الأنصار رؤساء وشعابا وكل الأنصار قيادات فى ذلك الرعيل ، واستعرض عليه الصلاة والسلام ذلك التاريخ الحافل بالأمجاد والشرف للأنصار ، فهو لم يغب عن ذهنه قط ، بل أتاح لهم أن يعبروا عن مشاعرهم فى بلائهم وجهادهم فى سبيل الله ، وكما أعطى بلالا وأبا موسى فضل وضوئه يشربانه ويغتسلان فيه ، أعطى فلذة كبده من الأنصار ذاته ، وتخلى عن أهله وقومه وعشيرته :

---

(١) الشعار : الثوب الذى يلى الجسد . (٢) الدثار : ما يلبس فوق الشعار .
(٣) البخارى / ٢ / ٥ / ٢٠٠ وما بعدها . (٤) المصدر نفسه / ٢٠١ .

« ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون أنتم برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ » ، وأى مِنَّة فى هذا الوجود أعظم من هذه المنة .

سيذهب الناس بالأبعرة والغنم ، وسيحفل أضراعها لبناً ، وستنمو ثرواتهم ، أما سيد ولد آدم ، مربى البشرية الأعظم ، فسيبقى فى أحضان الأنصار وفى بلدهم ، يتلقون منه فى كل لحظة تربية ، ويستمعون منه وحياً ، وينهلون منه علماً ، ويتعلمون كيف يكونون أساتذة البشرية بهذا المجد .

وماذا بقى فى الوجود من أمجاد بعد ذلك ؟ ، إنه سيدع مكة مولده ، وأحب بلاد الله إلى الله ، ويدع أهله وعشيرته الذين أعطاهم المئات من الإبل ، والآلاف من الشياه ، سيدعهم إلى إبلهم وغنمهم ونعمهم ، ويمضى مع الأحباب الأوفياء الخلص ، الذين قال لهم منذ لحظات البيعة الأولى :

« معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم» بل سيوقف سيل الهجرة بعد اليوم ، وسيبقى هو فى مسجده عليه الصلاة والسلام ، ومع نسائه أمهات المؤمنين ، سيعود معهم إلى المدينة .

وأدرك هذا الجيل العظيم ، عظمة المنة الربانية عليهم بهذا العطاء ، وهذا الفضل :

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1] .

(سيبقى لهم عليه الصلاة والسلام ، بل دعا لهم ولأولادهم ولأحفادهم ، وأكد أنه مع الأنصار تجاه الناس جميعاً ، وأنه لولا الهجرة لكان امرأ من الأنصار .

كما أكد معنىً آخر ربى عليه هذا الجيل ، هو ألا ينتظروا مكافأة على جهادهم فى الدنيا ، أو ثمناً لتضحياتهم ، فهم جيل الفداء الأول فى هذا الوجود ، يعطى بلا ثمن ، ويقدم بلا مقابل ، وليس لهم إلا كما وعدهم منذ اللحظات الأولى للعقد :

فما لنا إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « لكم الجنة » .

قالوا : ربح البيع فلا نقيل ولا نستقيل .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤ .

وأكد لهم عليه الصلاة والسلام ، أنه ليست هذه هى المرة الأولى التى يعطى فيها الناس ويحرمون ، وليست الأخيرة ، فسيلقون أثرة من الناس ، ودعاهم إلى الصبر حتى يلقونه على الحوض ، فهناك المكافأة ، حيث يذاد الناس عن الحوض ، ويتصدر الأنصار .

وشتان بين هذين الجيلين :

الجيل الذى يقدم الدماء والتضحيات والأموال ، والجيل الذى يأخذ الغنائم والأموال .

الجيل الذى يعطى ، والجيل الذى يأخذ .

وشتان بين هذين الأخذين :

بين الذى يأخذ لعاعة من الدنيا ، ويأخذ الشاء والإبل والأموال .

وبين الذى يأخذ رسول الله ﷺ إلى رحله ، وتصبح بلد الأنصار مهوى أفئدة المؤمنين فى الأرض إلى قيام الساعة .

ذهب البعير والشاء ، وبقى قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبقى مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبقيت الروضة الشريفة بين القبر والمنبر ، وبقى تاريخ الإسلام وأعظم بطولاته ، وأعظم انتصاراته خالدة في المدينة المشرفة ، بلد الأوس والخزرج .

بلد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

١٧ ــ ولا شك أن دروساً من التربية قد تمت أثناء حصار الطائف ، لم يتم التعرض لها ، لكننا نشير هنا إلى أن هذا اللقاء الذى استمر قرابة شهرين مع الناس ، منذ أول رمضان حتى قرابة نهاية ذى القعدة ، وقد تكون هى فرصة اللقاء الوحيدة للعديد من الصحابة . إذ أن الهجرة قد انقطعت بعد الفتح ، وغدت التربية غير مباشرة ، فأصبحت الأجيال الأولى هى المسؤولة عن تربية هذه العناصر الجديدة التى دخلت حديثاً فى الإسلام ، وفسح المجال أمام الشباب ليمارس مسؤولياته .

فهذا عتاب بن أسيد هو أمير مكة ، حيث ولاه إياها عليه الصلاة والسلام خلال غيابه فى هوازن وثقيف والجعرانة ، وأبقاه عليها ، وتوفى رسول الله ﷺ وهو أمير

عليها ، وكان عمره دون العشرين ، وكان راتبه درهماً واحداً عن كل يوم وهو القائل : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ! فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست لى حاجة إلى أحد .

ومع ذلك فلابد من استعراض درسين مهمين من دروس التربية فى حصار الطائف .

أ ـ روى الشيخان عن ابن عمرو أو ابن عمر رضى الله عنهم قال : لما حاصر رسول الله الطائف ولم ينل منه شيئاً قال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى » ، فثقل عليهم ، قالوا : أنذهب ولا نفتح ؟ وفى لفظ ، قالوا : لا نبرح و نفتحها ، فقال : « اغدوا على القتال » ، فغدوا فقاتلوا قتالاً شديداً فأصابهم جراح ، فقال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى » قال : فأعجبهم ، فضحك رسول الله ﷺ .

قال عروة رحمه الله – كما رواه البيهقى –: ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلاً وقال : « اللهم اهدهم واكفنا مؤونتهم »[1] .

لقد استمر الحصار ثلاثين ليلة أو قريباً من ذلك ، واستشهد من المسلمين اثنا عشر شهيداً ، وتفشت الجراح فى الجيش ، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا : « إنى رأيت أنى أهديت لى قبة مملوءة زبداً فنقرها ديك ، فهراق ما فيها » ، فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ : « وأنا لا أرى ذلك »[2] .

ولأول مرة يمضى الجيش الإسلامى دون تحقيق هدفه ، وهم الاثنا عشر ألفاً ، وحسب التربية التى تربوا عليها ، والانتصارات التى حققوها ، كان التوجيه النبوى بمغادرة الساحة ثقيلاً على الحس الإسلامى العام .

وأراد عليه الصلاة والسلام أن يلقن الجيش كله درساً عملياً فى مفهوم الطاعة والانضباط ، وترك الأمر لله ولرسوله ، فحين رأى عليه الصلاة والسلام تثاقلهم عن مغادرة الطائف ، وصعوبة الأمر على مشاعرهم ، أصدر أوامره عليه الصلاة والسلام بالخروج إلى القتال ، وفرح المسلمون بذلك ، وخرجوا لمواجهة ثقيف فى حصونهم ،

---

(١) البخارى / ٢ / ٥ / ١٩٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٨٤ .

واستعملوا سلاح المنجنيق والدبابة لأول مرة فى الحرب النبوية ، وهى خبرة جديدة أضيفت إليهم على اختلاف الروايات فى مصدرها - إن كانت عملاً من سلمان الفارسى رضى الله عنه الخبير العالمى للحرب ، أو من بعض الصحابة الوافدين من جرش حيث تعلموها هناك - ولم يجد هذا السلاح الجديد أمام سكك الحديد المحماة التى كانت تنقض عليهم من الحصون فتحرقهم ، وعندما جاء النداء الجديد بمغادرة الحصون فرح المسلمون بذلك .

إنه لابد للقيادة الفذة من أن تتحرى مشاعر جنودها ، وتربط بين أوامرها وهذه المشاعر ، بحيث يتم الالتحام بين هذين الجانبين ، والنفوس عندما تتوثب ، وترتفع وتيرة المشاعر بمواجهة العدو ، وتصعَّدُ العواطف للمواجهة ، ثم تأتى الأوامر بإلغاء هذه الحرب ، سيكون الغليان والإحباط ، والشك فى القيادة .

وتوجيه هذه العواطف والمشاعر ضد القيادة نفسها تتهمها بالعجز والتخاذل ، وينقض البناء الداخلى ، ويصبح نهبة لكل الإشاعات والظنون السيئة التى تقتل الجيش كله .. وجاءت عظمة التربيــة النبوية لتعطى الأجيال على مدار التاريخ ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى لم يعص قط من جيشه ، تعطى هذه الأجيال فقه القيادة التى تدرب النفوس وتهيئها لتلقى هذه الأوامر ، والتفاعل معها ، والقناعة فيها ، وذلك خلال يوم واحد فقط ، حيث انقلبت المشاعر كلها من النقيض للنقيض .

ومن جهة ثانية ، فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يحفظ القريتين - مكة والطائف - من القتل العام والاستباحة الشاملة ، ولم يمر تسعة أشهر إلا وكان وفد ثقيف على أبواب المدينة يعلن إسلامه ، وبقيت قوة ثقيف مذخورة كلها لتنضم إلى الجيش الإسلامى .

ومن جهة ثالثة ، فقد كان الأجدى فى حصار الطائف حرب العصابات ، لا حرب المواجهة الشاملة ، وقاد مالك بن عوف سيد بنى هوازن هذه الحرب ، فقد كانت فى حقيقة الأمر حرباً داخلية ، فمالك بن عوف من هوازن ، وثقيف من هوازن ، وهو أدرى الناس بثقيف وقوتها ، وطاقاتها وحربها ، وهو الذى حطَّم نفسية المقاومة والهجوم عند ثقيف ، وضجت ثقيف منه ، واهتزت ، حتى ليقول شاعرها ، وهو يرى انقضاض مالك بن عوف ببنى سلمة عليهم :

هابت الأعداء جانبنا ... ثم تغزونا بنو سلمه
وأتانا مالك بِهِمُ ... ناقضاً للعهد والحرمه
وأتونا فى منازلنا ... ولقد كنا أولى نقمه[1]

فلم يكن تراجع رسول الله ﷺ عن حصون الطائف هزيمة عسكرية بمقدار ما كان تغيير خطة حربية ؛ لأنه لو كان هزيمة عسكرية لأمكن أن تنقلب كثير من الموازين ، وأمكن أن نجد ثقيفا تقوم بالغارات على المدينة متحدية المسلمين فى عقر دارهم ، لكن الصورة انعكست تماماً ، وأجهضت كل الاندفاع عندها حتى انهارت تماماً ، وجاءت إلى المدينة مسلمة .

ب ـــ ذاك الدرس العام ، لكن الدرس الخاص نحن بحاجة إليه كذلك ، نفقه منه كيف يتعامل القائد مع جنده ، ليكون درساً لقياديى الأرض كذلك ، ويكفى أن ننقله دون تعليق ، ففى رواية الجندى المسلم له أبى رهم الغفارى ، وما حشد فيه من مشاعر ، ما يغنينا عن أية إضافة :

روى محمد بن عمر عن أبى رهم الغفارى رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ يسير وأنا إلى جنبه ، وعلىَّ نعلان غليظتان ، إذ زحمت ناقتى ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعلى على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أوجعتنى ، أخّر رجلك » ، وقرع رجلى بالسوط ، فأخذنى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ، وخشيت أن ينزل فىّ قرآن لعظم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظهر[2] وهو يومى ، فرقاً[3] أن يأتى رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يطلبنى ، فلما روّحت الركاب سألتُ ، فقيل لى : طلبك رسول الله ﷺ ، فقلت : إحداهن والله ، فجئت وأنا أترقب ، فقال : « إنك أوجعتنى برجلك ، فقرعتك بالسوط فأوجعتك ، فخذ هذه الغنم عوضاً عن ضربى » .

قال أبو رُهْم : فرضاه عنى كان أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها .

١٨ ـــ وفى مجال الدروس التربوية نستعرض فى ختامها حادثة ، لم أعرها اهتماماً لأول وهلة ، لكنى شعرت فيما بعد أنها نقطة تحول كبرى فى تاريخ هذه الأمة ، فلابد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٩٦ . (٢) الظهر : الإبل العامة .
(٣) فَرَقاً : خوفاً .

من عرضها لنشهد من خلالها كيف تمت تربية هذه الأمة على يد سيدها وسيّد البشرية عليه الصلاة والسلام :

بين عيينة والأقرع :

نقل محمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

صلى رسول الله ﷺ الظهر يوماً بحنين ، ثم تنحى إلى شجرة فجلس إليها ، فقام إليه عيينة بن حصن ، يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعى – وهو يومئذ سيِّد قيس – ومعه الأقرع بن حابس ، يدفع عن محلّم بن جثامة لمكانه من خندق ، فاختصما بين يدى رسول الله ﷺ وعيينة يقول : يا رسول الله ، والله لا أدعه حتى أُدْخل على نسائه من الحَرَب[1] والحزن ما أدخل على نسائى ، فقال رسول الله ﷺ : « تأخذ الدية ؟» ، فأبى عيينة بن حصن حتى ارتفعت الأصوات وكثر اللغط ، إلى أن قام رجل من بنى ليث يقال له مُكَيْتِل ، قصير مجتمع عليه شِكَّة[2] كاملة ودرقة[3] فى يده فقال : يا رسول الله ، إنى لم أجد لما فعل هذا شبهاً فى غرة الإسلام إلا غنماً وردت فرمى أولها ، فنفر آخرها ، فاسنن اليوم وغيِّره غداً . فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : « تقبلون الدية خمسين فى فورنا هذا ، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة » ، فلم يزل رسول الله ﷺ بالقوم حتى قبلوا الدية .

ورواية : فقام الأقرع بن حابس فقال : يا معشر قريش[4] سألكم رسول الله ﷺ قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس فمنعتموه إياه ، أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله ﷺ ، فيغضب الله تعالى عليكم لغضبه ، أو يلعنكم رسول الله ﷺ ، فيلعنكم الله تعالى بلعنته ، والله لتسلّمنه إلى رسول الله ﷺ ، أو لآتين بخمسين من بنى ليث كلهم يشهدون أن القتيل ما جُلّى قط ، فلأبطلن دمه ، فلما قال ذلك قبلوها ، ومحلّم القاتل فى طرف الناس ، فلم يزالوا يؤزّونه ويقولون : أنت رسول الله ﷺ يستغفر لك ، فقام محلّم وهو رجل ضرب طويل آدم محمر بالحناء عليه حلة قد كان تهيأ فيها للقتل القصاص ، فجلس بين يدى رسول الله ﷺ وعيناه تدمعان ، فقال :

---

(١) الحَرَب : سلب المال . (٢) الشكة : السلاح . (٣) الدَّرَقة : التّرسة من الجلد .
(٤) قريش تصحيف وهى (قيس) . انظر سيرة ابن هشام / ٢ / ٦٢٨ .

(يا رسول الله ، قد كان من الأمر الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله ، فاستغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : أنا محلِّم بن جثامة ، فقال : « أقتلته بسلاحك فى غرة الإسلام ؟ اللهم لا تغفر لمحلِّم » بصوت عال ينفذ به الناس ، قال : فعاد محلِّم فقال : يا رسول الله ، قد كان الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله فاستغفر لى ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته بصوت عالٍ ، ينفذ به الناس : « اللهم لا تغفر لمحلِّم ابن جثَّامة» ، حتى كانت الثالثة ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته ثم قال رسول الله ﷺ : « قم من بين يدى » ، فقام من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه ، فكان ضمرة السلمى يحدث - وقد كان حضر ذلك اليوم - قال : كنا نتحدث فيما بيننا أن رسول الله ﷺ حرك شفتيه بالاستغفار له ، ولكنه أراد أن يعلم الناس قدر الدم عند الله تعالى[1] .

لقد كان لمضر فرعان كبيران : فرع قيس عجلان ، ومنه فزارة ، وأشجع .

وخِندِف أخت قيس وكان منها تميم ، وكنانة وقريش .

والأقرع بن حابس سيد بنى تميم ، والقاتل محلِّم بن جثامة من ليث من كنانة .

وعيينة بن حصن سيد غطفان وبنى فزارة ، وعامر بن الأضبط المقتول سيد قيس من الفرع نفسه . وأن تقع حروب وثارات بين هذين الفرعين الكبيرين قد لا تنتهى بسنوات طوال ، كما هى العادة فى أيام العرب ، وتميم وغطفان بينهما ثارات لا تنتهى ، وأيام لا تنقطع ، فكان مقتل عامر بن الأضبط الأشجعى يمكن أن يعيد سيرة مقتل كليب ، وسيرة حرب البسوس التى استمرت أربعين عاماً . وعيينة بن حصن يود أن يثأر لعامر من ليث وبنى تميم ، وعرض رسول الله ﷺ الدية ؛ لأن القتل قد تم فى ظروف غير طبيعية كما تقول رواية ابن إسحاق :

(بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فى نفر من المسلمين ، فيهم أبو قتادة الحارث ابن ربعى ومحلِّم بن جثامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم ، مر بنا عامر ابن الأضبط الأشجعى على قعود[2] له ومعه متيِّع[3] له ووطب[4] من لبن ، فلما مرَّ بنا سلَّم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه محلِّم بن جثَّامة ، فقتله لشىء

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٤٩٨ وما بعدها . (٢) قعود البعير : ما يقتعده الراعى فى كل حاجة .

(٣) المتيِّع : تصغير متاع . (٤) الوطب : وعاء اللبن .

كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ، وأخذ متيعه ، قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾[1] .

فقد جاءت هذه الآية عقب الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾[2] .

والقرآن الكريم هنا جاء لينبه عدم القتل بالظنة ، وأنه سلم بتحية الإسلام تعوذاً من القتل ، ولهذه الشبهة عرض رسول الله ﷺ الدّية .

ولكن عيينة يريدها حرباً عواناً لا يكتفى فيها بقتل محلّم - كما هى عادة العرب يومئذ - لأن عامرا ليس رجلاً عادياً ، إنما هو سيد قومه قيس .

ويأتى الأمر النبوى إقناعاً ابتداء ، ثم أمراً صارماً بعد ذلك ، وعيينة يأبى ، فقام الأقرع بن حابس ينذر قيساً من مَغَبَّة الإصرار على القتل ، والخروج عن الرضا النبوى بالدية ، وأن لعنة الله تحل بهم وغضبه حين يرفضون الدية ويصرون على القتل ، وكان الهدف كما قال الأقرع : يستصلح به الناس .

وجاء فى هذا المجتمع الجديد الخوف من لعنة الله وغضبه ، لتذيب الثأر والحقد ، وجاءت طاعة الله ورسوله لتحل محل العصبية الجاهلية المنتنة ، وعاد الحيان بعد ذلك ليمارسا دورهما فى المجتمع الإسلامى .

إن مجتمعاً يتحول من مجتمع ثارات وعصبيات أكلته ونهشته خلال القرون ، إلى مجتمع جديد ينطلق بقياداته وقواعده من أوامر الله ورسوله ، وتنتهى القضية بقتيل ودية ، قتل فى ظروف يشك فيها بالقتل العمد .

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فهل يبقى القاتل آمناً ، وقد توزعت ديته على قبيلته ، وانتهى الأمر ، فيستسهل الناس أمر سفك الدم الحرام بهذه الصورة ، أو يتعللون بأسباب واهية ، فيقتلون على ما يحلو لهم فى غرة الإسلام وبلد الإسلام .

(١) سورة النساء : ٩٤ . (٢) سورة النساء : ٩٣ .

كان هذا الموقف الرهيب الذى وقف فيه القاتل بين يدى رسول الله ﷺ يطلب منه المغفرة ، وعلى ملأ من الناس ، وأمام الجيش كله ، ويتوقع الناس طلب المغفرة من رب العالمين ، يرفعها رسوله الأمين إليه ، وكان ما لم يشهده المسلمون طيلة حياتهم كلها لرجل مسلم :

« اللهم لا تغفر لمحلّم بن جثّامة » .

وذلك لأن هذا المسلم انتهك حرمة الإسلام بقتل امرىء سلم عليهم بتحية الإسلام ، فأخذ بدخول الجاهلية وانتقم منه لثارات له عنده .

(فقتله لشىء كان بينه وبينه) .

وعند الله لا تخفى خافية ، فقد أكد القرآن الكريم انحراف هدف القاتل من ثنايا الآية :

﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا ﴾[1] :

فلن يمر أمر القتل بهذه السهولة ، لقد حذَّر القرآن منه التحذير الرهيب بشكل عام ، أما الصورة الخاصة فقد جاءت بهذا المنظر الذى تقشعر له الأبدان ، أن يرفع رسول الله ﷺ يديه ثلاثاً ، ألا يغفر الله لمحلّم ؛ لأنه قتل رجلاً مسلماً فى غرة الإسلام .

وقام عنه وهو يكفكف دموعه . وأين يذهب محلّم بعد أن طرده رسول الله ، ومن يعرض عليه اللجوء بعد أن غدا طريد الله ورسوله .

ويرى الضمرى أن رسول الله ﷺ حرّك شفتيه بالاستغفار ، لكنه أحب أن يعلم الأمة كلها حرمة سفك الدم لمسلم .

وفيما رواه ابن إسحاق عن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أمنته بالله ثم قتلته » ، ثم قال المقالة التى قال : فوالله ما مكث محلّم بن جثّامة إلا سبعاً حتى مات ، فلفظته الأرض ثم عادوا له فلفظته الأرض ، ثم عادوا فلفظته ، فلما غلب قومه عمدوا إلى صُدَّين[2] ، فسطحوه بينهما ، ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه ،

---

(١) سورة النساء : ٩٤ . (٢) الصُّدَّان : [illegible] الفَرْق .

قال : فبلغ رسول الله ﷺ شأنه فقال : « والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يعظكم فى حرم ما بينكم بما أراكم منه » .

وأن يكون هذا التجمع الإسلامى لا قدر الله نزوة من نزوات الثأر الدفينة ، فأين يبقى الإسلام ودعاته بعد ذلك ؟ .

إن كثيراً من الدعوات والحركات الإصلاحية فى التاريخ ، لم تقم إلا على جماجم القتلى ، بل ويتحول القتل إلى صفها من أجل المحافظة على المنصب والموقع ، ويبقى الإسلام فى هذا الوجود فى النموذج النبوى الخالد ، أعظم صفحة ناصعة فى تاريخ الوجود كله ، ومثل هذا الدرس العظيم الذى تلقاه الجيش الإسلامى كله ، حيث يدعو الله تعالى ألا يغفر للقاتل ثلاثاً ، هو الذى جعل الدماء التى أريقت كلها من أجل العقيدة ، والعقيدة فقط ، وهو الذى حول تاريخ الأمة خلال التاريخ من أمة تأكل بعضها ، وتفنى بعضها ، دينها أن يقتل بعضها بعضا ، إلى أمة يلتقى فيه الأعداء الألداء تحت راية الفكرة الواحدة ، وتنقسم إلى معسكر الإيمان والكفر ، ويحاسب محلم لأنه قتل عامراً لشيء كان بينهما ، وهو جندى فى سرية إسلامية .

وإذا بعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس يخوضان أول تجربة إسلامية ، فيخضعان للأمر النبوى ، ويمضيان فى تنفيذه .

١٩ ـــ وبقى لنا بعد هذا كله ، أن نعود إلى الغزوة مجتمعة ونتحدث عنها ، وعن الدور الذى أنهته ، تاركين للإمام ابن القيم رحمه الله فى – زاد المعاد – أن يذكر هذه الجوانب :

(كان الله عز وجل قد وعد رسوله – وهو صادق الوعد – أنه إذا فتح مكة دخل الناس فى دينه أفواجاً ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله ، وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومه بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين .

فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وقوة شوكتهم ، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه ، حتى إن ذقنه لتكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته واستكانة لعزته ، أن أحلَّ له حرمه وبلده ، ولم تحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم عن قلة ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأن من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى يتولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليهم خِلَعُ الجبر مع بريد النصر :

﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ... ﴾ .

وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه تفيض على أهل الانكسار :
﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[1] .

ومنها : أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ،فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبياً ، ولا أرضاً . كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال : سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوه بإيجاف الخيل والركاب وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياههم وسبيهم معهم نزلاً وضيافة وكرامة لحزبه وجنده ، وتمم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر: **﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾** ، فلما أنزل الله نصره على أوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا فى دمائكم ولا فى نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاؤوا مسلمين ، فقيل : إن من شكر إسلامكم وإتيانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم : **﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾**[2] .

---

(١) سورة القصص : ٥ ، ٦ .   (٢) سورة الأنفال : ٧٠ .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالى افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزوتين ، والنبى ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفذت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرَّحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرَّفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى)[1] .

٢٠ ــ وإن كان بين بدر وحنين من وشيجة ، فبين حنين وأحد وشيجة أقرب كذلك ، لقد كانت محنة أحد ومحنة حنين تنطلقان من خط واحد ، هذا الخط هو الخلل فى البناء الداخلى والإعجاب بالنفس والزهو بعد النصر ، ليطامن غلواء المسلمين ، ويعيد الأمر إلى محضنه الطبيعى ، بحيث تخلص العقيدة فى الارتباط بالله وحده ، لا بالخلائق والأسباب .

كما يربط بين الغزوتين ، هذا الثبات الأشم لسيد الخلق ، الذى قلب الموازين وغيَّر النتائج .

ويربط بينهما كذلك تمحيص الصف : ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾[2] ، وهو هدف تربوى ، ذو أهمية بالغة فى تاريخ الدعوات والرجال .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم / ٢ / ٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) سورة آل عمران : ١٤١ .

غـزوة تبـوك

غـــزوة تبـــوك

لقد انتهت الجولة التربوية فى هوازن والطائف والفتح .

قال أبو عمرو : (وكانت مدة غيبته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها ، وواقع هوازن ، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً »[1] . وكان موعد وصوله المدينة ، (يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة - فيما زعمه - أبو عمرو المدنى)[2] . وكان الحج فى هذا العام على ما هو عليه من قبل .

* * *

لقد كسرت شوكة المشركين بعد هوازن والفتح فى جزيرة العرب ، وكسرت شوكة اليهود فى جزيرة العرب بعد خيبر ، وبقيت الشوكة الرهيبة ، شوكة النصارى فى جزيرة العرب .

وكانت غزوة مؤتة التى تمت إشعاراً بدنو المعركة بين الفريقين ، والنصارى يأرزون إلى قيصر عظيم الروم .

غير أن الوضع النفسى عند المسلمين ، لا يزال غير مؤهل لمواجهة النصارى من أهل الكتاب ، ولا يزال الأمر عندهم أن الروم أهل كتاب ، ولم ينقضوا العهد كما نقضته يهود ، والصورة فى ذهنهم عن فرحهم بانتصار الروم غير بعيدة ، وإن كانت مؤتة غيرت شيئاً ما منها ، فجاءت الآيات القرآنية لتتناول هذه النفوس ، وتعرض هؤلاء القوم فى حقيقتهم وعقائدهم وتهيئ أجواءهم النفسية للمواجهة .

* * *

(١) و (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٩١ .

يقول تعالى :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[1] .

(أخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقى - فى سننه - عن مجاهد رضى الله عنه قوله : **﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ... ﴾** الآية : نزلت هذه حين أمر محمد وأصحابه بغزوة تبوك)[2] .

(لما حرَّم الله على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام ، وجد المسلمون فى أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التى كان المشركون يوافون بها ، قال الله عز وجل : **﴿ وإن خفتم عيلة ... ﴾**[3] الآية على ما تقدم ، ثم أحلَّ فى هذه الآية الجزية ، وكانت لم تؤخذ قبل ذلك ، فجعلها عوضاً مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم ، فقال الله عز وجل : **﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾** .

فأمر الله تعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراماً لكتابهم ، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل ، والشرائع والملل ، وخصوصاً ذكر محمد ﷺ وملته وأمته ، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة ، وعظمت منهم الجريمة ، فنبه على محلهم ثم جعل للقتال غاية ، وهى إعطاء الجزية بدلاً عن القتل وهو الصحيح .

قال ابن العربى : (سمعت أبا الوفاء بن عقيل فى مجلس النظر يتلوها ويحتج بها ، فقال : **﴿ قاتلوا ﴾** وذلك أمر بالعقوبة ، ثم قال : **﴿ الذين لا يؤمنون ﴾** وذلك بيان للذنب الذى أوجب العقوبة ، وقوله : **﴿ ولا باليوم الآخر ﴾** تأكيد للذنب فى جانب الاعتقاد ، ثم قال : **﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾** زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال ، ثم قال : **﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾**إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف من المعاندة والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال : **﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾** تأكيد

---

(١) سورة التوبة : ٢٩ .
(٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى / ١٠ / ١٦٦ .
(٣) سورة التوبة : ٢٨ .

للحجة لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم قال : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد** ﴾ ، فبين الغاية التى تمتد إليها العقوبة ، وعين البدل الذى ترتفع به)[1] .

إذن لقد فتح باب الحرب مع أهل الكتاب من النصارى ، لأن مبررات الحرب واحدة للفريقين .

(فعن ابن زيد رضى الله عنه ، فيما أخرجه ابن أبى حاتم فى الآية قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ يعنى الذين لا يصدقون بتوحيد الله ، ﴿ **ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ يعنى الخمر والخنزير ، ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ يعنى دين الإسلام ، ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾يعنى من اليهود والنصارى أوتوا الكتاب من قبل المسلمين أمة محمد ﷺ ، ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ يعنى يذلون)[2] .

وحتى يتضح كفرهم تماماً دون لجلجة ، جاء الشرح المسهب لكفرهم :

﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلـٰهاً واحداً لا إلـٰه إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[3] .

(إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقاداً وسلوكاً ، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية ، المماثلة فى عقيدة أهل الكتاب وواقعهم – وفق ما تصوره هذه الآيات–

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ١٠٩ .
(٢) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ١٦٨ .
(٣) سورة التوبة : ٣٠ – ٣٤ .

كما أن الواقع التاريخى قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم ، وعدم إمكان التعايش بين المنهجين ، وذلك بوقوف أهل الكتاب فى وجه دين الله فعلاً ، وإعلان الحرب عليه ، وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضاً) .

والإسلام بوصفه دين الحق الوحيد فى الأرض ، لابد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من جهة ، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق ؛ على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار ، بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك .

وإذن فالوسيلة العملية لإزالة العوائق المادية ، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام فى الوقت نفسه هى كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق ، حتى تستسلم ، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلاً .

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلاً ، بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع ، فإن لم يقتنع بقى على عقيدته ، وأعطى الجزية ، لتحقيق عدة أهداف :

أولها : أن يعلن بإعطائها استسلامه ، وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق .

وثانيها : أن يساهم فى نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته ، التى يكفلها له الإسلام لأهل الذمة ، والذين يؤدون الجزية فيصبحون فى ذمة المسلمين وضمانتهم ، ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين[1] .

---

(١) تحضرنى مناقشة عارضة بينى وبين زميل نصرانى جمعنى العمل معه ، قال لى : هل ستأخذون الجزية منا إذا حكم الإسلام من جديد ؟ قلت له : نعم . قال : و لم تسمونها جزية ؟ قلت : هذا خير من أن تسمى زكاة ، والزكاة عبادة ، والإسلام لا يجبر غير المسلم على عبادة من عباداته .

صمت ملياً ثم قال : إنكم معشر المسلمين فى هذه الأيام (جبناء) لا تجرؤون على إعلان دينكم .

إن أعدل نظام فى الأرض هو الإسلام حين أخذ الجزية من غير المسلمين في دولته ، ولكنكم تأثرتم بالأفكار الغربية اليوم عن الجيش ، وأنه لحماية الوطن ، فلذلك تبدو الجزية ظلماً حين تفرق بين المواطنين .

إن مفهوم الجيش فى الإسلام أنه جيش عقيدة ، جيش ينشر الإسلام فى البلاد التى يدخلها . وتأتى حماية الوطن من ضمن مهماته ، فكيف يجبر الإسلام أبناء العقائد الأخرى على القتال لنشر عقيدة الإسلام ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قمة الظلم ، ومن أجل هذا أخذ الجزية مقابل الدفاع عن الوطن ، وترك لغير المسلمين=

وثالثها : المساهمة فى بيت مال المسلمين ، الذى يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل بما فى ذلك أهل الذمة ، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعى الزكاة)[1] .

وحيث إن الحرب فى الإسلام حرب عقيدة ، فلابد أن يفقه المسلمون مبررات هذه الحرب ومتطلباتها ، ويتعرفون على هؤلاء الذين يحاربونهم ، عقيدة وهدفاً وسلوكاً .

أما من حيث العقيدة فهم كافرون ، مثل المشركين ، لأنهم يدعون لله ولداً ، وهو أعظم الفرية : **﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدا * تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السمٰوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدَّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾**[2] .

وهذه إذن كافية للمواجهة السافرة بين الحزبين ، فهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ومن يقاتله الله إنما يقاتله بجنده ، وهم جنده .

وهذا تفسير بين لقوله عز وجل عن مبررات القتال للذين لا يؤمنون بالله واليوم والآخر .

أما السمة الثانية فيهم ، فى أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، هى جزء من ذلك الانحراف فى العقيدة :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[3] .

وفوجىء عدى بن حاتم وهو يسمع هذه الآية ، وكان قد تمكَّن من النصرانية وغاص فيها - كما يقول عن نفسه .

وسنتحدث عنه ابتداءً قبل الحديث عن مفاجآته :

=حريتهم فى ألا يشاركوا بنشر عقيدة غير عقيدتهم مرغمين ، فأى عدل يفوق هذا العدل ؟ وأى احترام للإنسان يفوق هذا الاحترام ؟

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٩٣٣ . (٢) سورة مريم : ٨٨ - ٩٥ . (٣) سورة التوبة : ٣١ .

(ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى ، أما أنا فكنت امرأ شريفاً ، وكنت نصرانياً ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع[1] ، فكنت فى نفسي على دين ، وكنت ملكاً فى قومى لما كان يصنع بى ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لى عربى ، وكان راعياً لإبلى : لا أبا لك ، أعدد لى من إبلى أجمالاً ذللاً[2] سماناً ، فاحتبسها قريباً منى ، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذنى ، ففعل ؛ ثم إنه أتانى ذات غداة ، فقال : يا عديَّ ، ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد قال : فقلت : قرِّب لى أجمالى ، فقرَّبها ، فاحتملت بأهلي وولدى ، ثم قلت : ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام ، فسلكت الجوشية[3] — ويقال : الحوشبة فيما قال ابن هشام — وخلفت بنتاً لحاتم فى الحاضر[4] ، فلما قدمت الشام أقمت بها) .

لقد تحركت رايات محمد ﷺ إلى طيئ ، بعد هوازن وثقيف ، وقبل غزوة تبوك ، لتكون افتتاحاً للمواجهة مع الوثنية والنصرانية هناك .

(وفى ربيع الآخر — من السنة التاسعة — سرية على بن أبى طالب إلى الفُلِس[5] صنم طيئ ليهدمه فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ، ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلَّة آل حاتم مع الفجر ، فهدموا الفُلِس وخربوه ، وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء ، وفى السبى أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام)[6] .

والظاهر أن نصرانية عدى كانت خاصة به ، أما الوضع العام لطيىء فقد كانت مشركة ، تعبد صنم الفُلس ، وأخذ عدى لربع الغنيمة هو شرعة جاهلية ، وهى محرمة فى شريعة النصارى ، كما نلاحظ فيما بعد عند وفود عدى على رسول الله ﷺ .

---

(١) يأخذ ربع الغنيمة بصفته رئيس القبيلة .
(٢) ذللاً : أى سريعة مروَّضة على العدو .
(٣) الجوشية : جبل للضباب قرب ضربة من أرض نجد .
(٤) الحاضر : الحى .
(٥) الفلس : صنم لطيئ وكان أنفاً أحمر فى وسط جبلهم يقال له أجأ أسود كأنه تمثال إنسان .
(٦) تاريخ الإسلام للذهبى — المغازى / ٦٢٤ .

لكن سفانة بنت حاتم ، السبية الأسيرة ، هى التى حدت بعدى أن يأتى لرسول الله ﷺ .

يقول عدى رضى الله عنه – وقد أسلم – : (وتخالفنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا طيئ ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام . قال : فجعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبسن فيها ، فمرَّ بها رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة[1] ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علىَّ مَنَّ الله عليك ! قال : « ومن وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، قال :«الفارُّ من الله ورسوله؟» قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مرَّ بى فقلت له مثل ذلك ،وقال لى مثل ما قال بالأمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بى وقد يئست منه ، فأشار إلىَّ رجل من خلفه أن قومى فكلميه قالت:فقمت إليه . فقلت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن علىَّ مَنَّ الله عليك ، فقال ﷺ : « قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى ، فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن أكلِّمه فقيل : على بن أبى طالب . وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة ، قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام ، قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ ، قالت : فكسانى رسول الله ﷺ ، وحملنى وأعطانى نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى ، إذ نظرت إلى ظعينة[2] تصوب[3] إلى تؤمنا قال : فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هى هى ، فلما وقفت علىَّ انسحلت[4] تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك . قال : قلت : أى أُخيَّة ، لا تقولى إلا خيراً ، فوالله ما لى من عذر ، لقد صنعتُ ما ذكرت . قال : ثم نزلت : فأقامت عندى ، فقلت لها – وكانت امرأة حازمة –: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ . قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ،

---

(١) جزلة : عاقلة أصيلة الرأى . (٢) الظعينة : المرأة فى هودجها .
(٣) تصوِّب إلى : تقصد وتؤم . (٤) انسحلت : أخذت فى اللوم ومضت فيه بجدَّة .

فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذل فى عزّ اليمن ، وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا الرأى .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلّمت عليه ؟ فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلّمه فى حاجتها . قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بملك ؛ قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إلى ؛ فقال : « اجلس على هذه » ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها . فقال : « بل أنت » فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : « إيه يا عدى ابن حاتم! ألم تكن تركوسياً[1] ؟ » قال: قلت : بلى قال : « أولم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ » قال : قلت : بلى ، قال : « فإن ذلك لم يكن يحِلُ لك فى دينك» قال : قلت : أجل والله وقال : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل ، ثم قال :

« لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم فلا يوجد من يأخذه ، ولعلك ، إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » قال : فأسلمت)[2] .

أما ابن جرير فيروى عن عدى :

(أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : « يا عدى ، اطرح هذا الوثن من عنقك» قال : فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ فى سورة براءة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : قلت : يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدهم . فقال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ،

---

(١) هو دين بين النصارى والصابئين .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥٧٨ - ٥٨١ .

ويحلون ما حرَّم الله فتحلونه ؟ » قال : قلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم »[1] .

وفى رواية أخرى عنه قلت : يا رسول الله ، أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم ! قال : « صدقت ، ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ، ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه »[2] .

وأما رواية الإمام أحمد عن عدى فهى :

(جاءت خيل رسول الله ﷺ - أو قال : رسول الله ﷺ - وأنا بعقرب ، فأخذوا عمتى وناساً ، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قال : « فصفوا له » ، فقالت : يا رسول الله ، نأى الوافد ، وانقطع الولد ، وأنا عجوز كبير ما بى من خدمة ، فمُنَّ علَّى منَّ الله عليك ، قال : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، قال : « الذى فرَّ من الله ورسوله » ، قالت : فمنَّ على ، قالت : فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه على قال : سليه حملاناً ، قال : فسألته فأمر لها ، قال :

فأتتنى ، فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها ، قالت : ائته راغباً أو راهباً ، فقد أتاه فلان وأتاه فلان فأصاب منه ،قال: فأتيته ، فإذا عنده امرأة وصبيان - فذكر قربهم من النبى ﷺ - فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر .

فقال له : « يا عدى بن حاتم ، ما أفرَّك[3] ؟ أن يقال لا إلٰه إلا الله ، فهل من إلٰه إلا الله ؟ ما أفرَّك ؟ أن يقال الله أكبر ؟! فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ » قال : فأسلمت ، فرأيت وجهه قد استبشر وقال : « إن المغضوب عليهم اليهود ، وإن الضالين النصارى »)[4] .

وفى رواية أخرى له :

قال : « يا عدى بن حاتم أسلم تسلم » ، قال : قلت : إنى من أهل دين ، قال : « يا عدى بن حاتم ، أسلم تسلم » ، قال : قلت : إنى من أهل دين ، قالها ثلاثاً ، قال : « أنا أعلمُ بدينك منك » ، قال : قلت : أنت أعلم بدينى منى ؟! ، قال : « نعم ، ألست من الرَّكوسية ، وأنت تأكل مرباع قومك ؟! » ، قلت : بلى ، قال :

---

(١) و (٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ٨١ .

(٣) ما أفرك : ما دفعك على الفرار . (٤)مسند الإمام أحمد / ٤ / ٣٧٨ .

« فإن هذا لا يحل لك فى دينك » ، قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها)[1] .

وتؤكد هذه الروايات جميعاً مفهوم عبادة الأحبار والرهبان : إنها تحليل الحرام وتحريم الحلال ، وأن هذا هو العبادة .

(ومن النص القرآنى الواضح الدلالة ، ومن تفسير رسول الله ﷺ وهو فصل الخطاب ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار :

– إن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ ، فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية لهم ، ومع هذا فقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك فى هذه الآية – وبالكفر فى آية تالية فى السياق – لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها ، فهذا وحده – دون الاعتقاد والشعائر – يكفى لاعتبار من يفعله مشركاً بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .

– إن النص القرآنى يسوِّى فى الوصف بالشرك ، باتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود والذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً ، أو قدموا إليه الشعائر فى العبادة ، فهذه كتلك سواء فى اعتبار فاعلها مشركاً بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .

– إن الشرك بالله يتحقق بمجـرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عبادة ، ولو لم يصحبه شرك فى الاعتقاد بألوهيتـه ، ولا تقديم الشعائر التعبدية له .. كما هو واضح من الفقرة السابقة ..

– إن دين الحق الذى لا يقبل الله من الناس كلهم ديناً غيره هو الإسلام – والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده فى الشريعة – بعد الاعتقاد بالله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية له وحده ، فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صحَّ فيهم ما صح فى اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله – مهما كانت دعواهم فى الإيمان – لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله ،

(٥) مسند الإمام أحمد / ٤ / ٢٥٨ .

بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم لا طاقة لهم بدفعه ، وأنهم لا يقرون بهذا الافتئات على الله)[1] .

ونحن لا نستبعد أن يكون قدوم عدى قد تم قبيل غزوة تبوك ، واتضحت هذه المعانى للصف الإسلامى ، فروح رواية ابن إسحاق تؤكد أنه استجاب لرغبة أخته سريعاً ، وبين تبوك وسرية طيئ ثلاثة أشهر ، ومدى حفاوة المسلمين بعدى بن حاتم حين قدم عليهم ترجح هذا الاحتمال .

ففى إحدى روايات أحمد عن عدى رضى الله عنه : فقدمت فأتيته ، فلما قدمت قال الناس : عدى بن حاتم ، عدى بن حاتم .

وفى رواية : فأتيته فاستشرفنى الناس وقالوا : عدى بن حاتم ، عدى بن حاتم .

وعلى هذا الأساس فالإيضاح النبوى لمفهوم العبادة للأحبار والرهبان فى تحريم الحلال وتحليل الحرام هو درس من دروس العقيدة ، تهيئ النفوس لمواجهة هؤلاء النصارى فى الحرب ، فقد يتبادر إلى الذهن أن الجريمة هى جريمة القيادات الدينية التى تحارب هذا الدين ، ولكن الإسلام لا يعفى الذين اتبعوا من مسؤولياتهم أبداً ، فهم الذين عبدوا ، وهم الذين كفروا ، وهم الذين أطاعوا ، ومن أجل ذلك فهم يقاتلون بتوجيهات قياداتهم وأحقادهم والهدف الذى يسعون للوصول إليه :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

إنها حرب بينهم وبين الله ، هم جادون فى وأد هذا الدين ، وإطفاء شعلته ، وخنق نوره ، والله تعالى اقتضت إرادته أن يخرج البشرية من الظلمات إلى النور ، ويعم النور هذه الآفاق ، ويهدى البشرية الضالة التائهة الشرود .

وهذا لا يتم إلا من خلال البشر أنفسهم ، ومن أجل هذا أرسل رسولاً يهدى إلى الحق بإذنه ومضى حواريوه وصحبه معه يجاهدون فى سبيل الله لنشر هذا الدين ، وإبلاغ هذه العقيدة ، وتمكينها فى الأرض لتكون لها الدينونة والسيادة :

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٤٢ .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾.

ويريد الإسلام أن يرتفع بآفاق هذه النفوس خارج الأرض العربية ، فالقضية ليست حدود قريش وهوازن ، إن المعركة لإطفاء نور الله ، هى خارج هذه الأرض ، فهناك قيصر والروم من ورائه ، الذين يغذون عرب الجزيرة ويمدونهم للقضاء على الإسلام ورسول الإسلام ، ولابد أن تستقر هذه المعانى فى هذه النفوس جميعاً ولدى هذا الجيل الجديد ، لأنه أدرك أن الحرب قد انتهت بعد فتح مكة وهزيمة هوازن ، وعندما تتضح عالمية المعركة لدى هذا الجيل الذى بدأ يعد إلى الإسلام ، سوف يتعبأ نفسياً ويتكيف لهذه المواجهة ، وحينما تمتد المعركة لمواجهة الروم بعد العرب ، ويأتى التأكيد على أن نصر الله قادم فهذه الإرادة الربانية لذلك ، وأن كل الحرب العوان من العدو لإطفاء نور الله هى حرب مع الله ، وهى حرب خاسرة ؛ لأن دين الله لابد أن يظهر على الدين كله .

وهنا تأتى أهمية الدرس الثانى فى إسلام عدى بن حاتم رضى الله عنه ، وهو فرد من هذا الجيل الجديد ، الذى رأى سلطان الروم وسلطان قيصر ، وكيف يقتسم نفوذ الأرض مع ملك الملوك كسرى ، وهو الذى حقق انتصارات ضخمة واسترد الصليب المقدس ، لابد أن تتغير المفاهيم عنده ، وعند المسلمين الذين ينضمون إلى التجمع الإسلامى كل يوم فيعرفوا عدوهم الحقيقى أولاً ويعرفوا هدفه الأبعد ثانياً ، ويعرفوا الإرادة الربانية فى نصر هذا الدين والتمكين له ثالثاً ، فتأخذ التربية مداها الطبيعى فى النفوس على ضوء ذلك .

(قال : « وإنى أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولى ، وأن الناس علينا إلباً واحداً ، هل تعلم مكان الحيرة ؟ » قال : قد سمعت بها ولم آتها .

قال : « لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة .

ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح » .

قال : قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال : « كسرى بن هرمز » ، قال : قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال : « كسرى بن هرمز » – ثلاث مرات – « وليوشكن أن يبتغى من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد » .

قال : فلقد رأيت اثنتين : قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة ، وكنت فى الخيل التى أغارت على المدائن ، وايم الله لتكونن الثالثة)[1] .

إن الصورة التى يراها عدى ، هى الصورة التى يراها الجيل الإسلامى الجديد كله جيل ما بعد الفتح ، الذى أخذ ينمو نمواً سريعاً ، ولكنه مع ذلك يقيس قوته ببيئته ومحيطه ، وبعضهم يدخل فى الإسلام طمعاً فى غنيمة ، وبعضهم يدخل فيه رهبة من سلطان محمد ﷺ ، لكن هذه الأمور ترهب داخل الساحة المغلقة العربية ، أما لو أتت غسان بجحافلها والروم من ورائها ، فمن يقف لها . فليست المعانى التى تسيطر على المسلمين الحديثى عهد بهذا الدين ، معنى النصر الربانى ، أو التوكل على الله تعالى بالنصر ، ولابد أن تغرس هذه المعانى فى النفوس ، بحيث يعرف هؤلاء المسلمون أن معركتهم عالمية مع قوى الأرض كلها وليست معركة محلية ، أو انتصاراً قبلياً محدوداً .

وتتجاوز المعركة بين الإسلام والكفر الآماد والآفاق ، لتستشرف الزمن كله ، لا زمناً محدداً ، ولا بيئة محددة .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ قال : الأديان ستة : الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، فالأديان كلها تدخل فى دين الإسلام ، والإسلام لا يدخل فى شيء منها ، فإن الله قضى فيما حكم ، وأنزل أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون)[2] .

﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أى على سائر الأديان ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها »[3] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن شاب من محارب ، يقول : سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ،

---

(١) مسند الإمام أحمد / ٤ / ٣٧٨ .

(٢) الدر المنثور للسيوطى/ ٤ / ١٠ / ١٧٤ . (٣) مسلم وغيره/ ٤ /٢٢١٥ حديث رقم ٢٨٨١ .

إلا من اتقى الله وأدى الأمانة »[1] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر »[2] .

فكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية .. قال الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخَلَتْهُ كلمة الإسلام ، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم الله ، فيدينون لها »[3])[4] .

وأقلق عائشة رضي الله عنها أن يتناقض هذا الأمر وهذا التمكين ذات يوم :

فأخرج أحمد ، ومسلم ، والحاكم ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى » ، فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ، إني كنت أظن حين أنزل الله : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ ، أن ذلك سيكون تاماً ؟ فقال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة ، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير ، فيبقى من لا خير فيه ، يرجعون إلى دين آبائهم »[5])[6] .

(وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقي - في سننه - عن جابر رضي الله عنه في قوله: ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام ، حتى تأمن الشاة الذئب ، والبقرة الأسد ، والإنسان الحية ، وحتى لا تقرض فأرة جراباً ، وحتى توضع الجزية ، ويكسر الصليب ، ويقتل

---

(١) المسند / ٥ / ٣٦٦ . (٢) المسند / ٤ / ١٠٣ . (٣) المسند / ٦ / ٤ .
(٤) تفسير ابن كثير / ٣ / ٣٨٧ .
(٥) مسلم / ٤ / ٢٢٣٠ حديث رقم / ٢٩٠٧ . (٦) الدر المنثور للسيوطي / ٤ / ١٠ / ١٧٥ .

الخنزير ، وذلك إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام)[1] .

(وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ قال : خروج عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام)[2] .

* * *

الأحبار والرهبان من جديد :

﴿ يـأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[3] .

لقد كانت الصورة السابقة عن القسيسين والرهبان :

﴿ ... ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾[4] .

هذه الصورة المشرفة عن القسيسين والرهبان ، والنصارى الذين هم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، هى صورة صادقة لما كان عليه نصارى الحبشة مع هذا الدين الجديد :

قال على بن طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن ، بكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وهذا القول فيه نظر لأن هذه الآية مدنية ، وقصة جعفر مع النجاشى قبل الهجرة . وقال سعيد بن جبير والسدى وغيرهما : نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ

---

(١) و (٢) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٧٦ .   (٣) سورة التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .
(٤) سورة المائدة :٨٢ - ٨٥ .

ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن ، أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قال السدى : فهاجر النجاشي فمات بالطريق ، وهذا من إفراد السدى فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة ، وصلى عليه النبى ﷺ يوم مات ، وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة ، ثم اختلف فى عدة هذا الوفد فقيل : اثنا عشر : سبعة قساوسة وخمسة رهابين ، وقيل : العكس ، وقيل : خمسون ، وقيل : بضع وستون ، وقيل : سبعون رجلاً والله أعلم . وقال عطاء بن أبى رباح : هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين ، وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم ، فلما رأوا المسلمين ، وسمعوا القرآن ، أسلموا و لم يتلعثموا ،واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة سواءً كانوا من الحبشة أو غيرها)[1] .

وهذه الصورة الوضيئة قد اكتملت بوصول خبر وفاة النجاشي رضى الله عنه إلى المسلمين :

(وفى رجب صلى رسول الله ﷺ قبل مسيره إلى تبوك على أصحمة النجاشي رضى الله عنه صاحب الحبشة – وأصحمة بالعربى : عطية – وكان قد آمن بالله ورسوله . قال النبى ﷺ : « قد مات أخ لكم بالحبشة » ، فخرج بهم إلى المصلى وصفهم ، وصلى عليه .

قال ابن إسحاق : عن عائشة : لما مات النجاشي ، كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور)[2] .

فإذا كان منهم – وهم الأقلون – هذه النماذج التى استجابت لله ورسوله ، ودخلت فى دين الله ، لكن الكثيرين منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، فقد تغر مظاهر علمائهم أحباراً ورهباناً ، ويتوقف المسلم فى اندفاعه لحربهم ومواجهتهم ، لكنه عندما يعلم أن كثيراً منهم يأكل أموال الناس بالباطل رغم مظاهر الزهد التى يبدون فيها ، وأن كثيراً منهم يصدون عن سبيل الله ، ويعلنونها حرباً شعواء على هذا الدين ، فسيقدم على مواجهة هذا العدد بنفس مطمئنة ، وصدر مفتوح ،

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٦٢٣ .
(٢) تاريخ الإسلام للذهبى – المغازى ، والحديث أخرجه مسلم فى الجنائز ٦٦ / ٩٥١ ونصه : « إن أخاً لكم قد مات ، فقوموا فصلوا عليه » ، فقمنا فصفنا صفين .

واستعداد عالٍ لهذه الحرب . ولأكل أموال الناس بالباطل صور متعددة منها مثلا هذه الصورة :

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار** ﴾ يعنى علماء اليهود ، ﴿ **والرهبان** ﴾ علماء النصارى ، ﴿ **ليأكلون أموال الناس بالباطل** ﴾ والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله تعالى فأكلوا بها الناس وذلك قول الله تعالى : ﴿ **الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾[1] .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى رضى الله عنه فى الآية : أما الأحبار فمن اليهود ، وأما الرهبان فمن النصارى ، وأما سبيل الله محمد ﷺ .

والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله : هى شاملة تنال أهل الكتاب كما تنال أهل القبلة ، والمسلمون مقدمون على معركة تحتاج إلى الجهاد بالمال والنفس فجاء التحذير من الكنز مقابل الإنفاق ، وأدنى الإنفاق الزكاة .

أخرج ابن أبى شيبة – فى مسنده – وأبو داود ، وأبو يعلى ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى – فى سننه – عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا لولده مـالاً يبقى بعده ، فقال عمر رضى الله عنه : أنا أفرّج عنكم ، فانطلق عمر رضى الله عنه واتبعه ثوبان رضى الله عنه ، فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال :

« إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » ، فكبَّر عمر رضى الله عنه ، ثم قال له النبى ﷺ :ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته)[2] .

---

(١) سورة البقرة : ٧٩ .
(٢) الدر المنثور للإمام السيوطى / ٤ / ١٠ / ١٧٨ .

أما هذا العذاب الأليم فهو :

﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

(أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح ثم أحمى عليها فى نار جهنم ، ثم يكوى بها جبينه وجبهته وظهره ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[1])[2] .

(وأخرج أبو يعلى ، وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يوضع الدينار على الدينار ولا الدرهم على الدرهم ، ولكن يوسّع الله جلده ، **﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾**)[3] .

* * *

دعوة عامة للقتال :

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين * إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[4] .

(هذا المقطع فى السياق استطراد فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمالى الجزيرة ، ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة – تبوك – كان فى رجب من الأشهر الحرم ، ولكن كانت هناك

---

(١) عند مسلم / ٢ / ٦٨٢ / حديث رقم ٩٨٧ .
(٢) و (٣) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٧٩ .
(٤) سورة التوبة : ٣٦ ، ٣٧ .

ملابسة واقعة ، وهى أن رجب في هذا العام لم يكن فى موعده الحقيقى ! وذلك بسبب النسيء الذى ورد ذكره فى الآية الثانية - كما سنبين - فقد ورد أن ذا الحجة فى هذا العام لم يكن فى موعده كذلك ، إنما كان فى ذى القعدة ! فكأن رجب كان فى جمادى الآخرة .. وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدهم ؛ وعدم التزامها بالحرمات إلا شكلاً . والتأويلات والفتاوى التى تصدر عن البشر ، مادام أن أمر التحليل والتحريم يوكل فى الجاهلية إلى البشر !

وبيان هذه القضية أن الله حرم الأشهر الحرم الأربعة وهى الثلاثة المتوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع الفرد : رجب . والواضح أن هذا التحريم كان مع فرض الحج فى أشهره المعلومات منذ إبراهيم وإسماعيل .. وعلى كثرة ما حرف العرب فى دين إبراهيم ، وعلى شدة ما انحرفوا عنه فى جاهليتهم قبل الإسلام ، فإنهم بقوا يعظمون الأشهر الحرم هذه لارتباطها بموسم الحج ؛ الذى كانت تقوم عليه حياة الحجازيين ، وبخاصة سكان مكة ، كيما يكون هناك السلام الشامل ، فى الجزيرة الذى يسمح بالموسم ، والانتقال إليه ، والتجارة فيه !

ثم كانت بعد ذلك تعرض حاجات لبعض القبائل العربية ، تتعارض مع تحريم هذه الأشهر .

وهنا تلعب الأهواء ؛ ويقوم من يفتى باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره فى عام وتقديمه فى عام آخر ، فتكون عدة الأشهر المحرمة أربعة ، ولكن أعيان هذه الأشهر تتبدل : ﴿ **ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيحلوا ما حرَّم الله** ﴾ .. فلما كان هذا العام التاسع كان رجب الحقيقى غير رجب ، وكان ذو الحجة الحقيقى غير ذى الحجة ، كان رجب هو جمادى الآخرة ، وكان ذو الحجة هو ذو القعدة ، وكان النفير فى جمادى الآخرة فعلاً وواقعاً ، ولكنه كان فى رجب اسماً بسبب هذا النسيء ، فجاءت هذه النصوص تبطل النسيء ، وتبين مخالفته ابتداء لدين الله الذى يجعل التحليل والتحريم - والتشريع كله - حقاً خالصاً لله ، وتجعل مزاولته من البشر - بغير ما أذن الله - كفراً .. بل زيادة فى الكفر ، ومن ثم تزيل العقبة التى تحيك فى بعض النفوس من استحلال رجب ، وفى الوقت ذاته تقرر أصلاً من أصول العقيدة الأساسية ، وهى قصر حق التشريع فى الحل والحرمة على الله وحده ، وتربط هذه الحقيقة بالحق الأصيل فى بناء هذا الكون كله يوم خلق السمٰوات والأرض ، فتشريع

الله للناس إنما هو فرع من تشريعه للكون كله بما فيه هؤلاء الناس ، والحيدة عنه مخالفة لأصل تكوين هذا الكون ، وبنائه ، فهو زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا .

وحقيقة أخرى تقررها هذه النصوص ، تتعلق بما سبق تقريره فى المقطع السابق مباشرة ، من اعتبار أهل الكتاب مشركين ، وضمهم فى العداوة والجهاد إلى المشركين ، والأمر بقتالهم كافة المشركين وأهل الكتاب كما أنهم يقاتلون المسلمين كافة ، الأمر الذى يقرره الواقع التاريخى كله ، كما تقرره من قبل كلمات الله سبحانه ، وهى تعبر عن وحدة الهدف تماماً بين المشركين وأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين ، وعن وحدة الصف التى تجمعهم كذلك عندما تكون المعركة مع الإسلام والمسلمين ، مهما يكن بينهم من عداوات قبل ذلك وثارات واختلافات فى تفصيلات العقيدة كذلك ، لا تقدم شيئاً ولا تؤخر فى تجمعهم جميعاً فى وجه الانطلاق الإسلامى ، وفى عملهم مجتمعين لسحق الوجود الإسلامى .

وهذه الحقيقة الأخيرة الخاصة بأن أهل الكتاب مشركون كالمشركين ، وأن المشركين هؤلاء وهؤلاء يقاتلون المسلمين كافة ، فوجب على المسلمين أن يقاتلوهم كافة .

بالإضافة إلى الحقيقة الأولى : وهى أن النسىء زيادة فى الكفر لأنه مزاولة للتشريع بغير ما أنزل الله ، فهو كفر يضاف إلى الكفر الاعتقادى ويزيد فيه ... هاتان الحقيقتان هما المناسبة التى تربط هاتين الآيتين بما قبلهما وما بعدهما فى السياق ؛ الذى يعالج المعوقات دون النفير العام ، والانطلاق الإسلامى تجاه المشركين وأهل الكتاب .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم .. ﴾ .

إن هذا النص يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها ، وإلى أصل الخلقة ، خلقة السمٰوات والأرض ، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهراً ، يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر ، فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة ، وأن ذلك فى كتاب الله – أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون – فهى ثابتة على نظامها ، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص ولا للزيادة ، لأنها تتم وفق قانون ثابت ، هو ذلك الناموس الكونى الذى أراده الله يوم خلق

السمٰوات والأرض ، هذه الإشارة إلى ثبات الناموس يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديدها ليقول : إن هذا التحديد والتحريم جزء من نواميس الله ثابت كثباتها ، لا يجوز تحريفه بالهوى ، ولا يجوز تحريكه تقديماً وتأخيراً ، لأنه يشبه دورة الزمن التى تتم بتقدير ثابت وفق ناموس لا يتخلف .

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ .

فهذا الدين مطابق للناموس الأصيل ، الذى تقوم به السمٰوات والأرض ، منذ أن خلق الله السمٰوات والأرض ...

﴿ ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ .

لا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السمٰوات والأرض ، ذلك الناموس هو أن الله المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون .. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وراحة وسلام ، فتخالفوا عن إرادة الله ، وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيماً حربية لا هدنة فيها ولا سلام .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ .

ذلك فى غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ، لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ، ويشيع الفساد فى الأرض ، والفوضى فى النواميس ، فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها ولا تهان .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ .

قاتلوهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم أو جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعاً لا يستثنون منكم أحداً ، ولا يبقون منكم على جماعة ، والمعركة فى حقيقتها إنما هى معركة بين الشرك والتوحيد ، وبين الكفر والإيمان ، وبين الهدى والضلال ، معركة بين معسكرين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائم ، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل ؛ لأن

الخلاف بينهما ليس عرضياً ولا جزئياً ، ليس خلافاً على مصالح يمكن التوفيق بينها ، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها ، وإن الأمة المسلمة لتخدع نفسها عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين – وثنيين وأهل كتاب – إذا هى فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية ، أو معركة قومية ، أو معركة وطنية ، أو معركة استراتيجية ، كلا إنها قبل كل شيء معركة العقيدة ، والمنهج الذى ينبثق من هذه العقيدة .. أى الدين .. وهذه لا تجدى فيها أنصاف الحلول ، ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات ، ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح ، الجهاد الشامل والكفاح الكامل ، سنة الله التى لا تتخلف ، وناموسه الذى تقوم عليه السمٰوات والأرض ، وتقوم عليه العقائد والأديان ، وتقوم عليه الضمائر والقلوب ، فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض .

﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله ، وأن يحلوا ما حرم الله ، وأن يحرفوا نواميس الله ، فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل ، فهو جهاد فى سبيل الله ، يقفون فيه عند حدوده وآدابه ويتوجهون إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية ، فلهم النصر لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

قال مجاهد رضى الله عنه : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول :

أيها الناس ، إنى أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . إنا قد حرَّمنا المحرم وأخَّرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرَّمنا صفر وأخرَّنا المحرم فهو قوله : **﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾** قال : يعنى الأربعة ، فيحلوا ما حرَّم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس ، وكان فى الجاهلية ، وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام ،

يلقى الرجل قاتل أبيـه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرَّم ، قال : ننسئه العام ، هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا .. جعلناهما محرَّمين .. قال: ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : لا تغزو فى صفر ، حرِّموه مع المحرم .. هما محرمان .

فهذان قولان فى الآية ، وصورتان من صور النسىء ، فى الصورة الأولى يحرم صفر بدل المحرم ، فالشهور المحرمة أربعة فى العدد ، ولكنها ليست هى التى نصَّ عليها الله ، بسبب إحلال الشهر المحرَّم ، وفى الصورة الثانية يحرم فى عام ثلاثة شهور ، وفى عام آخر خمسة شهور فالمجموع ثمانية فى عامين ، بمتوسط أربعة فى العام ، ولكن حرمة المحرَّم ضاعت فى إحداهما ، وحل صفر ضاع فى ثانيهما .

وهذه كتلك فى إحلال ما حرم الله والمخالفة عن شرع الله : ﴿ **زيادة فى الكفر** ﴾ . ذلك أنه – كما أسلفنا – كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد : ﴿ **يضل به الذين كفروا** ﴾ ، ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتاويل : ﴿ **زُيِّن لهم سوء أعملهم** ﴾ ، فإذا هم يرون السوء حسناً ، ويرون قبح الانحراف جمالاً ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال .

﴿ **والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ .

الذين ستروا قلوبهم عن الهدى ، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم ، فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال)[1] .

ولابد من الإشارة إلى التعبئة النفسية كذلك من خلال هاتين الآيتين ، وقول الله عز وجل :

﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم** ﴾ :

فأعلى آفاق المد الشعورى فى الجهاد ومواجهة العدو قد بلغت فى هذه الآية ، وخاصة بعد أن توضح المقصود بالمشركين أنهم مشركو الجزيرة ، وأهل الكتاب عامة . لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .

---

(١) تفسير الآيتين من : ١٦٥٠ – ١٦٥٤ فى ظلال القرآن .

فقد كان يمثل فى حس المسلم ابتداء ارتباط القتال بمشركى مكة ، فها هى مكة قد هوى الشرك فيها وسقط ، وإذا كان القتال مع مشركى الجزيرة ، فها هى الجزيرة دانت للإسلام ، وبدأت الوفود تترى تعلن ولاءها لهذا الدين ، أما وأن الأمر قد اتسع حتى ملأ الأرض قاطبة ، ومهمة هذا الجيل أن يواجه المشركين كافة فى الأرض ؛ لأن معسكر الشرك كافة سيواجه المسلمين شاؤوا أم أبوا ، وقضايا العقيدة التى يتم الجهاد من أجلها هى ثابتة لدى جميع المشركين فى عبادتهم ودينونتهم لغير الله ، وفى أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وفى أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وحين تتضح طبيعة المعركة أولاً ، وأبعادها ثانياً ، وهدفها ابتداء ، يكون الإعداد مناسباً لهذه الجوانب ، وتأتى الآيات التالية فى التعبئة الجهادية نتيجة حتمية لهذه المقدمات .

ولا مانع ونحن على مشارف آخر غزوة نبوية أن نعيد الصورة التى ابتدأت بين هذا الدين وبين الناس ، كما عرضها الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه : زاد المعاد:
(فصل : فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى أن لقى الله عز وجل .

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذى خلق وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ فى نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه : ﴿ **يأيها المدثر * قم فأنذر** ﴾[1] ، فنبأه بقوله : ﴿ **اقرأ** ﴾ وأرسله بـ : ﴿ **يأيها المدثر** ﴾ ، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر أن يتم لأهل الصلح والعهد عهدهم ، وأن يوفى لهم ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة ، نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى

---

(١) سورة المدثر : ١ ، ٢ .

يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده ، ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمر فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا فى الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم)[1] .

* * *

---

(١) زاد المعاد / ١ / ٢/ ٩٠ ، ٩١ .

تبـوك والنفير العام

يقول عز وجل :

﴿ يـأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم * انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[1] .

لابد أن نتعرف على الأجواء التى تنزلت فيها هذه الآيات، بعد أن استقر المقام برسول الله ﷺ فى المدينة ، وأسلمت ثقيف المستعصية ، وانتهت اللات والعزى من جزيرة العرب ، وبقيت الأخطار المحدقة من خارج الجزيرة .

روى الواقدى بسنده قال :

(كانت الساقطة – وهم الأنباط – يقدمون المدينة بالدرمك[2] والزيت فى الجاهلية ، وبعد أن دخل الإسلام ، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم ، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط ، فقدمت قادمة ، فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معهم لخم وجُذام وغسان وعاملة ، وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلف هرقل بحمص ، ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه ، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين ، منهم وذلك لما عاينوا منهم – إذ كانوا يقدمون عليهم تجاراً– من العدد والعدة

---

(١) سورة التوبة / ٣٨ – ٤١ .

(٢) الدرمك : دقيق الحوارى .

والكراع ، وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوة إلا ورى بغيرها ، لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزى وعدداً كثيراً ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة غزوهم ، وأخبر بالوجه الذى يريد ، وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلم بريدة بن الحصيب الأسلمى ، وأمره أن يبلغ الفرع ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد الليثى فى قومه ، وخرج أبو الجعد الضمرى فى قومه بالساحل ، وبعث رافع ابن مكيث وجندب بن مكيث فى جهينة ، وبعث نعيم بن مسعود فى أشجع ، وبعث فى بنى كعب بن عمرو بديل بن ورقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر بن سفيان ، وبعث فى سُليم عدة منهم العباس بن مرداس ، وحضَّ رسول الله ﷺ على القتال والجهاد ، ورغبهم فيه)[1] .

ويدل على تخوف المسلمين من غزو غسان ما ورد فى رواية البخارى عن طلاق رسول الله ﷺ نساءه :

يقول عمر رضى الله عنه :

(... وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه ، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، قال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغسانى ، فقال : بل أشد من ذلك)[2] .

ولخطورة الغزوة وبعد المشقة ، كان الاستنفار الشامل حيث بعث رسول الله ﷺ صحابته من كل قبيلة إلى قبائلهم يدعوهم إلى الانضمام إلى الجيش الإسلامى ، وكما يقول كعب رضى الله عنه فى حديث توبته :

(.. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، وكان يقول : « الحرب خدعة » ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم – وفى لفظ : أهبة عدوهم – فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٠ . (٢) البخارى / ٢ / ٦ / ١٩٦ (سورة التحريم) .

رسول الله ﷺ كثيرون – وعند مسلم : يزيدون على عشرة آلاف .

وروى الحاكم فى الإكليل عن معاذ رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً ، وقال أبو زرعة الرازى : لا يجمعهم كتاب حافظ – قال الزهرى : يريد الديوان – قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله تعالى .

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فى قيظ شديد فى حال الخريف ، والناس خارفون فى نخيلهم ، وتجهز رسول الله ﷺ ، وتجهز المسلمون معه)[1] .

* * *

وحيث إن القرآن الكريم عالج السورة من خلال البناء الداخلى ، فسنعود لتلك المعالجة وعلى ضوء المنهج القرآنى نفسه ، لكننا سنعرض ابتداء لأحداث الغزوة ، وما تم فيها من تربية لهذا الجيل .

إن الله تعالى قادر على أن يطلع نبيه عليه الصلاة والسلام على ادعاء غزو غسان ومن معهم للمدينة ، وأنه لا صحة له ، لكن صلة القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام فى رحلة عامة ، لهذه الأعداد الغفيرة تتلقى كلها منه ، حيث يصعب تجمعها وجمعها فى مكان واحد فى المدينة ، والصحراء المترامية الأطراف يمكن أن تشهد عملية البناء الشاملة ، وتكون فرصة قد تكون الوحيدة لكشف هذه النفوس ، وتصحيح أخطائها على ضوء منهج النبوة ، والإشراف التربوى المباشر لإمام المربين على هذا الجيل هى هدف ضخم بحد ذاته ، وأن تبقى الصورة غامضة عن حقيقة الوضع فى غسان ، لكشف كل خبايا النفوس وحنايا الضمائر ، هى تجربة فريدة فذة لإعادة البناء ، من جديد لثلاثة أضعاف جيل الفتح ، حيث بلغ عددهم ثلاثين ألفاً فى بعض الروايات – وهى الأرجح – بينما ترتفع بعضها بهم إلى سبعين ألفاً ، ولنمض خطوة خطوة ، مع هذا الجيش العظيم ، تاركين كل ما تحدث عنه القرآن إلى التفصيل فيه مع الآيات القرآنية الكريمة .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٧٨ ، ٦٧٩ .

أسباب الغـزوة :

تتضافر الروايات فى أسبابها ، إضافة إلى ما رواه الواقدى من قبل إلى ثلاثة أسباب هى :

أ ــ روى الطبرانى بسند ضعيف عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل : (إن هذا الرجل الذى قد خرج يدّعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق بدينك فالآن ، فبعث رجلاً من عظمائهم[1] وجهز معه أربعين ألفاً ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بالجهاد)[2] .

ب ــ وقيل : (إن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقاً فالحق بالشام ، فإنها أرض الأنبياء ، فغزا تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بنى إسرائيل : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً** ﴾[3] رواه ابن أبى حاتم وأبو سعد النيسابورى والبيهقى بإسناد حسن)[4] .

جـ ــ وقيل : (إن الله سبحانه وتعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام فى الحج وغيره قالت قريش : لتُقطعن عنا المتاجر والأسواق ، وليذهبنَّ ما كنا نصيب منها ، فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما قال تعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم * قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[6] ، وعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم ، لأنهم أقرب الناس إليه ،

---

(١) فى شرح المواهب / ٣ / ٦٤ يقال له : قباذ
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٢٦ .
(٣) سورة الإسراء : ٧٦ .
(٤) المصدر نفسه / ٥ / ٦٢٦ .
(٥) سورة التوبة : ٢٨ ، ٢٩ .
(٦) سورة التوبة : ١٢٣ .

وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام . رواه ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد ، وابن جرير عن سعيد بن جبير)[١] .

والذى يبدو خلف هذه الأسباب جميعاً هو الإرادة الربانية التى تقدِّر الأسباب وتوجه الأحداث ، حتى يتم هذا الخروج الكبير ، ويتم هذا التمييز العظيم للصف ، وإن كان قدر الله تعالى أن يتم هذا التمييز فى أحد ، ويكون ثمنه غاليا من المهج والأرواح والمحنة الشديدة ، فقد شاءت إرادته تعالى فى هذه المرحلة أن يتم هذا التمييز ، دون ذلك الابتلاء فى الأنفس والأرواح ، أو تلقى هزيمة معنوية - فى ظاهر الأمر - بل رافق ذلك نصر معنوى أطبق الآفاق كلها عن القوة النبوية المرهوبة الجانب ، حتى ليسارع نصارى الشام لمهادنة النبى ﷺ ودفع الجزية له - كما نرى فيما بعد .

من استخلفه رسول الله ﷺ على أهله وعلى المدينة :

قال ابن إسحاق : وخلَّف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلَّفه إلا استثقالاً له ، وتخففاً منه ، فلما قالوا ذلك أخذ على سلاحه وخرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف[٢] ، فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى وتخففت منى ؛ فقال : « كذبوا ، ولكن خلَّفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » . فرجع علىّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ إلى سفره .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه سعد : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعلى هذه المقالة[٣] ...

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه قال : وذكر الدراوردى أنه استخلف عام تبوك سباع بن عرفطة ،زاد محمد بن

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٢٧ .
(٢) الجرف : مكان غربى المدينة ، يرى من جبل سلع مغيب الشمس ، وهو على ثلاثة أميال من المدينة .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥١٩ ، ٥٢٠ . والحديث رواه البخارى عن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما / ٢ / ٥ / ٢٤ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة / ٤ / ٣٢ / ١٨٧١ .

عمر – بعد حكاية ما تقدم – ويقال ابن أم مكتوم ، وقال : والثابت عندنا محمد ابن مسلمة ولم يتخلف عنه فى غزوة غيرها ، وقيل : على بن أبى طالب . قال أبو عمرو وتبعه ابن دحية : وهو الأثبت ، قلت : ورواه عبد الرزاق فى المصنف بسند صحيح عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ولفظه : أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى تبوك استخلف على المدينة على بن أبى طالب ، وذكر الحديث .

وأمر رسول الله ﷺ كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء وراية ، وأمر رسول الله ﷺ جيشه من الاستكثار من النعال ، وقال : « إن الرجل لا يزال راكباً مادام منتعلاً » . وأمر أبا بكر رضى الله عنه أن يصلى بمن تقدمه ﷺ[1] .

وكان هذا هو الدرس الأول .

فعلى رضى الله عنه حتى هذه اللحظة يعطى ولا يأخذ ، وهو الفدائى الأول فى كل معركة ، وحين خلَّفه رسول الله ﷺ فى المدينة ، لم يكن لدى المنافقين من حرج أن ينالوا من شخصه ويطعنوا فيه قائلين : ما خلَّفه إلا استثقالاً له ، وحتى يأخذ على رضى الله عنه أعلى وسام فى حياته ، مضى بسلاحه يشكو إلى رسول الله ﷺ المنافقين وأدركه عند الجرف ، مضى والهم يعتصر قلبه ، فإذا به يعطى أعلى وسام فى الدولة والأمة :

« أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، ولكن لا نبى بعدى » .

وسمع هذا القول : جل الصحابة . وتناقله الجيش كله .

لقد أخذ على رضى الله أعلى وسامين فى حياته ، بنفس المناسبة .

فقد خلَّفه فى مكة بعد الهجرة ، وأتى ليرى نفسه وقد فقد أعز ما حصل عليه المهاجرون والأنصار وهو الأخوة فى الله ، فقد التآخى الذى أعطى للصفوة من الأمة ، فعوضه عليه الصلاة والسلام بأعظم أخوة فى الوجود :

« أما ترضى أن تكون أخى فى الدنيا والآخرة » .

وفى التخلُّف الثانى الذى أمره به عليه الصلاة والسلام ، ولحق بنبيه مكروباً مما

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٨ .

يرجف المنافقون فعاد بأعلى وسام وأعلى قلادة :

« أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، ولكن لا نبى بعدى » .

وتتكرر الصورة ، فيقول موسى لهارون عليهما الصلاة والسلام :

﴿ **اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾[1] .

ويقول الرسول ﷺ لأخيه على رضى الله عنه :

« اخلفنى فى أهلى وأهلك » .

والذى فقده فقط رضى الله عنه منزلة النبوة ، أما الثقة وشد الأزر والشراكة فى الأمر ، فقد أعطيها على رضوان الله عليه .

ولا ننسى وسامه الثالث كذلك ، الذى ناله فى خيبر :

« لأعطين الراية غداً رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يجعل الله الفتح على يديه » .

وعرف الناس وعرفت الأمة من هذا الشاب ، الذى اختاره الرسول ﷺ لشراكته ولأخوته ولخلافته فى أهله .

وكانت الخطة العامة كما كانت فى الفتح ، هو توزيع القبائل والبطون خلف راياتها وألويتها ، ولابد من ذلك ، فالعدد الذى بلغ ثلاثين ألفاً أو أكثر ، لابد أن يتميز ، وحين تقع المعركة فيعرف المسلمون من أين يؤتون ، ويكون دور القائد فى القبيلة دور المسؤولية المباشرة عن قبيلته ، فى كل شىء .

ثم كانت الوصية فى الإكثار من النعال ، فالصحراء المترامية التى تتجاوز الألف ميل ، لا يكفيها نعل واحد ولا اثنان . وقد ينصهر الجندى فى هذه البيد ، لكن كيف ينتقل على الجمر إذا فقد نعله ؟

الطريق طويل ، والتجربة شديدة ، والتدريب عنيف ومستمر ، فلابد من الإعداد له .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٢ .

خروج رسول الله ﷺ وخروج ابن أبى :

قالوا : خرج رسول الله ﷺ فى رجب سنة تسع فعسكر ﷺ في ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً . قال ابن إسحاق، ومحمد بن عمر ، وابن سعد وروى الحاكم عن أبى زرعة قال : كانوا بتبوك سبعين ألفاً ، وجمع بين الكلامين بأن من قال ثلاثين ألفاً لم يعُدّ التابع ، ومن قال سبعين ألفاً عد التابع والمتبوع ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس ، وقيل بزيادة ألفين .

ولما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع عقد الألوية والرايات . فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصدّيق ، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى أبى دجانة ، ويقال إلى الحباب بن المنذر . وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواءً ، ورأى رسول الله ﷺ برأس الثنية عبداً متسلحاً ، فقال العبد : أقاتل معك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : « ارجع إلى سيدك لا تُقتل معى فتدخل النار » ، ونادى منادى رسول ﷺ : لا يخرج معنا إلا مُقو . فخرج رجل على بكر صعب ، فصرعه بالسويداء ، فقال الناس : الشهيد الشهيد فبعث رسول الله ﷺ منادياً : لا يدخل الجنة عاصٍ ، وكان دليله ﷺ إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعى رضى الله عنه[1] .

ونظرة إلى الجيش الأول الذى لاق المشركين فى بدر ، وإلى الجيش الأخير الذى تجاوز بدراً إلى تبوك لجلاد بنى الأصفر ، والزمن الذى طوى خلال ثمانى سنين، والتطور الضخم الذى شهدته هذه القوة الفتية فى الأرض العربية ، لنرى أن عدد الجيش قد تضاعف مائة مرة عما كان عليه فى بدر من الثلاثمائة إلى الثلاثين ألفاً ، وإلى سلاح الفرسان الذى تطور خمسة آلاف ضعف ، فانتقل من فرسين إلى عشرة آلاف فرس ، ليدل على هذه القوة النبوية التى انبعثت فى الوجود ولتواجه عتاة الأرض وطغاتها بما يكافئ هذه المواجهة عدداً أو عدة ، فلم يعودوا أكلة جزور – كما قال أبو جهل – بل أصبحوا يتحركون فتميد الأرض منهم .

وندع وصفهم إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه ، كما روى الواقدى عن رفاعة ابن ثعلبة بن أبى مالك عن أبيه عن جده قال :

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٨ ، ٦٣٩ .

(جلست مع زيد بن ثابت فذكرنا غزوة تبوك ، فذكر أنه حمل لواء بنى النجار فى تبوك ، فقلت : يا أبا سعيد ، كم ترى كان المسلمون ؟ قال : ثلاثون ألفاً ، لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مقيمون حتى يرحل العسكر ، فسألت بعض من كان بالساقة ،فقال: ما يرحل آخرهم إلا مساءً ، ثم نرحل على أثرهم فما ننتهى إلى العسكر إلا مصبحين من كثرة الناس)[1] .

هذا عن العدد ، فماذا عن النوعيات .

لقد تلقى الجيش الإسلامى درسين آخرين بعد الاحتفال بالوسام الأعلى لعلى رضى الله عنه ، وكان هذان الدرسان هما :

١ ــ ألا يخرج العبد إلى الحرب إلا بإذن سيده ، وإلا فيدخل النار ولو كان تحت لواء النبى ﷺ ، وذلك حتى لا تنتشر الفوضى ، فيهدم النظام كله .

٢ ــ **والدرس الثانى** : أن المعصية الفردية دقّت أوجلت ، تحول دون الجنة .

فقد أمر رسول الله ﷺ ألا يخرج أحد إلا على فرس أو جمل قوى ، فركب بعضهم على جمل فتى فصرعه ، ففرح الناس بشهادته ، وجاء الحكم القاطع :

« لا يدخل الجنة عاصٍ » .

إنه درس قاسٍ ورهيب فى الوقت نفسه ، فالمعصية تقود إلى النار ولو كانت ضئيلة ؛ لأن معصية رسول الله ﷺ هى معصية لله تعالى ، ولا تجتمع المعصية مع الجنة إلا بمغفرة الله تعالى ، مع أن رسول الله ﷺ سمح باعتقاب البعير لاثنين أو ثلاثة ، ولم يسمح بتلك .

وغنى عن البيان بعدها أن هذا المسير فى هذه البيد القفر لابد أن يكون معه دليل خبير فيها ، فكان الدليل علقمة بن الفغواء الخزاعى ومضى الجيش على بركة الله .

* * *

أولاً : أحداث على الطريق

١ ــ وروى الطبرانى عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ

---

(١) المغازى للإمام الواقدى / ٣ / ٩٩٦ .

لما مرَّ بالخليجة فى سفره إلى تبوك قال له أصحابه : المبرك يا رسول الله ، الظل والماء – وكان فيه دوم[1] – وماء فقال : « إنها أرض زرع نفر ، دعوها فإنها مأمورة – يعنى ناقته – » ، فأقبلت حتى بركت تحت الدومة التى كانت فى مسجد ذى المروة[2] .

٢ – قال أبو حميد الساعدي رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى جئنا وادى القرى[3] ، فإذا امرأة فى حديقة لها ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اخرصوا » فخرص القوم وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق ، وقال رسول الله ﷺ للمرأة : « احفظى ما يخرج منها حتى أرجع إليك إن شاء الله تعالى » ، ولما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك إلى وادى القرى قال للمرأة : « كم جاءت حديقتك » ؟ قالت : عشرة أوسق ، خرص رسول الله ﷺ . رواه ابن أبى شيبة والإمام أحمد ومسلم .

وقال محمد بن عمر : ولما نزل رسول الله ﷺ وادى القرى أهدى له بنو عريض اليهودى هريسة[4] فأكلها ، وأطعمهم أربعين وسقا[5] ، فهى جارية عليهم إلى يوم القيامة . قال محمد بن عمر : فهى جارية عليهم إلى الساعة .

٣ – روى الإمام مالك وأحمد والشيخان عن عبد الله بن عمر ، والإمام أحمد عن جابر والإمام أحمد بسند حسن عن أبى كبشة الأنمارى وابن إسحاق عن الزهرى أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحجر[6] تقنع بردائه وهو على الرحل ، فاتضع[7] راحلته حتى خلَّف أبيات ثمود ، ولما نزل هناك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، واستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنودى بالناس : الصلاة جامعة ، فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين

---

(١) دوم : شجر ضخم .
(٢) ذو المروة : مكان على ثمانية برد من المدينة – حوالى ٣٠٠ كم .
(٣) وادى القرى : يعرف اليوم بوادى العلا على بعد ٣٥٠ كم من المدينة .
(٤) الهريسة : سميت بذلك لأن البر الذى هى منه يدق ثم يطبخ .
(٥) الوسق : ستون صاعاً .
(٦) الحجر : ديار ثمود ، وهو واد يأخذ مياهه من جبال مدائن صالح ثم يصب فى وادى القرى ، والحجر رأس الوادى .
(٧) اتضع راحلته : أسرع بها .

أن يصيبكم ما أصابهم ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، واعلفوا العجين الإبل » ، ثم ارتحل بهم حتى نزل على العين التى كانت تشرب منها الناقة ، وقال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، سألوا نبيهم أن تُبعث آية ، فبعث الله تبارك وتعالى لهم الناقة . فكانت ترد هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب من مياههم يوماً ، ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله تعالى من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله تعالى » قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال » ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ؟ » ، فناداه رجل : تعجب منهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم فينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا ، فإن الله تعالى لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتى الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشىء ، وإنها ستهب عليكم اليوم ريح شديدة فلا يقومن أحد ، ومن كان له بعير فليوثق عقاله ، ولا يخرجنَّ أحد منكم اليوم إلا ومعه صاحب له » ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بنى ساعدة ، خرج أحدهما لحاجته ، والآخر فى طلب بعيره ، فأما الذى خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه – أى موضعه – وأما الذى خرج فى طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبل طيئ ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: « ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه » ، ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الآخر فإن طيئاً أهدته إلى رسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة.

٤ ـــ روى البيهقى عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب رحمه الله تعالى قال : خرج المسلمون إلى تبوك فى حر شديد فأصابهم يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها ويشربوا ماءها . فكان ذلك عسرة فى الماء ، وعسرة فى النفقة ، وعسرة فى الظهر .

وروى الإمام أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم عن عمر رضى الله عنه قال عمر : خرجنا إلى تبوك فى يوم قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن كان الرجل يذهب يلتمس الرجل ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، حتى إن كان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر ، يا رسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيراً ،

فادع الله تعالى لنا قال : « أتحب ذلك ؟ » ، قال نعم ، قال : فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت ،فملؤوا ما معهم . ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .. ونزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ ألا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ، ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقام فصلى ركعتين ، ثم دعا فأرسل الله تعالى سحابة ، فأمطرت عليهم حتى استقوا منها ، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق : ويحك قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ فأمطر الله علينا السماء فقال : إنما أمطرنا بنوءكذا وكذا فأنزل الله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾[1] .

ذكر ابن إسحاق أن هذه القصة كانت بالحجر وروى عن محمود بن لبيد عن رجال من قومه قال : كان رجل من المنافقين معروف بنفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار ، فلما كان من أمر الحجر ما كان ، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله تعالى السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة .

٥ــ روى ابن سعد بسند صحيح عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : لما كنا بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ﷺ لحاجته ، وكان إذا ذهب أبعد ، وتبعته بماء بعد الفجر – وفى رواية : قبل الفجر – فأسفر الناس بصلاتهم ، وهى صلاة الفجر حتى خافوا الشمس ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فصلَّى بهم ، فحملت مع رسول الله ﷺ إداوة فيها ماء ، وعليه جبة رومية من صوف ، فلما فرغ صببت عليه فغسل وجهه ، ثم أراد أن يغسل ذراعيه ، فضاق كمُّ الجبة فأخرج يديه من تحت الجبة فغسلها ، فأهويت لأنزع خفيه فقال : « دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما ، فانتهينا إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقد ركع ركعة فسبح الناس لعبد الرحمن بن عوف حين رأوا رسول الله ﷺ حتى كادوا يفتتنون ، فجعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اثبت ، فصلى رسول الله ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف ركعة ، فلما سلَّم عبد الرحمن بن عوف تواثب الناس ، وقام رسول الله ﷺ يقضى الركعة الباقية ، ثم سلم بعد فراغه منها ثم قال :

---

(١) سورة الواقعة : ٨٢ .

« أحسنتم – أو قد أصبتم – فغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها – إنه لم يُتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » ورواه مسلم بنحوه .

٦ ــ عن سهيل بن بيضاء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أردفه على رحله فى غزوة تبوك ، قال سهيل : ورفع رسول الله ﷺ صوته : « يا سهيل » كل ذلك يقول سهيل : يا لبيك يا رسول الله – ثلاث مرات – حتى عرف الناس أن رسول الله ﷺ يريدهم فانثنى عليه من أمامه ، ولحقه من خلفه من الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « من يشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له حرَّمه الله على النار » أحمد والطبرانى ومحمد بن عمر[1] .

* * *

١ ــ هذه الآلاف المؤلفة التى أسعدها الله تعالى بأن تلتقى مع رسول الله ﷺ ، وبعضها لأول مرة ، وترافقه فى سفر ، هى بحاجة إلى أن تتلقى من هذا المعين النبوى ما يروى ظمأها ، وما يثبت إيمانها وعقيدتها ، وظهــور جانب من المعجزات النبوية فى هذه الرحلة العظيمة ، إنما ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض ، فهذه الناقة ابتداءً مأمورة تسير بالتوجيه الربانى لها : « دعوها فإنها مأمورة » ، ويجلس الناس تحت الظل والماء فى أول الطريق ، والجلوس والراحة بأمر النبى ﷺ فلا يجلسون حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام ، وهو لا يجلس حتى تجلس ناقته بأمر ربها .

٢ ــ والحادث العابر مع المرأة صاحبة الحديقة ، وخرص رسول الله ﷺ النخل كما خرصه غيره .. ويكون التقدير النبوى هو الأصح بين كل التقديرات الأخرى – عشرة أوسق – يعطينا درساً خاصاً نحن الدعاة – كثيراً ما تجاوزنا الأدب فيه .

لقد تداولنا كثيراً الحديث الصحيح عن تأبير النخل ، ووقفنا عند قوله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » لنصل منه أحياناً إلى أن أمور الدنيا قد نكون أعلم بها من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبنينا على ذلك أن نترك أموراً تحت هذه الذريعة .

إن عملية البناء التربوى للمسلم تقتضى ألا يكون الشغل الشاغل لرسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد / ٦٤٣ – ٦٤٩ . مقتطفات .

ﷺ هو التوجيهات لعمل أصول الزراعة ، وفنون البناء والعمارة ، وطرائق التجارة ، فهذه متروكة للمسلم يمارسها وتتكون الخبرة عنده فيها ، فليست هذه رسالة النبى لأمته ، إنما رسالته هى بناؤه فكرياً وخلقياً وعقلياً ودينياً ، فلذلك جاء الحديث : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، حتى لا يكون الانشغال فى أمور المعيشة والرزق والأرض الشغل الشاغل لسيد الخلق ، إنما يريد من صحابته أن ينصب اهتمامهم خلال لقائهم معه على فقه أمور دينهم ، وكيف يحكم دنياهم ، لا أن الرسول ﷺ جاهل فى هذه الأمور ، فهو أكمل الخلق فى كل شيء ، والبصر الثاقب ، والبصيرة الواعية ، لن يؤتاها أحد أكثر منه ، ومن أجل ذلك جاء تقديره بعشرة أوسق هو الأصح من التقديرات الأخرى كلها ، ولئن كان حدث تأبير النخل وحيداً فى السيرة ليفقه الناس من خلاله ألا يشغلوا نبيهم بأمور دنياهم ، وليس الهدف منه إثبات حسن الوعى والبصيرة عند المختصين ، ونقصه عند الرسول عليه الصلاة والسلام ، لقد زرع الفسائل بيده عليه الصلاة والسلام ، فأثمرت وأينعت واخضوضرتبينما يبس ما لم تمسه يد النبوة ، فهو الذى يملك الكمالات البشرية كلها فى هذا الوجود ، ولكن مهمته عليه الصلاة والسلام التى خلقه الله من أجلها هى أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

ومما يؤسف أن حادث تأبير النخل ، أخذه فريق من المسلمين دليلاً على أن رسول الله ﷺ يخطئ ، وراح يمعن فى هذا التجاوز حتى يأخذ ويدع من رسول الله ﷺ كما يحب تحت هذا الستار ، لقد كان هذا الحادث وأمثاله فقط ، هو لإثبات بشرية الرسول ﷺ ، حتى لا يرفعه الناس إلى مقام الألوهية من مقام العبودية ، وما دون ذلك ، فهو عليه الصلاة والسلام انتهت له قمة الفهم، وقمة العقل ، وقمة الوعى ، وقمة الإخلاص .

إنما مثلوا صفاتك للناس   كما مثل النجوم الماء

٣ ــ وحتى يتربى الجيش المسلم على التعايش مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كان هذا التبادل مع يهود أهــل القرى ، بأن أكل الهريسة منهم ، وأطعمهم أربعين وسقا ، لا تزال جارية عليهم إلى يوم القيامة ببركة الرسول ﷺ .

٤ ــ وكانت المحنة الكبرى للجيش المنتشر فى الصحراء ، فالعطش يقطع

الأعناق ، ويذبح الصدور ، ووصلوا إلى الحجر حيث الآبار المنتشرة ، والماء الزلال ، وجاء الأمر النبوى الصارم : « لا تشربوا من مائها » ، وذلك بعد أن نادى بالصلاة جامعة ، حتى يصل النداء إلى كل ذى سمع ويبلغ إلى كل جندى ، وهل هناك من محنة أعظم من هذه المحنة ، الماء موجود ، والعطش يفتك بالنفوس ، والأوامر بحظر الشرب قائمة ، وحظر الوضوء كذلك .

وحتى تبلغ المحنة مداها كذلك ، فالعجين الذى عجن بمائها ، يحظر أكله ، ويعلَّف للإبل .

وكانت تجربة فذة فريدة عنيفة ، فلم ترو كتب السيرة عن مخالفة واحدة تمت بعد إصدار الأمر ، وفى الجيش منافقون ، لكن روح الالتزام الجماعية التى سرت فى الجيش جعلت ضعاف النفوس لا يجرؤون على المخالفة ، رغم أن العطش ذبحهم ، ويترك العجين للإبل فلا يؤكل .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ... ﴾ .

لقد كانت المخالفة شاملة إلا من عصم اللّه وتجاوز معه النهر ، بينما نرى فى هذه الأمة الفتية أنه لم تصدر مخالفة واحدة ، مع جيل جديد انضم أكثره بعد الفتح إلى الإسلام .

وتعلم الجنود فى هذا الدرس القاسى مفهوم الصبر والمصابرة على الجوع والعطش ، ومفهوم الطاعة والالتزام من خلال الواقع الحى لا من خلال المفهوم النظرى وفى أعمق أبعاده ، فى عطش لا كالعطش حيث وصفه عمر رضى الله عنه بأن ينحر الرجل بعيره ، ويعصر فرثه ، ويشربه ويضعه على كبده فى القيظ الشديد ، وفى حر الهاجرة ، وفى البيد المترامية الأطراف ، حيث لا ظل يقى من اللهب . إن هذا الجيل معد ليفتح الأرض ، فلذلك لابد أن يتلقى أعنف التدريبات على المواجهة وعلى الصبر وعلى الحرمان ، وكان على مستوى هذا الامتحان .

٥ ــ وحين نجح فى امتحانه ، وأعلف العجين الإبل ، وامتنع عن الشرب من آبار الحجر ، كانت المعجزة الربانية الجديدة لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وبطلب من الوزير الأول فى الإسلام ، من أبى بكر رضى الله عنه ، أن يسقيهم اللّه تعالى فى هذه

الفلاة من الأرض ودعا النبى ﷺ وقالت السماء وانهمر المطر ، وارتمى العطاش على الماء يشربون ويملؤون آنيتهم ويبردون أكبادهم ، ويذوقون نعيم الالتزام والطاعة ، فترتوى أجسادهم بالماء ، وترتوى قلوبهم باليقين ، وأفئدتهم بالإيمان ، ويشهدون المعجزة العظيمة بالدعاء النبوى الخالد ، ويراكض بعضهم ليرى حدود هذا الغيث ، فلا يراه يتجاوز العسكر ، إنه الغيث لجند الله فى هذه الأرض القفر بدعاء أمير الجند محمد عليه الصلاة والسلام .

٦ ــ وكان امتحاناً من نوع آخر للذين فى قلوبهم مرض ، وقد رأوا المعجزة عياناً ، ماثلة أمامهم ، وذكّروا من إخوانهم ، فماذا كان الجواب :

سحابة مرة فأمطرت أو سقينا بنوء كذا .

وكان الحكم عليهم يتناسب بعد أن بدت الآيات بينات ، وبعد أن ﴿ **جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا** .. ﴾[1] أن يقال لهم: إنهم كافرون بالله ورسوله، وإن كان هذا الأمر سبق وتكرر معهم فى الحديبية كذلك .

وقال مالك فى الموطأ عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فى الحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب». أخرجاه في الصحيحين وأبو داود والنسائى كلهم من حديث مالك[2] .

وللحديث عن المنافقين مجال طويل سيأتى فيما بعد .

٧ ــ والموقف مع الذين ظلموا أنفسهم ، ذو دلالة قوية ، فقد مر عليه الصلاة والسلام متقنعاً بثوبه ، وأسرع براحلته ، ودعا ألا يمروا حولهم إلا باكين أو متباكين ، خشية أن يصيبهم ما أصابهم ، إن هذا الموقف الحى الذى دعا رسول الله ﷺ أمته له ، هو فقه حقيقى عملى لسنن الله فى الأمم والمجتمعات ، هذه السنن التى لا تتخلف حتى مع هذه الأمة حين تخرج عن منهج الله ، فينزل بها غضب الله وسخطه ، وينزل بها عذابه وعقوبته .

---

(١) سورة النمل : ١٤ .   (٢) تفسير ابن كثير / ٥ / ٥٣٨ .

والتعامل الحي مع هذه السنن هو الذى دعا القرآن الكريم إليه :

﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[1] .

وفرق كبير بين أجيال الأرض الذين تستهويهم اليوم الآثار ، فيعيدون تشييد تلك المعابد أو البيوت ، ويتباهون بها كمصدر غنى للسياحة ، ويفتخرون بهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فيقيمون التماثيل لهم ، ويدرّسون أمجادهم فى الكتب والصحف ووسائل الإعلام ، وبين الأمة التى تمر عليهم والوجل يملأ قلبها ، والدمع يبلل عيونها ، والموعظة تملك عليها وجودها . وديار ثمود بالذات ، قد أشار القرآن الكريم إليها مرات ومرات ، ونعى على المشركين أنهم يمرون عليها لاهين عابثين ولا يمرون باكين متعظين:

﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾[2] .

وحين تعلل بعض الصحابة أن الداعى إلى التملى والوقوف فى الحجر هو التعجب مما نزل بهم ، وجه الرسول ﷺ الأنظار إلى الأعجب والأعظم ، وجه الأنظار إلى نبوته عليه الصلاة والسلام ، وهو من العرب أنفسهم ، وهذا المنُّ العظيم الذى منَّ الله تعالى به على المؤمنين ، وأن أى خلل عن المنهج الربانى وكفر بنعمة النبوة المحمدية ، يقود إلى غضب الله عز وجل : **﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾**[3] .

« فاستقيموا وسددوا ، فإن الله تعالى لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتى الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشىء » .

٨ ــ وكانت الأوامر النبوية بعدها: «وإنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقومنَّ أحد، ومن كان له بعير فليوثق عقاله، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له» .

ثلاثة أوامر محددة وجهت إلى الجيش مع اشتداد الريح فى الليل، وحمل الليل مخالفتين فى ثلاثين ألفاً فقط، رجل خرج وحده لحاجته، ورجل خرج وحده يطلب بعيره، فنالا عقاب المخالفة مباشرة، أن حمل أحدهما لجبلى طيئ بالريح، وخنق الآخر على مذهبه، فكانت نسبة المخالفة واحداً إلى خمسة عشر ألفاً. وهذا هو مستوى الجيش الإسلامى .

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ . (٢) سورة الفرقان : ٤٠ . (٣) سورة الأنفال : ٣٣ ، ٣٤ .

لابد من الإشارة إلى أن المنافقين منبثون فى هذا الجيش ، ولم تظهر مخالفات منهم فى هذا المجال حرصاً على إخفاء دورهم الذى كلفوا به فى الغزوة ، وليس حرصاً على تنفيذ الأوامر ، ولذلك لابد أن نضع فى الحسبان هذه المستويات ، حين نتحدث عن وضع هذا الجيش .

٩ ـ ومن الدروس العظيمة التى تلقاها الجيش النبوى فى تبوك درس اقتداء سيد الخلق بجندى من جنوده ، وهو عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، ونلحظ من موضوع الصلاة ابتداء ، مدى الوعى العظيم الذى بلغه جيش النبوة أن يقيم الصلاة ويصلى حفاظاً عليها فى وقتها ، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، وإنها الأمة الراشدة التى ارتبطت بالله رب العالمين ، فلا تفرط فى صلاتها حين ترى رسولها ﷺ يتأخر لعذر ، ويتحدث عليه الصلاة والسلام عن إيجابيات هذه الأمة ، وعن إكرام الله تعالى لها : « إنه لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » ، وبوركت يابن عوف أن نلت هذه المكرمة على ملأ من الأمة ، والأمة كلها شهود ، فكانت هذه أعظم أوسمة عبد الرحمن بعد أن بشره رسول الله ﷺ بالجنة ، فكان واحداً ، من عشرة من عظماء هذه الأمة .

١٠ ـ وكان الدرس الأخير على الطريق ، حين نادى رسول الله ﷺ سهيل ابن بيضاء وهو مردفه خلفه ، بصوت عالٍ عرف المسلمون من هذا النداء أن رسول الله ﷺ يود أن يبلغهم أمراً من أوامر دينهم أو دنياهم ، فاجتمعوا ليتلقوا أسعد الدروس : « من يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له حرَّمهُ الله على النار » ، وذلك ليفصل فصلاً تاماً بين هذه الأمة ، وبين العودة إلى أى مظهر من مظاهر الوثنية والشرك فيها من جديد ، فلا يمكن أن تجتمع الجنة والشرك بالله أبداً .

والفقهاء – من خلال النصوص المتعددة – على أن القصد هنا لا يخلد فى النار ، وذلك حسب النص الصحيح الذى رواه الأئمة : « يخرج من النار من قال لا إلٰه إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إلٰه إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إلٰه إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة »[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى والترمذى .

وكان من ضرورة هذا الدرس الربط بينه وبين الدرس السابق الذى تلقوه من قبل حين قتل الذى خالف أمر رسول الله ﷺ فى الخروج على الدابة القوية :

فأمر منادياً ينادى : « لا يدخل الجنة عاصٍ » .

حيث يفقه الأمر بعدها أنه لا يدخل الجنة عاصٍ مالم يعاقب على معصيته إن لم يغفرها الله تعالى له وذلك للربط بين الأحاديث الصحيحة الأخرى التى تنفى دخول الجنة عن القتات والعاق ومدمن الخمر ، ومن لا يأمن جاره بوائقه وقاطع الرحم وغير ذلك ، فهؤلاء يتلقون عذابهم فى النار ثم يخرجون إلى الجنة بشهادة أن لا إلـٰه إلا الله .

لقد جاء قول الرسول ﷺ : « لا يدخل الجنة عاصٍ » حين قال الناس : الشهيد الشهيد . فكان لابد أن يثبت فى حسهم أن الشهادة ، التى تقتضى أعلى المنازل فى الجنة ، لا تساق لعاصٍ صريح لأمر الله ورسوله ، وأمر قائده ، فلابد أن يلقى جزاء عصيانه ، وبعدها يتوب الله عليه بما فى قلبه من إيمان .

إن هذه المسيرة هى بناءٌ فى العقائد وبناءٌ فى السلوك ، وبناء فى التربية لأكبر تجمع إسلامى ، قد لايمكن جمعه إلا فى هذه الصحراء .

* * *

ثانياً : فى المقام فى تبوك

١ ـــ روى الإمام مالك وابن إسحاق ومسلم عن معاذ بن جبل ، والإمام أحمد برجال الصحيح عن حذيفة رضى الله عنهما ، قال معاذ : إنه خرج مع رسول الله ﷺ عام تبوك قال : فكان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، قال : فأخَّر الصلاة يوماً ، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً ثم قال :

« إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى » ، وفي حديث حذيفة : بلغ رسول الله ﷺ أن فى الماء قلة ، فأمر منادياً ينادى فى الناس : « ألا يسبقنى إلى الماء أحد » قال : فجئناها وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبض بشىء من

مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مسستما من مائها شيئاً ؟ » قالا : نعم ، فسبهما ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شن ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ومضمض ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير – ولفظ ابن إسحاق : فانخرق الماء حتى يقول من سمعه : إن له حساً كحس الصواعق وذلك الماء فوارة تبوك – فاستسقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا ملىء جناناً » .

٢ ـــ المسجد والخطبة :

قال شيوخ محمد بن عمر : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجراً قبلة مسجد تبوك ، وأومأ بيده إلى الحجر وما يليه ، ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال :

« ما ها هنا شام ، وما ها هنا يمن » .

وروى الإمام أحمد : خطب رسول الله ﷺ عام تبوك وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال : « ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس : إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه – أو ظهر بعيره – أو على قدميه حتى يأتيه الموت ، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله ولا يرعوى إلى شىء منه » .

وروى البيهقى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لماأصبح بتبوك حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أيها الناس ، أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، هذا وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضُر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم خطايا اللسان الكذب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخير ما وقر فى

القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر . والنياحة من أعمال الجاهلية ، والغلول من جُثى جهنم ، والسكركة[1] من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله عز وجل ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتأل على الله يكذّبه ، ومن يغفر يُغفر لـه ، ومن يعف يعفُ عنـه ، ومن يكظم الغيظ يأجـره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمِّع الله به ، ومن يصبر يضعف له الأجر ، ومن يعص الله يعذّبه الله ، اللهم اغفر لى ولأمتى – قالها ثلاثاً – أستغفر الله لى ولكم »[2] .

وروى الواقدى عن شيوخه قال : **غزوة أكيدر** :

قالوا : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل – وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً – فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لى به وسط بلاد كلب ، وإنما أنا فى أناس يسير ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ستجده يصيد البقر فتأخذه » ، قال : فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين فى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر من كندة ، وصعد على ظهر الحصن من الحر ، وقينته تغنيه ، ثم دعا بشراب فشرب . فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، فأقبلت امرأته الرباب فأشرفت على الحصن فرأت البقر ، فقالت : ما رأيت كالليلة فى اللحم ! هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ! ثم قالت : من يترك هذا ؟ قال : لا أحد ! قال : يقول أكيدر : والله ما رأيت جاءتنا ليلة بقرٌ غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً أو أكثر ، ثم أركب بالرجال والآلة.

فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وأمر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل

---

(١) السكركة : شراب الذُّرة. (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٠ – ٦٥٢ .

بيته ، معه أخوه حسان ومملوكان ، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما فصلوا من الحصن ، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان ، فقاتل حتى قتل ، وهرب المملوكان ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن ، وكان على حسان قباء مخوَّص بالذهب فاستلبه خالد ، فبعثه إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذ أكيدر .. وقد كان رسول الله ﷺ قال لخالد بن الوليد :«إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى ، فإن أبى فاقتلوه» فطاوعهم ، فقال بجير بن بجرة من طيئ يذكر قول النبى ﷺ لخالد : « إنك تجده يصيد البقر » وما صنع البقر تلك الليلة بباب الحصن تصديق قول رسول الله ﷺ فقال شعراً :

تبارك سائق البقرات إنى ... رأيت الله يهدى كل هاد
ومن يك عاندا عن ذى تبوك ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

وقال خالد بن الوليد لأكيدر : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لى دومة ؟ قال : نعم ، ذلك لك . فلما صالح خالد أكيدر ، وأكيدر فى وثاق ، انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ، ونادى أكيدر أهله : افتحوا باب الحصن ؛ فرأوا ذلك ، فأبى عليهم مصاد أخو أكيدر ، فقال أكيدر لخالد : تعلم والله لا يفتحون لى ما رأونى فى وثاق ، فخلِّ عنى فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتنى على أهله قال خالد : فإنى أصالحك . فقال أكيدر : إن شئت حكمتُك وإن شئت حكمتنى ، قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت . فصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهما حكمه ، فلما قاضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح الحصن ، فدخله خالد وأوثق أخاه مصاداً أخا أكيدر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح ، ثم خرج قافلاً إلى المدينة ، ومعه أكيدر ومضاد ، فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه ، وخلَّى سبيلهما ، وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم وختمه يومئذ بظفره .

قال الواقدى : (حدثنى شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب له هذا

الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها ، وإن لنا الضاحية من الضحل[1] ، والبور[2] والمعامي[3] وأغفال الأرض[4] ، والحلقة والسلاح والحافر[5] والحصن . ولكم الضامنة من النخل[6] ، والمعين[7] من المعمور بعد الخمس ، لا تعدل سارحتكم ولا تعدُّ فاردتكم[8] ، ولا يحظر عليكم النبات[9] ولا يؤخذ منكم عشر البتات[10] ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصّدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

قالوا : وأهدى له هدية فيها كسوة ، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً آمنهُ فيه وفيه الصلح ، وآمن أخاه ، ووضع عليه فيه الجزية ، فلم يك فى يد النبى خاتم فختمه بظفره[11] .

٣ ـ مصالحة ملك إيلة وأهل جربا وأذرح :

لما بعث رسول اللّه ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بدومة ، أشفق ملك إيلة ابن رؤبة أن يبعث إليه رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، فقدم على النبى ﷺ ، وقدم معه أهل جربا وأذرح ومقنا ، وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة . قال أبو حميد الساعدى رضى الله عنه : قدم على رسول الله ، فأهدى إلى رسول الله بغلة بيضاء وكساه رسول الله ﷺ بُرداً ، وكتب له رسول الله ﷺ ببحرهم ، رواه ابن أبى شيبة والبخارى[12] .

(وروى ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، ومسلم عن أبى حميد الساعدى رضى

---

(١) الضحل : الذى فيه الماء القليل .
(٢) البور : ما ليس فيه زرع .
(٣) المعامى : ما ليست له حدود معلومة .
(٤) أغفال الأرض : مياه .
(٥) الحافر : الخيل .
(٦) الضامنة من النخل : النبات من النخل .
(٧) المعين : الماء الظاهر .
(٨) لا تعد فاردتكم : لا يعد ما يبلغ أربعين شاة .
(٩) لا يحظر عليكم النبات : لا تمنعوا من أن تزرعوه .
(١٠) البتات : المتاع ليس عليه زكاة .
(١١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٢٥ – ١٠٢٨ . ورواه ابن إسحاق قريباً من هذا / ٢ / ٥٢٦ ، ٥٢٧ .
(١٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

الله عنه قال : جاء ابن العلماء وصاحب إيلة إلى رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء فكتب له رسول الله ﷺ وأهدى له برداً)[1] .

وعند الواقدى عن شيوخه :

(وكانت دومة وإيلة وتيماء قد خافوا النبى ﷺ ، لما رأوا العرب قد أسلمت ، وقدم يُحنَّة بن رؤبة على النبى ﷺ ، وكان ملك إيلة ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، وأقبل معه أهل جربا وأذرح ، فأتوه فصالحهم فقطع عليهم الجزية ، جزية معلومة ، وكتب لهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ﷺ ليحنّة بن رؤبة وأهل إيلة لسفنهم وسائرهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيِّب لمن أخده من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا مـاءً يريدونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ، هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ » .

وروى عن جابر بن عبد الله قوله : رأيت يُحنة بن رؤبة يوم أُتى به إلى النبى ﷺ عليه صليب من ذهب ، وهو معقود الناصية ، فلما رأى النبى ﷺ كفّر وأومأ برأسه فأوما إليه النبى ﷺ أن ارفع رأسك ! وصالحه يومئذ ، وكساه رسول الله ﷺ بُرداً يمنية. وأمر له بمنزل عند بلال .

وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب : « من محمد النبى رسول الله لأهل أذرح ؛ أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم » .

قالوا : وكتب لأهل مفنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم)[2] .

٤ ـ بين الرسول ﷺ وهرقل :

لما وصل رسول الله ﷺ تبوك كان هرقل بحمص ، ولم يكن يُتّهم بالذي بلغ رسول الله ﷺ عنه من جمعـه ، ولا حدثته نفسه بذلك .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥/ ٦٦٢ ، ٦٦٣ .
(٢) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٣١ – ١٠٣٣ ، وقد أشار لها ابن إسحاق فى السيرة / ٢ / ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

وروى الحارث بن أسامة عن بكر بن عبد الله المزنى قال : قال رسول الله ﷺ: « من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر وله الجنة ؟ » ، فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : « وإن لم يقبل » ، فانطلق الرجل بالكتاب فقرأه ، فقال : اذهب إلى نبيكم فأخبره أنى متبعه ولكن لا أريد أن أدع ملكى ، وبعث معه بدنانير إلى رسول الله ﷺ ، فرجع فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب » وقسم الدنانير .

وروى الإمام أحمد ، وأبو يعلى بسند حسن لا بأس به عن سعيد بن أبى راشد قال : لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص ، وكان جاراً لى شيخاً كبيراً قد بلغ (المائة) ، أو قرب ، فقلت : ألا تحدثنى عن رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل ! فقال : بلى .

قدم رسول الله ﷺ تبوك ، فبعث دحية الكلبى إلى هرقل ، فلما أن جاء كتاب رسول الله ﷺ ، دعا قسيسى الروم وبطارقتها ، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم . وقد أرسل يدعونى إلى ثلاث خصال : أن أتبعه على دينه ، أو أن أعطيه ما لنا على أرضنا والأرض أرضنا ، أو نلقى إليه الحرب ، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن أرضنا فهلُمَّ فلنتبعه على دينه أو نعطه مالنا على أرضنا . فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا: تدعونا أن نذر النصرانية ، أو نكون عبيداً لأعرابى جاء من الحجاز ؟ فلما ظن إنهم إذا خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رقاهم ولم يكد وقال : إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم .

ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب قال : ادع لى رجلاً حافظاً للحديث عربى اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاءنى فدفع إلى هرقل كتاباً ، فقال :

اذهب بكتابى هذا إلى هذا الرجل ، فما سمعته من حديثه فاحفظ لى منه ثلاث خصال : هل يذكر صحيفته التى كتب بشىء ؟ وانظر إذا قرأ كتابى هذا هل يذكر الليل ؟ وانظر فى ظهره هل فيه شىء يريبك ؟

قلت : فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً ، فإذا هو جالس بين ظهرى أصحابه محتبياً على الماء فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل : ها هو ذا ، فأقبلت أمشى حتى جلست

بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ثم قال : « ممن أنت ؟ » فقلت : أنا أخو تنوخ ، فقال : « هل لك فى الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم ؟ » ، فقلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم ، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم ، فضحك فقال « ﴿**إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾[1] يا أخا تنوخ ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزّقه ، والله ممزّقه وممزّق ملكه ، وكتبت إلى النجاشى بصحيفة فمزقها ، والله ممزّقه وممزق ملكه ، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً مادام فى العيش خير » .

قلت : هذه إحدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت سهماً من جعبتى فكتبتها فى جفن سيفى ، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره ، قلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية ، فإذا فى كتاب صاحبى : تدعونى إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين . فأين النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ » ، فأخذت سهماً من جعبتى فكتبته فى جفن سيفى ، فلما فرغ من قراءة كتابى قال : « إن لك حقاً ، وإنك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوَّزناك بها ، إنَّا سُفر مرملون » ، قال قتادة : فناداه رجل من طائفة الناس قال : أنا أجوّزه . ففتح رحله . فإذا هوبحلة صفورية فوضعها في حجرى، قلت : من صاحب الجائزة ؟ قيل لى : عثمان ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أيكم ينزل هذا الرجل ؟ » ، فقال فتى من الأنصار : أنا ، فقام الأنصارى وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله ﷺ فقال : « تعال يا أخا تنوخ » ، فأقبلت أهوى حتى كنت قائماً فى مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحلَّ حبوته وقال : « ها هنا امض لما أُمرت له » ، فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة فى موضع غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة[2] .

قال محمد بن عمر : فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى التصديق بالنبى ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه وهو فى موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذى خبر النبى ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوه إلى وادى الشام

---

(١) سورة القصص : ٥٦ .

(٢) المحجمة الضخمة : قارورة الحجام .

لم يرد ذلك ولا همَّ به .

وذكر السهيلى : أن هرقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية ، فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وفرَّقها على المسلمين .

ثم إن هرقل أمر منادياً ينادى : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره ، تريد قتله ، فأرسل إليهم : إنى أردت أن أختبر صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت عنكم ، فرضوا عنه ، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً مع دحية يقول فيه : إنى معكم ، ولكنى مغلوب على أمرى ، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال : « كذب عدو الله ، وليس بمسلم ، بل هو على نصرانيته »[1] .

٥ ــ ذكر صلاته ﷺ على معاوية المزنى :

روى الطبرانى فى الكبير والأوسط عن معاوية بن أبى سفيان ، وابن سعد والبيهقى عن أنس رضى الله عنهم قالوا :

(كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك ، قال أنس : فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل ، ما لى أرى الشمس اليوم طلعت بيضاء ، وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ؟ » قال : « ذلك معاوية بن معاوية المزنى مات بالمدينة اليوم فبعث الله تعالى سبعين ألف ملك يصلون عليه ، فهل لك فى الصلاة عليه ؟ » ، قال : « نعم » ، فخرج رسول الله ﷺ يمشى ، فقال جبريل بيده هكذا ، يفرِّج له عن الجبال والآكام ، ومع جبريل سبعون ألف ملك ، فصلى رسول الله ﷺ ، وصّف الملائكة خلفه صفين ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبريل : « بم بلغ هذه المنزلة » ، قال : « بحبه قل هو الله أحد يقرأها قائماً أو قاعداً أو راكباً أو ماشياً وعلى كل حال » . قال الحافظ فى لسان الميزان فى ترجمة محبوب بن هلال : هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها ببعض، وقال فى فتح البارى فى باب الصفوف على الجنازة : إنه خبر قوى بالنظر إلى مجموع طرقه ، وقال فى اللسان فى

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٧ ، ٦٥٨ . وهو عند الإمام أحمد / ٣ / ٤٤١ وقال ابن كثير عنه : تفرد به الإمام أحمد وإسناده لا بأس به .

ترجمة نوح بن عمر : طريقه أقوى طرق الحديث . وأورد الحديث النووى فى الأذكار فى باب « الذكر فى الطريق » ، فعلم من ذلك ردُّ قول من يقول : إن الحديث موضوع لا أصل له)[1] .

٦ ــ ذكر صلاته على ذى البجادين رضى الله عنه :

روى ابن إسحاق ، وابن منده عن ابن مسعود رضى الله عنه ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

كان عبد الله ذو البجادين من مزينة ، مات أبوه وهو صغير فلم يورّثه شيئاً ، وكان عمه مَيّلا[2] فأخذه فكفله حتى كان قد أيسر ، وكانت له إبل وغنم ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ولا يقدر عليه من عمّه ، حتى مضت السنون والمشاهد كلها ، فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعاً إلى المدينة ، فقال عبد الله ذو البجادين لعمّه : يا عم ، قد انتظرت إسلامك ، فلا أراك تريد محمداً ، فائذن لى فى الإسلام ، فقال : والله لئن اتبعت محمداً لا تركت بيدك شيئاً كنت أعطيتكه إلا انتزعته منك حتى ثوبيك ، فقال : وأنا والله متبع محمداً ومسلم وتارك عبادة الحجر والوثن ، وهذا ما بيدى فخذه ، فأخذ كل ما أعطاه حتى جرده من إزاره ، فجاء أمه ، فقطعت بجاداً[3] لها باثنين ، فاتزر بواحد وارتدى الآخر ، ثم أقبل إلى المدينة فاضطجع فى المسجد ، ثم صلى مع رسول الله ﷺ الصبح ، وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه فأنكره ، فقال : « من أنت ؟ » فانتسب له ، فقال : « أنت عبد الله ذو البجادين » ثم قال : « انزل منى قريباً » ، فكان يكون فى أضيافه ويعلمه القرآن ، حتى قرأ قرآناً كثيراً ، وكان رجلاً صيتاً ، فكان يقوم فى المسجد فيرفع صوته فى القراءة ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع هذا الأعرابى يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة : فقال رسول الله ﷺ: «دعه ياعمر ، فإنه قد خرج مهاجراً إلى الله تعالى وإلى رسوله » ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك قال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى لى بالشهادة ، فقال : « أبلغنى بلحاء سمرة »[4] ، فأبلغه بلحاء

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٦ . (٢) ميلاً : ذا مال .

(٣) البجاد : الكساء الغليظ الجافى .

(٤) لحاء سمرة : قشر شجرة السمرة ليكتب عليه .

سمرة ، فربطها رسول الله ﷺ على عضده ، وقال : « اللهم إنى أحرّم دمه على الكفار » ، فقال : يا رسول الله ، ليس هذا أردت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك إذا خرجت غازياً فى سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، وإذا وقصتك دابتك فأنت شهيد لا تبالى بأية كان » .

فلما نزلوا تبوك أقاموا بها أياماً ، ثم توفى عبد الله ذو البجادين ، فكان بلال ابن الحارث المزنى يقول : حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر ، واقفاً بها ، وإذا رسول الله ﷺ فى القبر ، وإذا أبو بكر وعمر يدليانه إلى رسوله الله ﷺ وهو يقول : « أدنيا لى أخاكما » ، فلما هيأه لشقه فى اللحد قال : « اللهم إنى قد أمسيت عنه راضياً فارض عنه » .

فقال ابن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب اللحد .

٧ ـــ معجزاته ﷺ فى الطعام :

أ ـــ وروى الطبرانى برجالٍ وُثّقوا ، وأبو نعيم عن محمد بن حمزة بن عمر الأسلمى عن أبيه عن جدّه رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك . وكنت على خدمته (فى) ذلك ، فنظرت إلى نحى[١] السمن قد قلَّ ما فيه ، وهيأت للنبى ﷺ طعاماً فوضعت النحى فى الشمس . ونمت . فانتبهت بخرير النحى . فقمت فأخذت رأسه بيدى ، فقال رسول الله ﷺ ورآنى : « لو تركته لسال الوادى سمناً » .

ب ـــ ذكر الآية فى التمر والأقط : (روى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : قال رجل من بنى سعد بن هذيم : جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك فى نفر فقال : « يا بلال ، أطعمنا » ، فبسط بلال نطعًا[٢] ، ثم جعل يخرج من حميت[٣] له ، فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بسمن وأقط ، فقال رسول الله ﷺ : « كلوا » ، فأكلنا حتى شبعنا ، فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لآكل هذا وحدى ، فقال رسول الله ﷺ : « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل فى معى واحد » ، ثم جئت من الغد متحيناً لغدائه لأزداد فى الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة نفر

---

(١) نحى السمن : سقاء السمن وجمعه أنحاء .

(٢) النطع : المتخذ من الأديم . (٣) حميت : وعاء السمن .

حوله فقال : « هات أطعمنا يا بلال » فجعل يخرج من جراب تمراً بكفه قبضة ، فقال : « أخرج ولا تخش من ذى العرش إقلالاً » . فجاء بالجراب ونشره ، فقال : فحزرته مدّين ، فوضع رسول الله ﷺ يده على التمر وقال : « كلوا باسم الله » ، فأكل القوم وأكلت معهم ، وأكلت حتى ما أجد مسلكاً ، قال : وبقى على النطع مثل الذى جاء به بلال كأنما لم نأكل منه تمرة واحدة ، قال : ثم غدوت من الغد وعاد نفر فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين ، فقال رسول الله ﷺ :« يا بلال ، أطعمنا » ، فجاء بلال بذلك الجراب بعينه أعرفه ، فنثره ، ووضع رسول الله ﷺ يده عليه وقال : « كلوا باسم الله » ، فأكلنا حتى نهلنا ، ثم رجع مثل الذى صُبَّ ، ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام)[1] .

٨ ـ إخباره بموت عظيم من المنافقين :

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى : هاجت ريح شديدة بتبوك ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا لموت منافق عظيم النفاق » ، فقدموا المدينة ، فوجدوا منافقاً عظيم النفاق قد مات .

٩ ـ مشاورته ﷺ فى مجاوزة تبوك :

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى : شاور رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، إن كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أمرتُ بالسير لما استشرتكم فيه » ، فقال : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا منهم ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك أمراً .

وروى البيهقى بسند جيد عن عبد الرحمن بن غنم : أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقاً أنك نبى فالحق بالشام ، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدَّق ما قالوا : فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة : ﴿ **وإن كادوا ...** ﴾[2] ، فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث ، فرجع رسول الله ﷺ فأمره جبريل فقال : اسأل ربك عز وجل ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٣ .   (٢) سورة الإسراء : ٧٦ ، ٧٧ .

فإن لكل نبى مسألة ، وكان جبريل له ناصحاً ، وكان رسول الله ﷺ له مطيعاً ، قال : « فما تأمرنى أن أسأل ؟ » قال : ﴿ **وقل ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾[1] ، فهؤلاء الآيات أنزلت عليه فى مرجعه من تبوك[2] .

* * *

فى الإقامة فى تبوك تبرز ثلاثة خطوط مهمة هى :

الخط الأول : المعجزات النبوية فى الطعام والشراب ، ويكاد يكون هذا الخط لا ينقطع قبل الوصول إلى تبوك وفيها وبعد العودة منها .

الخط الثانى : تحرير الجزيرة العربية .

الخط الثالث : بناء الصف الداخلى وبروز النوعيات العالية من الصحابة .

أولاً : المعجزات النبوية :

ونلاحظ أنها كثرت فى تبوك لأن عدد المؤمنين الجدد المنضمين إلى الإسلام صار يربو على ضعفى جيل ما قبل الفتح ، والكثير منهم قد دخلوا فى الإسلام حين دانت الجزيرة العربية للرسول ﷺ ، فهو دخول غلبة وتمكن أكثر منه دخول قناعة وعقيدة .

وأن يسود ملك فى الجزيرة العربية وتدين له الرقاب ، ليس جديداً على العرب ، لكنه لم يتم قبل بهذا الشمول وهذه السلطة ، وهؤلاء المؤمنون إذن لابد أن يشهدوا آيات ومعجزات فى هذه البيد ، يتعرفوا منها على الرسالة الإلـٰهية ، وأن محمدا ﷺ ليس مجرد ملك حاكم ، ولكنه نبى رسول من الله عز وجل إلى خلقه ، فكانت المعجزات تترى واحدة بعد أخرى ، فيشهد بعضها فريق دون فريق ، ويقصون لإخوانهم مارأوا ، وبعضها يتم على مستوى فردى ضيق ، لنفر عشرة أو أكثر ، وبعضها على مستوى الجيش الإسلامى يشهده معظم أفراده .

والمهم أن هذه المعجزات ليست هدفاً بحد ذاتها ، بل هى رعاية العظيم ، الجليل رب العالميـن لحزبه . هؤلاء الذين استجابوا لله ورسوله فى هذا القيظ ، وهذا الجهد

---

(١) سورة الإسراء : ٨٠ . (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٦٤ .

وهذه المسافة النائية ، فلن يتركهم ربهم جل وعلا نهبة للجوع يتفرسهم أو الظمأ يفتك بهم ، إنه يرعاهم جل وعلا بهذا القليل فيبارك فيه على يد عبده ورسوله محمد ﷺ ، حتى ليطعم الجيش ويسقيه ، فهم يصنعون على عين الله .

ولاحظنا أن التجربة قد كررت كرتين بالنسبة للآبار ، مرة على الطريق ، ومرة فى تبوك ، وستتكرر مرة ثالثة فى العودة إلى المدينة .

وإن كانت فى القدوم إلى تبوك قد كانت ببركة الدعاء النبوى ، حيث ابتعث الله السحابة فأمطرت ، وغمرت الجيش رياً ، ولكنها فى تبوك الآن تختلف عن الأولى ، فكانت أوامر الرسول ﷺ صريحة : « ألا يسبقنى إلى الماء أحد » .

إننا فى عصرنا الحاضر وحين يتحرك جيش بهذا العدد ، تسبقه الآليات الضخمة على الطريق لتحفر الآبار من الأعماق الفائرة التى تتجاوز المائة متر ، ومع هذه الآليات الفنيون والعمال والمختصون ، وقد لا يكفى البئر بالحاجة ، وكان التوجيه النبوى اليوم أن يكون المصطفى ﷺ هو المسؤول عن رى الجيش كله .

وسجّل المؤرخون مخالفة واضحة ، فقد سبق رجلان إلى البئر ، وراحا يمتحان الماء منها ، ولا ندرى إن كان هذان الرجلان من المنافقين الذين يريدون أن يجهضوا فى زعمهم تخطيطات النبوة ، أو كانا جنديين عاديين استهواهما العطش فلم يتمالكا من النزول إلى الماء ، أو أن الأوامر لم تبلغهما ، وإن كنا نرجح أنهما قد بلغهما الأمر لأن رسول الله ﷺ وبخهما وسبهما ، ثم ماذا كانت العملية الضخمة فى هذه الماء الذى نبض كشراك النعل ؟

كانت : غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شن ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها ، لقد استقت العين من معين النبوة ، ومن ريقه عليه الصلاة والسلام ، فإذا بها تفور بالماء الكثير . ولفظ ابن إسحاق :

(فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه : إن له حساً كحس الصواعق ، وذلك الماء فوارة تبوك) .

والملاحظ أن هذا المعين النبوى ليس لحظة طارئة ، ولا مرحلة عابرة .. إنه إيذان بالنماء والخصب ، يتحدث عنه عليه الصلاة والسلام فيقول لمعاذ : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جناناً » .

وتحقق موعود الله ، وها نحن نستشرف الزمن بعد خمسة عشر قرناً من الزمن ، ونرى فواكه تبوك وخضارها وثمارها تباع فى مكة ، وتصل إلى أسواقها موقرة بالشاحنات الكبرى تقود الخير لا إلى تبوك فقط بل إلى المدينة ، وإلى مكة ، ورأينا الجنان بأعيننا كما قال عليه الصلاة والسلام .

الخط الثانى : خط تحرير الجزيرة العربية :

إنه مع فتح مكة ، واستسلام ثقيف ، يمكن القول أن الحجاز قد دان كلَّه لرسول الله ﷺ ، والقبائل العربية الكبرى الممتدة فى بطن الجزيرة العربية لا تفكر بالمواجهة مع النبى ﷺ . أما القبائل التى استمدت سلطتها من الروم أو الفرس ، فهذه قد تفكر فى المواجهة؛ لأنها تعتبر أن خلفها أعظم سلاطين العالم ، والذى حقق انتصاره العالمى على الفرس ، وأصبح سيد الأرض آنذاك بلا منازع .

هرقل صاحب القوة العالمية والسلطة الحاكمة ، لم يكن من الناحية النفسية مؤهلاً لحرب رسول الله ﷺ ، فقد كان لقاؤه الأول مع أبى سفيان قبيل فتح مكة كافياً لقناعته بأن محمداً ﷺ نبى مرسل ، لكنه يعلم أن اتباعه لهذا النبّى هو القضاء عليه وعلى سلطانه ، وقد أجرى تجربته الأولى مع الكتاب الأول الذى وصله مع دحية الكلبى رضى الله عنه ، وتراجع قائلاً لبطارقته ومستشاريه :

(إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا عنه)[1] .

ثم كانت التجربة الثانية حين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وكان هرقل فى حمص ، حيث بعث رسالة ثانية عليه الصلاة والسلام مع الرسول السابق نفسه ، دحية ابن خليفة الكلبى والذى أصبح خبيراً بسفارات الملوك ، وهو ابن قبيلة كلب التى كان يرتع فيها أكيدر بن عبد الملك النصرانى وهى على تخوم الشام ، وقد حددت الرسالة الثانية ثلاثة خيارات أمام حاكم الأرض هرقل :

(وقد أرسل يدعونى إلى ثلاث خصال : أن أتبعه على دينه ، أو أن أعطيه ما لنا على أرضنا والأرض أرضنا ، أو نلقى إليه الحرب) .

---

(١) البخارى / ١ / ١ / ٨ كيف كان بدء الوحى .

وهذه الخصال الثلاث هى خطوة ضخمة جديدة بعد الرسالة السابقة ، حيث كانت الرسالة السابقة ، دعوة إلى الإسلام فقط ، ولم تكن آيات الجزية قد نزلت بعد ، كما لم تكن آيات قتال أهل الكتاب قد نزلت بعد ، إذ تقول الرسالة السابقة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[1]، و ﴿ **يٰأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[2] »[3] .

أما الرسالة الثانية فتتناسب مع الأوامر الربانية التى نزلت قبيل تبوك :

﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[4] .

وكان رد حاشية الملك على هذه الخيارات الثلاث :

(تدعونا لأن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابى جاء من الحجاز) .

فهو إذن قد طرح عليهم الخيارين الأولين : الدخول فى الإسلام أو قبول الجزية ، ولم يطرح الحرب ، فهو يعلم أن حرب أنبياء الله لا تنتهى إلا بذل أعداء الله ، لكن الخيارين رفضا من أركان حربه ، فتراجع عن رأيه وأعاد القصة السابقة ، والمراوغة السابقة :

(إنما قلت ذلك لأختبر صلابتكم فى دينكم)[5] .

وكانت المحاولة الثالثة من هرقل بعد عودة التنوخى إليه ، وبعد أن تأكد بنفسه من الامتحانات الثلاثة ، فقد ذكر كتابه السابق ، وذكر الليل بصدد التعليق على جنة

---

(١) الأريسيين : الفلاحين والضعفاء من الأتباع . (٢) سورة آل عمران : ٦٤ .
(٣) البخارى / ١ / ١ / ٧ كيف كان بدء الوحى . (٤) سورة التوبة : ٢٩ .
(٥) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٨ ، ٦٥٩ . وقد أوردها بسند حسن عن أبى يعلى والإمام أحمد كما مر معنا .

عرضها السمٰوات والأرض ، وأراه خاتم النبوة بين كتفيه ، فخطا خطوة أجرأ ، وأمر منادياً ينادى :

(ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه) .

وكان الرد على هذه الخطوة الجريئة أن واجه انقلاباً عسكرياً يريد أن يطيح به ، وتحول التهديد إلى تنفيذ عملى : (فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله) .

وعاد إلى المراوغة السابقة ثالثة من جديد فقال :

(إنى أردت أن أختبر صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت عنكم) .

وفشل الانقلاب بإعلان الردة عن الإسلام ، ولم يكن أمامه إلا أن يبعث إلى رسول الله ﷺ بتبوك : (إنى معكم ، ولكنى مغلوب على أمرى)[1] .

ورفض رسول الله ﷺ ادعاءه بالإسلام :

« كذب عدو الله ، وليس بمسلم ، بل هو على نصرانيته » .

لكن الرسول ﷺ اطمأن إلى أن هرقل لن يواجهه بحرب ، وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ الأهبة والعدة لذلك ، بالثلاثين ألف مجاهد الذين تحركوا من المدينة ، فى أكبر تجمع عسكرى شهدته الجزيرة العربية .

وحين اطمأن عليه الصلاة والسلام إلى موقف هرقل . كان لابد أن ينهى أكبر تجمع نصرانى فى الجزيرة العربية ، ويدخله فى سلطته أو فى الإسلام ، وكان هذا التجمع هو لملك كندة أكيدر بن عبد الملك .

ونشير هنا كذلك إلى محاولتين سابقتين اتجهتا إلى دومة الجندل :

وكانت المحاولة الأولى : فى شهر ربيع الأول سنة خمس قبيل غزوة الخندق .

يقول ابن إسحاق : (.. وولى تلك الحجة المشركون وهى سنةأربع ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل .

قال ابن هشام : فى شهر ربيع الأول واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن السهيلى .

الغفارى . قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها و لم يلق كيداً . فأقام بالمدينة بقية سنته)[1] .

وفى السيرة الحلبية : (سميت بدومى بن إسماعيل عليه السلام لأنه كان نزلها وهى بلدة بينها وبين دمشق خمس ليالٍ ، وهى أقرب بلاد الشام إلى المدينة ، وبينها وبين المدينة خمس أو ست عشرة ليلة : أى وهى قرب تبوك ، بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرَّ بهم ، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ، فندب رسول الله ﷺ الناس لذلك ، فخرج فى ألف من المسلمين .. فكان يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل له من بنى عذرة : أى يقال له مذكور ، فلما دنا منهم جاء إليهم الخبر فتفرقوا ، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصاب من أصاب وهرب من هرب ، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم ، فلم يلق بها أحداً ، وبعث السرايا ،فرجعت ولم تلق أحداً ، أى ورجعت كل سرية بإبل)[2] .

وكانت المحاولة الثانية : بعد أن غزاها عليه الصلاة والسلام بنفسه ، أن بعث بعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بسرية إليها وذلك بعد سنتين تقريباً من تلك وقبيل صلح الحديبية .

(.. فسار عبد الرحمن بن عوف حتى قدم دومة الجندل ، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وهم يأبون ويقولون : لا نعطى إلا السيف ، وفى اليوم الثالث أسلم رأسهم وملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانياً : قال فى النور [3] : لم أجد أحداً ترجمه .. وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطاء الجزية : أى وأرسل رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك ، وأنه يريد أن يتزوج فيهم. فكتب إليه رسول الله ﷺ أن تزوَّج ببنت الأصبغ ، أى فتزوجها رضى الله تعالى عنه ، وبنى بها عندهم ، وقدم بها المدينة وهى أم ولده سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى أول كلبية نكحها قرشى ، ولم تلد غير سلمة ، وطلقها عبد الرحمن فى مرضٍ موته ثلاثاً ومتعها جارية سوداء ، ومات وهى فى العدة ، وقيل : بعد انقضاء العدة فورَّثها عثمان رضى الله عنه) [4] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢١٢ . (٢) السيرة الحلبية / ٢ / ٥٨١ ،

(٣) نور النبراس : للحافظ برهان الدين الحلبى . (٤) السيرة الحلبية / ٣ / ١٨٤ .

ثم كانت **المحاولة الثالثة** : وهى أسر أكيدر بن عبد الملك ، وأخذه مع أخيه إلى رسول الله ﷺ حيث دفع الجزية وعاد إلى ملكه .

ولا ندرى إن كان أكيدر قد ملك دومة الجندل بعد الأصبغ الكلبى ، أو ملكها بوجوده ، لكن المعروف أن أكيدر من بنى كندة . وكانت العرب تقر لهم بالملك ، فلعلهم جعلوه ملكاً عليهم بوجود رئيسهم الأصبغ أو بعد وفاته ، فلم يترجم للأصبغ أحد بعد سرية عبد الرحمن السابقة .

وكان خالد رضى الله عنه على مستوى المهمة ، حيث استطاع بأربعمائة من أصحابه أن يغزو أكيدر فى عقر داره ، وفى وسط بلاد كلب ، وأن يستأسره ثم يقوده إلى أن يفتح الحصن له ، ثم يصالحه ، ويفد به على رسول الله ﷺ .

وبعد سقوط دومة سارع نصارى العرب المجاورون على تخوم الشام إلى إعلان الولاء والمصالحة مع رسول الله ﷺ ، وهم أهل أيلة ومقنا وأذرح وجربا ، حيث صالحوه جميعاً على الجزية ، وأقرهم على بلادهم .

والذى يرويه الواقدى أن رسول الله ﷺ جعل تبوكاً هى الفاصل بين الشام واليمن ، وعلى هذا الأساس ، فتكون هذه المناطق كلها من الشام ، وهى دومة الجندل وأيلة وجربا وأذرح .

(قال شيوخ محمد بن عمر : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجراً قبلة مسجد تبوك ، وأومأ بيده إلى الحجر وما يليه ، ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال :

« ما هاهنا شام ، وما هاهنا يمن » .

وإن كان جميع أولئك قد عاهدوا على الجزية ، لكن اختلفت الروايات عن أكيدر : هل أسلم وعاهد على ذلك ثم ارتد ، أو بقى على نصرانيته حين عاهد الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

والذى يرجح إسلامه نص الكتاب الذى أورده الواقدى بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه مصاد قافلاً إلى المدينة ، فقدم بالأكيدر على

رسول الله ﷺ فصالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه ، وخلى سبيلهما ، وكتب له كتاباً فيه أمانهم وختمه يومئذ بظفره : أى ومن جملة الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها » ، إلى آخره ، وهذا كما لا يخفى يدل على أن أكيدر أسلم ، أى وهو الموافق لقول أبى نعيم وابن منده بإسلامه ، وأنه معدود من الصحابة ، وأهدى إلى النبى ﷺ حلة ؛ فوهبها ﷺ لعمر بن الخطاب .

وذكر ابن الأثير – أى فى أسد الغابة – أن القول بإسلامه غلط فاحش ، فإنه لم يسلم بلا خلاف بين أهل السير ، أي وحينئذ يكون قوله فى الكتاب حين أجاب إلى الإسلام : أى انقاد إليه ، ويبعده قوله : « وخلع الأنداد والأصنام » فليتأمل ، وأنه ﷺ لما صالحه عاد إلى حصنه وبقى فيه على نصرانيته ، ثم إن خالداً رضى الله عنه حاصره فى زمن أبى بكر رضى الله عنهما ، فقتله لنقضه العهد .

قال ابن الأثير : وذكر البلاذرى أن أكيدر لما قدم على النبى ﷺ أسلم ثم بعد موته ﷺ ارتد ، ثم قتله خالد ، أى بعد أن عاد من العراق إلى الشام .

قال : وعلى هذا القول لا ينبغى أن يذكر من الصحابة .. ثم رأيت الذهبى قال فى عمارة بن قيس بن الحارث الشيبانى : إنه ارتد ، وقتل مرتداً فى خلافة أبى بكر ، بهذا خرج عن أن يكون صحابياً بكل حال)[١] .

وتسامع القبائل العربية بهذه الغزوة ، وبهذا العدد الضخم وعلى رأسه محمد رسول الله ﷺ ، كان إنهاء لكل الجيوب فى قلب الجزيرة .

يقول ابن إسحاق : (وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف)[٢] .

ويقول : (لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه)[٣] .

هذا وإن كان الخلاف على وفد ثقيف هل كان قبل تبوك أم بعدها[٤] ، لكن

(١) السيرة الحلبية / ٣ / ٢٢٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥٣٧ . (٣) المصدر نفسه / ٥٥٩ .
(٤) يرى الواقدى : أن الوفد كان قبل تبوك ، وفى المحرم سنة تسع ، بينما يذكر ابن إسحاق أن وفدهم جاء=

بقية الوفود على الأرجح أنها كانت كلها بعد تبوك .

الخط الثالث : بناء الصف الداخلي وبروز النوعيات العالية من الصحابة :

أ ـــ فها هو عليه الصلاة والسلام يخطب فى تبوك بالناس ، ويبرز أهم معنيين واقعيين يحتاجهما الجيل الجديد :

- « ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ؟ إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت » .

فهو يريد – عليه الصلاة والسلام – أن يكوِّن جيلاً مجاهداً ، لا يدع الجهاد حتى آخر لحظة من حياته ، ولا يدع مجالاً للتعلل والاعتذار ، فالجهاد على الفرس ، أو البعير أو القدمين ، ولكن الشرط الأساسى لهذا المجاهد أن يكون جهاده فى سبيل الله ، فهؤلاء هم خير الناس .

ويمضى هذا الأمر وهذا التوجيه فى الكتائب المسلمة المسلحة كلها يتجاوز الألـوف عبر الألـوف حتى يتمثل بهم خيرية الأمة .

- « وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله ولا يرعوى إلى شىء منه »[1] .

فهؤلاء الآلاف المؤلفة قد دخلوا جميعا فى الإسلام ، ولا تزال حياة البادية تملك عليهم واقعهم ، فلابد أن يفقهوا أن تلاوة كتاب الله لا تكفى دليلاً على الإسلام ، بل قد يكون من شر الناس من يتلو كتاب الله ولا يعمل به ، ويجرؤ على محارم الله .

ب ـــ ثم كانت الخطبة الثانية الشاملة التى أوردها البيهقى عن عقبة بن عامر ، والتى تمثلت بجوامع الكلام ، وأمهات المسائل ، وأهم المنهيات والمحظورات ، وأهم المندوبات والمفروضات ، بحيث تتغلغل فى كل قلب ، وتنتشر على كل لسان ، ولو لم تحـص كلها ، ففى تكرار بعض المعانى فيها ما يحقق الهدف المطلوب :

- فلابد من الربط أولاً مع المصدرين الرئيسيين للتشريع فى الأمة : « أما بعد : فإن

= فى رمضان بعد تبوك .

(١) سبل الهدى والرشاد ، كما رواه الإمام أحمد / ٣ / ٣٧ ، ٤١ ، ٥٨ .

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم وخير السنن سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن » .

- ولابد من ربط هذه الأمة بعدها باتباع هذا السنن ، والابتعاد عن الابتداع : « وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وشر العمى عمى القلب » .

- وربط حياة المسلم بآخرته بحيث تكون شاخصة دائماً فى حسه هو الضمان لتحقيق هذه التوجيهات : « وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة » .

- والتنبيه على بعض المحظورات التى قد تتكرر بشكل دائم ، بحيث يعيها الجيش كله أمر ضرورى : « ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب » .

- ولا ضامن للخلاص من هذه المحظورات إلا سلامة الباطن قبل الظاهر : « وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر فى القلوب اليقين » .

- وعودة إلى المحظورات من جديد : « والارتياب من الكفر ، والنياحة من أعمال الجاهلية ، والغلول من جثى جهنم ، والسكركة من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ،وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه » .

- ويأتى ربط الدنيا بالآخرة ، من بطن الأم إلى بطن القبر ، وطوى هذه الرحلة بما تختم فيه : « وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه » .

- وحتى تبقى ذات البين حسنة ، ولايتصدع البنيان الداخلى للأمة ، جاء التوكيد

على دلك : « وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله عز وجل ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتأل على الله يكذبه » .

- ثم تأتى المندوبات فى هذه الخطبة الجامعة ، لسلامة الصف كذلك : « ومن يغفر يغفر الله له ، ومن يعف يعف عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوِّضه الله » .

- ويكون الختام فى تحمل مسؤولية كل موقف سلباً أو إيجاباً : « ومن يتبغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له الأجر ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لأمتى – قالها ثلاثاً – أستغفر الله لى ولكم » .

جـ - ونقل لنا الواقدى حديثاً آخر فى تبوك عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك فقام من الليل يصلى ، وهو كثير التهجد من الليل ، ولا يقوم إلا استاك ، وكان إذا قام يصلى صلى بفناء خيمته ، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه فصلى ليلة من تلك الليالى ، فلما فرغ أقبل على من كان عنده فقال : « أعطيت خمساً ما أعطيهن أحد قبلى : بعثت إلى الناس كافة ، وإنما كان النبى يبعث إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتنى الصلاة تيممت وصليت ، وكان من قبلى يعظمون ذلك ولا يصلون إلا فى كنائسهم ، والبيع ، وأحلت لى الغنائم آكلها ، وكان من قبلى يحرمونها ، والخامسة هى ما هى ، هى ما هى ، هى ما هى » ثلاثاً ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قيل لى : سل ، فكل نبى قد سأل فهى لكم ولمن شهد أن لا إلـه إلا الله »(١) .

إنها معانٍ جديدة تصل إلى مسامع المسلمين ، فيرتفعوا برسول الله ﷺ إلى آماد وآفاق وأزمان أعمق وأبعد من واقعهم ، فهو عليه الصلاة والسلام ليس ملكاً على العرب ، إنه نبى مرسل ، وهو سيد الأنبياء والمرسلين ، فقد أعطى ما لم يعط أحدٌ قبله ، فهو رسول الله تعالى إلى البشر كافة أحمرهم وأسودهم ، وإنما كانوا يعرفون الرسل إلى أقوامهم ، فبنـو إسرائيل لهم رسلهم وكتبهم لا يفقهون عنها شيئاً ، أما هم اليوم فمع إمام الرسل ، وإمام البشر كافة ، والخامسة مما أعطيها عليه الصلاة والسلام

(١) لعل الرابعة هى التيمم.

خصصها لأمته وهى الشفاعة ، فما من نبى إلا وأعطى دعوة خاصة ، وخبأ رسول الله ﷺ دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة .

إن هذه الجوانب التى يركز عليها ، يتعرف الصحب من خلالها على أن بين ظهرانيهم سيد ولد آدم ، ومن أجل ذلك فهى فرصة لا تعوض ، ولا تقدر بثمن أن يسارعوا إلى التعلم منه والتفقه عليه ، وأن يتسابقوا فى طاعته والتضحية بين يديه .

د ــ ويطالعنا ضمن هذا الخط المزنيان اللذان حفلت بهما تبوك :

المزنى الأول معاوية بن معاوية ، وهو فى المدينة وليس فى الجيش الإسلامى ، وتضىء تبوك والأرض معها على غير عادتها « فطلعت الشمس بضياء ، وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى » فالملائكة على رأسهم جبريل هم ضيوف الأرض ليصلوا على هذا المتوفى من أمة محمد ﷺ ، وجبريل عليه السلام يدعو سيد ولد آدم للصلاة على هذا العبد الصالح ، أما عظمته وصلاحه فكان « بحبه قل هو الله أحــد ، يقرؤها قائماً أو قاعداً أو راكباً أو ماشياً وعلى كل حال ؟ » ، ولا غرو فهذه السورة ثلث القرآن كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، وهذه السورة هى وصف البارى تبارك وتعالى ، وعاش هذا العبد يتجلى فى قلبه عظمة ربه من خلال هذه السورة ، فهى معه فى كل لحظة تملأ قلبه وكيانه ، ماشياً وقاعداً ، وقائماً وراكباً ، إن عظمة ربه تملك عليه كل كيانه ، وقلبه يفيض بهذه العظمة،وكيانه يغمر بهذا العطاء ، وإذا كان العطاء الربانى على مقدار ما يحمل القلب من العبودية الخالصة لله ، فلمعاوية المزنى رضى الله عنه القدح المعلى فى اتجاه مشاعره ووجدانه ، وعقله وقلبه إلى ربه العظيم الجليل ، لا يغيب عنه لحظة وهو يثنى على ربه بهذا الثناء العظيم وبهذه السورة المباركة .

والمزنى الثانى مع رسول الله ﷺ فى تبوك ، باع دنياه كلها واشترى رضوان الله والدار الآخرة لقد نزع عنه عمه كل ما أعطاه حتى ثوبيه اللذين يلبسهما ، فقبل أن يدع الدنيا كلها ، وعزها وبهرجها ليلتحق بحبيبه محمد ﷺ فى تبوك ، إن قلبه ليجيش بالحب والوفاء ويفيض بالإسلام فى كل ذرة من ذراته ، ويصل إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام ، ويرجوه أن يدعو له بالشهادة ، وأطلع الله تعالى نبيه على عظمة الإيمان الذى يعمر قلب هذا الفتى ، وطلب منه لحاء شجرة – قشر سمرة – فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال : « اللهم إنى أحرم دمه على الكفار » ، أحبه عليه

الصلاة والسلام ورجا ربه أن يحرم دمه على الكفار ، وهو الذى هجر الكفر وأهله وجاء بالبجادين الغليظين الخشنين من عند أمه ، اتزر بأحدهما وارتدى الآخر ، وأعطاه عليه الصلاة والسلام لقب ذى البجادين ، فهما العلامة العظمى على إخلاصه وتفانيه وإيمانه ، وناسب هذين البجادين ذلك اللحاء من الشجرة على عضده ، بحيث تتطاير السهام والسيوف بعيداً عنه لأن رسول الله ﷺ وضع العلامة الفارقة عليه بتحريم دمه . أما أجر الشهيد ومنزلة الشهيد فهى له ، بعد أن خرج مع المجاهدين : « إنك إذا خرجت غازياً فى سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، وإذا وقصتك دابتك فأنت شهيد لا تبالى بأية كان » ، ولم يكن فى تبوك حرب ، لكن كان فيها هذا الشهيد العظيم ، وفيها هؤلاء الشهداء الأحياء الذين خرجوا بعشرات الألوف يبتغون إحدى الحسنيين ، لكن المزنى ذا البجادين هو الذى فاز فيها ، وفرغ له رسول الله ﷺ ليكرمه فهو ينزل فى قبره ، عليه الصلاة والسلام ، أما صاحباه اللذان يدليانه ، فهما وزيرا رسول الله ﷺ . إنه بين يدى حبيبه عليه الصلاة والسلام ينفض التراب عنه ويوسده قبره ، ويكون آخر عهده من الدنيا مس رسول الله ﷺ لجسده الطاهر والدعاء الذى اخترق السمٰوات والأرضين :

« اللهم إنى أمسيت عنه راضياً فارض عنه » .

وتكاد تطفر دمعتا ابن مسعود رضى الله عنه ، ربيب رسول لله ﷺ منذ دار الأرقم وقبل دار الأرقم ، إنه يتمنى أن يكون ذلك الميت :

يا ليتنى كنت صاحب اللحد .

إنه درس بليغ للأمة كلها وللجيش كله ، أن القلب هو الميزان الحساس للإنسان ، فقد يبلغ فى صلاح قلبه حداً يرتفع إلى مصاف السابقين الأولين من المهاجرين ، وقد يبلغ فى خلوص عبوديته لله أن تفرج الآكام والجبال للصلاة عليه وتحتفل السماء بقدومه ، فليس فى المدينة إلا المخلفون والمنافقون ، وهؤلاء ليسوا أهلاً للصلاة عليه ، والمقيمون بأمر رسول الله ﷺ والبكاؤون ، وهؤلاء عددهم لا يكفى ، ولا يتناسب مع عاشق قل هو الله أحد .. وصفوة الخلق وصفوة المؤمنين فى تبوك ، فهل يصلى عليه فقط هؤلاء النفر ، أبداً ، فملائكة السماء الذين أوفدوا من رب السمٰوات والأرض ، وهم سبعون ألفاً ليعوّضوا عن الثلاثين ألفاً الذين يجاهدون فى تبوك ، وأكرمت الملائكة الأطهار بإمامة رسول الله ﷺ فيهم على العبد الصالح .

إنه القلب ، وخلوص العبودية لله فيه .

إنه القلب ، والتجرد الكامل من الدنيا ، بحيث لا يعمر فيه إلا الله ورسوله .

إنه القلب الموصول بالله ، الذى يطوى الزمان ، ويطوى المكان، ويصل بصاحبه إلى أعلى عليين ..

* * *

ثالثاً : فى العودة من تبوك إلى المدينة

طعام المسلمين فى العودة :

روى مسلم عن أبى هريرة ، وابن راهويه ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ومحمد بن عمر عن شيوخه عن أبى هريرة قال : لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قال أبو هريرة : فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا ، فقال : « افعلوا » ، فجاء عمر فقال : يا رسول الله ، إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها البركة ، فقال : « نعم » ، فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير ، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ، ثم قال لهم : « خذوا فى أوعيتكم » ، فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملؤوه ، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة ، فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة »[1] .

وفى رواية الواقدى : (فكان أربعة من أصحاب النبى ﷺ يحدثون جميعاً حديثاً واحداً حضروا ذلك وعاينوه : أبو هريرة ، وأبو حميد الساعدى ، أبو زرعة الجهنى معبد بن خالد وسهل بن سعد الساعدى ، قالوا : ثم انصرف رسول الله ﷺ ونادى مناديه : هلموا إلى الطعام ، خذوا منه حاجتكم ! وأقبل الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه ، فقال بعضهم : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز وقبضة من تمر ، ولقد رأيت الأنطاع تفيض ، وجئت بجرابين فملأت أحدهما سويقاً والآخر خبزاً ،

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك / ١ / ٥٦ حديث رقم ٤٥ .

وأخذت فى ثوبى دقيقاً ما كفانا إلى المدينة ، فجعل الناس يتزودون الزاد حتى نهلوا عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك أن أخذت الأنطاع ونثر ما عليها فجعل رسول الله ﷺ يقول وهو واقف : « أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى عبده ورسوله ، وأشهد أنه لا يقولها أحد من حقيقة قلبه إلا وقاه الله حر النار »[1] .

سقيا المسلمين فى العودة :

(وأقبل رسول الله ﷺ قافلاً حتى إذا كان بين تبوك وواد يقال له وادى الناقة – وكان فيه وشل يخرج منه فى أسفله ، قدر ما يروى الراكبين ، أو الثلاثة – فقال : « من سبقنا إلى ذلك الوشل فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتى » فسبق إليه أربعة من المنافقين : معتب بن قشير ، والحارث بن زيد الطائى ، ووديعة بن ثابت وزيد بن اللصيت ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم أنهكم ؟ » ولعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده فى الوشل ثم مسح بأصبعه حتى اجتمع فى كفه منه ماء قليل ثم نضحه ، ثم مسحه بيده ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به فانخرق الماء . قال معاذ بن جبل : والذى نفسى بيده لقد سمعت له شدة فى انخراقه مثل الصواعق ، فشرب الناس ما شاؤوا ، وسقوا ما شاؤوا ، ثم قال رسول الله ﷺ : «لئن بقيتم – أو بقى منكم – لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب مما بين يديه ومما خلفه » : قال : واستقى الناس وشربوا ، قال سلامة بن سلمة بن وقش : قلت لوديعة بن ثابت : ويلك ، أبعد ما ترى شيء ؟ أما تعتبر ؟ قال : قد كان يفعل مثل هذا من قبل ، ثم سار رسول الله ﷺ)[2] .

ذكر من فى المدينة :

(روى البخارى ، وابن سعد عن أنس وابن سعد عن جابر رضى الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم » قالوا : يا رسول اللّه وهم فى المدينة ؟ قال : « وهم فى المدينة حبسهم العذر »)[3] .

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٣٨ .
(٢) المصدر نفسه / ١٠٣٩ . وقد ذكره ابن إسحاق فى السيرة / ٢ / ٥٢٧ .
(٣) سبل الهدى والرشاد /٥ / ٦٧٢ .

لما أشرف على المدينة :

(روى الإمام أحمد ، والشيخان عن أبي حميد الساعدى ، وعبد الرزاق وابن أبي شيبة فى مصنفيهما عن أنس وجابر وأبي قتادة رضى الله عنهم قالوا : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال : « هذه طابة – وزاد ابن أبي شيبة : أسكننيها ربى – تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد » انتهى . فلما رأى أحداً قال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه ، ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ » ، قلنا : بلى يا رسول الله قال : « خير دور الأنصار بنو النجار ثم دار بنى عبد الأشهل ، ثم دار بنى ساعدة » فقال أبو أسيد : ألم تر أن رسول الله ﷺ خيَّر دور الأنصار فجعلنا آخرها داراً ؟ فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخرها داراً ، فقال : « أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار ؟ »)[1] .

فى المدينة :

(روى البخارى ، وأبو داود ، والترمذى عن السائب بن يزيد رضى الله عنه قال : أذكر أنى خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من تبوك .

وروى البيهقى عن ابن عائشة رحمه اللّه تعالى : لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وروى الطبرانى ، والبيهقى عن خريم بن أوس بن حارثة بن لأم قال : هاجرت إلى رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » ، فقال :)[2]

---

(١) و (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥/ ٦٧٣ ، ٦٧٤ .

من قبلها طبت فى الظلال وفى | مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر | أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد | ألجم نسراً وأهله الفرق
تنقل من صالب إلى رحم | إذا مضى عالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتتما | فى صلبه أنت كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهيمن من | خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأر | ض فضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النو | ر وسبل الرشاد نخترق

تقطع الجهاد :

قال ابن سعد : (وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم وقال : « لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال »)[٢] .

مدة الغزوة :

(وقع فى الصحيح ذكرها بعد حجة الوداع ، قال الحافظ : وهو خطأ ولا خلاف أنه قبلها ولا أظن ذلك إلا من النساخ ، فإن غزوة تبوك كانت فى رجب سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف ، وعند ابن عائذ من حديث ابن عباس : أنها كانت بعد الطائف بستة أشهر ، وليس مخالفاً لقول من قال إنها فى رجب إذا حذفنا الكسور لأنه ﷺ قد دخل المدينة من رجوعه إلى الطائف فى ذى الحجة .. وقدم فى رمضان ، وتقدم أنه أقام فى تبوك بضعة عشر يوماً ، ويقال عشرين ، هذا ما ظهر لى ..)[٣] .

* * *

١ ـــ لا يمل المرء من الحديث عن المعجزات التى أكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ فى الطريق إلى تبوك ، وفيها ، وفى العودة منها ، فالله تعالى يرعى جنده ويتعهد حزبه

---

(١) لم يوردها الصالحى فى كتابه وقد وردت فى شرح المواهب / ٣ / ٨٤ ، والخصائص للسيوطى وابن كثير / ٤ / ٢٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٧٤ .
(٣) المصدر نفسه / ٦٨٧ و ٦٨٩ .

وإذا كان عيسى عليه الصلاة والسلام قد طلب مائدة من السماء تنزل على حوارييه ، تكون عيداً لهم ، واستجاب الله تعالى لعبده ونبيه عيسى عليه الصلاة والسلام وأنزل عليهم مائدة من السماء ، فما أحرانا ، ونحن مع هذه الموائد الربانية بصيغها المختلفة .

فمن حيث الطعام حينًا ، يفيض الطعام ، من تمر وإقط ويسيل حميس السمن حتى ليخشى أن يسيل به الوادى ، ويشارك الجيش فى الأخذ من جراب التمر حتى يفيض عليه ، وتارة توضع الأنطاع ، ويلقى عليها بالتمرة والتمرتين والكسرة والكسرتين ، ثم يمسهم عليه الصلاة والسلام بيده الشريفة ويدعو ما شاء الله أن يدعو فيفيض التمر، ويفيض الطعام وتملأ الأجربة ، ويشبع الآكلون - حتى لا يجدون - مسلكاً . وفى رواية : « لولا أنى أستحى من ربى لأكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرها » .

ومن حيث السقيا تتعدد الوسائل كذلك ، فمن دعاء يبعث الله تعالى الغيث على ضوئه فيغمر العسكر العطاش رياً ، وحاجة ، ومن دعاء فى البئر التى لا يكاد ماؤها تبض حيث يدعو عليه الصلاة والسلام ويدعو ما شاء الله تعالى أن يدعو ، فتتفجر الينابيع ويسمع صوتها كحس الصواعق . وحينًا يكون بفضل وضوئه عليه الصلاة والسلام ، أى بما زاد من الماء منه .

(وكادت تقطع أعناق الرجال والخيل عطشا ، فدعا رسول الله ﷺ بالركوة فأفرغ ما فى الإداوة فيها ، فوضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى ترووا وأرووا خيلهم وركابهم ، فإن كان فى العسكر اثنا عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألفاً ، والخيل عشرة آلاف ، وذلك قول النبى ﷺ لأبى قتادة : « احتفظ بالركوة والإداة »[1] .

ومن أجل هذا كان عليه الصلاة والسلام يوجه هذه الأحداث كلها ، من أجل هذه العقيدة ، ومن أجل بناء الإيمان فى النفوس ، فقد قالها عليه الصلاة والسلام أكثر من مرة ، عقب هذه المعجزات النبوية :

« أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأنى عبده ورسوله ، وأشهد أنه لا يقولها أحد من حقيقة قلبه إلا وقاه الله حرَّ النار » .

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٤٠ .

إن مثل هذه المعجزات لتؤهل النبى ﷺ ، أمام عشرات الألوف هذه ، إلى تأليهه وهم حديثو عهد بشرك ووثنية ، وكانوا يؤلهون الحجر والصنم والوثن ، ولكن سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام كان حريصاً أشد الحرص فى مثل هذا المقام على التركيز على عبوديته لله تعالى ، وتعميق مفهوم الرسالة فى قلوب هذه الجماهير ، ومثل هذه المعجزات التى لم يقم الإيمان ابتداء عليها ، إنما قام على القناعة الفكرية والوجدانية فى هذا الدين ، مثل هذه المعجزات مهمتها أن يزداد الذين آمنوا إيماناً ، وينقشع الريب والشك عن قلوب الذين فى قلوبهم مرض ، وهكذا كان الصف الأول والجيل الرائد يستثمر هذه المعجزات لهذا الهدف ، فيتجهون للمنافقين يدعونهم لخلوص قلوبهم لله وتثبيت إيمانهم بعد أن جاءت الآيات مبصرة ، واستيقنتها أنفسهم وكانت شاخصة أمام أبصارهم يرونها رأى العين .

إن هذه الأمة التى تبنى اليوم على عين الله وفى رعايته ، أمة عقيدة ، تعد لتواجه العالم بهذه العقيدة ، فلابد أن تكون قلوبها عامرة بهذا الدين ، خالصة من الشوائب الوثنية والجاهلية ، ممتزجة الوجدان والحس والعقل بهذه العقيدة ، لتحقق خلافة الأرض للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

٢ — وعلى طريق العودة ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يربى هذا الجيل ، كان هذا النص العظيم : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » قالوا : يا رسول الله ، وهم فى المدينة ؟ قال : « وهم فى المدينة حبسهم العذر » .

فقد ارتسم ابتداءً – حيث كان الاستنفار إلى الجهاد – فى ذهن المسلمين أن أصحاب الخيرية هم الذين انضموا إلى هذا الجيش ، أما الذين تخلفوا ، فلا خير فيهم ، انطلاقاً من قوله عليه الصلاة والسلام : « إن يكن به خير فسيلحق بنا » ، والذى يتخلف يقول عنه المصطفى صلوات الله عليه : « أراحكم الله منه » .

هذا الحكم العام ، يستثنى منه عليه الصلاة والسلام أصحاب تلك القلوب العامرة بالإيمان ، الدافئة باليقين ، والذين حبسهم العذر من المال أو الراحلة عن المشاركة فى شرف هذه الغزوة مع الرسول ﷺ ، فهؤلاء أفضل من المنافقين الذين ساهموا فى هذه الغزوة ، لينسجوا مؤامرات أوكلت إليهم ، وينفذوا مخططات كلفوا بها . إنهم

ليسوا فقط كذلك ، بل هم بمصاف المجاهدين .

فهؤلاء المؤمنون الذين حبسهم العذر ، وقلوبهم تعتصر ألماً ألّا يشاركوا مع الرسول ﷺ فى حربه لجهاد الروم ، فهؤلاء علم الله ما فى قلوبهم فأعطاهم أجر المجاهدين وهم فى قعر بيوتهم ، وهنا تفترق أمة الإسلام عن أمم الأرض ، حين يسمو المخلصون إلى أعلى الآفاق وهم فى بيوتهم جالسين ، بينما ينحط المتظاهرون بالإيمان ولو كانوا تحت راية النبوة إلى الدرك الأسفل من النار .

٣ ــ واشتاقت المدينة بشيبها ونسائها وأطفالها إلى النور الذى أضاء بها ، فقد طالت الغيبة ، وطال البعاد ، واشتعلت القلوب بالحنين إلى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، والأبكار فى خدورها والولائد ، يعدون اليوم تلو اليوم لرؤية الحبيب الغائب ، ولذلك كان مقدمه فرحة غامرة ، لا تعادلها فرحة ، خاصة وأن المنافقين يطلقون الإشاعات أن الروم سوف يبتلعون المؤمنين ، وقد صمد لهم قيصر ، وسوف يفنيهم عن بكرة أبيهم ، وأن محمداً لن يعود إلى المدينة ، فكان قدومه عليه الصلاة والسلام هو قدوم الحياة والنماء والنور إلى طابة كما سماها عليه الصلاة والسلام ، وكان أحد الجبل الأشم يحن حنين الجذع إلى المصطفى ﷺ ، وربط عليه الصلاة والسلام بينه وبين المؤمنين فى الأرض ، فقال : « أحد جبل يحبنا ونحبه » ، وكيف لا ، وقد امتزج بدماء المؤمنين وعرقهم .

وهذا حكم جديد يعلنه عليه الصلاة والسلام زلزل أركان المنافقين فيها وثلّهم من عروشهم ، وهم يعلمون أن ما يقوله عليه الصلاة والسلام حق .

هذا الحكم هو : « المدينة تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد » .

وجاء الدور لفضح المنافقين بأشخاصهم وأعيانهم ، وجاءت سورة التوبة التى سُميت بـ (الفاضحة) و (المخزية) و (المبعثرة) والتى كشفت الخبث فى المدينة كله ، وأن هذا الخبث سوف ينجلى عن المدينة ، وتبقى الطاهرة المطهرة .

والحكم الثانى الذى تلا الحكم الأول ، فإذا كان الخبث سوف ينجلى عن المدينة مع الخبثاء لأنها طيبة ، وطابة ، فلا يترعرع فيها إلا الطيب ، أما الخبث فقد ينمو كما تنمو الطفيليات على خامة الزرع لكن مآله البوار والهلاك .

جاء الحكم الثانى ليتحدث عن الجيل الرائد ، عن فرع الأنصار فيه ، يتحدث عن طبقات الخيرية فيه ، يعلنها عليه الصلاة والسلام على المسلمين كافة .

خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم دار بنى عبد الأشهل ثم دار بنى ساعدة .

وفى رواية : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث ابن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » .

فلابد أن تعرف الأمة كلها فضل هذا الحى فى العرب .

إنهم يعرفون فضل قريش ، ويقرون لها بالفضل ، وكما يقول ابن إسحاق (وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك)[1] .

أما الأنصار ، فقد سَمَوْا برسول الله ﷺ ، وهم الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : « فهم كرشي وعيبتى » ، وهم الذين قال فيهم : « والله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، والله لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت شعب الأنصار » ، ودعا لهم فقال : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » ، واختارهم عليه الصلاة والسلام من بين الناس جميعاً ليقيم معهم : « معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم » ، وقال : « ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون أنتم برسول الله ﷺ ! إلى رحالكم ؟ » ، فقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

لقد أدرك هذا الأمر الأنصار ابتداءً فى فتح مكة ، وها هو يعلن عليه الصلاة والسلام أمام الملأ وأمام الأمة الخيرية الأولى والثانية والثالثة والرابعة فى دور الأنصار ثم الخيرية العامة التى تغمرهم جميعاً .

ولا عجب فى ذلك ، فبنو النجار رضى الله عنهم هم أسود الشرى الذين حموا رسول الله ﷺ بدمائهم ومهجهم وأرواحهم ، وأعظم فخر تاهوا به على الأمم جميعاً : أن يكون رسول الله ﷺ نقيبهم : « أنتم أخوالى وأنا نقيبكم » .

لقد كان منهم عليه الصلاة والسلام ، فكانت نساؤهم قبل رجالهم يفدين رسول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥٦٠ .

الله ﷺ بأرواحهن ، وما أمر أم عمارة ، وأم سليم بسر، وهما يذودان عن رسول الله ﷺ ، وكلتاهما من بنى النجار ، وما جوارى بنى النجار بسر وولائدهن اللاتى خرجن يستقبلن رسول الله ﷺ حين نزل بينهن ضيفاً . وحيث الناقة مأمورة .

فخرجن يقلن رضى الله عنهن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

وأقرت عينا النبى ﷺ بهذا الحب الجارف ، فيسألهن : « أتحببنى ؟ » . قلن : نعم . وقال عليه الصلاة والسلام : « وأنا والله أحبكن » .

وحين دخل المدينة عليه الصلاة والسلام دخلها بين سيوف أبطال بنى النجار يحيطون به من كل جانب ، وحين كان الفداء فى أحد ، فكان حى بنى النجار وبنى عبد الأشهل ، أكثر أحياء الأنصار جراحات ودماء .

وأما بنو عبد الأشهل رهط السيد العظيم والصحابى الجليل سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فيكفى أكبر دليل على خيريتهم دخولهم فى دين الله عز وجل : (فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالا : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة) ، وبنو عبد الأشهل سادة الأوس .

ثم تأتى الخيرية الثالثة والرابعة فى بنى الحارث بن الخزرج ، وبنو ساعدة : « وفى كل دور الأنصار خير » .

وهم الذين وصفهم الله تعالى ، وليس بعد وصفه وصف : **﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾**[1] .

٤ ــ وبعد مديح رسول الله ﷺ للأنصار رهطه الثانى ، جاء العباس بن

---

(١) سورة الحشر : ٩ .

عبد المطلب رضى الله عنه ليمدح رسول الله ﷺ ، وقال له عليه الصلاة والسلام : « قل : لا يفضض الله فاك » .

فكان هذا الشعر العظيم الذى عرَّف به العباس الأمة بمحمد ﷺ ، والذى ضرب به فى الأصلاب الطاهرات إلى آدم عليه الصلاة والسلام ، فما زال يتنقل من صلب إلى صلب من لدن آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى خندف أم بنى كنانة وقريش ، وإذا به القرشى الهاشمى المطلبى هو الذى يضىء الوجود به ، وما أحوج هذا الجيل الجديد أن يتعرف من عم محمد ﷺ العباس وصنو أبيه على جوهره المكنون .

يقول العباس رضى الله عنه :

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

والحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يقول : « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد »(١) .

وتحدث العباس رضى الله عنه عن انتقاله من صلب آدم إلى صلب نوح إلى صلب إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، إلى حيث استقر فى خندف أم كنانة وقريش .. ومن هذه الأصلاب الطاهرات التى تنقل فيها ، وهذا الوصف هو عرض للحديث الصحيح : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه »(٢) .

والحديث الصحيح الآخر : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً »(٣) .

والحديث الصحيح الثالث : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى

(١) الإمام أحمد والبخارى فى التاريخ ، وابن حبان فى صحيحه . انظر الأحاديث الصحيحة للألبانى / ٢ / ١٨٧ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه أحمد والترمذى ، انظر صحيح الجامع الصغير / ٢ / ٤ / ٢٤ / حديث رقم ١٤٨٥ .

هاشم »[1] .

٥ ـــ وانتهت تبوك ، ودانت الجزيرة العربية للإسلام ، ولرسول الله ﷺ، وهادن قيصر الروم رسول الله ﷺ، فلا حرب بعد اليوم ، هكذا تراءى لهذا الجيل الجديد .

وبعد أن كانت العدة تعد ، وآذنت الحرب بالانتهاء راح كثيرون يبيعون سلاحهم ويقولون : قد انقطع الجهاد .

وتأتى التربية النبوية لتتجاوز الآماد والآفاق ، وتنتقل بهذا الجيل من بطون الصحراء العربية إلى مشارف الأرض ، مشارقها ومغاربها ، ليجعل جهاد الأمة ماضياً إلى يوم القيامة :

فنهاهم وقال : « لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال » .

ولئن أدرك الجيل الأول فى الخندق أن قصور فارس وقصور الروم ستتهاوى تحت الضربات الإسلامية منذ ضربة المعول على الصخرة الكؤود ، فالجيل الجديد لم يشهد هذا المعنى ، ولم يفقه هذه المفاهيم ، فكان هذا الامتداد فى جانبين .

الامتداد النبوى منذ أول الخليقة حتى الشفاعة العظمى لهذا القرشى الذى يقودهم فى هذه المعركة ، وذلك على لسان العباس رضى الله عنه .

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض فضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النو ر وسبل الرشاد نخترق

والثانية فى امتداد هذا الإسلام حتى يبلغ مبلغ النجم ، وذلك بالجهاد الماضى إلى يوم القيامة : « حتى يقاتل آخر أمتى الدجال » .

وهكذا شهدنا التربية النبوية لهذا الجيل منذ الخطوات الأولى فى تبوك ، حتى التقينا مع الولائد يهتفن وينشدن فى استقبال الحبيب المصطفى صلوات الله عليه :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

(١) رواه مسلم ، فى الفضائل / ٤ / ١٧٨٢ حديث رقم ٢٢٧٦ ، ورواه الترمذى .

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وآن الأوان بعد القرار فى المدينة ، لكى يتلقى هذا الجيل التربية الربانية ، تعرض جوانب النفوس ، وخفقات القلوب ، ونوازع الضمير ، وتكشف المخبوء والمستور من خلال سورة التوبة ، والتى أنزل الله تعالى منها فى هذه الغزوة الميمونة ما ينيف عن تسعين آية ، هى محور الحديث فى الحلقة القادمة .

* * *

عودة إلى سورة التوبة

(ثم يجيء المقطع الرابع فى سياق السورة وهو أطول مقاطعها ، وهو يستغرق أكثر من نصفها فى فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم ، ووصف أحوالهم النفسية والعملية ، ومواقفهم فى غزوة تبوك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها ، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد ، وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف ، وإيذاء رسول الله ﷺ والخلص من المؤمنين . يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين ، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء ، والمفاصلة بين الفريقين ، وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله .. وهذا القطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة ، ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح ..)[1] .

(لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزاً قوياً دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية .. فقد كانت قريش هى صاحبة الكلمة العليا فى الشؤون الدينية فى الجزيرة ، فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادى سياسى وأدبى كذلك ، فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب فى أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش وهذا النبى من أبنائها ، فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف فى الطائف ، وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى المدينة قد خضدت شوكتها نهائياً فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير ، كان ذلك إيذاناً بدخول الناس فى دين الله أفواجاً ، وانسياح الإسلام فى أنحاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد .

غير أن هذا الاتساع الأفقى فى رقعة الإسلام ، قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد انتصار بدر – ولكن على نطاق أوسع – بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير فى خلال السنوات

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٥٦٧ .

السبع بعد بدر الكبرى ، ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ، لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة ، ولكن الله الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبى الذى جاء به انتصار بدر ، كما أنه سبحانه كان قد أعد المجتمع المدنى بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذى جاء به فتح مكة .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين ... وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة فى أول الأمر أن ألفين من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح ، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة ، فكان وجود هذين الألفين مع عشرة آلاف سبباً فى اختلال التوازن فى الصف بالإضافة إلى عامل المفاجأة فى هوازن ، ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها وتناسقها فى الزمن الطويل ما بين بدر والفتح .

كذلك كان ما ظهر فى أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقى السريع ، ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة .. هذه الظواهر والأعراض التى تحدثت عنها سورة التوبة ، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب ...

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخى للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح ، عندما قبض رسول الله ﷺ ، فارتدت الجزيرة كلها ، ولم يثبت إلا مجتمع المدينة، القاعدة الصلبة الخالصة ، فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها .. إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام فى نفوس هذه الأفواج الكثيرة التى دخلت فى دين الله بعد الفتح : بمستوياتها الإيمانية المخلخلة ، فلما قبض رسول الله ﷺ ارتجت الجزيرة المخلخلة وثبتت القاعدة الصلبة، واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف فى وجه التيار ، وأن ترده عن مجراه الجارف ، وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى .

إن رؤية هذه الحقيقة – على هذا النحو – كفيلة بأن ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة – فى أول الأمر – وحكمته فى تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها ، ويفتنونها عن دينها ، ويهدرون دماءها ، ويفعلون بها الأفاعيل .

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة ، وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب الأعواد ، ولا تثبت للضغوط ، وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضى فى سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع ، وقلة العدد ، وانعدام النصير الأرضى .. إن هذه الدرجة هى وحدها ، التى تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى .

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل ، هى التى انضم إليها السابقون من الأنصار ، ليكوّنوا القاعدة فى المدينة قبل بدر ، وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء فى فترة التخلخل التى أعقبت النصر فى بدر بالتوسع الأفقى ، الذى جاء بأعداد جديدة لم تنضج بعد ، و لم تتناسق مع القاعدة فى مستواها الإيمانى والتنظيمى .

وأخيراً فإن القاعدة الصلبة التى اتسعت أبعادها قبيل الفتح – حتى صارت تتمثل فى المجتمع المدنى بجملته – هى التى حرست الإسلام ، وصانته من الهزات بعد الفتح ، ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وارتداد الجزيرة عن الإسلام .

إن هذه الحقيقة – كما أنها ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة وفى الأهوال والمشاق والأخطار التى تعرض المجتمع المسلم فى المدينة حتى الحديبية – هى كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركى للدعوة الإسلامية المتجددة فى أى زمان وفى أى مكان .

إنه ابتداء يجب الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلَّص ، الذين تصهرهم المحنة ، فيثبتون عليها ، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً ، ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقى قبل الاطمئنان ، إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة ، فالتوسع الأفقى قبل قيام هذه القاعدة ، خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ، ولا تراعى

طبيعة المنهج الحركى الربانى النبوى الذى سارت عليه الجماعة الأولى .

على أن الله -سبحانه- هو الذى يتكفل بهذا لدعوته ، فحيثما أراد لها حركة صحيحة ، عرَّض طلائعها للمحنة الطويلة ، وأبطأ عليهم النصر ، وقللهم ، وبطأ الناس عنهم ، حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا ، وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأمينة ، ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده سبحانه ، ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾)[1] .

* * *

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾[2] .

أخرج سنيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ..** ﴾ الآية قال : هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وحين أمرهم بالنفير فى الصيف ، حين خرفت الأرض فطابت الثمار ، واشتهوا الظلال ، وشق عليهم المخرج فأنزل الله عز وجل : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ .

فى هذه الأجواء تمت الدعوة إلى الجهاد ، فى الأوقات التى طاب فيها المقام ، وارتبط الناس بأرضهم وثمرهم فكانوا كما قالت الآية : ﴿ **اثّاقلتم إلى الأرض** ﴾ .

(وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوة إلا ورى بغيرها لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً واستقبل غُزى وعدداً كثيراً ، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة غزوهم وأخبر بالوجه الذى يريد ، وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٥٧٦- ١٥٧٨ .

(٢) سورة التوبة : ٣٨ ، ٣٩ .

يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلم بريدة بن الحصيب ، وأمره أن يبلغ الفرع وبعث أبا رهم الغفارى إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وبعث أبا واقد الليثى فى قومه ، وخرج أبو الجعد الضمرى فى قومه بالساحل ، وبعث رافع بن مكيث وجندب ابن مكيث فى جهينة ، وبعث نعيم بن مسعود فى أشجع وبعث فى بنى كعب ابن عمرو بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم ، وبشر بن سفيان، وبعث فى سليم عدة منهم العباس بن مرداس ، وحضّ رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد)[1] .

(ودعا من حوله من أحياء العرب للخروج معه فأوعب معه بشر كثير ، وبعث إلى مكة ، وتخلف آخرون فعاتب الله تعالى من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين والمقصرين ، ووبخهم وبين أمرهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم ..** ﴾[2] .

وليس من تعليل للتخلف فى بادئ الأمر ، إلا إيثار الدنيا على الآخرة ، ورضوان بها بديلاً عن الثواب والأجر العظيم فى الجهاد .

(إنها ثقلة الأرض ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض ، ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع ، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار ، ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود ، والهدف القريب ، ثقلة اللحم والدم والتراب ، والتعبير يلقى كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : ﴿ **اثاقلتم** ﴾ ، وهى بجرسها تمثل الجسم المسترخى الثقيل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط منهم فى ثقل ، ويلقيها بمعنى ألفاظه : ﴿ **اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق)[3] .

وكيف تقارن الدنيا بالآخرة فى حس المسلم ؟

أخرج الحاكم وصححه عن المستورد رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ ، فتذاكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم : إنما الدنيا بلاغ للآخرة ، فيها العمل وفيها الصلاة وفيها الزكاة .

وقالت طائفة منهم : الآخرة فيها الجنة وقالوا ما شاء الله ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٠ . (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٢٧ .
(٣) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٥٥ .

« ما الدنيا من الآخرة إلا كما يمشى أحدكم إلى اليم ، فأدخل أصبعه فيه ، فما خرج منه فهى الدنيا »[1] .

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه وابن ماجه عن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : كنت فى ركب مع رسول الله ﷺ إذ مر بسحلة ميتة فقال : « أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها » ، قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله ، قال : « فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها »[2] .

وفى رواية : « والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها ، ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء »[3] .

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ﴾ .

لقد كانت آيات الاستنفار السابقة تتحدث عن الأجر العظيم للمجاهد ، لكن الآيات هنا تلقى معانى جديدة ، وتضع فى حس المسلم تهديدات رعيبة .

إنه لأول مرة ، يهدد المسلم بالعذاب الشديد إن تخلف عن الجهاد ، وترسل الرسل إلى كل القبائل فى منازلها ، تدعوهم إلى الجهاد والنفير العام ، بهذه الآيات الحاسمات ، فلا عذر للمتخلفين ، ومن لم يستجب لداعى الجهاد فأمامه العذاب الشديد .

وقد يكون العذاب الشديد هو الضيق والضنك فى الدنيا .

(فقد أخرج أبو داود ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : **﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾** قال : إن رسول الله ﷺ : استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر ، فكان ذلك عذابهم)[4] .

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم / ٤ / ٣١٩ .
(٢) الإمام أحمد / ٤ / ٢٢٩ ، وعند الترمذى / ٤ / ٢٣٢١ .
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم / ٤ / ٣٠٦ .
(٤) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٩٤ .

أو كان العذاب الأليم فى الدنيا بسيطرة العدو على الأرض ، ولعذاب الآخرة أشق .

فعن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **يعذبكم** ﴾ قال : هو حبس المطر عنهم ، قال ابن العربى : فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو فى الدنيا باستيلاء العدو وبالنار فى الآخرة[1] .

ويقول الإمام الطبرى : (القول فى تأويل قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير** ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله متوعدهم على ترك النفر إلى عدوهم من الروم : إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى من استنفركم رسول الله ﷺ ، يعذبكم الله عاجلاً فى الدنيا بترككم النفر إليهم عذاباً موجعاً ، ﴿ **ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ يقول : يستبدل الله بكم نبيه قوماً غيركم ينفرون إذا استنفروا ، ويجيبونه إذا دعوا ، ويطيعون الله ورسوله ، ﴿ **ولا تضروه شيئاً** ﴾ يقول : ولا تضروا الله بترككم النفير ومعصيتكم إياه لأنه لا حاجة به إليكم ، بل أنتم أهل الحاجة إليه ، وهو الغنى عنكم وأنتم الفقراء ، ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ يقول جل ثناؤه : والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم وعلى كل ما يشاء من الأشياء قدير)[2] .

(والخطاب لقوم معينين فى موقف معين ، ولكنه عام فى مدلوله لكل ذوى عقيدة فى الله ، والعذاب الذى يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا ، عذاب الذلة التى تصيب القاعدين ، وهم مع ذلك يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون فى الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدّموا لها الفداء ، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها ، أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .

﴿ **ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ١٤٢ .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ٩٤ .

ويستعلون على أعداء الله ، ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ ولا يقام لكم وزن ، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ، لا يعجزه أن يذهب بكم ، ويستبدل قوماً غيركم ، ويغفلكم من التقدير والحساب)[1] .

والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد .. فأما من غير كراهة ، فمن عيَّنه النبي ﷺ حرم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية ؛ ذكره القشيري . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية وجوب النفور عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم ، وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء ، فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء لأنه متعين ، وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجباً شيئاً لم يجب من قبل ، إلا أن الإمام إذا عيَّن قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين ، ويصير بتعيينه فرضاً على من عيَّنه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام والله أعلم)[2] .

* * *

وكما رأينا أن رسول الله ﷺ بعث رسلاً إلى قبائل بعينها يدعوها إلى الاستنفار ، وهذه القبائل هي نفسها التي كانت قبل الفتح ، وتمتد بين مكة والمدينة وعلى الساحل ، فلم تكن القبائل الكبرى قد أرسلت وفودها بعد ، كما أن الجديد هنا هو دعوة أهل مكة للمشاركة ، فقد غدت مكة أرضاً إسلامية على رأسها عتاب بن أسيد وعالمها معاذ بن جبل ، ولابد من المشاركة في الجهاد مثل بقية القبائل .. ولتبدو طاقة قريش في سبيل الله بعد أن كانت تحاد الله ورسوله .

ولابد أن يرسخ في حس هؤلاء جميعاً ، أن هذا الاستنفار هو لصالح المؤمنين أنفسهم والذي يتخاذل لا يضر إلا نفسه فلن يضر الله شيئاً ولن يضر رسوله .

فحين تخاذلت قوى الأرض كلها عن عبده ورسوله ، كان الله تعالى هو ناصره :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها

---

(١) في ظلال القرآن / ٣ / ١٦٥٥ .

(٢) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ١٤٢ .

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[1] .

فكان النصر وهو يمر من بين ظهرانيهم : ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ﴾ .

خرج رسول الله ﷺ والقوم جلوس على بابه ، فأخذ حفنة من البطحاء ، فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويتلو : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾[2] الآيات ومضى ، فقال لهم قائل : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً ، قال : قد والله مر بكم ، قالوا : والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم ..)[3] .

وكان النصر وهو ثانى اثنين فى الغار كما تحدث عائشة رضى الله عنها :

(ولحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل يقال له : ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب لقن ثقف ، فيخرج من عندهما سحراً فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولًى لأبى بكر منيحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب بغلس ساعة من الليل ، فيبيتان فى رسلهما — وهو لبن منيحتيهما — حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من الليالى الثلاث .

واستأجر رسول الله ﷺ رجلاً من بنى الديل ، ثم من بنى عبد بن عدى هادياً خريتاً — والخريت الماهر بالهداية — قد غمس يمين حلف فى آل العاص بن وائل ، وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ ، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ليال فارتحلا ، فانطلق معهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر والدليل الديلى)[4] .

وكان النصر ، والعدو على باب الغار ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

---

(١) سورة التوبة : ٤٠ . (٢) سورة يس : ١ ، ٢ .

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى عن رواية ابن سعد عن ابن عباس وعلى وعائشة وسراقة / ٤ / ١٠ / ١٩٦ .

(٤) الدر المنثور للسيوطى ، وقد أورده عن ابن سعد وابن أبى شيبة ، وأحمد والبخارى ، ومسلم وهو عند البخارى / ٢ / ٤ / ٧٦ .

لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور . قال : وتبعه أبو بكر رضى الله عنه ، فلما سمع رسول الله ﷺ حِسَّه خلفه خاف أن يكون الطلب ، فلما رأى ذلك أبو بكر رضى الله عنه تنحنح ، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار ، فأصبحت قريش فى طلبه فبعثوا إلى رجل من قافة بنى مدلج ، فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار وعلى بابه شجرة فبال فى أصلها القائف ، ثم قال : ما جاز صاحبكم الذى تطلبون هذا المكان ، قال .. فعند ذلك حزن أبو بكر رضى الله عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا »[1] .

وأخرج أبو نعيم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها : (أن أبا بكر رضى الله عنه رأى رجلاً مواجه الغار فقال : يا رسول الله إنه لرائينا ، قال : « كلا ، إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها » ، فلم ينشب الرجل أن قعد يبول مستقبلهما ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ، لو كان يراك ما فعل هذا »[2] .

لقد قالها موسى عليه الصلاة والسلام لقومه يوم قالوا : ﴿ **إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾[3] ، وقالها محمد عليه الصلاة والسلام : « كلا ، إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها » .

وأخرج أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعروة رضى الله عنهما : (أنهم ركبوا فى كل وجه يطلبون النبى ﷺ ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم فيجعلون لهم الجعل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار الذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه ، وسمع أبو بكر رضى الله عنه والنبى ﷺ أصواتهم ، وأشفق أبو بكر ، وأقبل عليه الهم والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » ، ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه سكينة من الله : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾)[4] .

---

(١) الدر المنثور ، وقد أورده عن ابن مردويه والبيهقى فى الدلائل .
(٢) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٩٧ .
(٣) سورة الشعراء : ٦١ – ٦٣ . (٤) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٩٨ .

(وأخرج ابن سعد ، وابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ... عن أنس رضى الله عنه قال : حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »)[1] .

وأخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال : أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة ، فسمعتهم يتحدثون أن النبى ﷺ ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت فى وجه النبى ﷺ فسترته ، وأمر الله العنكبوت فنسجت فى وجه النبى ﷺ فسترتـه ، و أمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بعصيهم وأسيافهم وهراويهم ، حتى إذا كانوا من النبى ﷺ قدر أربعين ذراعاً فنزل بعضهم فنظر فى الغار فرجع إلى أصحابه ، فقالوا : مالك لم تنظر فى الغار ؟ قال : رأيت حمامتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، فسمع النبى ﷺ ما قال ، فعرف أن الله درأ عنه بهما ، فسمت النبى ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرن فى الحرم ، فأخرج ذلك الزوج كل شىء فى الحرم)[2] .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم التميمى رضى الله عنه « أن النبى ﷺ حين دخل الغار ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض ، فلما انتهوا إلى فم الغار قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أربكم فى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ، فنهى النبى ﷺ عن قتل العنكبوت ، قال : « إنها جند من جند الله » .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن عطاء بن أبى ميسرة رضى الله عنه قال : نسجت العنكبوت مرتين ، مرة على داود عليه السلام حين كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبى فى الغار[3] .

وكما يقول صاحب الهمزية :

---

(١) المصدر نفسه / ٤ / ١٠ / ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) المصدر نفسه / ٤ / ١٠ / ٢٠١ .
(٣) المصدر نفسه : ٤/ ١٠/ ١٩٧ .

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقـاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه ومن شدة الظهور الخفاء

وكان النصر فى الحماية من الفارس الفاتك :

(فارتحلنا والقوم يطلبونا فلم يدركنا منهم إلا سراقة على فرس له ، فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا ، فقال : « لا تحزن إن الله معنا » حتى إذا دنا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة ، فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا وبكيت ، فقال : « لم تبكى ؟ » قلت : أما والله لا أبكى على نفسى ولكن أبكى عليك ، فدعا رسول الله ﷺ وقال : « اللهم اكفناه بما شئت » ، فساخت فرسه إلى بطنها فى أرض صلد ووثب عنها ، وقال : يا محمد ، إن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه ، فوالله لأعمين من ورائى من الطلب ، وهذه كنانتى فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلى وغنمى فى موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لى فيها » ، ودعا رسول الله ﷺ فأطلق ، ورجع إلى أصحابه ، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ، فتلقاه الناس ، فخرجوا على الطريق وعلى الأجاجير ، واشتد الخدم والصبيان فى الطرق : الله أكبر جاء رسول الله ﷺ محمد ، تنازع القوم أيهم ينزل عليه فقال رسول الله ﷺ : « أنزل الليلة على بنى النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك » فلما أصبح غدا حيث أمر)[1] .

إن هذا النصر العظيم على عتاة الأرض ، ومن بين سيوفهم ورماحهم ، إيذان بأن البشر حين يستنفرون للجهاد إنما يجاهدون لأنفسهم ولكرامتهم ، أما عبده ورسوله ﷺ فالله تعالى حاميه وناصره ، حين لم يكن معه من أهل الأرض إلا صاحبه ، أبا بكر رضى الله عنه ، فكان هو الذى يخفف على صاحبه الذى نصره بقوله له : « لا تحزن إن الله معنا » .

والآية تشى أن هذا النصر لابد أن يتم لدين الله ، وتكون كلمة الذين كفروا

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم / ٧ / ٧ الدر المنثور - ٤ / ١٠ / ١٩٥ . وقد أورده عن البراء بن عازب فيما أخرجه أحمد والشيخان وابن أبى شيبة وابن سعد .

السفلى وكلمة الله هى العليا ، وما هذا النصر العظيم فى الغار وهو الوحيد مع صاحبه إلا دليلاً حياً على الإرادة الربانية بالتمكين لهذا الدين .

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[1] .

وبهذه الآية ، كان الاستنفار قد بلغ ذروته ، وكما يقولون فى المصطلحات العسكرية : استنفار رقم واحد - فالمطلوب من كل مسلم أن يلبى النداء بما لديه من إمكانات ، خفافاً وثقالاً .

وتأتى الروايات لتوضح هذا اللفظ بما يحويه من معانٍ متعددة (نُشاطاً وغير نشاط) و (مشاغيل وغير مشاغيل) و (فتياناً وكهولاً) و (شباباً وشيوخاً) و (فى العسر واليسر) ، وعن مجاهد رضى الله عنه :

قال : قالوا : إن فينا الثقيل وذا الحاجة والصنعة والشغل والمنتشر به أمره فى ذلك ، فأنزل الله : **﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾** وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم .

وحين فقه السلف العظيم هذا المعنى مضوا سراعاً إلى التلبية :

(أخرج ابن سعد ، وأبو يعلى ، وابن أبى حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية : **﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾** قال : أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباناً ، وفى لفظ : فقال : ما أسمع الله عذر أحدا، جهزونى ، قال بنوه : يرحمك الله تعالى قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى ، فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه فيها)[2] .

(وأخرج ابن سعد ، والحاكم عن ابن سيرين رضى الله عنه قال : شهد أبو أيوب رضى الله عنه بدراً ثم لم يتخلف عن غزوة للمسلمين[3] إلا عاماً واحداً ، وكان

---

(١) سورة التوبة : ٤١ . (٢) الدر المنثور /٤ / ١٠ / ٢٠٩ .

(٣) والمعروف عنه أنه توفى رضى الله عنه فى القسطنطينية ، وقبره مشهور هناك .

يقول : قال الله : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً)[1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أبى راشد الحبرانى قال : رأيت المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو ، فقلت : لقد أعذر الله إليك ، قال : أبت علينا سورة البعوث : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ يعنى سورة التوبة)[2] .

يقول ابن جرير الطبرى :

(وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائهم فى سبيله خفافاً وثقالاً ، وقد يدخل فى الخفاف كل من كان سهلاً عليه النفرة لقوة بدنه على ذلك وصحة جسمه وشبابه ، ومن كان إذا تيسر بمال وفراغ من الاشتغال وقادراً على الظهر والركاب . ويدخل فى الثقال كل من كان بخلاف ذلك من ضعيف الجسم وعليله وسقيمه ومن معسر بالمال ومن مشتغل بضيعة ومعاش ومن كان لا ظهر له ولا ركاب والشيخ ذو السن والعيال ، فإذا كان قد يدخل فى الخفاف والثقال من وصفنا من أهل الصفات التى ذكرنا و لم يكن الله جل ثناؤه خصَّ من ذلك صنفاً دون صنف فى الكتاب ولا على لسان رسول الله ﷺ ولا نصب على خصوصه دليلاً ، وجب أن يقال : إن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد وفى سبيل الله خفافاً وثقالاً مع رسوله ﷺ على كل حال من أحوال الخفة والثقل)[3] .

ولابد أن نشير هنا إلى ما أورده العديد من المفسرين عن أبى الضحى وأبى مالك رضى الله عنهما إلى أن هذه الآية هى أول آية أنزلت من سورة براءة :

(أخرج الفريابى ، وأبو الشيخ عن أبى الضحى رضى الله عنه قال : أول ما نزل من براءة : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ ثم نزل أولها وآخرها)[4] .

(وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى مالك رضى الله عنه قال : أول شىء نزل من براءة : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ ثم نزل أولها وآخرها)[5] .

---

(١) و (٢) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٠٩ .
(٣) جامع البيان للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ٩٨ . (٤) و (٥) المصدر نفسه / ٢٠٨ .

وبعد هذا الاستنفار الذى تم قبيل المعركة ، وبعد الرسل الذين توافدوا على القبائل يحثون الناس على الجهاد ، ويدعونهم إلى الالتحاق برسول الله ﷺ ، وبعد التهديد والوعيد الشديد لمن يتخلف عن رسول الله ﷺ ، وحيث أثمر هذا الاستنفار جيشاً قوامه ثلاثون ألف مجاهد ، وبعد أن عاد الجيش من غزوته الميمونة المظفرة ، وألقى عصا ترحاله فى المدينة - جاء كشف الحساب ، وجاء عرض النفوس والقلوب ، والسلوك والمواقف ، وجاء التقرير الشامل لهذه المعركة ، حيث كان القرآن الكريم - كما هو المنهج الربانى - يعرض كل مواقف الضعف ، ويفضح كل مؤامرات النفاق ، ويجلى المخبوء والمستور من النفوس ، وفى عرض الكلام تُعرض كذلك النماذج الخالدة العالية ، والنماذج المقصرة ، والنماذج المعذورة ، بحيث أخذت سورة براءة من الأسماء ما يتناسب مع هذا وكما يقول سيد رحمه الله :

(وردت صفات كثير لسورة براءة فسميت « الفاضحة » لما فضحته من سرائر المنافقين ، ومنها « المنفرة » و « المعبرة » و « المبعثرة » و « المثيرة » و «البَعوث » بفتح الباء لتنفيرها وتعبيرها عما فى القلوب وبعثرته وبعثها للمجاهدين ، وكذلك المدمدمة والمخزية والمنكلة والمشردة)[1] .

يقول الله عز وجل ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾[2] .

لابد من الإشارة ابتداءً إلى عودة الحديث بشكل واضح عن المنافقين ، وحيث

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / هامش صفحة : ١٦٥٧ . (٢) سورة التوبة : ٤٢ - ٤٨ .

إن الحديث عنهم فى سورة التوبة قد أخذ معظم السورة ، فيوحى هذا التركيز الشديد عليهم إلى أنهم قد عادوا للبروز بأعداد ضخمة ، حتى ليذكر العديد من علماء السير أنهم لا يقلون عن المؤمنين .

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر وابن سعد : (كان - أى عبد الله بن أبى - ليس بأقل العسكرين)[1] .

حيث تذكر رواية عبد الرزاق وابن سعد عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك يوم الخميس ، وكانت آخر غزوة غزاها ، وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس ، وعسكر عبد الله بن أبى معه على حدة عسكر أسفل منه نحو ذباب)[2] .

لكن فى هذا الكلام مبالغة واضحة ، فالأسماء التى ذكرت عن المنافقين لا تزال تتكرر بشكل دائم ، وبعضها اختفى من قبل ، وبعضها برز من جديد ، ولقد انتبه لهذه المبالغة ابن حزم رحمه الله ، وبخاصة هذا النص الذى يقول : (وكان عسكره - فيما يزعمون - ليس بأقل العسكرين) .

والملاحظ أن النص عن ابن إسحاق جاء بصيغة التضعيف : (وكان - فيما يزعمون - وليس بأقل العسكرين)[3] .

وهى عند الواقدى : « فكان يقال : ليس عسكر ابن أبى بأقل العسكرين) [4] .

وقد دحض ابن حزم رحمه الله هذه المقولة فقال :

(وضرب عبد الله بن أبى عسكره بناحية غازياً مع رسول الله ﷺ ، فكان عسكره - فيما يزعمون - ليس بأقل العسكرين ؛ وهذا باطل ؛ لأنه لم يتخلف معه إلا ما بين السبعين إلى الثمانين فقط ، وإنما وقع هذا فى يوم أحد ، وفيه أيضاً نظر ، وقد قيل : إنه لم يكن يومئذ معه أقل العسكرين . والصحيح أنه كان فى دون ما معه ﷺ يوم أحد ، وأما من كان مع عبد الله بن أبى فى غزوة تبوك ممن تخلف عنه

(١) و (٢) سبل الهدى الرشاد / ٥ / ٦٣٨ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥١٩ . (٤) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٥ .

بعد مسيره عليه السلام ، فأهل النفاق وأصحاب الريب فى العدة المذكورة)[1] .

ونعود بعدها للآيات الكريمة :

﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ... ﴾ .

(أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قيل له : ألا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ؟ فقال رجلان : قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن فأذن لنا ؟ فأذن لهما ، فلما انطلقا قال أحدهما : إن هو إلا شحمة لأول آكل ، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه فى ذلك شيء فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه : **﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ﴾** ، ونزل عليه : **﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾** ، ونزل عليه : **﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾** ، ونزل عليه : **﴿ إنهم رجس ومأواهم جهنم .. ﴾**[2] .

(وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما : **﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾** قال : غنيمة قريبة ، **﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾** قال : المسير ، وأخرجه ابن أبى حاتم عن السدى رضى الله عنه فى قوله : **﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾** يقول : دنيا يطلبونها ، **﴿ وسفراً قاصداً ﴾** يقول : قريباً)[3] .

(وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : **﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾** قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولكن تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد)[4] .

ويلخص ابن جرير رحمه الله المعنى بقوله :

(يقول جل ثناؤه للنبى ﷺ ، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه بالتخلف عنه حين خرج إلى تبوك فأذن لهم : لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك فى ترك الخروج معك إلى مغزاك الذى استنفرتهم إليه **﴿ عرضاً قريباً ﴾** يقول : غنيمة

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم / ٢٥١ .
(٢) و (٣) و (٤) الدر المنثور للسيوطى / ٥ / ١٠ / ٢١٠ .

حاضرة ، ﴿ **وسفراً قاصداً** ﴾ يقول : وموضعاً قريباً سهلاً لاتبعوك ونفروا معك إليهما ، ولكن استنفرتهم إلى موضع بعيد ، وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم لأنك استنهضتهم فى وقت الحر وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكنّ ، ﴿ **وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ يقولون : لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور وما لابد للمسافر والغازى منه ، وصحة البدن والقوى ، ﴿ **لخرجنا معكم** ﴾ إلى عدوكم، ﴿ **يهلكون أنفسهم** ﴾ يقول : يوجبون لأنفسهم بحلفهم بالله كاذبين الهلاك والعطب لأنهم يورثونها سخط الله ويكسبونها أليم عقابه ، ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ فى حلفهم بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ؛ لأنهم كانوا للخروج مطيقين بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال مما يحتاج إليه الغازى فى غزوه ، والمسافر فى سفره وصحة الأبدان وقوة الأجسام)[1] .

(وإنه لنموذج مكرور فى البشرية ذلك الذى ترسمه تلك الكلمات الخالدة :

﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ .

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون فى الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص ، كثيرون تعرفهم البشرية فى كل زمان وفى كل مكان ، فما هى قلة عارضة ، إنما هى النموذج المكرور ، وإنهم ليعيشون على هامش الحياة ، وإن خيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ،ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالى ، فالثمن القليل لا يشترى إلا التافه الرخيص !

﴿ **وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ .

فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً ، وما يكذب إلا الضعفاء ، أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا فى صورة الأقوياء الجبارين فى بعض الأحايين ، فالقوى يواجه ، والضعيف يداور ، وما تتخلف هذه القاعدة فى موقف ، ولا فى يوم من الأيام)[2] .

وحين نعود إلى آخر عهدنا مع المنافقين فى القرآن ، نلاحظ صورة متناقضة تمام التناقض عن المنافقين ، وذلك حين كان الأمر عرضاً قريباً وسفراً قاصداً .

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ٩٨ .

(٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٦٢ .

كان ذلك فى سورة الفتح ، وحين تحلّبت أشداقهم للمغانم ، ورجوا رسول الله ﷺ أن يأذن لهم فى الجهاد معه ، فرفض بأمر الله تعالى :

﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً * قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾[1] .

فعندما تكون مغانم قريبة ، وسفراً سهلاً يرجون : **﴿ ذرونا نتبعكم ﴾** .

وإذا عوقبوا العقوبة الصارمة : **﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا ﴾** .

أما إذا كان الهدف عندهم هو القتال ، فالامتحان قادم : **﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾** .

وتعرض الروايات هؤلاء القوم على أنهم (هوازن) أو (ثقيف) أو (فارس) أو (الروم) أو غير ذلك . وهذه تبوك صورة تكشف عن حقيقة ما فضحهم الله به .

وهذه بعض أقوالهم التى تعرّيهم تماماً :

(يا بنى ما لى وللخروج فى الريح والحر الشديد والعسرة إلى بنى الأصفر ، فوالله ما آمن خوفاً من بنى الأصفر وأنا فى منزلى ، أفأذهب إليهم أغزوهم)[2] .

(يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال)[3] .

وهكذا يبدو الخط متصلاً تماماً ، والحديث عن المنافقين متتابعاً من الحديبية إلى تبوك ، وكأنما لا يوجد بينهما أى فاصل زمنى ، مع أنه حقيقة يتجاوز السنوات

---

(١) سورة الفتح : ١٥ ، ١٦ . (٢) من أقوال بعض المنافقين لابنه.السبل / ٥ / ٦٣٢ .
(٣) المصدر نفسه / ٥ / ٦٣٩ .

الثلاث ، لكن الصورة الأولى تعريهم وهم يتكالبون على الغنيمة ويطلبون اتباع المؤمنين ، بينما هم يتخاذلون عندما دعوا إلى قتال القوم أولي البأس الشديد ، وقد رأينا صورة عارية عن قلوبهم فى الفقرتين السابقتين .

﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ .

(أخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير عن عمرو بن ميمون الأودى رضى الله عنه قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء ، إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت** ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مورق العجلى رضى الله عنه قال : سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ قال : ناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا)[1] .

قوله تعالى : **﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾ .**

(أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ الآيتين ، قال : هذا تفسير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال : ﴿ **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم** ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله** ﴾ الآيتين ، قال : نسختها الآية التى فى سورة النور : ﴿ **إنما المؤمنون الذين يؤمنون بالله ورسوله ...** ﴾ إلى ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾[2] ، فجعل الله النبى ﷺ بأعلى النظرين فى ذلك ، من غزا غزا فى فضيلة ، ومن قعد قعد فى غيرِ حرج إن شاء)[3] .

(١) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢١٠ .　(٢) سورة النور : ٦٢ .　(٣) المصدر نفسه .

ونلحظ صورتين متقابلتين بين سورة النور وسورة التوبة :

فعلامة الإيمان فى سورة التوبة هو عدم الاستئذان : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ ، وعلامة الإيمان فى سورة النور هو الاستئذان : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ .

وقد يبدو تناقض لأول وهلة بين الصورتين ، إذ كيف يكون الاستئذان وعدمه سيماء المؤمنين ، لكن معرفة وقائع التنزيل تزيل هذا الالتباس .

فالاستئذان فى التوبة وفى غزوة تبوك هو للتخلف عن الجهاد ، والمؤمن لا يستأذن ليتخلف ، وعدم الاستئذان فى النور وفى غزوة الخندق هو للفرار من الجهاد ، والمؤمن لا يغادر الساحة بلا إذن .

وقد ربط ابن عباس رضى الله عنهما بين المعنيين ، حين ذكر أن آية النور نسخت آيتى التوبة ، فالاستئذان قائم للمؤمنين على الحالين ، والأمر لرسول الله ﷺ بعدها فى الإذن لمن شاء من عدمه ، وحين يصدر الأمر النبوى يتكشف الصادق من الكاذب ، فلو لم يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الجهاد ، فهم قاعدون ولن يطيعوا الأوامر ، وبذلك يكشف نفاقهم فى معصيته ، لكن بعد صدور الإذن فلابد من امتحان آخر يتعرون به أمام الناس .

فيبقى وراء ذلك كله هو طاعة الله ورسوله فى كل شيء ولم يسبل القرآن الستر عليهم فيما مضى ، وقد صدر الإذن النبوى لهم ، فيتابع كشف نفاقهم وزيفهم ، ويؤكد أن اعتذارهم وحلفهم هو اعتذار وحلف كاذب بدليل واقع الحال :

﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ .

فهم – ابتداءً – الكاذبون والمسؤولون عن التخلف ، ودليل ذلك عدم الإعداد للغزوة ، وإذا بالإرادة الربانية التى تخطط لهذا الدين وهذه الأمة ألا يكون هؤلاء فى الصف : ﴿ **كره الله انبعاثهم فثبطهم** ﴾ ، فهم ليسوا خارجين على قدر الله ، إنما يتحركون من خلاله ، وإنما كان تثبيطهم عن الخروج لأن الله تعالى يكره أن يكونوا جزءاً من هذا الصف الخالص المحض لله عز وجل ، ولا يريد الله تعالى للمنافقين أن يفسدوا هذا الصف بوجودهم فيهم .

وها نحن إذن نرى من وراء الإذن النبوى ستاراً لقدر الله عز وجل :

فالإذن من جهة مسؤولية شخصية ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ .

والإذن من جهة ثانية تحقيق لقدر الله فى تثبيط هؤلاء المنافقين لكراهة الله تعالى لانبعاثهم مع هذا الجيش .

وتوافق الإذن النبوى مع القدر الربانى ، لا ينفى العفو عن الإذن ، وأن الأصل ألا يكون الإذن لهم حتى يتبين الذين صدقوا ويتبين الكاذبون .

لقد أذن عليه الصلاة والسلام للمنافقين ، وعاتبه ربه على ذلك ، رغم أن الإذن حقق قدر الله الخير لهذه الأمة ، وهذا الجيش وهو كراهة انبعاثهم فى الصف الإسلامى .

وفضحهم الله تعالى بكذبهم وبخلو قلبهم من الإيمان ، حين استأذنوا وقعدوا وتخلفوا ، مع أن الإرادة الربانية فى كراهة انبعاثهم فى الجيش الإسلامى ، وقيل اقعدوا مع القاعدين .

* * *

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ .

(حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال : كان الذين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم إن يخرجوا معهم فيفسدوا عليه جنده ، وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ فعلى هذا التأويل : وفيكم أهل سمع وطاعة منكم لو صحبوكم أفسدوهم عليكم بتثبيطهم إياهم عن السير معكم ، وأما على التأويل الأول فإن معناه : وفيكم منهم سماعون يسمعون حديثكم لهم فيبلغونهم ويؤدونه إليهم عيون لهم عليكم)[1] .

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٠٢ .

قال أبو جعفر : (وأولى التأويلين عندى فى ذلك بالصواب تأويل من قال : معناه : وفيكم سماعون لحديثكم لهم يبلغونه عنكم عيون لهم ، لأن الأغلب فى كلام العرب فى قولهم (سماع) وصف من وصف به أنه سماع للكلام ، كما قال جل ثناؤه فى غير موضع من كتابه : ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ واصفاً بذلك قوماً بسماع الكذب من الحديث ، وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيه وقبول منه وانتهائه إليه ، فإنما تصفه بأنه له سامع مع مطيع ولا تكاد تقول هو له سماع مطيع)[1] .

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم ، بل لزادوهم اضطراباً وفوضى ، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين ، ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين .

ونقف هنا عند دور هؤلاء المستأذنين فى المجتمع الإسلامى .

لقد أشار المفسرون إلى أنهم سادة فى قومهم ، وذكروا منهم نموذجين هما عبد الله ابن أبى والجد بن قيس ، ولا عجب فى ذلك ، فعبد الله بن أبى كان قومه يجمعون له الخرز ليتوجوه ملكاً عليهم وذلك بعد بعاث ، وقبل مقدم النبى ﷺ ، والجد ابن قيس هو سيد بنى سلمة كما ورد فى الحديث :

« من سيدكم يا بنى سلمة » ، قالوا : الجد بن قيس على أنا نزنه بالبخل ، فقال : « وأى داء أدوأ من البخل ؟ » قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال : « بشر بن البراء بن معرور »[2] .

وحين تحدثنا عن النفاق من قبل ، قلنا : إن عبد الله بن أبى قد سقط بعد غزوة أحد ، واحترق بعد غزوة بنى المصطلق ، وانهارت زعامته على قومه من الخزرج ، كما أن الجد بن قيس قد سقط بعد الحديبية حين اختبأ فى ظل ناقته ولم يجرؤ على

(١) المصدر نفسه .
(٢) مجمع الزوائد للهيثمى / ٩ / ٣١٥ وقال فيه : رواه الطبرانى بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخى الطبرانى ، ولم أر من ضعفهما .

البيعة ، لكن الآيات هنا تشير إلى أن فى المسلمين سماعين لهم ، فهل هذا يعنى أن فى الصف الإسلامى من لا يزال مخدوعاً بهذه الزعامة الفارغة ؟

لا أرى ذلك ، ويقوى هذا النفى التفسير الذى اختاره الطبرى رحمه الله للآية : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ أى : فيكم جواسيس ينقلون أخباركم إليهم . وهذا التفسير الذى اختاره الطبرى ورجحه على لغة العرب هو الذى يتناسب مع وضع المنافقين فى الصف الإسلامى ، الذين انكشفوا وافتضحوا فى المواقف السابقة ، فلم يعد هناك من يسمع لهم من المؤمنين الصادقين ، إنما يستجيب لهم ويتسمع لهم الأخبار جنودهم من المنافقين أمثالهم .

وهذا يؤكد أن التربية الربانية من خلال كتاب الله عز وجل والتربية النبوية على هدى هذا الكتاب ، قد أنهت زعامة المنافقين على المسلمين ، فمنذ اللحظة التى أشار فيها رسول الله ﷺ إلى سقوط زعامة الجد بن قيس بقوله : « وهل من داء أدوأ من البخل » ، فقد سقط كزعيم فى الصف الإسلامى ، وأصبح مكانه بشر بن البراء ابن معرور رضى الله عنه .

وعلى هذا الفهم يتضح جلياً أن رحمة الله بجيشه وجنده أن ثبّط قيادات المنافقين ، الذين يملكون التخطيط فى الخفاء والتبييت والمكر ، ثبطهم فأبقاهم فى المدينة بعيدين عن جنودهم ، ولو مضوا فى الجيش لأشعلوا نار الفتنة فيه ، ولكن :

﴿ **كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ .

وماضيهم النتن دليل واضح على ذلك :

﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾ .

(أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر عن الحسن البصرى قال : كان عبد الله بن أبى ، وعبد الله بن نبتل،ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور** ﴾ إلى آخر الآية)[1] .

(١) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢١٢ .

ويقول الإمام ابن جرير :

(يقول تعالى ذكره : لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك يا محمد ، التمسوا صدَّهم عن دينهم وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذيل عنه كفعل عبد الله ابن أبى بك وبأصحابك يوم أحد حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه ، وذلك كان ابتغاؤهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب رسول الله ﷺ من الفتنة من قبل ويعنى بقوله : ﴿ من قبل ﴾من قبل هذا ، ﴿ وقلّبوا لك الأمور ﴾ : وأجالوا فيك وفى إبطال هذا الدين الذى بعثك الله به الرأى بالتخذيل عنك وإنكار ما تأتيهم به ورده عليك ، ﴿ حتى جاء الحق ﴾ يقول : حتى جاء نصر الله وظهر أمر الله وظهر دين الله الذى أمر به وافترضه على خلقه وهو الإسلام ، ﴿ وهم كارهون ﴾ يقول : والمنافقون لظهور أمر الله ونصره إياك كارهون ، وكذلك الآن يظهرك الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر)[1] .

(فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبد الله ابن أبى بن سلول عسكره على ذى حدة أسفل منه ، نحو ذباب جبل بالجبانة أسفل من ثنية الوداع ، وكان – فيما يزعمون – ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب ، وكان عبد الله بن أبى أخا بنى عوف بن الخزرج ، وعبد الله بن نبتل أخا بنى عمرو ابن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت أخا بنى قينقاع ، وكانوا من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد للإسلام وأهله ، قال : وفيهم كما حدثنا ابن حميد عن .. الحسن البصرى أنزل الله : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ الآية)[2] .

* * *

﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ .

(روى ابن المنذر ، والطبرانى ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن جابر عن عبد الله رضى الله عنهم ،

---

(١) و (٢) جامع البيان للطبرى / ٦ / ١٠ / ١٠٣ .

وابن عقبة ، ومحمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر رحمهم الله تعالى عن شيوخهم ، زاد ابن عقبة : أن الجد بن قيس أتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد معه نفر فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى القعود ، فإنى ذو ضبعة[1] ، وعلة فيها عذر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « تجهز فإنك موسر » – ثم اتفقوا –: فقال رسول الله ﷺ : « تجهز ، تجهز ، فإنك موسر لعلك تحتقب من بنات بنى الأصفر ؟ » قال الجد : أوتأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى ما أحد أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذِنّا لك » . زاد محمد بن عمر رحمه الله تعالى : فجاء ابنه عبد الله ابن الجد وكان بدرياً وهو أخو معاذ بن جبل لأمه ، فقال لأبيه : لم ترُد على رسول الله ﷺ مقالته ، فوالله ما فى بنى سلمة أحد أكثر مالاً منك ،فلا تخرج ولا تحمل ؟؟

فقال : يا بنى ، مالى وللخروج فى الريح الشديد والحر الشديد والعسرة إلى بنى الأصفر ، فوالله ما آمن خوفاً من بنى الأصفر وأنا فى منزلى ، أفأذهب إليهم أغزوهم ، وإنى والله يا بنى عالم بالدوائر ، فأغلظ له ابنه وقال : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلن على رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرأ به ، فرفع نعله فضرب به وجه ولده ، فانصرف ابنه فلم يكلمه ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى : إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عن نفسه يقول :

(وإن جهنم لمن ورائه)[2] .

وهكذا يعود القرآن صراحة ليدفع المنافقين بالكفر ، وأن جهنم محيطة بهم ، وذلك ليقطع كل الحبال بينهم وبين المؤمنين ، وصدق عبد الله بن الجد فقد أنزل الله بأبيه قرآناً يتلى .

إنه الجيل القديم الذى ذبح على مذبح الشهرة والمنصب من أمثال عبد الله بن أبى والجد بن قيس ، ولم يستطع أن يدخل فى هذا الدين إلا مرغماً ليكيد له من الداخل .

---

(١) ضبعة : شدة شهوة الفحل للناقة.

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٢ .

بينما كان أبناؤهما – عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وعبد الله بن الجد – من خيار المؤمنين ، وهما اللذان تبرآ من أبويهما وحارباهما فى الله عز وجل ، فمن يبقى لهذه الزعامات إلا أضرابهما من المغموص عليهم بالنفاق ، إن كان أولادهما ليحاربانهما فى الله تعالى .

* * *

وبعد هذه الفضيحة الأولى للذين استأذنوا وتخلفوا عن الجهاد ، يأتى عرض نماذج أخرى لنتن قلوبهم وراء هذا التخلف :

﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ .

وتؤكد هذه الآيات عداوة القوم للمسلمين ، وتخرج أضغانهم ، فهم يفرحون بمصاب المسلمين ، ويسوؤهم نصر الله والفتح ، هذه هى حقيقة قلوبهم ، وحيث إن التعامل مع هذه القلوب ، فلابد أن يفقه هؤلاء من الرابح ومن الخاسر .

إن مصيبة المؤمن لا تخرج عن إطار إحدى الحسنيين ، فما يعتبرونه مصيبة وقتل وذبح هو عند المؤمن أمل وغاية الشهادة .

(والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، إنما هى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة).

فهو المعنى الذى أطلقه الأمير الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة ها هو الآن يواجهُ الله تعالى به أعداءه ، فإن شفت المصيبة صدور قلوب المنافقين ، فهى تشفى صدور المؤمنين ، الذين يرغبون بها لما وعدهم الله تعالى به عليها فهم : **﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾**[1] .

إن المنافقين ، إن أصاب المسلمين مصيبة من قتل أو جرح ، يتولوا وهم فرحون .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ .

والمؤمنون الذين يرزقون الشهادة ، هم : ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] .

فالحسنى الثانية إذن يشترك فيها الفريقان بالعواطف ، بغض النظر عن أسباب ذلك ، أما الحسنى الأولى ، فهى التى تسوء المنافقين ، لكنها للمؤمنين فرحة :

﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون* بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾[2] .

فالفرحة للمؤمنين على الحالين ، لأن الحالين فوز ! فوز بالشهادة أو فوز على العدو . أما المنافقون، فالسوء يغمرهم ، ويختصهم على الحالين ، فأى شيء ينتظرون .

إنهم ينتظرون عذاب الله فى الآخرة ، على كفرهم وجحودهم أو عذابهم بأيدى المؤمنين . فالخسار قائم فى الحالين ، كما أن الفوز قائم فى الحالين عند المؤمنين .

(فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال ، النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض ، أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله ، وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؛ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ، أو يبطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل بالمشركين ، ﴿ **فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾والعاقبة معروفة .. والعاقبة للمؤمنين)[3] .

وقد مثل عبد الله بن أبى هذا المعنى صراحة ، وليس مخبوءاً فى الصدر ، ذلك أنه علل عدم متابعته للنبى ﷺ بفقهه بالحروب ، وأخذه للأمر من قبل ، وعدم التورط فى مغامرات خاسرة .

وذلك حين قال : (يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال،إرجافا برسول الله ﷺ وبأصحابه)[4] .

وفى أثناء هذا العرض الرباني ، عمق الإسلام مفهوم القدر فى نفوس عباده المؤمنين فى كلمة شاملة جامعة مانعة :

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٠ (٢) سورة الروم : ٤ ، ٥ .

(٣) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦٦٥ . (٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٩ .

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

ولقد نزلت هذه الآية ، وعدد الجيش الإسلامى ثلاثون ألف مجاهد ، وفقه الجيل الأول مفهوم التوكل ، فاندفع إلى الجهاد لا يخشى موتاً أو يخاف على دنيا .

ولذلك ارتبطت هذه المفاهيم عند الجيل الأول بثلاث قيم :

القيمة الأولى : دور العمل الخير مع التوكل :

(فقد أخرج ابن أبى حاتم عن مسلم بن يسار رضى الله عنه قال : الكلام فى القضاء والقدر واديان عريضان ، يهلك الناس فيهما لا يدرك عرضهما ، فاعمل عمل رجل يعلم أنه لا ينجيه إلا عمله ، وتوكل توكل رجل يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له)[1] .

فالعمل حالة مادية عملية ، والتوكل حالة نفسية وموقف قلبى ، ولا اختلاط بينهما ، ولا تعارض فيهما .

القيمة الثانية : مسؤولية المرء عن عمله فى الشر والمصيبة :

(فقد أخرج أبو الشيخ عن مطرف رضى الله عنه قال : وليس لأحد أن يصعد فوق الشجرة فيلقى نفسه ثم يقول : قُدِّر لى ، ولكن نتقى ونحذر ، فإن أصابنا شىء علمنا أن لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[2] .

والقيمة الثالثة : الرضا بالقضاء بعد وقوعه :

وهو الركن السادس من الإيمان : « وبالقدر خيره وشره من الله تعالى » .

(فقد أخرج أحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لكل شىء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه »[3] .

---

(١) و (٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام السيوطى / ٤ / ١٠ / ٢١٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد / ٦ / ٤٤١ .

وتتكرر هذه المعانى على الصف المؤمن ليزداد الرعيل الأول إيماناً مع إيمانهم ، وليتفقه الجيل الجديد – جيل ما بعد الفتح – بهذه المعانى ، ويتم بناؤهم العقلى والقلبى على ضوئها .

محاولات التغطية :

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون﴾ [1] .

(كان رجال من المنافقين من ذوى الطول يظهرون النفقة إذا رآهم الناس ليبلغ النبى ﷺ ، ويدرؤون بذلك عن أنفسهم القتل)[2] .

(وعن ابن جريج قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال الجد بن قيس : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ، ولكن أعينك بمالى ، قال : ففيه نزلت : **﴿ أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴾** ، قال : لقوله : أعينك بمالى)[3] .

(ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ، ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان ، فردَّ الله عليهم مناورتهم ، وكلَّف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ؛ لأنهم إنما ينفقونه عن رياء وخوف لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين أو عن كره خوفاً من انكشاف أمرهم فهو فى الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله .

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

إنها صورة المنافقين فى كل آن خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول ،

---

(١) سورة التوبة : ٥٣ – ٥٧ . (٢) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٦٤ .
(٣) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٠٦ .

ومظاهر خالية من الروح وتظاهر بغير ما يكنه الضمير .

والتعبير القرآنى الدقيق : ﴿ **ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى** ﴾ .

فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة ، يأتونها كسالى ؛ لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعاً ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين .

وما كان الله ليتقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها عقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع فالباعث هو عمدة العمل والنية هى مقياسه الصحيح .

ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال ، وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين ، فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنئوا بها ، وإنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها :

﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده حين يوفقه إلى الشكر على النعمة والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير ، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره ، والأمل فى الله يسرى عنه ، وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوِّل حياته جحيماً ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ، ويشقى بهم إذا صحوا ، وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وأمثاله فى كل زمان ، يملكون الأموال ، ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء ، عذاب فى الحياة الدنيا وهم – بما علم الله من دخيلتهم – صائرون إلى الهاوية ، هاوية الموت على الكفر ، والعياذ بالله من هذا المصير ...

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

إنهم جبناء ، والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهداً ويجسمه فى حركة، حركة النفس والقلب ، يبرزها فى حركة جسد وعيان : **﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾** ، فهم متطلعون أبداً إلى ملجأ يحتمون به ، ويأمنون فيه ، حصناً أو مغارة ، أو نفقاً ، إنهم مذعورون مطاردون ، يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى ومن هنا :

﴿ يحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ .

بكل أدوات التأكيد ، ليداروا ما فى نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليأمنوا على ذواتهم ، وإنها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء ، لا يرسمها إلا هذا الأسلوب القرآنى العجيب ، الذى يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق)[1] .

* * *

إن مظاهر هؤلاء المنافقين مظاهر خادعة ، فالسعة فى المال ، والإغداق فى الرزق ، تجعلهم يتجملون بين الناس بالثياب الفاخرة ، والمركب الهنىء والرياش والأثاث ، والعطر والتزين ، فيحملون بذلك مقومات الإغراء والاحترام فى المجتمع الذى ينطلق من هذه القيم .

ومن جهة ثانية ، فلهم من عشيرتهم وأولادهم الوفرة والكثرة ، وهذه هى مصدر القوة والعزة فى المجتمع الجاهلى ، وهم يبذلون من أموالهم ، ويغدقون على أمثالهم ، ما يجعل احترامهم واجباً فى هذا المجتمع ، ويملكون من اللسان الطلاوة والحلاوة ، فيتسابقون فى الثناء على الإسلام وأهله وعلى رسول الإسلام ، وإن اقتضى الأمر فهم يشاركون فى الصلاة ؛ لأنهم إن لم يفعلوا ذلك سقطوا فى مجتمعهم ، فهم يؤدون كل البروتوكولات ، والرسميات التى تطلب منهم فى مجتمعهم ليقال عنهم مسلمون صادقون ، أما التضحية بالنفس والانصياع التام لأوامر الله ورسوله ، فهذا يتعالون

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦٦٥ .

عنه ، ويعطون لهذا التعالى صيغة من العقل والحكمة والتجربة ، فهم غير متهورين ، وغير مندفعين بعمى وراء رسول الله ﷺ ، إنهم يوازنون بين حاجة المجتمع ، وتكثير المال وتنميته بأى طريق ، وإكثار الولد والذرية والعشيرة ، ليكون ذلك لهم قوة وسنداً وتمكيناً من الزعامة ، ولا يواجهون التيار الإسلامى ويبقون بالشعرة التى تصلهم به، ويطلبون من وراء ذلك كله ، الزعامة والقيادة والجاه والمنصب ، فإذا بالقرآن الكريم يأتى لهذا البناء الظاهرى الجميل الأخاذ الجذاب ، يأتيه من القواعد ، فيهشم هذه المظاهر جميعاً ، ويبرز كل النتن والحقد والكراهية المخبوء فى صدورهم ، وكل الزيف والنفاق والرياء الذى يتمسحون به ، فيظهرون على قبحهم عراة ، سافلين منحطين ، كافرين :

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾.

وبعد أن يصمهم القرآن بالكفر . فقد هوت معه كل تلك الأباطيل .

ومن جهة ثالثة ، حيث يأتى هذا الوصف الحسى للمنافقين ، فله هدف آخر فى الواقع ، إنه يخاطب عشرات الألوف من الذين دخلوا فى هذا الدين ، وهو يحذر كل فرد منهم بعينه أن يكون من هذا النموذج الساقط ، والذى يحسب نفسه أنه مختفٍ عنه الأنظار ، فقد يوهم نفسه ذلك ، لكن بعد هذه الفضائح ، فسوف يكشف كما كشف غيره ، فليعد إلى ذاته ، وليراجع قلبه وليحاسب ذاته ، وليقوِّم واقعه على ضوء هذه المواصفات ، وليبادر إلى التوبة ، وليقلع عن الشك والنفاق قبل أن يفتضح أمره كما افتضح أمر تلك الزمرة الخائنة فى المدينة .

إنها تربية شاملة عميقة لكل نفس تسمع ، وتعى ، وتحس وتبصر ، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ...

وعندما خرج قارون بزينته **﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾**[1] ، لكن عندما خسف به :

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء

---

(١) سورة القصص : ٧٩ .

ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

فإن خسف بهذه المجموعة المنافقة ، المفضوحة ، فليتق الله كل أحد فى هذا الجيش الإسلامى ، أن يخسف به ويفتضح أمره لو أظهر غير ما أبطن ، وليسارع إلى التوبة قبل أن ينزل به ما نزل بأمثاله من الكافرين والمنافقين .

المظاهر تتشابه ، بل قد تبـدو مظاهر المنافقين أجمل ، وأوسم وأنعم ، وأرغد ، لكن عند الدخول للقلوب ، وعند استخراج ما فى الصدور ، إذا بالفقير ذى الطمرين ، رث الثياب ، أنصع قلباً ، وأنقى صدراً ، وأعمر إيماناً ، وأثبت يقيناً من طلاع الأرض من أولئك المنافقين .

وهذا هو البناء وهذه هى التربية .

* * *

الطعن برسول الله ﷺ :

﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضـوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون * إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم * ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم * يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم ﴾(١) .

﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ :

نزلت فى ثعلبة بن حاطب ، كان يقول : إنما يعطى محمد الصدقات من يشاء ، يتكلم بالنفاق ، فجاء النبى ﷺ فأعطاه فرضى ، ثم جاءه فلم يعطه فسخط ، يقول

---

(١) سورة التوبة : ٥٨ – ٦٣ .

عز وجل : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ يقول : لم يسخطوا إذا رده رسول الله ﷺ أو أعطاه قليلاً بقدر ما يجد ، ﴿ **وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ يقول : حسبُ نبيه وقال : إن الله سيرزقنا ، وإذا جاء رسول الله ﷺ مال أعطانا ، قال الله عز وجل : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله** .. ﴾ ، ويروى عن رسول الله ﷺ أن سائلاً سأله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يكلها إلى ملك مقرب ولا نبى مرسل حتى جزأها على ثمانية أجزاء ، فإن كنت من جزء منها أعطيتك ، وإن كنت غنياً فصداع فى الرأس وأذىً فى البطن »[1] ، والفقراء فقراء المهاجرين الذين كانوا لا يسألون الناس ، والمساكين الذين كانوا فى الصفة فى عهد النبى ﷺ ، ﴿ **والعاملين عليها** ﴾ يعطون قدر عمالتهم ونفقتهم فى سفرهم ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ ليس فى الناس اليوم ، ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ يعنى المكاتبين ، ﴿ **والغارمين** ﴾ يعنى الذين عليهم الدين يقضى عن الرجل دينه ، ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ يعنى المجاهدين ، ﴿ **وابن السبيل** ﴾ الرجل المنقطع به فى غير بلده فيعان ويحمل وإن كان فى أهله موسراً ، وهذه الصدقات ينظر فيها فإن كان أهل الحاجة والفاقة فى صنف واحد فوضع ذلك فيه أجزأه إن شاء الله .

﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم** ﴾ :

نزلت فى عبد الله بن نبتل ، قال : كان يقول : إنى لأنال من محمد ما أشاء ، ثم آتى محمداً فأحلف له فيقبل منى ، يقول الله عز وجل : ﴿ **أُذُن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ يعنى : أنه يقبل من المؤمنين ، ﴿ **ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله** ﴾ يعنى : ابن نبتل ، ﴿ **لهم عذاب أليم** ﴾[2] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس ابن سويد بن الصامت ومخشن بن حمير ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا بالنبى ﷺ ، فنهى بعضهم بعضاً ، وقالوا : نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه ابن سعد عن زياد بن الحرث الصدائى .
(٢) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٦٥ .   (٣) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٢٧ .

(وأخرج البخارى ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما النبى ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى ، فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : « ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟! » ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية[1] ، فينظر فى قذذه[2] فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى نضيه[3] فلا يرى فيه شىء ، ثم ينظر فى رصافه[4] فلا يرى فيه شىء ، ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء ، قد سبق الفرث والدم[5] ، آيتهم رجل أسود ، إحدى يديه – أو قال : ثدييه – مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر[6] ، يخرجون على حين فرقة من الناس » ، قال : فنزلت فيهم : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ... ﴾ الآية . قال أبو سعيد : أشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جىء بالرجل على النعت الذى نعت رسول الله ﷺ)[7] .

إن الذين يجرؤون على لمز رسول الله ﷺ والطعن فيه ، هم قوم لا خلاق لهم فى الدين أو العقيدة ، وليس فى قلوبهم ذرة من الإيمان برسالته ، ولذلك يستعرضهم القرآن ويفضحهم حتى تستبين هويتهم للناس ، ولعل ذا الخويصرة التميمى أول من تجرأ علناً على ذلك ، وقال للرسول ﷺ : (أراك لم تعدل) ، وهَمَّ عمر رضى الله عنه بقتله ، لولا أن الرسول ﷺ نهاه أو لم يأذن له . وتحدث عمن يخرج من صلبه أو من مذهب أولئك الذين يدخلون فى هذا الدين تحقر صلاة المسلمين إلى صلاتهم ، وصيام المسلمين إلى صيامهم ويخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرَّمية ، ليس عندهم منه شىء . وكان هذا فى غنائم حنين . قبل أشهر خلت من تبوك ، ونجد الصورة تتكرر فى تبوك أو قبلها وأثناء الإعداد لها ، واللمز فى الأصل أن يكون فى الخفاء ومن أجل هذا نرجح أن تكون الرواية الثانية التى أوردها السيوطى فى الدر المنثور عن ثعلبة بن حاطب هى الأنسب للعرض القرآنى .

---

(١) الرمية : الصيد الذى تقصده . (٢) قذذه : ريشه .
(٣) نضيه : القدح قبل أن ينحت . (٤) رصافة : عقب يلوى على موضع الفوق .
(٥) سبق الفرث والدم : يعنى مر مراً سريعاً فى الرَّمية لم يعلق به شىء .
(٦) تدردر : تتحرك . (٧) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢١٩ .

وحيث إن البشر قد يتطرق لذهنهم هاجس حول توزيع الصدقات . وحدث أن الأنصار عتبوا على رسول الله ﷺ أن أعطى قوماً وتركهم ، فقد جاء القرآن الكريم ليعطى القول الفصل فى هذا الموضوع ، ويبين توزيع الصدقات ومستحقيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبى حتى جزأها ثمانية أجزاء ... » .

والنيل من عدل رسول الله ﷺ – وهو إمام العادلين فى الأرض – يتبعه النيل من يقظته ﷺ وقد شرف بعقله فوق الخلائق جميعاً ، فيأتى حفنة من الأخساء الأنذال ليتحدثوا عن أنهم يحلفون لرسول الله ﷺ فيصدقهم ، ويسمع لكل ما يقولون .

إن عظمة هذا النبى فى هذا الوجود أنه الرحمة المهداة ، فهو الرءوف الرحيم بأمته ، والحريص على هدايتهم . وحين يأذن لهم أو يغضى عن إساءتهم أو يقبل ظاهرهم ، إنما هو خوف من هلاكهم وخسارهم فى الدارين ، ويأتى القرآن الكريم ليلجم هؤلاء المنافقين بأنهم قادمون على العذاب الأليم فى الآخرة والدنيا ، حين ينالون من رسول الله ﷺ .

ولا شك أن هذه النماذج الخسيسة تضع شخصية الرسول ﷺ هدفاً رئيسياً للنيل منه والطعن فيه ، فإن نجحت فى ذلك ، فقد أوفت على الغاية ، لكن أنَّى لها ذلك والله تعالى لها بالمرصاد يمسكهم بالجرم المشهود ، ويفضحهم على رؤوس الخلائق ، وكانت هذه هى الخطوة الثانية فى عملية التعرية والكشف للمخططات المخبوءة .

* * *

الطعن بالصالحين فى الصف المسلم :

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم * يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾[1] .

(١) سورة التوبة : ٦٢ – ٦٦

(أخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم أشرُّ من حمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله ما يقول محمد لحق ، ولأنت أشر من الحمار . فسعى بها الرجل إلى النبى ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذى قلت ؟ » ، فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قاله ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدّق الصادق وكذّب الكاذب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم ..** ﴾ الآية[1] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى رضى الله عنه مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار)[2] .

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم ﴾ :

يقول تعالى ذكره : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذى يحلفون بالله كذباً للمؤمنين ليرضوهم وهم مقيمون على النفاق ، أنه من يحارب الله ورسوله ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليه ﴿ **فأن له نار جهنم** ﴾ فى الآخرة ﴿ **خالداً فيها** ﴾ يقول : لابثاً فيها إلى غير نهاية ﴿ **ذلك الخزى العظيم** ﴾ يقول : فلبثه فى جهنم وخلوده فيها هو الهوان والذل العظيم)[3] .

﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ :

(أخرج ابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم** ﴾ قال : يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله ألا يفشى علينا هذا)[4]

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه قال :

---

(١) و (٢) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٢٨ .
(٣) جامع البيان للطبرى / ٦ / ١٠ / ١١٨ .
(٤) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٢٩ .

كانت هذه السورة تسمى الفاضحة ، فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المثيرة ، أنبأت بمثالبهم وعوراتهم)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين** ﴾ :

(أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس ما أرينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسنة ، ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل فى المجلس : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾)[2] .

قال ابن إسحاق :

(وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى عمرو بن عوف ، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشن بن حُمَيِّر ، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ! ، والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال مخشن بن حميِّر : والله لودت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإنا ننفلت أن ينَّزل فينا قرآن لمقالتكم هذه .

وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر : « أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل ، بلى : قلتم كذا وكذا » ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت : ورسول الله ﷺ واقف على ناقته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض**

---

(١) الدر المنثور للسيوطى /٤ / ١٠ / ٢٢٩ .   (٢) المصدر نفسه / ٢٣٠ .

ونلعب .. ﴾ ، وقال مخشن بن حمير ، يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، وكأن الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر)[1] .

(وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **بأنهم كانوا مجرمين** ﴾ قال : فكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود ، وتجِل منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتى قتلاً فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسَّلت ، أنا كفَّنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين إلا وجد غيره)[2] .

وعند الواقدى قال : (كان نفر منهم فى غزوة تبوك : وديعة بن ثابت ، وجُلاس ابن سويد ومَخشن بن حُميِّر الأشجعى حليف بنى سلمة ، وثعلبة بن حاطب ، فقال ثعلبة : أتحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنهم غداً مقرنين فى الحبال ! وقال وديعة : إن قراءنا هؤلاء هم أوعبنا بطوناً ، وأحدثنا نسبة ، وأجبننا عند اللقاء ، فقال النبى ﷺ لعمار بن ياسر : « أدركهم فقد احترقوا » : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بأنهم كانوا مجرمين** ﴾ ، فالذى عُفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حُميِّر ، والذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب وديعة بن ثابت وجاء إلى النبى ﷺ يعتذر إليه فنزل : ﴿ **قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ ، والذى قال كلمة الكفر الجُلاس بن سويد ، والذى عُفى عنه فى هذه الآية لمخشن بن حُميِّر ، فتيب عليه فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، وسأله أن يقتل شهيداً ، لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة شهيداً)[3] .

(وذكر جميعهم أنه استشهد يوم اليمامة وكان تاب وسمى عبد الرحمن ، فدعا الله أن يقتل شهيداً ولا يعلم قبره ، واختلف هل كان منافقاً أو مسلماً ، فقيل : كان منافقاً ثم تاب توبة نصوحاً ، وقيل : كان مسلماً إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم)[4] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٧ / ٢ / ٥٢٥ .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٦ / ١٠ / ١١٩ .
(٣) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٦٦ .
(٤) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ١٩٩ .

لقد كان دافع الكفر والنفاق عند المنافقين أقوى من الإيمان الواهى فى قلوبهم ، ولكنهم كانوا يتوجسون خيفة عقب كل حديث يتسارون به بينهم ، من أن ينزل الله فيهم قرآناً يتلى ، ولذلك كان الفزع دائماً مرافقاً لهم .

ولئن كانت الآيات السابقات تتحدث عنهم فى المدينة ، وعن تخلفهم وتثبيطهم للصف المؤمن ، وأن جمهرتهم قد انخذلوا وتخلوا عن رسول الله ﷺ ، إلا أن هذه الآيات تكشف لأول مرة عن وجود جواسيس منهم بقوا داخل الصف المسلم بمهمات محددة ، ليراقبوا الجو ، وينقلوا الأسرار ، ويثيروا التشكيك والبلبلة ، وعندما قال الله تعالى عنهم : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم** ﴾ ، فقد صدق قول الله عز وجل فيمن بقى منهم فى الصف المسلم ، وتحركوا ليثيروا البلبلة فى الصف ، ولم يجدوا إلا النيل من خيار المؤمنين ، فيتهموهم بالجشع والبطنة ، كما يتهمونهم بالكذب ويتهمونهم بالجبن عند اللقاء ، وهذه الصفات هى صفات المنافقين فى الحقيقة ، يضفونها على المؤمنين ، كما هى الحال على مدار التاريخ بين الصالحين والفاسقين ، فالفاسقون والسفلة من الأمة يشيعون على المؤمنين دعاوى الكذب ، ودعاوى الخيانة ، ودعاوى الاهتمام بالمادة ، وكبر البطن ، بل ويتهمونهم فى أخلاقهم وعفافهم ؛ لأنهم يعلمون أنفسهم ساقطين،فلعلهم بهذا الاتهام يسقطون هؤلاء الصالحين فى مجتمعهم ، ولا يعودون هم المحتقرون وحدهم فى المجتمع ، إنهم لا يدعون نقيصة يملكونها إلا ويلصقونها بالشرفاء والمخلصين من أبناء الأمة ، ويعودون ليتحججوا بالوطنية والخلق والشرف ، والحمية للقوم ، والذود عن الوطن ، ومثل هذا الأمر قد يقتنع به بعض المخدوعين والسذج فى وقت يسود فيه الباطل ، وتكون الكلمة للطغاة والمفسدين ، أما فى هذا الصف المسلم الذى يكون الأمر فيه لله تعالى ولرسوله ، فسرعان ماتنهار الادعاءات ، والقرآن الكريم يفضحهم ويخرج ما كانوا يحذرون ، والطفل المسلم يعرف هذه الافتراءات فينقلها لأولى الأمر .

كما تشير هذه الروايات إلى أن المجموعة التى تكيد فى الخفاء وهى أربعة أشخاص ، وبينهم رجل فى شد وجذب بين الإيمان والنفاق وهو مخشن بن حمِّير والذي غلبه إيمانه بعد ذلك فراح يبكى ويرجو العفو ، فناله ، وصدق النية ، بأن رجا الشهادة سراً خالصة لله سبحانه فرُزِقها ، وعفا الله عنه ، لكن المجرمين الآخرين قد استحقوا غضب الله ولعنته ، وأطلق عليهم الكفر صريحاً دون مواربة: ﴿ **لا تعتذروا قد كفرتم**

بعد إيمانكم ﴾ ، فهم قد آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يهتدون .

والاعتذار بالخوض واللعب والذى يقع عند كثير من أبناء الصف المسلم ، هو مرفوض قطعاً حين يصل إلى حد الاستهزاء بالله ورسوله أو بآياته ، أو النيل من أشخاصه ، والطعن فى الصادقين فيه .

وحين يستمع الجيش الإسلامى كله إلى هذه الآيات تتلى عليه ، والتى تمس نفراً محدوداً أحدثوا حدثاً فافتضحوا فيه ، لابد أن تعرض المواصفات العامة للنفاق والمنافقين ، حتى يراجع كل امرئ نفسه ، ويعود إلى ذاته ، قبل أن ينزل الله تعالى به قرآناً يتلى .

* * *

المواصفات العامة :

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم * كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون * ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

(وعندما يصل السياق إلى هذا الحد فى استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين ، وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين :

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ .

---

(١) سورة التوبة / ٦٧ - ٧٠ .

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة ، والمنافقون فى كل زمان ومكان تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد ، سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة ، تلك سماتهم الأصيلة ، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس ، وهم حين يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، يستخفون بهما ويفعلون ذلك دساً وهمساً ، وغمزاً ولمزاً ؛ لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون ، إنهم ﴿ **نسوا الله** ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويداورونهم ، ﴿ **فنسيهم** ﴾ الله فلا وزن لهم ولا اعتبار ، وإنهم لكذلك فى الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك فى الآخرة عند الله ، وما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء الذين يجهرون بآرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ، ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، يجاهدون ويحاربون أو يسالمون فى وضح النهار ، أولئك ينسون الناس ليذكروا إلٰه الناس ، فلا يخشون فى الحق لومة لائم أولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم .

﴿ **إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ : فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار : ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم** ﴾ وفيها كفايتهم وهى كفاء إجرامهم ، ﴿ **ولعنهم الله** ﴾ فهم مطرودون من رحمته .. ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾)[1] .

* * *

إن الحديث عن المنافقات حديث جديد لم يكن من قبل ، وهذا يعنى أن النماذج التى ذكرت هى نماذج مشهورة أما المنافقون المتسترون فى الخفاء ولم يحدثوا حدثاً يتعرون فيه ، والمنافقات القابعات فى البيوت اللاتى يتجاوبن مع دعاوى المنافقين ، ويرددن أفكارهم ، ويسلكن سلوكهم ، وينفذن مخططاتهم ، فهم يتم التعرف عليهم بهذه المواصفات المذكورة .

والتربية القرآنية تريد من الصف المسلم أن يكون محصناً من النفاق رجاله

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٧٣ .

ونسائه ، فحين تتضح مواصفات هذا النفاق ، يحذر الولد أمه وأخته إن كانتا بهذه السمات ، كما تحذر الفتاة أباها وأخاها إن كانا فى هذه السمات .إن الإسلام يريد ابتداء أن يعزل هذه المجموعة كلها من صفه عزلاً تاماً ، فلذلك قال عنهن : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ ، هم متداخلون فيما بينهم عالمهم وجوهم ونجواهم ، ولم يعد الإسلام بحاجة الآن إلى أن يتحدث عن مواصفات الكافرين والجاحدين فقد انتهوا الآن من الساحة ، وسقطت كل الرايات المحاربة والمضادة لله ورسوله ، وكان من السهولة قبل أن يتميز المعسكران ، فالذى يعبد الله تعالى غير الذي يعبد الطاغوت ، أما الآن فالدعوى واحدة ، الجميع يتحدثون عن الإيمان بالله واليوم الآخر ويصلون ، ويزكون ، بل ويجاهدون . فكيف يتم التميز ؟

لابد أن يتم هذا التميز بمواصفات جديدة ، والجيش الإسلامى الذى سار إلى تبوك ثلاثين ألفاً .. والمسلمون وراءه هم الأرض العربية كلها ، واحتمال بروز المنافقين ، قائم فى كل مكان ، صحيح أن وكر النفاق ومركزه المدينة ، لكن لابد أن يكون له امتداد فى كل مكان ، فالمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض هدفهم واحد ، ومشربهم واحد ، فلابد من دراسة سلوكياتهم ليحكم من خلالها على حقيقتهم .

ولذلك كان أول ما برز من مواصفاتهم أنهم متداخلون فى بعضهم بعلاقاتهم ونجواهم ، يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتوجيهاتهم تنصب ابتداءً على المخالفة ، مخالفة الروح الجماعية العامة للأمة المسلمة ، فالله تعالى ورسوله والمؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، أما هم فأهم سماتهم هو سباحتهم عكس التيار ، ومخالفتهم للروح الإسلامية العامة فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، وهذه السمة هى سمة مكشوفة واضحة بينة ، فكما أن الكفر يضاد الإيمان من جذوره وهو فرق ما بين المؤمن والكافر ، فالمنكر يضاد المعروف ، وهو فرق ما بين المؤمن والمنافق .

ومهما حاول المنافق أن يتخفى ويتظاهر بموافقة المؤمنين ، فما يحويه قلبه من غل وحقد على الإسلام وأهله ، لابد أن يظهر على فلتات لسانه بالتوجيه لمقاومة استقرار الدين فى الأرض وتثبته من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتأتى السمة الثالثة التى ينكشف فيها زيف معدن المنافق من خلال قبض اليد ، فالمال عديل الروح عندهم ، وحيث إن الجهاد مؤقتاً قد توقف فى الأرض العربية ،

فيبقى الجهاد بالمال لا ينقطع ولا يتوقف وهم لا يستطيعون أن يجودوا بالمال إلا مرغمين ، وسرعان ما تنعكس على صفحات وجوههم آثار مطالبتهم بالإنفاق فى سبيل الله .

إنهم يعيشون للناس ، لا لله ، لقد نسوا الله ، فكانوا عند الله جل شأنه أقل وأذل من أن يعبأ بهم ، وحسبهم منه جل وعلا أن يكون جزاؤهم جهنم ، وهم البديل الآن من الكافرين فى المجتمع الإسلامى حيث يضرب الإسلام بجرانه فى الأرض ، وهم بالأصالة كالكفار وقود جهنم يصلونها وبئس المصير .

والدليل على أنهم صنو الكفار هو المصير الذى ذكره الله تعالى للأمم قبلهم من الطغاة والعتاة والمجرمين والمفسدين فى الأرض ، أقوام الأنبياء الذين حاربوهم حتى فتح الله بينهم وبين قومه بالحق ، وهو خير الفاتحين :

﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ .

(هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة ليست جديدة ، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال ، ولقد حوى تاريخ هذه البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز ، وقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الأرض ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فلم يغن عنهم من ذلك كله شىء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم لعلهم يهتدون ... إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد ، فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يضنون بالقوة العارضة التى تخول لهم فى الأرض ، لأنهم يخشون من هو أقوى ... وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون فى الأرض ، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ وبطلت بطلاناً أساسياً ، لأنها كالنبتة بلا جذور، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر ، **﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾** الذين

خسروا كل شىء على وجه الإجمال بلا تحديد ولا تفصيل .

ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام ، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون فى طريق الهالكين ولا يعتبرون :

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين ، ويسيرون فى طريق الهلكى ولا يتعظون .. هؤلاء ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ممن ساروا فى نفس الطريق ، **﴿ قوم نوح ﴾** وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليمّ فى تيار الفناء المرهوب ، **﴿ وعاد ﴾** وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، **﴿ وثمود ﴾** وقد أخذتهم الصيحة ، **﴿ وقوم إبراهيم ﴾** وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم ، **﴿ وأصحاب مدين ﴾** وقد أصابتهم الرجفة ، وخنقتهم الظُلّة ، **﴿ والمؤتفكات ﴾** قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين **﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾** فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم ، **﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾** .

إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر ، وما تنفع عظات الماضى ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة اللّه التى لا تتخلف ، ولا تتوقف ، ولا تحابى أحداً من الناس ، وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة والنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين ، عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وهم فى نعمائهم يتقلبون ، وبقوتهم يتخايلون والله من ورائهم محيط)[1] .

* * *

يقول جل شأنه :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٧٤ .

المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم * يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾[1].

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والنفقات فى سبيل الله ، وما كان من طاعة الله ، ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ : وينهون عن الشرك والكفر . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين .

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : إخاؤهم فى الله يتحابون بجلال الله والولاية لله .

إنها الصفحة المقابلة تماماً لصفحة النفاق :

- فالمنافقون بعضهم من بعض ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض .
- والمنافقون والمنافقات يأمرون بالمنكر ، والمؤمنون والمؤمنات يأمرون بالمعروف .
- والمنافقون والمنافقات ينهون عن المعروف ، والمؤمنون والمؤمنات ينهون عن المنكر .
- والمنافقون والمنافقات يقبضون أيديهم ، والمؤمنون والمؤمنات يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة .
- والمنافقون والمنافقات نسوا الله ، والمؤمنون والمؤمنات يطيعون الله ورسوله .

وبذلك فالجزاء من جنس العمل وتترتب النتيجة على المقدمات :

- ﴿ **نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ ، والمؤمنون ﴿ **أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .
- و ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم** ﴾ ، و ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة / ٧١ - ٧٣ .

- والنار للمنافقين هى ﴿ **حسبهم** ﴾ ، أما المؤمنون فلهم فوق الجنات ﴿ **مساكن طيبة فى جنات عدن** ﴾ .
- والمنافقون ﴿ **لعنهم الله** ﴾ ، أما المؤمنون كلهم فـ ﴿ **رضوان من الله أكبر** ﴾ .
- وعند المنافقين فى النار ﴿ **لهم فيها عذاب مقيم** ﴾ ، أما بالنسبة للمؤمنين فـ ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

إن اختلاف الانتساب أولاً ، ثم اختلاف المنهج ثانياً ، ثم اختلاف النتائج ثالثاً ، تجعل الفريقين في تميز ومفاصلة تامين رغم التداخل والتواجد بينهما فى معسكر واحد. وتكمن خطورة القضية ، فيما يترتب على هذه المواقف من النار وبئس المصير ، أو الجنات والمساكن الطيبة ، فلذلك تأتى هذه الصورة لتحسم الموقف فى حس المسلم بينه وبين المنافق بعد أن حسمته فى حسّه بين المؤمن والكافر .

والمؤمنون وهم عائدون من تبوك لمواجهة الكافرين من الروم أهل الكتاب ، هم مدعوون من جديد لمتابعة الجهاد الداخلى فى صفوفهم :

﴿ **يٰأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ .

وإذا كانت المعركة بين المؤمنين والكافرين هى معركة السيف والمواجهة والدماء ، فالمعركة بين المؤمنين والمنافقين هى معركة اللسان ، هى معركة الدعوة المستمرة ، المتابعة المرتبة المحكمة التى تمضى فى سبيلها حتى تبعد أولاً ضعفاء الإيمان عن المنافقين ، حيث قد يتشابه سلوكهم أحياناً ، فيكونون أعضاء فى حزب الله لا أعضاء فى حزب النفاق ، وتهاجم معسكر النفاق ثانياً فتعريه ، وتعرى كل مواقفه ، حتى يسقط كله معنوياً ثم يسقط مادياً ويخسر .

وهذه الأمواج البشرية التى بلغت عشرات الألوف هى نهبة بين قادة معسكر النفاق وقادة معسكر الإيمان ، والمؤمنون والمؤمنات بولايتهم لبعضهم ودقة تنظيمهم ، وإحكام دعوتهم هم القادرون على اكتساب هذه العناصر الجديدة الوافدة ؛ لأن (المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض ، فالولاية تحتاج إلى شجاعة ونجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف ، وطبيعة النفاق تأبى

هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم ، إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة على ما يبدو بينهم من التشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك ، والتعبير القرآنى الدقيق لا يغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء)[1] .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو السلاح الفعال الذى يملكه المؤمنون فيتحركون به فى الصفوف والأمواج البشرية ، ليرفعوا هذه المستويات الوافدة الجديدة صُعداً فى مرتقى الإيمان . وكلما ارتفعت فى هذا المرتقى ، كلما ابتعدت وتميزت عن مستنقع النفاق الآسن .

إن الجهاد الذى لا ينقطع ولا يتوقف فى قلب الدولة المسلمة دائماً هو جهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والسمة التى تميز المجتمع المسلم عن المجتمع الكافر هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[2].

فقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يـٰأيها النبى جاهد الكفار** ﴾ قال : بالسيف ، ﴿ **والمنافقين** ﴾ قال : باللسان ، ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ قال : أذهب الرفق بهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : أمر الله نبيه ﷺ أن يجاهد الكفار بالسيف ، ويغلظ على المنافقين فى الحدود .

* * *

ولابد من ثلاث وقفات استراحة فى لهب الحديث عن المنافقين ، تتناول: المعروف ، والمساكن الطيبة فى جنات عدن ، ورضوان الله .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٦٧٥ .

(٢) سورة الحج : ٤٠ ، ٤١ .

أما الوقفة الأولى فمع المعروف :

(أخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا أهل المنكر فى الآخرة ، إن الله ليبعث المعروف يوم القيامة فى صورة الرجل المسافر فيأتى صاحبه إذا انشق قبره فيمسح عن وجهه التراب ويقول : ابشر يا ولى الله بأمان الله وكرامته ، لا يهوِّلنّك ما ترى من أهوال يوم القيامة ، فلا يزال يقول له : احذر هذا واتق هذا ، يسكن بذلك روعه حتى يجاوز به الصراط ، فإذا جاوز به الصراط عدل ولى الله إلى منازله فى الجنة ، ثم يثنى عنه المعروف فيتعلق به فيقول : يا عبد الله من أنت ؟ خذلنى الخلائق فى أهوال القيامة غيرك فمن أنت ؟ فيقول له : أما تعرفنى ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا المعروف الذى عملته فى الدنيا بعثنى الله خلقاً لأجازيك به يوم القيامة »)[١] .

(وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم أمر منادياً ينادى : ألا ليقم أهل المعروف فى الدنيا فيقومون حتى يقفوا بين يدى الله ، فيقول الله : أنتم أهل المعروف فى الدنيا ؟ فيقولون : نعم . فيقول : وأنتم أهل المعروف فى الآخرة فقوموا مع الأنبياء والرسل فاشفعوا لمن أحببتم فأدخلوه الجنة حتى تدخلوا عليهم المعروف فى الآخرة كما أدخلتم عليهم المعروف فى الدنيا »)[٢] .

وأما الوقفة الثانية فمع المساكن الطيبة فى جنات عدن :

(أخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن الحسن . وأخرج ابن جرير قال : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى قال : حدثنا قرة بن حبيب عن حسن بن فرقد عن الحسن عن عمران بن حصين وأبى هريرة ، قالا : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ومساكن طيبة فى جنات عدن قال : « قصر من لؤلؤة ، فى ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء ، فى كل بيت سبعون

---

(١) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٣٥ .
(٢) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ٢٣٦ .

سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من طعام ، فى كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله أجمع »)[1] .

وأما الوقفة الثالثة فمع رضوان الله :

(أخرج أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى والنسائى ، والبيهقى فى - الأسماء والصفات - عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟! قال : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبداً »)[2] .

* * *

وبلغ المنافقون ذروة تخطيطهم فى تبوك ، فيما بيتوه من اغتيال الرسول ﷺ ، حيث فضحهم القرآن الكريم بذلك :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾[3] .

روى الإمام أحمد عن أبى الطفيل ، والبيهقى عن حذيفة ، وابن سعد عن جبير ابن مطعم رضى الله عنهم وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ، والبيهقى عن عروة ، والبيهقى عن ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخه رحمهم الله تعالى : أن رسول الله ﷺ لما كان ببعض الطريق مكر به ناس من المنافقين ، وائتمروا بينهم

---

(١) الدر المنثور/٤/١٠/٢٣٧ ، وجامع البيان للإمام ابن جرير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٢٤ .
(٢) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٣٩ ، وهو عند مسلم ٤ / ٢١٧٦ ، حديث رقم ٢٨٢٩ .
(٣) سورة التوبة : ٧٤ .

أن يطرحوه من عقبة فى الطريق . وفى رواية كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ فجعلوا يلتمسون غرته ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، وقالوا : إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى ، فأُخبر الله تعالى رسوله بمكرهم ، فلما بلغ تلك العقبة نادى مناديه للناس : إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد . واسلكوا بطن الوادى ، فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادى إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه . فبينما رسول الله ﷺ يسير من العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفروا ناقة رسول الله حتى سقط بعض متاعه وكان حمزة بن عمرو الأسلمى لحق برسول الله ﷺ بالعقبة ، وكانت ليلة مظلمة ، قال حمزة : فنُوِّر لى فى أصابعى الخمس ، فأضاءت حتى جمعت ما سقط من السوط والحبل وأشباههما ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، فرجع حذيفة إليهم ، وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن فجعل يضرب وجوه رواحلهم وقال : « إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى » ، فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم ، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمار » ، فأسرعوا حتى استوى بأعلاها ، وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس وقال لحذيفة : « هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم ؟ » قال : يا رسول الله ، قد عرفت رواحلهم ، وكان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل ، قال : « هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا ؟ » قالوا : لا والله يا رسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى فإذا طلعت العقبة زحمونى فطرحونى منها ، إن الله تعالى قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبركم بهم إن شاء الله » قالوا : أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس أن تضرب أعناقهم ؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده فى أصحابه » ، فسماهم لهما ثم قال : « اكتماهم » فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لى ، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من العقبة ، فقال : « يا أبا يحيى ، أتدرى ما أراد بى المنافقون وما هموا به ؟ » قالوا : نتبعه من العقبة ، فإذا أظلم عليه الليل قطعوا أنساع راحلتى

ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتى » ، فقال أسيد : يا رسول الله ، قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى همَّ بهذا فيكون الرجل من عشيرته هو الذى يقتله ، وإن أحببت – والذى بعثك بالحق – فنبئنى بأسمائهم ، فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم قال : « يا أسيد ، إنى أكره أن يقول الناس : إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم » .

وفى رواية : « إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » ، فقال : يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس يظهرون شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ؟ » قال : بلى ولا شهادة لهم ، قال : « أليس يظهرون أنى رسول الله ؟ » قال : بلى ولا شهادة لهم ، قال : « فقد نهيت عن قتل أولئك » .

وفى رواية الواقدى من كلام أسيد : (.. وإن أحببت والذى بعثك بالحق فنبئنى بهم فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم ، وإن كانوا فى النُبت – أى الأوس – فكفيتكهم ، وأمرت سيد الخزرج فكفاك من ناحيته ، فإن مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله ؟ حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم فى القلة والذلة ، وضرب الإسلام بجرانه فما يستبقى من هؤلاء ؟

وقال ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير : فلما أصبح رسول الله ﷺ قال لحذيفة : « ادع عبد الله » قال البيهقى : أظن ابن سعد بن أبى سرح .. وأبا حاضر الأعرابى ، وعامراً وأبا عامر ، والجلاس بن سويد بن الصامت – وهو الذى قال : لا ننتهى حتى نرمى محمداً من العقبة ولئن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنا إذن لغنم وهو الراعى ، ولا عقل لنا وهو العاقل – وأمره أن يدعو مُجمع بن جارية ، وفُليح التيمى – وهو الذى سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام وانطلق هارباً فى الأرض فلا يُدرى أين ذهب – وأمر أن يدعو حصين بن نمير – الذى أغار على تمر الصدقة فسرقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك ما حملك على هذا ؟ » قال : حملنى عليه أنى ظننت أن الله تعالى لم يطلعك عليه أما إذ أطلعك عليه فإنى أشهد اليوم أنك لرسول الله ، فإنى لم أؤمن بك قط قبل الساعة ، فأقاله رسول الله ﷺ ، وعفا عنه بقوله الذى قاله – وأمر رسول الله ﷺ حذيفة أن يأتيه بطعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينة – وهو الذى قال لأصحابه : اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر

كله ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أنى قتلت يا عدو الله ؟ » فقال عدو الله : يا نبى الله ، والله ما تزال بخير ما أعطاك الله تعالى النصر على عدوك فإنما نحن بالله وبك فتركه رسول الله ﷺ - وقال لحذيفة : « ادع مرة بن الربيع » - وهو الذى ضرب بيده على عاتق ابن أبى ثم قال : تمطى والنعيم كائن لنا بعده، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له : « ويحك ما حملك على أن تقول الذى قلت ؟ » فقال: يارسول الله ، إن كنت قلت شيئاً من ذلك فإنك العالم به ، وما قلت شيئاً من ذلك .

وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربوا الله تعالى ورسوله وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم ، وأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك بعلمه ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ ومات الاثنا عشر منافقين محاربين الله تعالى ورسوله .

وقال حذيفة - كما رواه البيهقى -: ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : « اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا : يا رسول الله . وما الدبيلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك »(١) .

وروى مسلم عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « فى أصحابى اثنا عشر منافقاً ، لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، ثمانية يكفيهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدروهم » . قال البيهقى : وروينا عن حذيفة رضى الله عنه أنهم كانوا أربعة عشر أو خمسة عشر(٢) .

وعند مسلم عن أبى الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال : أنشدك الله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذا سألك . قال - أى الرجل -:كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادى رسول

(١) مسلم / ٤ / ٢١٤٤ ، حديث رقم / ٢٧٧٩ .
(٢) سبل الهدى الرشاد / ٥ / ٦٦٩ .

الله ﷺ ، ولا علمنا بما أراد القوم ، وقد كان فى حرَّة فمشى ، فقال : « إن الماء قليل ، فلا يسبقنى إليه أحد » فوجد قوماً قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ[1] .

إنه بالرغم من كثافة الحديث عن المنافقين فى هذه السورة لكننا نلاحظ أن عددهم محدود ، وشخصياتهم تكاد تكون معروفة ، وذلك من خلال مواقفهم الخبيثة والواضحة للعيان ، فالذين أخبر رسول الله ﷺ عنهم أنهم لا يلجون الجنة هم اثنا عشر منافقاً ، وقد تاب الله تعالى على ثلاثة آخرين ، وجدنا بعض نماذج منهم .

النموذج الأول : الذى مرَّ معنا ، مخشى بن حميِّر ، والذى شارك أو ضحك فى الحديث عن القراء الصالحين من الصحابة ، وتواردت الأخبار عن قتله فى اليمامة شهيدا .

النموذج الثانى : الحصين بن نمير ،وكان ممن شارك فى محاولة الغدر المذكورة .. واعترف أمام رسول الله ﷺ بذنبه ، وأنه كان لا يقر برسالته فعفا الله عنه .

ولا ندرى ثالثهم ، ومع هذا العدد القليل نلاحظ أن الأمر مُبيت من المدينة ، وذلك للقيام بعملية الاغتيال أولاً ،وتنصيب عبد الله بن أبى ملكاً ثانياً ، حيث قد نقل الواقدى أقوالهم ومجالسهم ، وقد فضح الله فى القرآن بعضها .

إن هذه النماذج الساقطة ، والتى تواجه بفضح الله لها ثم تتجاهل هذا الأمر ، وتمضى فى منحدر النفاق تثنى على رسول الله ﷺ فى الوجه ، وتبيت لاغتياله من الخلف .. ومع ذلك يبقى باب التوبة مفتوحاً أمامها ، ويرفض الرسول ﷺ استعمال القتل والسيف فيهم ، ليبقى هذا المجتمع النموذج فى تاريخ الأرض ، فلا يقتل فيه من يقول لا إلـه إلا الله إلا حداً، ولا يرضى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولا لشخصه أن يواجه من نصروه وآووه بقتل واحدٍ منهم ولو كان مغموصاً عليه بالنفاق ، أو يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

* * *

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقن ولنكونن من الصالحين * فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى

(١) مسلم ، كتاب صفات المنافقين / ٤ / ٢١٤٤ / حديث رقم ٢٧٧٩ .

يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾[1] .

(أخرج الحسن بن سفيان ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والعسكرى – فى الأمثال – والطبرانى ، وابن منده ، والباوردى ، وأبو نعيم – فى معرفة الصحابة – وابن مردويه ، والبيهقى – فى الدلائل – وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال :

جاء ثعلبة بن حاطب[2] إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالاً لأعطينَّ كل ذى حق حقه ، قال : « ويحك يا ثعلبة ، أما ترضى أن تكون مثلى ؟ فلو شئت أن يسيِّر ربى هذه الجبال معي لسارت » ، قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه ، قال : « ويحك يا ثعلبة.. قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره » ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى لى ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزقه مالاً » ، فاتجر واشترى غنماً فبورك له فيها ونمت ، كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى عنها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود ، فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالنهار ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالنهار ولا بالليل إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى بها ، فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار .

---

(١) سورة التوبة : ٧٥ – ٧٨ .

(٢) ذكر الإمام ابن حجر العسقلانى رحمه الله أن ثعلبة بن حاطب هذا هو غير ثعلبة بن حاطب البدرى الأنصارى وقال : (وفى كون صاحب هذه القصة إن صح الخبر – ولا أظنه يصح – هو البدرى المذكور قبله نظر . وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبى أن البدرى استشهد بأحد ، ويقوى ذلك أيضاً أن ابن مردويه روى فى تفسيره عن طريق عطية عن ابن عباس فى الآية المذكورة قال : وذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة ابن أبى حاطب من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال : لئن آتانى الله من فضله الآية . فذكر القصة بطولها فقال : إنه ثعلبة بن أبى حاطب ، والبدرى اتفقا على أنه ثعلبة بن حاطب . انظر الإصابة فى تاريخ الصحابة ١ / ٢٠٦ ، ط . دار الكتب العلمية .

وفقده رسول الله ﷺ ، فسأل عنه ، فأخبروه أنه اشترى غنماً ، وأن المدينة ضاقت به ، وأخبروه بخبره . فقال رسول الله ﷺ : « ويح ثعلبة بن حاطب ... » ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** .. ﴾ الآية ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين ؛ رجلاً من جهينة ورجلاً من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، فكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بنى سليم ، فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة ، فقال : أريانى كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم مرَّا بى ، قال : فانطلقا وسمع بهما السليمى فاستقبلهما بخيار إبله فقال : إنما عليك دون هذا ، فقال : ما كنت لأتقرب إلى الله إلا بخير مالى ، فقبلاه ، فلما فرغا مرَّا بثعلبة ، فقال : أريانى كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما : « ويح ثعلبة بن حاطب » ، ودعا للسليمى بالبركة ، وأنزل الله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقنَّ** ﴾ الثلاث آيات ، قال : فسمع بعض من أقارب ثعلبة فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة ، أنزل الله فيك كذا وكذا ، قال : فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل منك » ، قال : فجعل يبكى ويحثى التراب على وجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك بنفسك قد أمرتك فلم تطعنى » ، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى .

ثم أتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر اقبل منى صدقتى فقد عرفت منزلتى من الأنصار ، قال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ، ثم ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأتاه فقال : يا أبا حفص ، يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى ، وتوسل إليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبى ﷺ ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ، ثم ولى عثمان : فهلك فى خلافة عثمان ، وفيه نزلت : ﴿ **الذين يلمزون المطوِّعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ قال : وذلك فى الصدقة)[1] .

* * *

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٤٦ .

حدثنا القرآن عن أخلاق للمنافقين وعن مواقف ، وحين عرض علينا أخلاقهم أبرز أهم ما لديهم من الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وقبض الأيدى ، ومناصرة بعضهم بعضاً على الباطل .

أما المعنى الجديد الذى نراه هنا رغم ارتباطه بحادث معين ، فهو يقدم لنا نموذجاً معيناً كذلك من الناس ، وهذا النموذج يعيدنا إلى الجذور الأولى التى تنبت النفاق فى القلب ؛ لأن الحديث عن النفاق هنا كان عقوبة على موقف ، وليس أصالة فى التكوين الفكرى والنفسى ، نحن هنا أمام نموذج ليس جزءاً من المنافقين ، بل هو جزء من الأمة المسلمة ومن المجتمع الإسلامى ، اختلطت فى ذهنه المعايير ، وأحب تكثير المال ليتصدق إن آتاه الله من فضله ، ووجد أقصر طريق لذلك سؤال رسول الله ﷺ أن يدعو ربه له أن يثرى ويغنى ليتصدق ويكون من الصالحين .

والحقيقة أننا بحاجة إلى العناية الشديدة بنقطة البدء هذه ، فمن هذه النقطة تبدأ زاوية الانحراف بالانفراج ، بعد أن كانت ابتداء متطابقة مع الخط الإسلامى والمنهج الإسلامى الأصليين ، ولسنا أمام نماذج من عتاة المنافقين – كما شهدنا من قبل – بل نرى بأعيننا فى عرض جلى بيِّن ، كما نشهد فى العرض التلفزيونى نقاط المسير واحدة عقب الأخرى نحو النفاق :

لقد عاهد الله تعالى ليصدقنَّ وليكونن من الصالحين .

وجاءت التربية النبوية ، لتوضح لنا الفجوات النفسية على الطريق ، فقال له عليه الصلاة والسلام ابتداء : « ويحك يا ثعلبة .. أما ترضى أن تكون مثلى ؟ لو شئت أن يسيِّر ربى هذه الجبال معى لسارت » ، فإمام المربين عليه الصلاة والسلام أدرك أعماق نفسه وراء هذا الدعاء ، وأن الباعث الحقيقى هو كثرة المال وليس الحرص على الصدقة ، فأخذ بيده يبعده عن هذا المنزلق ، وأزال الغشاوة عن بصره أن له به أسوة حسنة ، ولو شاء دعا ربه فكانت الصفا ذهباً ، ولكنه رضى عليه الصلاة والسلام أن يكون عبداً نبياً لا ملكاً نبياً .

غير أن بريق المال كان أقوى من تأثير الهزة النبوية فى نفسه ، فقد أعماه حبه عن هذا المعنى ، وبقى يؤكد راجياً رسول الله ﷺ أن يدعو له ليرزقه مالاً .

وسقط فى المنزلق الأول .

وكان التحذير الثانى من النبى ﷺ أشد من الأول : « ويحك يا ثعلبة .. قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره » .

ها هو عليه الصلاة والسلام يمسك بقلبه كله فيهزه هزاً عنيفاً لعله يرعوى ، وهو يوضح له خطورة المنزلق ، فالقليل مع الشكر أجدى من الكثير مع البطر ، ومن فقهه عليه الصلاة والسلام لنفسه أوضح له هذا المنزلق ، وعاد ثعلبة من جديد ليقول :

يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالاً لأعطين كل ذى حقٍ حقه ، إنه يعاهد الآن رسول الله ﷺ ، ويعاهد الله تعالى بعهده ليفعلن ذلك .

ترى هل هو كاذب فى عهده ؟

هذا هو الأرجح ، فما قال هذا الكلام إلا حرصاً على الدعاء .

وسقط فى المنزلق الثانى ، فأنى له أن ينجو .

إن القرآن الكريم يعرض لنا صورته جلية بأشد ما يكون الجلاء ، فقد التزم وعاهد ربه إن آتاه الله مالاً ليصدّقن وليكونن من الصالحين . وهو كاذب ، فجاء التوجيه النبوى ليعرض له خطر الإخلاف فى العهد وخطر الادعاء الكاذب ، ولكنه أصر على موقفه . فدعا الله تعالى له .

إنه طلب الامتحان العسير بنفسه ، وكان فى غنىً عنه ، فقليل يؤدى شكره خير من كثير لا يطيق شكره ، وكان ما روى المفسرون فى توسع المال على حساب الدين ، فكلما نما شىء من المال ضاق الوقت عن صلاة الجماعة ، وعن تلقى النور من نور الأمة محمــد عليه الصلاة والسلام ، وبدا نمو المال يجتاح نمو الدين ، فإذا الليل يعقب النهار بالتخلف ، وينمو المال ويضمر الدين ، فإذا به من الجمعة إلى الجمعة ، ثم ينمو المال ويستفحل ، فيأكل ما تبقى من دينه فلا يحضر الجمعة ولا الجماعة ، ويغرق ويستغرق فى ماله ينميه فيطفيه ، وإذا به عندما يأتيه عامل الزكاة يهمهم ويجمجم ثم يقول : ما هذا إلا جزية ، لقد زاغ بصره وطغى ، واحتل المال الكثير كل شىء فى حياته ، وكان مع نمو حب المال فى النفس ينمو النفاق ، فيقضى على نبتة الإيمان التى

انقطعت عن مصدرها الربانى ، انقطعت عن معين النبوة تتلقى منه المدد ، ثم طغى النفاق حتى ملأ كل الساحة .

عنصران رئيسيان هما اللذان نقلاه من ساحة الإيمان إلى ساحة النفاق :

﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

فقد كذب ابتداء بادعائه وهو يقول : **﴿ لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾** ، وأخلف الله ما وعده به من إعطاء كل ذى حق حقه . فكانت الثمرة المرة :

﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ .

وكان الدرس للأمة كلها حتى تقوم الساعة ، إن طريق النفاق هو الكذب والإخلاف فى العهد ، وخيانة الأمانة كذلك صورة واضحة حين احتجز ماله ولم يؤد زكاته .

ويأتى التوجيه النبوى ليصوغ هذا الدرس صياغة للأمة حتى قيام الساعة فيقول :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[1] .

والصياغة الثانية التى تضيف عنصراً رابعاً من عناصر النفاق ، هو عنصر الخصومة :

« أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها ، إذا أوتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[2] .

فنحن إذن أمام نوع جديد من النفاق ، وهو غير النفاق الاعتقادى ، هذا النفاق هو النفاق العملى ، وهو الذى يسرى فى الأمة مسرى الهشيم وعلى الأمة أن تحذره .

وما أحوجنا ونحن نربى الجيل المسلم ، الذى يريد أن يعيد لهذه الأمة استخلافها فى الأرض على منهج الله ، أن نعى لهذه المعانى .

---

(١) و (٢) متفق عليه هو عند البخارى كتاب الإيمان/١/١٥ ، وعند مسلم كتاب الإيمان كذلك/١/٧٨ .

(يقول الحسن بن أبى الحسن البصرى : النفاق نفاقان : نفاق الكذب ، ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب ، فكان على عهد رسول الله ﷺ ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة .

وروى البخارى عن حذيفة رضى الله عنه : أن النفاق كان على عهد رسول الله ﷺ ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان)[1] .

ويحسن ألا نمر على هذا الأمر قبل إيضاح مواقف الأمة وعلمائها منه .

يقول القرطبى رحمه الله :

(الثامنة قوله تعالى : ﴿ نفاقاً ﴾ : النفـاق إذا كان فى القلب فهو الكفر ، فأما إذا كان فى الأعمال فهو المعصية ، قال النبى ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » ، خرجه البخارى . وقد مضى فى البقرة اشتقاق هذه الكلمة ، فلا معنى لإعادتها ، واختلف الناس فى تأويل هذا الحديث :

فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدِّث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهداً لا يعتقد الوفاء به ، وينتظر الأمانة للخيانة فيها ، وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، خارجين من عند رسول الله ﷺ وهما ثقيلان ، فقال على : مالى أراكما ثقيلين ؟ قالا : حديثاً سمعناه من رسول الله ﷺ من خلال المنافقين : « إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا ائتمن خان ، وإذا وعد أخلف » فقال على : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هِبنا رسول الله ﷺ ، قال : لكنى سأسأله ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ما قالاه ، فقال :

« قد حدَّثتهما ولم أضعه على الوضع الذى وضعاه ، ولكن المنافق إذا حدث وهو يحدث نفسه أنه يكذب ، وإذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يُخلف ، وإذا ائتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون » .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٢١٤ .

ابن العربي : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافراً ، وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب (تعالى الله وتقدس عن اعتقاد الجاهلين وعن زيغ الزائغين) .

وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله ﷺ ، وتعلّقوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله ﷺ فى أناس من أصحابه ، فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت : « ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن ، إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، ومن كان فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق » ، فظننا أنّا لم نسلم منهن أو من بعضهن ، ولم يسلم منهن كثير من الناس ، قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « ما لكم ولهن ، إنما خصصت بهنَّ المنافقين كما خصهم الله فى كتابه ، أما قولى : إذا حدَّث كذب ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ – الآية[1] – أفأنتم كذلك ؟ » قلنا : لا ، قال : « لا عليكم أنتم من ذلك برآء ، وأما قولى : إذا وعد أخلف ، فذلك فيما أنزل الله علىَّ : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله** ﴾ – الآيات الثلاث – أفأنتم كذلك ؟ » قلنا : لا ، والله لو عاهدنا الله شيئاً أوفينا به . قال : « لا عليكم أنتم من ذلك برآء ، وأما قولى : إذا ائتمن خان ، فذلك فيما أنزل الله علىَّ : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال** ﴾ – الآية[2] – فكل إنسان مؤتمن على دينه ، فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية ، والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية ، أفأنتم كذلك ؟ » قلنا : لا ، قال : « لا عليكم ، أنتم من ذلك برآء » ، وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة .

وقالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال ، ويظهر من مذهب البخارى وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربى : والذى عندى أنه لو غلبت عليه المعاصى ما كان بها كافراً ما لم يؤثر فى الاعتقاد)[3] .

وبالتدقيق فى هذه الطوائف الثلاث ، التى توزعت عليها الأمة المسلمة ، نرى أنه لا تعارض بينها ، فهى تصب فى مصب واحد :

---

(١) سورة المنافقون : ١ . (٢) سورة الأحزاب : ٧٢ .
(٣) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٢١٤ .

فالطائفة الأولى : تتحدث عن النموذج الذى أصبح الكذب والإخلاف بالوعد وخيانة الأمانة خلقاً وسجية عنده ، يكذب ويعلم نفسه أنه يكذب ، يعد وهو مصمم على الخلف ، يحمل الأمانـة وبذهنه أن يخونها ، أما الذى تفلت منه أحياناً كذبة عن غير قصد ، أو يخلف بوعد ، وهو مقرر الوفاء به وحال دونه حائل مادى أو نفسى ، أو حمل أمانة وهو مصمم على الوفاء بها ، وعجز عن بعض التزاماتها ، فهو فى إثم فردى ، ولكـن لم تصل هذه الأمور أن تكون سجية أو خصلة عنده .

والطائفة الثانية : تتحدث عن الأعمال التى يتشابه بها المنافقون على عهد رسول الله ﷺ مع غيرهم ، فمن كان مثلهم فهو منهم ، من كان يغتسل من الجنابة أمام الناس أو يصلى فى العلانية ويترك الصلاة فى السر أو يعاهد وهو مصمم على الغدر ، أو يزعم الإيمان ويبطن الكفر ، فهو منهم بلا شك .

والطائفة الثالثة : ترى أن تلازم هذه الصفات حتى تكون سجية وخصلة وغلبة على المرء ، فهو منافق إلى يوم القيامة ولكنه نفاق عمل وليس نفاق اعتقاد ، فهو لا يكفر بذلك إلا إذا كان فى أعماقه كذلك ، لكن سمته وسمته النفاق بهذه المواصفات ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم .

وصفوة القول : أن هذا الجيل الذى رباه رسول الله ﷺ ، ذكر منه هذا النموذج الفرد وأمثاله وأضرابه من الذين أخلفوا الله ما وعـدوه وبما كانوا يكذبون ، فإن عرف منه ثعلبة بن حاطب فهو على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، لكنهم مع ذلك قلة قليلة محدودة معدودة بين المسلمين الذين تجاوز عددهم عشرات الألوف ، وإذا كان جيل النبوة لم يخل من أمثال هؤلاء الأفراد ، فلا عجب أن تتكرر هذه النماذج بصورة أكثر فى الأجيال اللاحقة ، لكن عندما تغلب هذه المواصفات على الجيل ، وتغدو سمة أكثر أفراده ، بينما يغدو الصالحون هم القلة النادرة ، عندئذ لن تمكن هذه الأمة ، بل ستتنزل بها العقوبات الربانية لخروجها عن منهج الله ، وعدم استحقاقها نصره وتمكينه .

ويوم أن يعمل دعاة الإسلام فى الأرض لاستئناف الحياة الإسلامية من جديد ، لابد لهم من الابتداء بالتربية بهذه الطلائع ، لتكون خالصة من هذه الصفات ، نقية من هذه السمات ، بريئة من هذه السجايا ، لتأخذ المقود من جديد ، أما إذا بقيت

تحمل أمراض الجاهلية نفسها ، ومواصفات المنافقين أنفسهم ، ولو تحدثت بالإسلام وتبنته ، وجعلته الشعار والدثار ، فلن تصل إلى أهدافها ، ولن تحقق بغيتها ، حتى تدخل فى محضن التربية المذكور ، على الهدى القرآنى والنبوى ، فترتفع بهذه التربية إلى مستوى المسؤولية ، وليس هذا الكتاب إلا مساهمة فى لبنات هذا البناء .

* * *

﴿ الذين يلمزون المطوِّعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم * استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (١) .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم – فى المعرفة – عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدَّق بشىء كثير فقالوا : مراءٍ ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت : **﴿ الذين يلمزون المطوِّعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم .. ﴾** (٢) .

وأخرج ابن جرير ، والبزار ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تصدقوا ، فإنى أريد أن أبعث بعثاً » ، فجاء عبد الرحمن فقال : يا رسول الله ، عندى أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربى وألفين لعيالى ، فقال : « بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت » ، وجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، إنى بتُّ أجر الجرير فأصبت صاعين من تمر ، فصاعاً أقرضه ربى ، وصاعاً لعيالى ، فلمزه المنافقون قالوا : والله ما أعطى ابن عوف الذى أعطى إلا رياء ، وقالوا : أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله : **﴿ الذين يلمزون المطوِّعين ... ﴾** الآية(٣) .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : قام رسول الله ﷺ مقاماً للناس ، فقال : « يـأيها الناس ، تصدقوا أشهد لكم بها يوم القيامة ، ألا لعل أحدكم أن يبيت فصاله

---

(١) سورة التوبة : ٧٩ ، ٨٠ . (٢) و (٣) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٥١ .

راوٍ وابن عمه طاو ، ألا لعل أحدكم أن يثمر ماله ، وجاره مسكين لا يقدر على شيء ، ألا رجل منح ناقة من إبله ، يغدو برفد ويروح برفد ، يغدو بصبوح أهل بيت ويروح بغبوقهم ، ألا إن أجرها لعظيم » ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، عندى أربعة ذود ، فقام آخر قصير القامة قبيح السنة يقود ناقة له حسناء جميلة – وفى رواية : فجاء رجل – لا والله ما بالبقيع رجل أشد سواد وجه منه ، ولا أقصر قامة ، ولا أذَمّ فى عين منه ، بناقة لا والله ما بالبقيع شيء أحسن منها ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه صدقة ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، فقال رجل من المنافقين كلمة خفية لا يرى أن النبى ﷺ سمعها : ناقته خير منه ، فسمعها النبى ﷺ فقال : « كذبت هو خير منك ومنها » ، ثم قام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ، عندى ثمانية آلاف ، تركت أربعة منها لعيالى ، وجئت بأربعة أقدمها لله ، فتكاثر المنافقون ما جاء به ، ثم قام عاصم بن عدى الأنصارى فقال : يا رسول الله ، عندى سبعون وسقاً جذاذ العام ، فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : جاء هذا بأربعة آلاف ، وجاء هذا بسبعين وسقاً للرياء والسمعة ، فهلا أخفياها ، فهلاً فرقاها ، ثم قام رجل من الأنصار اسمه الحبحاب، يكنى أبا عقيل ، فقال : يا رسول الله ، مالى من مالٍ غير أنى أجَّرْت نفسى من بنى فلان ، أجر الجرير فى عنقى على صاعين من تمر ، فتركت صاعاً لعيالى وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى ، فلمزه المنافقون وقالوا : جاء أهل الإبل بالإبل ، وجاء أهل الفضة بالفضة ، وجاء هذا بتمرات يحملها فأنزل الله :

﴿ **الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين** ... ﴾ الآية[1] .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبى قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله وهو القائل : ﴿ **ليخرجن الأعز منها الأذل** ﴾ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ ، قال النبى ﷺ : « لأزيدن على السبعين » ، فأنزل الله : ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم** ﴾[2] .

* * *

(١) الدر المنثور / ٤ / ٨٠ / ٢٥٢ .	(٢) المصدر نفسه / ٢٥٤ .

ونعود إلى عتاة المنافقين الذين نشؤوا فى النفاق ونبتوا فيه ، هؤلاء الذين لم يكتفوا بلمز الرسول ﷺ فى الصدقات ، فراحوا يلمزون المطوِّعين من المؤمنين ، فالحقد والحسد والغل الذى يعتمل فى قلوبهم لا يدعهم يتصورون أن امرأ ينفق فى سبيل الله ، مخلصاً له ، لأنهم يفقهون أنفسهم ولو بحثوا فى أحشائهم عن ذرة إخلاص لما وجدوها ، كيف وهم قد كفروا بالله ورسوله ؟ ولذلك يحسبون الناس جميعاً مثلهم ، فلو أنفقوا نصف أموالهم طيبة بها نفوسهم لجمجموا قائلين : ما هذا إلا رياء ، ولا يتركون حتى فقراء المؤمنين ، المنفقين من جهد المقل ، المنفقون عرق جبينهم، وعصارة جهدهم لله ورسوله ، وكان الإنفاق على مستوى واحد ، فابن عوف رضى الله عنه تصدق بنصف ماله ، وأبو عقيل تصدَّق بنصف ماله وعرقه وجهده ، فقد بات يجر الجرير فى عنقه على صاعين من تمر أبقى صاعاً لعياله ، وجاء بصاع ينفقه فى سبيل الله ، فسخر المنافقون منه - وسرعان ما تنتشر كلمة السخرية - بأن الله غنى عن صاع فلان ، وجاء الذى تصدَّق بناقته الحسناء وقالوا متهكمين ساخرين همازين لمازين : ناقته خير منه . والهدف الأبعد وراء هذه السخرية هو صرف الناس عن الإنفاق كما قال لهم زعيمهم ابن أبى : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وهؤلاء العبيد المهازيل الذين يسخرون من المؤمنين ، ويغضب الله تعالى منهم فيسخر لعباده المؤمنين جزاءً وفاقاً ، لسخريتهم من جنده وحزبه ، وذلك حين ينضمون للمؤمنين يوم القيامة بحجة أنهم كانوا معهم فى الدنيا ، فلهم الحق فى الجنة كما للمؤمنين ، فماذا تكون النتيجة :

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[1] .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ، ونظروا إلى قصورها ، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فيقولون : يا ربنا ، لو

(١) سورة الحديد : ١٣ - ١٥ .

أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما رأينا من الثواب ، وماأعددت فيها لأوليائك كان أهون . قال : ذاك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظيم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلونى ، وتركتم للناس ولم تتركوا لى . فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتم من الثواب »[1] .

ويصل غضب الله عليهم حداً أن يقول لرسوله ﷺ : **﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم .. ﴾** .

وما هو السبب ؟ وهذا لا يعرفه أحد إلا الله ، وهو الذى يطلع نبيه عليه :

﴿ .. ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

فظاهرهم مؤمن ، وباطنهم كافر ، وهؤلاء هم العتاة الذين يؤدون الأدوار المرسومة ،وينفذون المخططات المشبوهة ، ويكيدون للإسلام وأهله .

فى المدينة من جديد :

لقد تحدث القرآن الكريم فيما تناول به المنافقين عن دورهم قبل غزوة تبوك ، ودورهم فى الغزوة ، ثم يبتدئ الحديث معهم بعد العودة من المعركة ، وبعد أن حسبوا أن ظاهر الأمر قد طُلى على المؤمنين ، وأنهم استغفروا فغفر لهم ، وأنه يحلفون لمحمد ﷺ فيصدّقهم ، فهو أذن يسمع كل ما قيل له ، جاءت ساعة الصفر بالنسبة لهم ، وجاء كشف الحساب :

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشدّ حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون * فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾[2] .

(قوله تعالى : **﴿ فرح المخلفون بمقعدهم ﴾** أى بقعودهم ، قعد قعوداً ومقعداً أى جلس وأقعد غيره ؛ عن الجوهرى ، والمخلف : المتروك ؛ أى خلّفهم الله وثبطهم ،

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١٢ / ٤٠٨ .

(٢) سورة التوبة : ٨١ – ٨٣

أو خلّفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا تثاقلهم عن الجهاد . وكان هذا فى غزوة تبوك ، ﴿ **خلاف رسول الله** ﴾ مفعول لأجله ، وإن شئت كان مصدراً ، والخلاف المخالفة ، ومن قرأ ﴿ **خلف رسول الله** ﴾ أراد التأخر عن الجهاد ، ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر** ﴾ أى قال بعضهم لبعض ذلك ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾ أى قل لهم يا محمد : نار جهنم أشد حراً ، أى من ترك أمر الله تعرَّض لتلك النار ، قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ **فليضحكوا قليلاً** ﴾ أمر معناه التهديد وليس أمراً بالضحك ، والأصل أن تكون اللام مكسورة : فحذفت الكسرة لثقلها ، قال الحسن : ﴿ **فليضحكوا قليلاً** ﴾ فى الدنيا ، ﴿ **وليبكوا كثيراً** ﴾ فى جهنم ،وقيل :إنه أمر بمعنى الخبر ، أى إنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً ، ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾)[1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك فى الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله ، الحر شديد ولا نستطيع الخروج ، فلا تنفروا فى الحر ، فقال الله : ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾ ، فأمره بالخروج)[2] .

فهم فرحون ضاحكون ورسول الله ﷺ مع جنده من حزب الله فى الرمضاء والفاقة والشدة ، فهؤلاء ليسوا من هذا المجتمع ، إنهم قد انسلخوا منه ، وإذا فرحوا اليوم فسيرون جهنم غداً فى انتظارهم .

(هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة ، وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان ، هؤلاء المخلَّفون – والتعبير يلقى ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يُخلَّف أو هملاً يترك – فرحوا بالسلامة والراحة ، ﴿ **خلاف رسول الله** ﴾ ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ وقالوا : ﴿ **لا تنفروا فى الحر** ﴾ وهى قولة المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشىء مما يصلح له الرجال .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى/٤/٨/٢١٦ .

(٢) الدر المنثور / ٦ / ١٠ / ٢٥٥ .

إن هؤلاء نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة .. وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ، ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال ، والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوى على الحقيقة :

﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾ .

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية فى الظلال ، كيف بهم فى حر جهنم وهى أشد حراً ، وأطول أمداً ؟ وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة ، فإما كفاح فى سبيل الله فترة محدودة فى حر الأرض ، وإما انطراح فى جهنم لا يعلم مداه إلا الله :

﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ .

وإنه لضحك فى هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء فى أيام الآخرة الطويلة ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ ، فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد وفى ساعة العسرة ، وتخلفوا عن الركب فى أول مرة ، هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يُرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين :

﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ .

إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق ، والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة ، فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب ، فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة ، والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه فى ساحة الرخاء جناية

على الصف كله .

﴿ **فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً** ﴾ لماذا ؟ ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ ففقدتم حقكم فى شرف الخروج ، وشرف الانتظام فى الكتيبة ، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل ، فلا سماحة فى هذا ولا مجاملة : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ المتجانسين منكم فى التخلف والقعود .

هذا هو الطريق الذى رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً ، فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق)[١] .

* * *

لقد صدر الحكم على هؤلاء المنافقين ثلاث مرات :

● كانت المرة الأولى عقب أحد ، حين انخذل عبد الله بن أبى بثلاثمائة من أصحابه ، وكانوا آنذاك ثلث الجيش ، وعندما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، واستعد المسلمون للمسير إلى حمراء الأسد ، وأراد ابن أبى وحزبه تغطية جريمتهم النكراء والتستر عليها بالخروج السهل الجديد ، فكان الأمر قاطعاً :

(ولما كانت صبيحة قدومه ﷺ من أحد أذَّن مؤذنه ﷺ أن يخرجوا خلف قريش وألا يخرج إلا من حضر أحداً ، وذلك إرهاباً للعدو)[٢] .

وبذلك بقى المتخاذلون المخلفون مكشوفى العورة ، تلوح جريمتهم للمجتمع كله ، وحين هم عبد الله بن أبى أن يقف ليدجِّل كما كان يدجِّل من قبل ويدعو لنصرة رسول الله ﷺ بعد أحد :

(أيها الناس ، هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا .

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس أى عدو الله لست بذلك أهلاً وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦٨٢ .   (٢) السيرة الحلبية / ٢ / ٥٥٠ .

بجرا ! أن قمت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد ، فقال ، مالك ؟ ويلك ، قال : قمت أشدد أمره ، فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ؛ قال : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ؛ قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى)[1] .

والظاهر من هذا الموقف أنه لا يزال يعتد بحزبه وقوته وجنده ، فلذلك يتكلم بهذا الصلافة فهو يعرف أن وراءه أنصاراً وأعواناً : (والله ما أبتغى أن يستغفر لى) .

● وكانت المرة الثانية بعد الحديبية ، فالذين تخلفوا وتخاذلوا عنها قائلين : ﴿ **شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً * ولله ملك السمٰوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

وعاد المسلمون من الحديبية ، وكبت الله المنافقين ، وخاب فألهم وظنهم ، وسارعت مكة فعقدت معاهدة صلح مع رسول الله صلوات الله عليه ، فعندئذ أقبل المنافقون ثانية لتغطية جريمتهم وتخاذلهم ، وأعلنوا استعدادهم للجهاد القريب فجاء الحكم القرآنى بمنعهم من ذلك :

﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً** ﴾[3] .

● وأتيحت لهم الفرصة الثالثة ، إلى تبوك ، فكان الموقف نفسه ، لو كان عرضاً قريباً ، وسفراً قاصداً لأجابوا ، ولكن بعدت عليهم الشقة فتخلفوا .

(وجعل الجد وغيره من المنافقين يثبطون المسلمين عن الخروج : قال الجد لجبار

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق / ٢ / ١٠٥ .   (٢) سورة الفتح : ١١ - ١٤ .
(٣) سورة الفتح : ١٥ .

ابن صخر ومن معه من بنى سلمة : لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد ، وشكا فى الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ .

وروى ابن هشام رحمه الله تعالى عن عبد الله بن حارثة رضى الله تعالى عنه قال : بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة ابن عبيد الله رضى الله عنه فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرِّق عليهم بيت سويلم اليهودى ، ففعل طلحة ، واقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا)(١) .

وكان هذا قبل المسير إلى تبوك ، أما بعد المسير :

فـ (عسكر بن عبد الله بن أبى معه على حده عسكره أسفل منه على ذباب ، فأقام ابن أبى ما أقام رسول الله ﷺ ، فلما سار رسول الله نحو تبوك تخلف ابن أبى راجعاً إلى المدينة فيمن تخلف من المنافقين وقال : « يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال ، إرجافاً برسول الله ﷺ وبأصحابه)(٢) .

وعادوا إلى المدينة فرحين مستبشرين ، متأملين أن تكون نهاية رسول الله ﷺ ، كما تأملوا من قبل : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ .

وهم هم بعد أحد ، (عصانى ورد حلفائى ، علام نقتل أنفسنا أيها الناس) .

وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكان الغم الأكبر يوم عاد عليه الصلاة والسلام مظفراًمنصوراً ، بعد أن توقعوا أن يأتى أصحابه مقرنين فى الحبال .

فعاد شعور الخيبة يملأ قلوبهم ، وراحوا يحاولون تغطية هذا الخذلان ، وهذا

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٢ . (٢) المصدر نفسه / ٦٣٩ .

التخلف بالاستعداد للجهاد والبذل ، ولكن بعد أن فات الأوان : ﴿ **قل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ .

إنه إسقاط لهم من الحساب ، وفصل لهم عن الجيش ، وطرد لهم من شرف الجهاد ؛ لأنهم اخذلوا فى ساعة العسرة وتخلفوا فى الشدة ، فلن يسمح لفرد منهم أن يكون جندياً فى هذا الجيش المسلم .

لقد أُعدّ هذا الجيش ليواجه العالم ، وخاض تدريبه العنيف قرابة شهرين أو تزيد ووصل إلى تخوم الشام ، وذلل الأرض للإسلام ، وكان على رأسه محمد ﷺ يفقهه ويدربه ، ويربيه ويوجهه ، ويعده للمواجهة المقبلة الحقيقية مع الروم والفرس .

إن هؤلاء الثلاثين ألفاً هم القاعدة الصلبة المعدة للمواجهة المقبلة ، لقد انتهت تربية القيادات التى استمرت منذ فجر الدعوة الأول إلى الآن ، أما هؤلاء الجنود ، فيكفيهم هذه الدورة التدريبية العنيفة لفترة شهرين ليكونوا مؤهلين لخوض المعركة . إن تكوين القيادات غير تكوين الجنود ، وتربية القيادات غير تربية الأفراد ، ومع ذلك فقد انتفى الخبث من الذين تخلفوا فى المدينة مع ابن أبى ومن الذين انكشفوا داخل الجيش - طابوراً خامساً ، يؤدون دور بث الفرقة والإشاعة فى الصف وبلبلة الأمر : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة** ﴾ ، وكانت قمة مؤامراتهم فى محاولة اغتيال رسول الله ﷺ والفتك به فى العقبة ، حيث دمَّر الله عليهم وكشفهم بأعيانهم وأسمائهم .

والهدف الآخر من التركيز على هؤلاء المخلفين القاعدين ،هو إبقاء الروح المعنوية عالية لدى المجاهدين بحيث لا يتساوون فى النتيجة مع هؤلاء المخلفين ، فلو فكرَّ بعض المجاهدين أن يتوانى أو يتخاذل للقى المصير نفسه الذى لقيه القاعدون ، ولسقط سقوطهم ، وذلك ليبقى الجيش فى تأهبه وروحه العالية وتجانس أفراده ، حتى إن الرسول ﷺ وضع ميزاناً حساساً ومعياراً دقيقاً للخيرية ، فالذى تخلَّف عن المعركة دون عذرٍ له من الله تعالى ورسوله قد فقد الخيرية كلها ولو كان من السابقين ، ولو كان من جيل القيادات ومن الرعيل الأول ، فكانت كلمته عليه الصلاة والسلام من الدقة والخطورة بحيث أزالت كل غبش وكل دخل ، فإذا قالوا : يا رسول الله ، تخلَّف

فلان ، فيقول : « إن يكن به خير فسيلحق بنا » أو يقول لهم :
« وإن كان غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وهكذا نجد أن عبد الله بن أبى يشهد سقوط كل أوراقه ، وكل مخططاته ، وكل تآمره أمام عينه ، وقد سقط حتى أكبر وزرائه وأقرانه من المنافقين رفاعة ابن التابوت .

(وهاجت ريح شديدة بتبوك فقال رسول الله ﷺ : « هذا لموت منافق عظيم النفاق » ، فقدموا المدينة ، فوجدوا منافقاً عظيم النفاق قد مات) وهو من اليهود العتاة الذين أمضوا حياتهم فى الكيد لله ولرسوله وللمؤمنين .

ثم جاء الدور الأخير وسقطت الورقة الأخيرة ، جاء دور عبد الله بن أبى[1] .

وفاة ابن أُبَىّ :

﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[2] .

(أخرج أحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، والنحاس ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم – فى الحلية – عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول ، لماتوفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام عليه فلما وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر ، أخر عنى إنى قد خيرت ، قد قيل لى : **﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾** فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لى ولجراءتى على رسول الله ﷺ – والله ورسوله أعلم – فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : **﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾** ، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل)[3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٥٥ .
(٢) سورة التوبة : ٨٤ ، ٨٥ .
(٣) الدر المنثور /٤٠ / ١٠ / ٢٥٤ .

ومع أن القرآن جاء على لسان عمر رضى الله عنه ، فما هو شعوره تجاه أدبه مع النبى ﷺ ؟

(أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لقد أصبت فى الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط ، أراد رسول الله ﷺ أن يصلى على عبد الله بن أبى ، فأخذت ثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا ، لقد قال الله : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « قد خيرنى ربى فقال : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** ﴾ » ، فقعد رسول الله على شفير القبر ، فجعل الناس يقولون لابنه : يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا ، فقال رسول الله ﷺ : « الحباب اسم شيطان ، أنت عبد الله »)[1] .

وفى رواية ثالثة نلحظ أن ابن أبى هو الذى طلب ذلك :

(أخرج الطبرانى ، وابن مردويه – فى الدلائل – عن ابن عباس أنَّ عبد الله بن عبد الله بن أبى قال له أبوه : أى بني ، اطلب لى ثوباً من ثياب النبى ﷺ فكفِّنى فيه ، ومره أن يصلى على ، قال . فأتاه فقال : يا رسول الله ، قد عرفت عبد الله ونفاقه ، أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ فقال : وأين ؟! فقال : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ ، قال : « فإنى سأزيد على السبعين » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره** ﴾ الآية ، فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك ، وأنزل الله : ﴿ **سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾)[2] .

* * *

(ومرض عبد الله بن أبى فى ليالٍ بقين من شوال ومات فى ذى القعدة وكان مرضه عشرين ليلة ، فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها ، فلما كان اليوم الذى مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه ، فقال : « قد نهيتك عن حب اليهود » ، فقال عبد الله بن أبى : أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه ، ثم قال ابن

---

(١) الدرر المنثور / ٤ / ١٠ / ٥٤ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٥٨ .

أبى : يا رسول الله ، ليس بحين عتاب ! هو الموت ، فإن مت فاحضر غسلى وأعطنى قميصك أكفَّن فيه ... ثم قال : صلى علىَّ واستغفر لى .. فتقدم رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا وكذا وقال يوم كذا وكذا ؟ فعدَّ عليه قوله ، فتبسم النبى ﷺ وقال : « أخِّر عنى يا عمر » ، فلما أكثر عليه عمر قال : « إنى قد خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنى إذا زدت عن السبعين غفر له زدت عليها » وهو قوله عز وجل : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ » ، فيقال إنه قال : سأزيد على السبعين فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يكن إلا يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من براءة : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره** ... ﴾ ، ويقال : إنه لم تزل قدماه بعد دفنه حتى نزلت عليه هذه الآية ، فعرف رسول الله ﷺ فى هذه الآية المنافقين ، فكان من مات لم يصل عليه ...

وكان عمرو بن أمية الضمرى يحدث فيقول :

لقد جهدنا أن ندنو من سريره فما نقدر عليه ، قد غلب عليه هؤلاء المنافقون وكانوا قد أظهروا الإسلام ، وهم على النفاق ، من بنى قينقاع وغيرهم وسعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، وسلامة بن الحمام ، ونعمان بن أبى عامر ، ورافع بن حرملة ، ومالك بن أبى نوفل ، وداعس وسويد وكانوا أخابث المنافقين ، وكانوا هم الذين يعرِّضونه ، وكان ابنه عبد الله ليس شىء أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم ، وكان به بطن ، فكان ابنه يغلق دونهم الباب ، فكان ابن أبى يقول : لا يلينى غيرهم ، ويقول : أنت والله أحب إلىَّ من الماء على الظمأ ، ويقولون : ليت أنا نفديك بالأنفس والأولاد والأموال ، فلما وقفوا على حضرته ، ورسول الله ﷺ واقف يلحظهم ، ازدحموا على النزول فى حفرته ، وارتفعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس . وجعل عبادة بن الصامت يذبُّهم ويقول : اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ! حتى أصيب أنف داعس فسال الدم ، وكان يريد أن ينزل فى حفرته ، فنحى ، ونزل رجال من قومه أهل فضل وإسلام ، وكان لما رأوا من رسول الله ﷺ من الصلاة عليه وحضوره ومن القيام عليه ، فنزل فى حفرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عبادة بن الصامت ، وأوس ابن خولى حتى سُوِّى عليه ، وإن عِلْيَة أصحاب النبى ﷺ والأكابر من الأوس

والخزرج يدلونه فى اللحد ، وهم قيام مع النبى ﷺ .

فكان عمرو بن أمية يقول : ما لقى عليه أصحابه هؤلاء المنافقون ، إنهم الذين كانوا يحثون فى القبر التراب ويقولون : يا ليت أنا نفديك بالأنفس وكنا قبلك ! وهم يحثون التراب على رؤوسهم ، فكان الذى يحسن أمره يقول : قوم أهل فقر ، وكان يحسن إليهم)[1] .

* * *

كان قدوم رسول الله ﷺ المدينة فى رمضان ، وكانت الآيات تترى عليه فى فضح المنافقين والمخلَّفين والمتخاذلين ، وفى أقل من شهر ، كان مرض عبد الله بن أبى الذى استمر عشرين يوماً كما يقول الواقدى وكان أجله فيه .

إن النفاق يحتضر ، فابن أبى هو الذى انخذل بمن معه إلى المدينة ، وهو الذى خطط وبيت لمسجد الضرار ، وهو الذى دعا للتخاذل فى الإنفاق على رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله ، وها هو الآن فى اللحظات الأخيرة .

والحقيقة أنه لولا الآيتان المذكورتان : ﴿ **ولاتصل على أحد منهم** ... ﴾ لكان المؤمن فى حرج أن يذكر ابن أبى بسوء ، لتلك المظاهر الخادعة التى حرص عليها فى آخر حياته يموِّه بها شخصيته .. لكن القرآن الكريم حين يؤكد أنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون ، يتبخر لديه كل تصور آخر أن يكون ابن أبى قد تاب أو تيب عليه ، وعلى ضوء هذه الآية والتى يليها تحكم على تصرفات ابن أبى فى مرض موته ، أن الكفر لا يزال فى قلبه يملأ كيانه كله ، لكن المظاهر التى ترفعه عند قومه يحافظ عليها ، ومن أجل ذلك طلب قميص النبى ﷺ ليتكفن به ، وسواء عن طريق ابنه وهو الأصح أو عن طلبه المباشر ، وطلب أن يصلى عليه رسول الله ﷺ ويستغفر له ، إنه يريد أن يجمع كل مقومات الزعامة ، فلا يفوته منها شىء ، ولا شىء يشرِّفه الآن فى مرض وفاته مثل اهتمام رسول الله ﷺ به ، وتكفينه فى قميصه والصلاة عليه والاستغفار له .

فلا شىء يحدوه لذلك إلا المحافظة على مركزه الاجتماعى المرموق ، ولم يخالط

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٥٨ وما بعدها .

الإيمان بشاشة قلبه ، وحتى حين ذكره رسول الله ﷺ بحبه وتيمه بيهود وأن هذا هو الذى جنى عليه لم يبد منه أبداً أية إشارة ندم . فقد قال :

أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه .

وحتى يتم صفقته كما يتصور عاد فقال : ليس بحين عتاب ! هو الموت .

القضية الثانية هى قضية أزلامه وأنصاره من مردة المنافقين الذين تيموا بحبه ، لقد كانوا حريصين على إعطائه ما يتوق له من الزعامة ، إنهم ينثرون التراب على رؤوسهم ويفدونه بالأموال والأرواح والأولاد ، إنهم فقدوا زعيمهم الروحى والسياسى ، وفقدوا أكبر مراكز قوتهم ، فلا عجب أن يتسابقوا على جنازته ودفنه وغسله وتكفينه ، وكان هذا المنظر يؤذى أكثر ما يؤذى الصحابى المجاهد ابن عبد الله ابن أبى ، الذى وقف وقفة الرجال فى حياة أبيه ، والذى قال لرسول الله ﷺ عندما اقتضى الأمر ذلك القول :

(فمرنى فأنا آتيك برأسه) .

فهؤلاء مشبوهون ، ساقطون ، مغموص عليهم فى النفاق وهم يلوثون سمعة هذا البيت ، لكن الولاء بينهم وبين زعيمهم كان أكبر من كل ولاء : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ ، فكانت وصية ابن أبى : لا يلينى غيرهم .

وبدا حزب النفاق ضعيفاً ، هزيلاً ، حقيراً فى قلب المدينة المنورة ، تمثل بمجموعة من الساقطين يترامون على الوفاء والإخلاص لزعيمهم عبد الله بن أبى .

ولا ننفى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى رضى الله عنه كان حريصاً على توبة أبيه ، وكان يرجو من قميص رسول الله ﷺ وتكفين أبيه به ، ومن صلاة النبى ﷺ واستغفاره لأبيه أن يتوب الله عليه ، ولا يعلم بالقلوب إلا بارئ القلوب .

وننظر الأمر من وجهة النظر الثانية ، من موقف فاروق الأمة عمر بن الخطاب من هذه القضية ، لقد كان فاروقاً حقاً بين الإيمان والكفر ، فقد كان إسلامه نصراً وهجرته فتحاً ، و (مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر) . وكان فاروقاً بين الإيمان والنفاق ، فالمنافقون يرجفون منه ، ويتحاشون القرب منه ، كيف لا ، والشيطان يهرب منه إذا رآه :

« ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا هرب منك » .

فكيف بالمنافقين الخائرين الذين يتدسسون فى الظلام ، ويعملون فى الخفاء ، ويبيتون ما لا يرضى من القول ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلوات الله عليه ؟

كيف يقف هؤلاء أمام جبل الإيمان الشامخ عمر بن الخطاب ؟

ولذلك وكما لم تحتمل أعصابه فى الحديبية الدنية فى الدين – كما بدا لنظره البشرى القاصر لأول وهلة – لم تحتمل أعصابه اليوم أن يرى زعيم النفاق يكرّم ويصلى عليه رسول الله ﷺ ويشهد دفنه ، ويستغفر له ، وفى تجاوب مع خفقات الإيمان وعزة المؤمن ، كان من الجرأة أن يقف أمام رسول الله ﷺ ويطالبه ألا يصلى على عبد الله بن أبى زعيم النفاق ، ورسول الله ﷺ يبتسم وابن الخطاب يعيد إلى ذاكرة المسلمين جرائمه واحدة تلو الأخرى ، ورسول الله ﷺ يصبر ، حتى أعطى جوابه الحاسم :

« أخر يا عمر ، فلو أعلم أنى إن زدت عن السبعين غفر له زدت عليها » .

وهذا الجواب النبوى يؤكد أن رسول الله ﷺ غير مقتنع بصدق توبة ابن أبى ، أو دخوله فى الإسلام ، فهو يعلم أن الله تعالى لا يغفر له ولو زاد على السبعين .

لقد مثّل موقف عمر رضى الله عنه موقف آلاف الرجال المخلصين الصادقين ، الذين آذاهم أن يسدل الستار على جرائم ابن أبى بالصلاة عليه والاستغفار له ، وآذاهم أن يكفن بقميص النبى ﷺ ، لكنهم لا يملكون الجرأة على القول بين يدى رسول رب العالمين .

ومع ذلك ، فكان عمر رضى الله عنه بعد أن هدأت نفسه فى أشد ساعات الحساب ، واللوم لنفسه ، كيف يجرؤ على أن يقول شيئاً أمضى رسول الله ﷺ فيه رأياً معاكساً ، وكيف يقدّم بين يدى رسول الله ﷺ ، ومن أجل ذلك سماها كما فى رواية الطبرانى : (لقد أصبت فى الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط : أراد رسول الله ﷺ أن يصلى على عبد الله بن أبى فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا ...) إلى آخر الحديث .

وقال هذا الكلام مع أن القرآن الكريم جاء برأيه ، لكن الأدب الذى تلقاه مع رسول الله ﷺ دفعه إلى أن ينظر بهذا الموضوع من هذا المنظار .

وهو الذى يمثل قمة من قمم التربية النبوية بلا مراء ، فلا يستهويه أن يأتى القرآن برأيه ولا يبطره أن يصدّق القرآن مقالته ، إنما الذى يقلقه فى هفوته تجاوزه حدود الأدب مع قائده عليه الصلاة والسلام :

« لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط » .

* * *

ونعود بعد هذا كله إلى دراسة أبعاد وأعماق وآماد الموقف النبوى العظيم :

أ ــ لقد كان إكرام عبد الله بن عبد الله بن أبى ابتداء قضية ذات بال عند رسول الله ﷺ ، وهو حين يرى هذا السمو العظيم منه فى استعداده لقتل أبيه فى سبيل الله ، وتخوفه من إقدام غيره على قتله ، فيقدم هو على قتله ، فيقتل مسلماً بكافر ، فيدخل النار ، هذا المستوى العالى لهذا الصحابى العظيم لا يقابله أن يقال له : امض واقتل أباك ،أو يقال لغيره: امض واقتل أبا عبد الله ، إنما يقابله إحسان صحبة هذا المجرم إكراماً لابنه العظيم ، خاصة وقد حقق هذا الولد البار بأبيه – أو أبر الخزرج بأبيه – حقق أعلى مستوى من الانضباط والتخلى عن ذاته فى سبيل الله ، ووقف على مشارف المدينة ، ووضع السيف على عنق أبيه ، وأقسم : (والله لا تنقلب – أى إلى المدينة – حتى تقول أنك أنت الذليل ورسول الله العزيز . ففعل)[1] .

فإذا كان الهدف الرئيسى هو تحطيم التحدى السافر للمنافقين ، فقد تم ذلك وعلى يد ابن زعيم المنافقين ، وإذا كان هذا هو موقف ابنه منه على الملأ ، وتحزبه لرسول الله ﷺ فمن يجرؤ على أن يرفع عقيرته فى نصر ابن أبى ، إذا كان هذا هو موقف ابنه . فإن تقابل هذه المكرمة العظيمة بتلبية طلب الابن البار بأبيه :

(يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله ، وهو يطلب إليك ثوباً من ثيابك تكفنه فيه وتصلى عليه) ، لا غرابة فى ذلك ، وزعيم النفاق اليوم فى موقف الضعف لا فى موقف القوة .

---

(١) شرح المواهب للزرقانى / ٢ / ١٠٢ ، وأورده عن الترمذى .

ولا أرى شبهاً لهذا إلا ما أعطاه رسول الله ﷺ لأبى سفيان من الشرف : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » دون أن يغير شيئاً من الخطة النبوية فى فتح مكة .

يقول الإمام القرطبى : (وقيل إنما أعطاه القميص إكراماً لابنه وإسعافاً له فى طلبته وتطييبا لقلبه)[1] .

ب ـ الجانب الآخر ويختص فى رد جميل لابن أبى فى عنق رسول الله ﷺ ، وهو الذى رجحه الإمام القرطبى فى تفسيره إذ يقول :

(السادسة : واختلف فى إعطاء النبى ﷺ قميصه لعبد الله ، فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله قد كان أعطى العباس عم النبى ﷺ قميصه يوم بدر ، وذلك أن العباس لما أسر يوم بدر – على ما تقدم – وسُلبت ثوبه رآه النبى ﷺ كذلك فأشفق عليه ، فطلب له قميصاً ، فما وجد له قميص يقادره ، إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما فى طول القامة ؛ فأراد النبى ﷺ بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه فى الدنيا ، حتى لا يلقاه فى الآخرة ، وله عليه يد يكافئه بها ، وقيل : إنما أعطاه القميص إكراماً لابنه وإسعافاً له فى طلبته ، وتطييباً لقلبه ، والأول أصح ؛ خرَّجه البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأُتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب النبى ﷺ إياه) ، فلذلك نزع النبى ﷺ قميصه الذى ألبسه .

جـ ـ والجانب الثالث : هو أن رسول الله ﷺ لا يود أن يعترف لحزب النفاق فى الوجود والشرعية ، فحين يمتنع رسول الله ﷺ عن التعامل مع دافع عبد الله بن أبى وزعامته ، وتكون وفاته نقطة للتجمع الأقصى للنفاق ، ويبدو فى ساحة المدينة بوجوده المستقل ، يعنى الاعتراف بهذا الجيب أو الإغضاء عن وجوده على الأقل ، ولا قرت عين النفاق بذلك – فهو أقل وأذل من أن يعترف فيه ، ومن أجل هذا وجدنا أن المسلمين جميعاً يتجهون لحضور عبد الله بن أبى لما حضره رسول الله ﷺ ، ويزحمون تلك المجموعة الملوثة التى حرصت أن تبرز عضلاتها فى وفاته ، واشترك فى التشييع جمهرة المسلمين حتى لا تقر عين المنافقين بذلك التحدى الخاص منهم . وذلك كما

---

(١) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٢٠ .

تذكر رواية الواقدى : (فنزل فى حفرته ابنه عبد الله وسعد بن عبادة بن الصامت وأوس ابن خولى حتى سوِّى عليه ، وإن علية أصحاب النبى ﷺ من الأوس والخزرج يدلونه فى اللحد ، وهم قيام مع النبى ﷺ) .

وبدا حزبه هزيلاً قزماً وهو يبكى عليه ويفديه بالروح والمال حتى أُعطى جانب الرثاء والإشفاق أكثر مما أُعطى جانب الكيد ، فقالوا عن هذا الحزب : قوم أهل فقر ، وكان يحسن إليهم .

د ــ والموقف العظيم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان هدفاً بحد ذاته ، لقد كان تعرية له وفضحاً وهو يدلى فى قبره ، ونبشاً لتاريخه الأسود قبل أن يواريه التراب ، وكان الموقف النبوى العظيم لا يتعارض فى الحقيقة مع هذا الفضح ، فالمنافقون بحاجة أن يفقهوا أن كل شىء عند المسلمين واضح ، وأن المسلمين يعرفون حقيقة ابن أبى وهويته وحزبه ، وإنما فعلوا هذا تكرماً منهم ، ومنَّة منهم لا غفلة منهم ، أو سذاجة منهم ، أو إعطاءهم هوية حسن سلوك لهم ، ولعل الجواب النبوى الحاسم هو الذى قصم ظهر النفاق كله :

- « وما يغنى عنه قميصى » .
- « لو أعلم أنى إن زدت عن السبعين غفر لهم لاستغفرت » .

وعرف حزب النفاق من هذه الإجابة النبوية الحاسمة ، أنه لم يأخذ أبداً جواز عبور إلى الأمة المسلمة ، بهذه الصلاة وهذا الاستغفار ، وهذا القميص ، فلا يزال المنافقون بكل ما فضحوا به ، وعُروا به خلال الشهر الفائت دون عفو ، ودون إجازة ، ودون دخول فى الصف لإيقاع الفتنة فيه .

هـ ــ وكان الجانب السياسى هو الأهم فى هذا الموقف ، هذا الجانب هو أن ينفرط عقد حزب النفاق بوفاة عبد الله بن أبى ، فلا يهتز الحقد من قلوبهم حين يحقر سيدهم ويهان ، ويبقى مدد هذا الحقد زاداً لهم لمتابعة مسيرة النفاق . إن الهدف هو استئصال هذا الحقد من القلوب ، وإشعارهم أن الأمر بين محمد رسول الله ﷺ وبين عبد الله بن أبى ليس تنافساً على زعامة المدينة كما يخبطون ، وليس صراعاً على قيادة الأنصار كما يسقطون ، إنه عند عبد الله بن أبى كذلك ، وهو الذى حال بينه وبين الإسلام . وليس كذلك عند سيد الخلق ، ولا أدل على ذلك من عظمة العفو عند

المقدرة ، وعظمة الصفح عن الإجرام ، وقد عُرض السجل الأسود كله لعبد الله بن أبى ومع هذا كله يكفّنه رسول الله ﷺ بقميصه ، ويصلى عليه ويستغفر له ، وقد أدى هذا الموقف فعلاً مهمته ، لقد انبهر كثير من المنافقين بهذا الموقف الأخلاق العظيم ، ولم يعد عبد الله بن أبى يخرج من القبر ليغذى دواعى الكفر والنفاق عندهم ، ووجدوا ذلك المصير البائس لرئيسهم ينتظر الشفقة من رسول الله ﷺ ، وينتظر الصدقة منه ، صلاة واستغفاراً . فماذا يجدى إصرارهم على موقفهم إذا كان كبير مجرميهم بهذا الضعف ، ينتظر إحسان محمد ﷺ ، ومع الاستغفار له فلا يجدى معه شىء .

إنه الموقف الخلقى العالى الذى سما فوق كل المستويات البشرية ، لينتشل هذا الحزب من التجمع الجديد ، والبحث عن قائد جديد ، فيعود به إلى حظيرة الإسلام بصدق وإخلاص .

يقول الإمام القرطبى رحمه الله :

(وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومى » ، كذا فى بعض الروايات : « ومن قومى » يريد من منافقى العرب . والصحيح أنه قال : « رجال من قومه » ووقع فى مغازى ابن إسحاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله ﷺ ألف رجل من الخزرج)[1] . وفى رواية أبى الشيخ عن قتادة : « إنى لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بنى الخزرج » .

و ــ إن الجانب السياسى فى الإسلام يبقى دائماً لخدمة هذا الدين ، فقد كان بالإمكان أن تنزل هذه الآية : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً...** ﴾ قبل صلاة الرسول ﷺ على عبد الله بن أبى ولكن الحكمة الربانية أن تنزل بعد الصلاة عليه وبعد الاستغفار له ، من أجل غيره ، حتى لا يحسب المغموص عليهم فى النفاق أنهم سيجوزون العقبة فى الدنيا – على الأقل – كما جازها عبد الله بن أبى ، وأنهم سيصلى عليهم كما صلى على عبد الله بن أبى ، فإصرارهم على الكفر سيفضحهم فيما بعد ، وقد أعطيت سماتهم وأسماؤهم وأشخاصهم لرسول الله ﷺ ليعطيها حتى لكاتم أسراره

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٢٢١ .

بعده .. والأهداف التى تحققت من وراء هذه الصلاة ليست موجودة مع أى رجل بعده ، ومن أجل هذا انتهى هذا الأمر الطارئ مع الزعيم الراحل ، وبقى الحكم الثابت الخالد : ﴿ **ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ .

* * *

﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

فلن يكون التعامل معهم من خلال مظاهرهم البراقة الخادعة ، وأموالهم المنقولة وغير المنقولة ، وأولادهم الذين يتباهون بها ويبطرون بها على الناس ، سيكون التعامل مع أعماقهم وقلوبهم التى تنز بالكفر ، وتنز بالحقد ، ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

لقد كان عبد الله بن أبى ممن يأخذ بالألباب فى منطقه وجسمه وهيئته وسحنته ، ومن أجل ذلك عُرِض عليه أن يكون الملك المتوَّج فى المدينة .

يقول أنس بن مالك : رأيت ابن أبى على السرير ، وإنَّ رجليه لخارجتان من السرير من طوله .

فقوام الأجسام ساحر ، واللعب بالألفاظ وحلاوة المنطق ساحرة ، والمال المنفق فى الصد عن سبيل الله ساحر ، فلابد من قذف هذه القيم بعيداً مع المنافقين ؛ لأنها سر عذابهم فى الدنيا ، فبها فتنوا ، وبها صرفوا عن سبيل الله ، وبها عُذِّبوا فى مواجهتهم لأمتهم المسلمة التى انسلخوا عنها ، وفقدان شيء منها – وهى لابد مفقودة – هو فقدان أنفسهم ؛ لأنها حياتهم وهم كافرون بها ومن أجلها .

* * *

﴿ **وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة : ٨٦ ، ٨٧ .

وتبقى تلبية داعى الجهاد الميزان الفاصل بين الإيمان والنفاق ، إنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله ، فلا يعتذرون لأن الكلمة سهلة ، ويعطونها وعشر كلمات ، فهم ليسوا كالكفار المعاندين الذين يرفضون إعطاءها ، ولو أُخذت أرواحهم ، بل ويحاربون حياتهم من أجلها . إن أولئك أصحاب مبدأ ، ولو كان المبدأ باطلاً ، فهم يتحركون مع المبادئ ، والمواقف قائمة على ذلك ، وهؤلاء قال عنهم رسول الله ﷺ :

« وتجدون خير الناس فى هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه »[1] .

أما هؤلاء ، فلا يقفون عند الإيمان بالله ، فقد أعطوا ذلك .. إنما عندما يطلب منهم مقتضيات هذا الإيمان من الجهاد ، فلا مجال هنا للمداراة والمجاراة ، سوف يفقدون جاههم أو مالهم أو ولدهم أو حياتهم ، فلا سبيل أمامهم إلا الاعتذار ، ولا يعيبهم أن يكونوا مع النساء والعجزة وأصحاب العاهات ، وهم المفتولة عضلاتهم ، المتخمة بطونهم ، المنتفخة أدراجهم ، لا يعيرهم أن يكونوا مع النساء والصبيان والضعفة .

(أخرج ابن أبى حاتم ، وابن المنذر ، وابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ قال : مع النساء)[2] .

(وعن السدى فى قوله : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء)[3] .

(وعن قتادة - كما أخرج أبو الشيخ - ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ أى النساء ، ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ أى بأعمالهم)[4] .

وإذا كان من خير الناس أولئك الذين كانوا أشد عداءً له ، قبل دخولهم فيه ، فإن شر الناس أولئك الذين كانوا أشد ما يكون عداءً له وهم فيه ، وهم قد أعلنوا إسلامهم ودخولهم فى هذا الدين ، كما يقول عليه الصلاة والسلام تتمة للحديث السابق :

« وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »[5] .

---

(١) من حديث رواه مسلم / ٤ / ١٩٥٨ ، حديث رقم ٢٥٢٦ .

(٢) و (٣) و (٤) الدر المنثور / ٦ / ١٠ / ٢٦٠ (٥) مسلم ، المصدر السابق .

وهؤلاء هم المنافقون الذين لا يجرؤون على المواجهة بل قد دخلوا بالإيمان وهم قد خرجوا به: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾[1] .

وحتى يتضح الفرق بين الرجال وأشباه الرجال ، نعرض لعلى رضى اللّه عنه وقد فرض عليه المقام فى المدينة :

أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص : أن علي بن أبي طالب خرج مع النبى ﷺ حتى جاء ثنية الوداع ، وعلى يبكى ويقول : تخلفنى مع الخوالف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة ؟ »[2] .

وكم الفرق شاسع بين النموذجين . بين الباكى لبقائه مع الخوالف بمهمة ، والراضى أن يكون معهن بخذلان .

* * *

﴿ **لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾[3] .

وآن الأوان للحديث عن المؤمنين المجاهدين ، بعد أن زكمت الأنوف روائح المنافقين حتى ينبذوا من الصف نبذة النواة .

﴿ **جاهدوا بأموالهم** ﴾ :

(وفى حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما – عند الطبرانى – أن النبى ﷺ كان يجلس كل يوم على المنبر فيدعو : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد فى الأرض . فلم يكن للناس قوة » .

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى ، حضَّ رسول الله ﷺ على الصدقات ،

---

(١) سورة البقرة : ١٤ – ١٦ . (٢) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٦٠ .

(٣) سورة التوبة : ٨٨ ، ٨٩ .

فجاؤوا بصدقات كثيرة ، فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال رسول الله ﷺ : «هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟» ، فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنصف ماله فقال رسول الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » ، قال : نعم مثل ما جئت به ، وحمل العباس وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن عبادة رضى الله عنهم ، وحمل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مائتى أوقية إلى رسول الله ﷺ ، وتصدق عاصم ابن عدى رضى الله عنه بسبعين وسقاً من تمر ، وجهَّز عثمان بن عفان رضى الله عنه ثلث ذلك الجيش حتى إنه كان يقول : ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شُنُق(١) أسقيتهم .

قلت : كان ذلك الجيش زيادة على ثلاثين ألفا ، فيكون رضى الله عنه جهز عشرة آلاف .

وذكر أبو عمرو فى الدرر ، وتبعه فى الإشارة : أن عثمان حمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهازها ، وقال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : أنفق عثمان فى ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها .

ونقل ابن هشام عن من يثق به : أن عثمان رضى الله عنه أنفق فى جيش العسرة ألف دينار ، قلت : غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راضٍ » .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى وحسنه ، والبيهقى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بألف دينار فى كمه حين جهَّز رسول الله ﷺ جيش العسرة ، فصبها فى حجر النبى ﷺ ، فجعل النبى ﷺ يقلِّبها بيده ، ويقول : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » ، يرددها مراراً .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند ، و الترمذى ، والبيهقى عن عبد الرحمن بن خباب رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ فحثَّ على جيش العسرة ، فقال عثمان رضى الله عنه : علىَّ مائة بعير بأحلاسها(٢) وأقتابها(٣) ، ثم نزل

(١) شنق أسقيتهم : أربطتها .
(٢) أحلاسها : جمع حلس كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحل .
(٣) الأقتاب : جمع قتب وهو الرحل .

مرقاة أخرى من المنبر فحثَّ ، فقال عثمان رضى الله عنه : علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقاة أخرى فحثَّ فقال عثمان رضى الله عنه : علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده - هكذا - يحركها كالمتعجب : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم » أو قال : « بعدها » .

وروى الطيالسى ، والإمام أحمد ، والنسائىُّ عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى قال : سمعت عثمان رضى الله عنه يقول لسعد بن أبى وقاص وعلى والزبير وطلحة : أنشدكم الله ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز جيش العسرة غفر الله له » ، فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال محمد بن عمر رحمه الله: وحمل رجال وقوَّى ناس دون هؤلاء من هم أضعف منهم ، حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بيننا نعتقبه ، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج حتى إن كان النساء يعثن بما يقدرن عليه ، وحمل كعب بن عجرة واثلة بن الأسقع .

وروى أبو داود ومحمد بن عمر عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال :

نادى منادى رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلى - وقد خرج أول أصحابه - فطفت فى المدينة أنادى : ألا من يحمل رجلاً وله سهمه ؟ فإذا شيخ من الأنصار - سماه محمد بن عمر : كعب بن عجرة - فقال : سهمه على أن تحمله عقبة ، وطعامه معنا ؟ فقلت : نعم ، فقال : سر على بركة الله تعالى ، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا .

قال محمد بن عمر : بعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ، قال : فأصابنى قلائص - قال محمد بن عمر : ستة - فسقتهن حتى أتيته بهن ، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ثم قال : سقهن مقبلات، فسقتهن ، ثم قال : سقهن مدبرات ، فسقتهن ، قال : ما أرى قلائصك إلا كراماً ، فقلت : إنما هى غنيمتك التى شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يابن أخى ، فغير سهمك أردنا)[1] .

ومرَّ معنا أبو عقيل الذى بات يجر الجرير ليله كله على صاعين من تمر ، تصدق

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٢٨ وما بعدها .

بنصف ماله – صاعٍ واحد ، وأبقى نصف ماله الآخر لعياله – صاعاً من تمر .

ولابد لنا أن نشير إلى أن صدقة المقل هى عند الله كبيرة تربو كما يربى الرجل فلوه أو مهره حتى تغدو مثل أحد :

أخرج أبو داود ، وابن خزيمة ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة أنه قال : يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المقل ، وأبدأ بمن تعول »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام عن الأسود الفاحم ذى الناقة الحسناء التى لا يوجد فى البقيع خيراً منها وقد تصدق بها ، فلمزه رجل فقال : يتصدق بها والله لهى خير منه . فسمع رسول الله ﷺ كلمته فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إلا من قال بيده هكذا وهكذا وقليل ماهم » ثم قال : « قد أفلح المزهد المجهد ، قد أفلح المزهد المجهد »[2] .

(قالت أم سنان الأسلمية : لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدى رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضى الله عنها فيه مسك[3] ، ومعاضد[4] ، وخلاخل[5] ، وأقرطة[6] ، وخواتيم ، وخدمات ، مما يبعث به النساء يُعنَّ به المسلمين فى جهازهم) والناس فى عسرة شديدة[7] .

هذه نماذج من الجهاد بالمال ، شارك بها الفقير والغنى ، والرجل والمرأة كلاً بقدر طاقته ، ولنشهد نموذجين من الجهاد بالنفس على صعوبة ذلك :

أبو ذر الغفارى :

روى ابن إسحاق عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

(لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلَّف فلان ، فيقول : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم منه » ، حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره ، فقال رسول الله ﷺ : « فإن يك فيه خير فسيلحقه الله

---

(١) الدر المنثور / ٦ / ١٠ / ٢٥٣ ، وهو عند الحاكم / ١ / ٤١٤ .
(٢) المصدر نفسه / ٦ / ١٠ / ٢٥٣ . (٣) أسورة من ذبل أو عاج . (٤) المعاضد : الدمالج .
(٥) الخلاخل : حلى الرِّجل . (٦) أقرطة : حلى الأذن . (٧) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٢ .

بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه » ، وتلوّم[1] أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ به أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً ، قال محمد بن عمر : قالوا : وكان أبو ذر الغفارى يقول : أبطأت على رسول الله فى غزوة تبوك من أجل بعيرى ، وكان نضواً[2] أعجف[3] ، فقلت : أعلفه أياماً ثم ألحق برسول الله ﷺ ، فعلفته أياماً ، ثم خرجت فلما كنت بذى المروة أذَّم[4] بى فتلوّمت عليه يوماً . فلم أر به حركة ، فأخذت متاعى فحملته قال ابن مسعود . وأدرك رسول الله ﷺ فى بعض منازله ، قال محمد بن عمر : قال أبو ذر : فطلعت على رسول الله ﷺ نصف النهار ، وقد أخذ منى العطش ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى فى الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا ذر » ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

فلما قدم أبو ذر على رسول الله ﷺ أخبره خبره ، فقال : « قد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة : ذنباً إلى أن بلغتنى » ووضع متاعه على ظهره ، ثم استقى فأتى بإناء من ماء فشربه)[5] .

أبو خيثمة :

روى الطبرانى عن أبى خيثمة رضى الله عنه ، وابن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخهما قالوا : لما سار رسول الله ﷺ أياماً دخل أبو خيثمة على أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه[6] ، وقد رشّت كل منهما عريشها ، وبرّدت له فيه ماء ، وهيأت فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش[7] ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : سبحان الله ! رسول الله ﷺ قد

---

(١) التلوم : الانتظار والمكث . (٢) نضو : الراية التى اهتزلتها الأسفار .
(٣) أعجف : ضعيف . (٤) أذَّم : أبطأ .
(٥) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٤٠ ، وهى عند ابن إسحاق ٢ / ٥٢٣ وعند الواقدى ٣ / ١٠٠٠ .
(٦) الحائط : البستان من النخيل .
(٧) العريش : كل ما استظل به .

غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فى الضح[1] والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسنة ، فى ماله مقيم ؟!! ما هذا بالنصف ! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ . فهيئا لى زاداً ، ففعلتا، ثم قدَّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك ، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إنَّ لى ذنباً فلا عليك أن تخلَّف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل . حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فقال رجل : هو والله يا رسول الله أبو خيثمة ، فقال رسول الله ﷺ : « أولى لك يا أبا خيثمة » ، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة فى ذلك :

ولما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً[2] فى العريش وصرمة[3] ... صفايا كراماً بُسرها[4] قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمّما

* * *

أ ــ لقد كانت هذه النماذج الإيمانية الرائعة تعطى صوراً من صور الولاء والطاعة لله ورسوله وتجاوز الصعاب ، وتعطى لنا صورة عن مدى التلاحم بين الجند والقائد ، فلم يستطع أبو خيثمة رضى الله عنه أن يرى نفسه فى الظل الظليل ، والماء البارد ، والمرأة الحسناء ، ورسول الله ﷺ ماضٍ فى سبيل الله فى الحر والهاجرة ، والظمأ والفاقة ، ولم يستطع إغراء الزوجة والأرض والظلال أن يقعده إليه ، بل ركب راحلته وأغذ السير وحيداً فى هذه البيد ، حتى ترافق مع عمير بن وهب رضى الله عنه الذى

---

(١) الضح : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض وأراد كثرة الخيل والجيش . (٢) الخضيب : النخل .
(٣) الصرمة : النخل الذى غدا جاهزاً للقطاف . (٤) البسر : أوائل الثمر .

تخلف فى مهمة ولا شك ، حتى وصل إلى رسول الله ﷺ وهو فى تبوك . بينما كان أبو ذر رضى الله عنه يقطع البيد مشياً على أقدامه ، وهو يحمل فى عنقه متاعه وشيئاً مما تبقى من طعامه ، لا ينثنى ، ولا يخور ولا ينهار ، حتى لحق برسول الله ﷺ فى ذى المروة على مسافة ثمانية برد من المدينة .

ب ــ وجانب آخر من جوانب الالتحام بين القائد وجنده ، فرسول الله ﷺ يعرفهم فرداً فرداً ، ومن أجل ذلك لا ينسى واحداً منهم وقد بلغوا الألوف المؤلفة ، فعندما يخبر عليه الصلاة والسلام عن راكب متخلف ، يقول : « كن أبا ذر » ، أو « كن أبا خيثمة » ؛ لأنه يعرف المستوى الإيمانى العالى لهؤلاء الجنود ، الذين تربوا على يديه وليس موقعهم أبداً فى المدينة . إن موقعهم الحقيقى بجواره وبين يديه ، ومن أجل ذلك ما إن يلوح الراكب من بعيد ، حتى يعرف عليه الصلاة والسلام بعظمة نور بصيرته أنه أحد صاحبيه المتخلفين ، وكان ما قاله عليه الصلاة والسلام .

وعندما رأى بين عشرات الألوف أناساً ، يعهدهم من الصف الأول ، وانتظر حتى وصل تبوك على أمل أن يلحقوا به ، وفات الموقف وانقضى الأوان ، عاد فسأل عنهم :

« ما فعل كعب بن مالك ؟ » . .

فقد ذكر عليه الصلاة والسلام هذه الأسماء الثلاثة ، وبين يديه ثلاثون ألفاً من المسلمين فى الجيش :

روى الحاكم – فى الإكليل – عن معاذ رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً – وقال أبو زرعة الرازى : لا يجمعهم كتاب حافظ – قال الزهرى : يريد الديوان . قال كعب : فما رجل يتغيب إلا ظنَّ أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله تعالى .

جـ ــ ويعجب المسلم لهذا الأفق العظيم الذى بلغته الدعوة ، فدون إكراه أو سلطة أو إرهاب يكفى الاستنفار للمسلمين حتى يتحرك هذا الجيش اللجب ويلبى النداء ، وذلك بالدافع الذاتى من الإيمان العميق فى نفوس المسلمين إلى مواجهة من أخطر المواجهات فى تاريخ المسلمين إلى جهاد الروم سادة الأرض آنذاك ، كما يعجب المرء من جانب آخر لهذا الأفق العظيم كذلك ، فى أن يتم تجهيز جيش العسرة ذاتيا،

دون موازنة دولة أو استدانة من دولة ، بل يحمل أفراد قلائل هذه المسؤولية ، ويبقى عثمان رضى الله عنه هو سيد الساحة ، فلم نعهد من فرد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل بكل ما يحتاجون حتى شنق أسقيتهم ، ومئات الأبعرة فى أقتابها وأحلاسها ، إلا فى الجيش الإسلامى وفى الأمة المسلمة ، وتكفيه هذه الشهادة لتكون غرة له على جبين الدهر : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم إلى قيام الساعة » .

* * *

﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾[1] .

(أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : من قرأها **﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾** خفيفة قال : بنو مقرن ، ومن قرأها **﴿ وجاء المعذّرون ﴾** قال : اعتذروا بشىء ليس لهم عذر بحق)[2] .

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله : **﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ﴾** قال : ذكر لى أنهم نفر من بن غفار ، جاؤوا فاعتذروا منهم خفاف بن إيماء بن رخصة)[3] .

(وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إليه ، فلم يعذِرهم الله عز وجل هم نفر من بنى غفار منهم خفاف بن إيماء بن رخصة اثنان وثمانون رجلاً)[4] .

(وكان أبو رهم الغفارى – وهو كلثوم بن الحصين – قد بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، فقال : غزوت مع رسول الله ﷺ تبوكاً . قال : فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر[5] وأنا قريب من رسول الله ﷺ ، وألقى علىّ النعاس ، فطفقت أستيقظ ، وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله ﷺ ، فيفزعنى دنوها منه ، خشية أن أصيب رجله فى الغرز . فطفقت أحوز[6] راحلتى حتى غلبتنى عيناى فى بعض الطريق ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتى راحلته ورجله فى

---

(١) سورة التوبة : ٩٠ . (٢) و(٣) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ٢٦١ .
(٤) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٥ . (٥) الأخضر : منزل قرب تبوك بينه وبين وادى القرى .
(٦) أحوز : أبعد .

الغرز ، فما استيقظت إلا بقوله : « حِس »[1] ، فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى ! فقال رسول الله ﷺ : « سر » ، فجعل رسول الله ﷺ يسألنى عمن تخلف من بنى غفار ، فأخبره بهم . وهو يسألنى : « ما فعل النفر الحمر الطوال النطانط »[2] ، فحدثته بتخلفهم ، قال : « فما فعلَ النفر السود القصار الحُلس »[3] ، فقلت : يا رسول الله ، ما أعرف هؤلاء ، قال : « بلى الذين هم بشبكة شـدخ »[4] ، قال فتذكرتهم فى بنى غفار ، فلا أذكرهم ، ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا ، وكانوا يحلّون بشبكة شدخ ، لهم نعم كثير ، فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم حلفاء لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله رجلاً نشيطاً فى سبيل الله ممّن يخرج ، فيكون له مثل أجر الخارج ! إن كان لمن أعزّ أهلى علىّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار ، وغفار وأسلم »[5] .

وتلفت هذه الظاهرة نظرنا إلى جانب مهم سبق أن تعرضنا لهم من قبل هو هذا الجيل الجديد الذى تكوّن من القبائل المجاورة للمدينة والممتدة بين المدينة ومكة والمحاذية للساحل وهى قبائل ليست ذات وزن كبير فى الميزان القبلى مثل أسد وغطفان ، وتميم ، ولكنها ساهمت فى الانضمام إلى المجتمع الإسلامى وهى التى حميها رسول الله ﷺ فى حديثه : « أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ومن كان من بنى كعب موالىَ دون الناس ، والله ورسوله مولاهم »[6] .

والحديث الآخر : « أسلم وغفار وشيء من مزينة وجهينة ، خير عند الله من أسد وتميم وهوازن وغطفان[7] .

والحديث الثالث : « أسلم وغفار ومزينة ، خير من تميم وأسد وغطفان وعامر ابن صعصعة »[8] .

والحديث الرابع : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما والله ما أنا قلته ولكن الله قاله »[9] .

(١) حِس : كلمة تقولها العرب عند وجود الألم .   (٢) النطانط : الطوال القامة .
(٣) الحُلس : هو الذى لونه بين السواد والحمرة .   (٤) شبكة شدخ : اسم مكان .
(٥) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٠١ .
(٦) أخرجه الحاكم وهو صحيح . انظر الأحاديث الصحيحة للألبانى / ١ / ٩٨٧ .
(٧) متفق عليه .   (٨) رواه الترمذى وهو حديث صحيح .   (٩) رواه مسلم وغيره .

ومن أجل هذا جمعهم عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر مع المهاجرين والأنصار : فقال عليه الصلاة والسلام :

« قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع موالىَّ ، ليس لهم مولى دون الله ورسوله »[1] .

لقد انضم هؤلاء الوافدون إلى المهاجرين والأنصار ، وشكلوا أمة واحدة ، أنجبت هذا الجيش العظيم ، ومن أجل ذلك لم يعذر رسول الله ﷺ هؤلاء الأسلميين والغفاريين . بل ذكرهم فى تبوك ، واعتبر غفارا وأسلم والمهاجرين والأنصار أهله ، وأنه يعز عليه تخلف أى واحد منهم ، ولم يقبل الله تعالى عذرهم ، فهم من الطبقة التى لا يحق لها التخلف إلا لعذر .

بينما رأينا الصورة المقابلة للمنافقين المطموس عليهم فى النفاق ، استأذنوا فأذن لهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، وهم يعلمون أنفسهم كاذبين . وقال الله تعالى عنهم :

﴿ .. وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

(قال ابن عقبة رحمه الله تعالى : وتخلَّف المنافقون ، وحدَّثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبداً فاعتذروا ...

قال محمد بن عمر : وجاء ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ ليستأذنوه فى القعود من غير علة ، وأذن لهم وكانوا بضعة وثمانين رجلاً (٢).

والظاهر أنهم هم الذين انضموا لعبد الله بن أبى ، وبقوا معه دون أن يتابعوا المسير مع الجيش الإسلامى ، وفيهم منافقون بالولاء ، ومنافقون بالعقيدة ، ولذلك قال عنهم النص القرآنى :

﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

لكنهم جميعاً كذبوا الله ورسوله فى عذرهم وعجزهم عن الالتحاق بالجيش والانضمام إليه وهم غير معذورين ، وهؤلاء غير السابقين الذين ذكروا من المعذِّرين

---

(١) رواه مسلم / ٤ / ١٩٥٤ حديث رقم ٢٥٢٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٣ .

من الأعراب ، فأولئك اعتذروا دون شك فى إيمانهم وعقيدتهم ، أصابهم الوهن أو ركنوا إلى الدنيا ، أما الفريق الآخر من المنافقين فهم جزء من هذا الحزب الخائن .

* * *

وبصدد الحديث عن المتخلفين ونوعياتهم ونماذجهم يأتى الحديث عن :

نموذجين آخرين :

يقول عز وجل : **﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾**(1) .

روى ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وابن جرير ، وابن إسحاق ، وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى : أن عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ جاؤوا يستحملونه ، وكلهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : **﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾** وهم سبعة ، واختلفوا فى أسمائهم ، فالذى اتفقوا عليه سالم بن عمير الأوسى ، وعلبة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وهرمى بن عبد الله ، واختلفوا فى عرباض بن سارية ، وعبد الله بن مغفل المزنى ، وعمرو بن غنمة وسلمة بن صخر وعبد الله بن عمرو المزنى وعبد الرحمن بن زيد ابن أبى عبلة ، ومعقل بن يسار ، وحمدى بن عبد الرحمن ...)(2) .

(قال ابن سعد : وبعضهم يقول : البكاؤون بنو مقرّن السبعة ، وهم من مزينة ، انتهى ، وهم النعمان وسويد ومعقل وعقيل وسنان وعبد الرحمن ، والسابع لم يسم ، قيل : اسمه عبد الله وقيل : النعمان وقيل : ضرار .. وحكى ابن فتحون قولاً أن بنى مقرّن عشرة فيتعين ذكر السبعة منهم)(3) .

وذكر ابن إسحاق فى رواية يونس وابن عمر : أن علبة بن زيد لمّا فقد ما يحمله ،

---

(1) سورة التوبة : ٩١ ، ٩٢ .

(2) و (3) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٣ ، ٦٣٤ باختصار،

ولم يجد عند رسول الله ﷺ ، خرج من الليل فصلى فى ليلته ما شاء الله تعالى ، ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرتنا بالجهاد ، ورغبت ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها فى مال أو جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة » ، فلم يقم أحد ، ثم قال :« أين المتصدق فليقم » ، فقام إليه فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة »)[1] .

قال ابن إسحاق وابن عمر : لما خرج البكاؤون من عند رسول الله ﷺ وقد أعلمهم أنه لا يجد ما يحمله عليه لقى يامين بن عمرو النضرى أبا ليلى وعبد الله بن معقل المزنى ، وهما يبكيان ، فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ، فأعطاهما ناضحاً له ، وزوّد كل واحد منهما صاعين من تمر - زاد محمد بن عمر : وحمل العباس بن عبد المطلب منهم رجلين - وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذى جهز من الجيش)[2] .

(وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فى نفر من الأشعريين ليحملنا - وفى رواية : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان - فقلت : يا رسول الله ، إن أصحابى أرسلونى لتحملهم ، فقال : « والله لا أحملهم على شىء ، وما عندى ما أحملكم عليه » ، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر ، فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ وجد فى نفسه ، فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بالذى قال رسول الله ﷺ .

ثم جىء رسول الله ﷺ بنهب إبل ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى : أين عبد الله بن قيس ، فأجبته ، فقال : أجب رسول الله ﷺ يدعوك ، فلما أتيت رسول الله ﷺ قال : « خذ هذين القرينين ، وهذين القرينين ، وهذين القرينين »

---

(١) الواقدى فى المغازى / ٣ / ٩٩٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٤ / ٥١٨ ، والمغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٤ .

لستة أبعرة ، ابتاعهن حينئذ من سعد . وفى رواية : فأمر لنا رسول الله ﷺ بخمس ذودٍ[1] غُرِّ الذرى[2] ، فقال : « انطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله - أو قال : إن رسول الله ﷺ - يحملكم على هؤلاء فاركبوا » ، قال أبو موسى : فانطلقت إلى أصحابى فقلت : إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوا ، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق بعضكم معى إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ومنعه فى أول مرة ثم إعطاؤه إياى بعد ذلك ، لا تظنوا أنى حدثتكم شيئاً لم يقله ، فقالوا لى : والله إنك عندنا لمصدَّق ، ولنفعلن ما أحببت ، فانطلق أبو موسى بنفرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقال رسول الله ﷺ من منعه إياهم ثم إعطائه بعد ذلك ، فحدَّثوهم بمثل ما حدَّثهم به أبو موسى ، قال أبو موسى : ثم قلنا : تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه ، والله لا يبارك لنا ، فرجعنا ، فقلنا له : فقال : « ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم » ، قال : « إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت التى هى خير وتحللتها » ، فقال : « كفرت عن يمينى »[3] .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم فى قوله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك** ﴾ قال : ما سألوه الدواب ، ما سألوه إلا النعال ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : استحملوه النعال)[4] .

أ ـــ لقد كانت هذه الأمة تتربى بالقرآن ، وتصنع على عين الله ، واختار الله تعالى لها أشرف خلقه لذلك ، فقد تشابهت المظاهر فى التخلف ، ولكن شتان بين متخلف وآخر ، وهناك المجاهدون الذين مضوا إلى تبوك ، وشتان بين مجاهد وآخر .

إن عدد البكائين واحد من عشرة من المنافقين ، فهل يحسب هؤلاء كأولئك ، معاذ الله ، فالله تعالى يثنى عليهم ، ويطرح عذرهم ويبرز كوامن الإيمان فى قلوبهم ، فأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدون ما ينفقون ، فهم المحسنون وما عليهم من سبيل ، والذى تمكن منهم أن يلتحق بالجيش ، فقد حقق الله تعالى أمنيته ، والذى لم يتمكن ، فقد حقق الله أمنيته وهو غافٍ على فراشه فى المدينة كما يقول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ذود : ما بين الستة إلى التسعة من الإبل . (٢) غُرّ الذرى : بيض الأسنمة .
(٣) البخارى ، كتاب الأيمان/ ٢ / ٨ / ١٥٩ ، ومسلم ، كتاب الأيمان/ ٣ / ١٢٧٠ / حديث رقم ١٦٤٩ .
(٤) الدر المنثور/ ٤ / ١٠ / ٢٦٥ .

« إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم فى المدينة ؟ قال : « وهم فى المدينة ، حبسهم العذر »[1] .

كما نجد الافتراق بينهم وبين بعض الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك وهم فى ظاهر الأمر مجاهدون وفى حقيقة الأمر هم جواسيس خونة ، قالوا كلمة الكفر ، وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله من فضله ، يلمزون النبى ﷺ ، ويلمزون المطوِّعين من المؤمنين ، ولئن سألتهم ليقولون إنما كنا نخوض ونلعب ، وهم يستهزئون بالله وآياته .

ب ــ ويرتفع الإيمان لدى بعضهم وهو علبة بن زيد رضى الله عنه ، فيتابع بكاءه فى بيته ، وفى تهجده ، ولا يجد ما ينفقه إلا أن يتصدق بعرضه على الناس ، ويأتى فى الصباح لتعلن صدقته على الدنيا ، بأمر رسول الله ﷺ : « أين المتصدق فليقم ؟ » ويعلن عليه الصلاة والسلام لمن حوله ويبشره بقبول صدقته من ربه ، فقد تفاعل هؤلاء المؤمنون مع هذا الدين ووهبوه أرواحهم وحياتهم ، بل صار هو أغلى من أرواحهم وحياتهم ، وعند الله تعالى لا يضيع مثقال ذرة .

والله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والأموال إنما ينظر إلى القلوب والأعمال ، بل القلوب هى الأصل ، والأعمال فرع .

جـ ــ وتشير الروايات إلى تنوع قبائل هؤلاء البكائين ، إنما جمعهم هذا الموقف العظيم ، وهو بكاؤهم لفقد الحملان . كما تشير بعض الروايات إلى أنهم المزنيون السبعة ، وهم الذين قادوا الجيوش الإسلامية فيما بعد ، فبنو مقرن المزنيون كان لهم شرف حمل الراية فى معارك الإسلام الكبرى مع الفرس وعلى رأس هؤلاء النعمان ابن مقرِّن المزنى ، وإخوته .

كما تشير الروايات الواردة فى البخارى ومسلم إلى أنهم الأشعريون ، لكن تجمع الروايات على أن هؤلاء أو هؤلاء قد وجدوا من يحملهم فى اليوم الثانى ، عن طريق النبى ﷺ أو بعض صحابته .

وصدقوا فى عهدهم لربهم ، وقبل الله عذرهم وأثنى عليهم فى كتابه الكريم .

---

(١) رواه البخارى / ٢ / ٦ / ١٠ .

د ـ وما تنقله لنا روايات السيرة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكيف كان يتعامل هؤلاء الجند مع قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فأبو موسى يتهم نفسه يوم يقسم رسول الله ﷺ ألا يحمله هو وصحبه ، ويمضى يجتر آلام أحزانه. مع إخوانه ، ولم يلبث يسيراً حتى جاءه رسول الله ﷺ ، ودعاه ليأخذ الإبل التى طلب يتهيأ بها مع إخوانه لمرافقة الجيش ، ويعود أبو موسى رضى الله عنه لذاته يتهمها ثانية ، فهو يخشى أن يتطرق الشك لإخوانه به ، كيف يقسم رسول الله ﷺ ألا يحملهم ثم يحملهم ، فيطلب منهم أن يمضى بعضهم معه ليصدّق بما قال وهو ليس عندهم بمتهم ، ولكن الحرص على سلامة القلب لابد أن تراعى ، فأرسلوا بعضهم معه ، وإنهم لمصدقوه ، إنما لأنه يحب ذلك ، إنها روح الحب والود والأخوة ، ويستمعون الجواب ، ثم يتدارسون الأمر بينهم مرة ثالثة ، ترى هل غافلوا رسول الله ﷺ ، وأخذوا منه حملانهم مع قسمه عليه الصلاة والسلام أن يعطيهم ؟ ويبكتهم ضميرهم فيعودون إلى القائد الحبيب يذكرونه بقسمه ، حتى لا يحنث يمينه ، ويجيبهم عليه الصلاة والسلام وهو يرعاهم بقلبه :

« إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا جئت التى هى خير وتحللتها » ، وقال : « كفَّرتُ عن يمينى » ، فهم فى قلبه وهم فى فؤاده ، فما أن جاءت الأبعرة ، أو اشتراها لهم ، وكفَّر عن يمينه ، وبعث وراءهم فأعطاه وحملهم مع إخوانهم .

إن صدق التعامل بين القائد والجند ، وروح الحب والمسؤولية ، والتكافل الذى يربط بينهم ، هو الرباط الخالد الذى لا ينفصم ، ويدفع الجميع إلى التسابق فى الجهاد والبذل والتضحية ، والتفانى فى سبيل الله عز وجل .

فماذا يقابل هؤلاء التقاة البررة الباذلون المضحون ؟؟

* * *

إنما السبيل :

﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ۝ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى

عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾[1] .

(أخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء** ﴾ قال : هى وما بعدها إلى قوله : ﴿ **إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ فى المنافقين)[2] .

(وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالاً ، وفى قوله : ﴿ **فأعرضوا عنهم إنهم رجس** ﴾ قال : لما رجع النبى ﷺ قال : « لا تكلموهم ولا تجالسوهم ، فأعرضوا عنهم كما أمر الله »)[3] .

وجاء حساب الاثنين والثمانين من المنافقين الذين اعتذروا بالحر ، والذين اعتذروا من الخوف من نساء بنى الأصفر أن يفتنوهم ، والذين مكثوا مع عبد الله بن أبى متخلفين معه ، وخاذلى رسول الله ﷺ ، والذين قالوا : إن محمداً ﷺ أُذُن ، نحلف له فيصدّقنا ، والذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والذين إذا ما أنزلت سورة تدعوهم إلى الجهاد قالوا : ذرنا نكن من القاعدين ، والذين استأذنوا وهم أغنياء ، وأذن لهم رسول الله ﷺ ، فعفا الله تعالى عن نبيه لإذنه لهم ، وأكرمه ألا يخرجوا معه ولا يقاتلوا معه عدوا . جاء الحساب الختامى لهم ، ليقول عنهم : إنهم رجس فى الدنيا ، وأن جزاءهم جهنم بما كانوا يكسبون ، فليهنئوا بهذا الفوز ، ولينعموا بهذا النصر وهذا التخلف ، وليرغدوا بهذا الكسب وهذا المأوى : ﴿ **جزاؤهم جهنم بما كانوا يكسبون** ﴾ .

(هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج ، والاستئذان فى القعود ، ذلك أنهم ناكلون متثاقلون ، لا يؤدون حق الله عليهم وقد أغناهم وأقدرهم ، ولا يؤدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم ، ولا يؤدون حق المجتمع الذى يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم ، ومن ثم يختار الله سبحانه لهم هذا الوصف : ﴿ **رضوا بأن يكونوا**

---

(١) سورة التوبة : ٩٣ - ٩٦ . (٢) و (٣) الدر المنثور / ٤ / ١ / ٢٦٦ .

مع الخوالف ﴾ .

فهو سقوط الهمة ، وضعف العزيمة ، والرضا بأن يكونوا مع النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون فى الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد وهم معذورون ، فأما أولئك فماهم بمعذورين .

﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ :

فقد أغلق الله عليهم منافذ الشعور والعلم ، وعطَّل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم ، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركى الحى المنطلق الوثاب ! وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة ، فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة . وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر ، وتطبع على القلوب والعقول ، والحركة دليل الحياة ، ومحرك فى الوقت ذاته للحياة ، ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل ، وتشد العضل ، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التى تنتفض عند الحاجة وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة وكل أولئك ألوان من المعرفة والعلم والتفتح يُحرمها طُلابُ الراحة البليدة والسلامة الذليلة .

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف .

إن وراء حب الدعة وإيثار السلامة سقوط الهمة ، وذلة النفس . وانحناء الهامة ، والتهرب من المواجهة والمصارحة .

﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ :

وهذا من إنباء الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين الخلَّص بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة ، مما يدل على أن هذه الآيات قد نزلت فى أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة .

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم ، ذلك أنهم يخجلون من الظهور بفعلتهم هذه عارية ، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية ، وهى ضعف الإيمان وإيثار السلامة ، والإشفاق من الجهاد !

﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا اللّه من أخباركم ﴾ :

قل : وفروا عليكم معاذيركم ، فلن نطمئن إليكم ، ولن نصدّقكم ، ولن نأخذ بظاهر إسلامكم كما كنا نفعل ، ذلك أن الله قد كشف لنا حقيقتكم ، وما تنطوى عليه صدوركم ، وقصَّ علينا دوافع أعمالكم ، وحدَّثنا عن حالكم ، فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا من قبل معكم ، والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى : ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ ذو دلالة خاصة ، فالإيمان تصديق وثقة ، وائتمان واطمئنان . تصديق بالقول وائتمان بالعقل واطمئنان بالقلب وثقة من المؤمن بربه ، وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه ، وللتعبير القرآنى دائماً دلالته وإيحاؤه .

قل : لا تعتذورا ، لا جدوى للقول ، ولا معوِّل على الكلام ، ولكن اعملوا فإن صَدَّق عملكم ما تقولون فذاك ، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان .

﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ ، والله لا تخفى عليه الأعمال ، ولا النوايا المخبوءة وراءها ورسول الله ﷺ سيزن قولكم بعملكم ، وعلى أساسه سيكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم ، ولن ينتهى الأمر – على كل حال – بما يجرى على هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا ، فوراء ذلك حساب وجزاء ، يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر :

﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾)[1] .

* * *

ألا ما أبأس هؤلاء المنافقين الفرحين بما عندهم من مكر وغدر وسوء نية وخبث طوية ، وهم يسارعون للمؤمنين عند وصولهم ، يهنئونهم بالسلامة ، ويسارعون فى تقديم الأعذار ، وأنهم كانوا يرغبون بالمشاركة ، ويتمنونها لولا كذا ولولا كذا ، ويقدِّمون معسول الكلام ، وزخرف القول ، وهم واثقون من نجاح مؤامراتهم ، وضحكهم على ذقون المؤمنين كما يحلمون ويهومون .

وإذا بالجواب القاطع الحازم الحاسم :

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٦٩٤ .

﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ .

فقد كشف الله للمؤمنين كل ما تكتمون ، من خبث وغدرٍ وكفرٍ ومكر ، وانتهى الأمر ، فالمخبر هو الله ، والمعلم هو الله .

ألا ما أحقرهم وهم يعودون إلى شياطينهم وبيوتهم ، وقد انكشفت الخطة ، وتوضحت المؤامرة ، وتكشف الزيف .

فما هم بعد هذا الإنباء ؟ وما قيمتهم عند المؤمنين ، وما وزنهم عند رسول الله ﷺ ؟ وما أعد الله تعالى لهم من العذاب يوم القيامة قادم ، بعد هذه الفضيحة فى الدنيا ، وهل يرعوون ؟ ؟!! لا .

إنهم يجهدون فى أيمانهم ويقسمون الأيمان المغلظة أنهم صادقون ، وأنهم راغبون فى الجهاد ، حتى تسكتوا عنهم ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ، ولا تعاقبوهم .

ويأتى القرآن الكريم ، فيدعو المؤمنين لذلك ، فأعرضوا عنهم .

ترى هل تحقق أمل المنافقين بالإعراض ؟

نعم ! وأى إعراض ، إنهم رجس ، أسقطوهم من الحساب ، فهم خبث ودنس ورجس . هم ساقطون فى الدنيا ، ويوم القيامة جهنم بانتظارهم ، جزاءً بما كانوا يكسبون .

ولا تكلموهم ولا تجالسوهم فأعرضوا عنهم كما أمر الله .

وهم قد أسقطوا من حسابهم رب الخلق ، وحرصوا على إرضاء الخلق ، وليس حلفهم لله وليس لطاعته وليس امتثال أمره ، إنهم يريدون أن تعرضوا عنهم وأنتم راضون عنهم ، مقتنعون بعذرهم ، قابلون لكلامهم . ولكن هيهات فالإعراض عنهم لأنهم رجس ، ولو رضيتم عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

(والقاعدون فى الجماعة المكافحة – وهم قادرون على الحركة – الذين يقعد بهم إيثار السلامة على الجهاد رجس ودنس ، ما فى ذلك شك ولا ريب ، رجس خبيث يلوِّث الأرواح ، ودنس قذر يؤذى المشاعر كالجثة المنتنة فى وسط الأحياء تؤذى وتعدى .

﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ :

وهم يحسبون أنهم يكسبون بالتخلف ، ويربحون بالقعود ، ويجنون السلامة والراحة ، ويحتفظون بالعاقبة والمال ، ولكن الحقيقة أنهم دنس فى الدنيا وأنهم يضيِّعون نصيبهم فى الآخرة ، فهى الخسارة المطبقة بكل أشكالها وألوانها .. ومن أصدق من الله حديثا ؟!

ثم يمضى السياق ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين :

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ .

إنهم يطلبون من المسلمين أن يعرضوا عن فعلتهم صفحاً وعفواً ، ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضى المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضى ، ويضمنون أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسلامهم كما كانوا يعاملونهم ، ولا يجاهدونهم ، ويغلظون عليهم كما أمره الله فى هذه السورة أن يفعلوا ، محدداً بذلك العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين فيهم .

ولكن الله سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود والناشئ عن النفاق ، وأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، حتى لو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون .. وحكم الله فيهم هو الحكم ورضى الناس – ولو كانوا هم المسلمين – فى هذه الحالة لا يغير من غضب الله شيئاً ، ولا يجديهم فتيلا . إنما السبيل إلى إرضاء الله هو الرجوع عن هذا الفسق ، والعودة إلى دين الله القويم .

وهكذا كشف الله هؤلاء القاعدين – من غير عذر – فى الجماعة المسلمة ، وقرر العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين ، كما قررها من قبل بين المسلمين والمشركين ، وبين المسلمين وأهل الكتاب ، وكانت هذه السورة هى الحكم النهائى الأخير[1] .

* * *

وحين نلقى نظرة على تركيبة الجيش الإسلامى فى تبوك ، ونتعمق فى عشرات

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٦٩٦ .

الألوف هذه التى رافقت رسول الله ﷺ إلى تبوك ، نستطيع أن نقول ونحن على بينة : إن هذا الجيش غدا هو القاعدة الصلبة فى الأرض لمواجهة العدو .

وحتى نقارن بين مستواه ومستوى جيش الحديبية الذى مثل خيرة أهل الأرض يومذاك ، ونشاهد المخالفات التى برزت فى الجيش على خطورتها وقبحها ، نلاحظ أن مجموع المنافقين فى الجيش لا يتجاوز اثنين وعشرين رجلاً وهاهم بأسمائهم :

١ – وديعة بن ثابت . ٢ – الجلاس بن سويد . ٣ – مخشى بن حميِّر .

٤ – سعد بن زرارة . ٥ – قيس بن فهر . ٦ – زيد بن اللصيت .

٧ – معتب بن قشير . ٨ – الحارث بن يزيد الطائى . ٩ – عبد الله بن سعد ابن أبى سرح .

١٠ – أبو حاضر الأعرابى . ١١ – عامر بن أبى عامر . ١٢ – أبو عامر .

١٣ – مجمع بن جارية . ١٤ – فليح التميمى . ١٥ – حصين بن نمير .

١٦ – طعمة بن أبيرق . ١٧ – عبد الله بن عيينة . ١٨ – مرة بن الربيع .

١٩ – ثعلبة بن حاطب .

ولم يذكر المؤرخون من أصحاب العقبة من الأسماء المذكورة إلا اثنا عشر رجلاً ، مع أن الحديث الصحيح المروى عن حذيفة رضى الله عنه أنهم كانوا خمسة عشر[1] .

وبذلك يرتفع العدد إلى اثنين وعشرين ، فإذا أضفنا إلى هؤلاء ثلاثة خالفوا الأوامر الصادرة من رسول الله ﷺ وهم : الذى ركب البكر فصرعه فمات ، واللذان خرجا وحدهما ليلة الريح الشديدة من بنى ساعدة ، نجد أن المجموع ما بين المنافقين والمخالفين يبلغ خمساً وعشرين رجلاً .

وبنسبة بسيطة حيث نجد أن الجد بن قيس فى الحديبية ، هو الوحيد الذى تخلف عن بيعة الرضوان، فكانت نسبة النفاق $\frac{١}{١٢٠٠}$ ، نلاحظ أن النسبة نفسها فى تبوك إذا قيس عدد المنافقين بعدد الجيش ، أى $\frac{٢٥}{٣٠٠٠٠}$ وهى تعادل $\frac{١}{١٢٠٠}$ ، وبغض النظر عن هذه الأرقام الحسابية ، فالذى نود أن نقوله : إن هذا الجيش الذى رافق رسول الله ﷺ إلى تبوك وتلقى هذه التربية السريعة على يديه ، قد غدا هو قوام القاعدة الصلبة فى الأرض ، ومنه انطلقت الفتوحات فيها ، ولا شك أن من بين أفراده

(١) مسلم / ٤ / حديث رقم ٢٨٧٩ .

القادة الأول والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أهل بدر وأهل الحديبية ، الذين كان لهم الدور الأكبر فى متابعة التربية مع هذا الجيل وهذا الجيش ، وأن لا تبرز خلال شهرين إلا هذه المخالفات ، رغم الصعوبات الهائلة من الحر والجوع والعطش التى عانوها ، لتدل هذه القضية على المستوى العظيم الذى بلغه الجيش من الانضباط والالتزام .

ولابد لنا أن نضيف إلى هذه الفكرة ثلاث نقاط هى :

١ - أن فى المدينة أناساً على مستوى هذا الجيش حبسهم العذر ، كما مر معنا من كلام رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح : « إن فى المدينة أقواماً ما سرتم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » ، فقالوا : يا رسول الله ، وهم فى المدينة ؟ قال : « وهم فى المدينة ، حبسهم العذر » .

٢ - أن المدينة بقيت هى المركز الأعلى للانطلاق ، رغم وجود المنافقين فيها ، وقد حدد هذا الأمر رسول الله ﷺ عقب تبوك وقبيل دخوله المدينة ، فى الحديثين الصحيحين وهما :

أ - « خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة وفى كل دور الأنصار خير »(١) .

ب - عن أبى قتادة قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال : « هذه طابة - وزاد ابن أبى شيبة : أسكنينها ربى - تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد » ، فلما رأى أحداً قال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه »(٢) .

٣ - كما جعل رسول الله ﷺ الخيرية فى هذا الجيش ، حيث كان يقول عمن تخلف : « إن يكن به خير فسيلحق بكم » ، وهذا يعنى خيرية أفراد الجيش كلهم إلا الذين اندسوا فى الصف وتحدث الله تعالى عن كفرهم ونفاقهم ، كما أن الذين لم ينضموا للجيش بعذر فهم معتبرون جزءا من هذا الجيش : « ما صعدتم جبلاً

---

(١) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة / ٤٤ / ١٩٥٠ حديث رقم٢٥١١ .
(٢) أحمد والشيخان وابن أبى شيبة ، وهو عند مسلم / ٢ / ١٠٠٦ حديث رقم ٤٨٨ .

ولا نزلتم وادياً إلا وهم معكم » ، وكذلك الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم ، والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وتاب الله عليهم ، والمرجون لأمر الله وتاب الله عليهم ، وبذلك تكتمل الصورة لبناء هذا المجتمع الإسلامى الخالد .

* * *

طبقات المجتمع المسلم :

أولاً : الأعـراب :

يقول عز وجل :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم * ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم ﴾[1] .

الأعراب ، هذه الفئـة الجديدة التى انضمت للإسلام ، وأخذت أبعادها بعد فتح مكة ، حيث لا هجرة بعد الفتح إنما جهاد ونية ، يعرض القرآن الخصائص العامة لهم ، كما كان يعرض الخصائص العامة لأهل الكتاب ، ثم يعرض بعدها النماذج الخاصة منهم .

فـ (أخبر الله تعالى أن فى الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أى أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم ، قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى ، فقال زيد : ما يريبك ؟ من يدى إنها الشمال ، فقال الأعرابى: والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله : **﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾** .

---

(١) سورة التوبة : ٩٧ - ٩٩ .

وقال الإمام أحمد ... عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »[1] .

ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولاً ، إنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى** ﴾[2] .

ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضى قال : « لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى »[3] . لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما فى طباع الأعراب من الجفاء[4] .

ثم أورد ابن كثير رحمه الله حديث الأعرابى الذى رواه مسلم عن عائشة قالت :

قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبِّلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم . قال : والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة »[5] . ثم قال : وقوله : ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أى عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعله لعلمه وحكمته)[6] .

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ قال : هم أقل علماً بالسنن)[7] .

(وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾ قال : من منافقى المدينة ، ﴿ **وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ يعنى الفرائض وما أمر به من الجهاد)[8] .

(وأخرج أبو الشيخ عن الكلبى فى الآية : أنها أنزلت فى أسد وغطفان)[9] .

---

(١) الإمام أحمد / ١ / ٣٥٧ ، ورواه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه .
(٢) سورة يوسف : ١٠٩ . (٣) الإمام أحمد / ٢ / ٢٩٢ .
(٤) تفسير ابن كثير / ٣ / ٤٤٣ .
(٥) البخارى ومسلم وهو عند مسلم كتاب الفضائل / ٤ / ١٨٠٨ حديث رقم ٢٣١٧ .
(٦) تفسير ابن كثير / ٣ / ٤٤٣ . (٧) و (٨) و (٩) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٦٦ .

(وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال : إذا تلا أحدكم هذه الآية : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾ فليتل الآية الأخرى ولا يسكت : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾)[1] .

(وكثير من الروايات يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة فى نفوس الأعراب حتى بعد الإسلام ، فلا جرم أن يكون الشأن فيهم أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، لطول ما طبعتهم البداوة بالجفاوة والغلظة عندما يقهرون غيرهم ، أو بالنفاق والالتواء عندما يقهرهم غيرهم ، وبالاعتداء وعدم الوقوف عند الحدود بسبب مقتضيات حياتهم فى البادية ، ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ عليم بأحوال عباده وصفاتهم وطباعهم ، حكيم فى توزيع المواهب والخصائص والاستعدادات، وتنويع الأجناس والشعوب والبيئات)[2] .

ونستوقف فى رواية أبى الشيخ عن الكلبى فى أن الآية نزلت فى أسد وغطفان ، فهى ذات مغزى ، لأن سيد بنى غطفان ، عيينة بن حصن ، والذى بقى مؤرجحا بين قريش والمسلمين ، حسم أمره قبيل الفتح وانضم إلى المسلمين ، لكنه لم يكن خالص الولاء آنذاك للمسلمين ، ثم لم يتجه بقومه نحو الإسلام ، كما فعل غيره من قادة القبائل ، حيث يذكر الواقدى قوله :

(كان رجال من الأعراب منهم عيينة بن حصن وقومه معه يُرضون أصحاب النبى ﷺ ، ويُرونهم أنهم معهم ، ويرضون قومهم الذين هم على الشرك)[3] ، وكان عيينة بن حصن هو الذى قادهم يوم الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ ، وهو الذى وقف مع ثقيف يحضهم على الثبات فى وجه رسول الله ﷺ فى الطائف ، وأسد وتميم هذه القبائل الضاربة ، قد بدأت تقترب من الإسلام ، فالأقرع بن حابس التميمى مثل عيينة بن حصن أعلن إسلامه قبيل الفتح ، وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ ، لكن قومه تميم لا يزالون على شركهم وولائهم لغير الله ورسوله ، وهؤلاء الأعراب لغلظتهم وبعدهم عن جو المدينة والفقه فى الدين ، وتلقى الأحكام ، هم أقرب بعد للكفر والنفاق منهم للإسلام ، وسيكون لهم فى المستقبل دور رهيب فى حربه ، وذلك

---

(١) الدرالمنثور / ٤ / ١١ / ٢٦٦ .
(٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٠٠ .
(٣) الواقدى : المغازى / ٣ / ١٠٧٢ .

فى حروب الردة التى استجابوا فيها لقيادات المرتدين .

لقد أصبح التصور الإسلامى عن الأعراب واضحاً فى أذهان الجيل المسلم الذى ارتبط بعقيدته وقيادته ، وبعد إيضاح هذا الخط العام لهم ، جاء العرض الخاص لنموذجين رئيسيين فيهم :

النموذج الأول هو :

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ .

فقد (أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قوله فى الآية : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً** .. ﴾ يعنى أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطى ما يعطى من صدقات ماله كرهاً ، ﴿ **ويتربص بكم الدوائر** ﴾ الهلكات)[1] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فيها : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتقاءً على أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ، ويرون نفقاتهم مغرماً . كما أخرج عن السدى فيها : يعد ما ينفق فى سبيل الله غرامة يغرمها ، ﴿ **ويتربص** ... ﴾ بمحمد ﷺ الهلاك)[2] .

(وقال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر ، وقال الفراء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء)[3] .

واختير هذا النموذج من بين الأعراب لأن هؤلاء يبدو أنهم قد ساهموا بصورة ما فى غزوة تبوك ، فافتدوا بأموالهم الخروج إلى الحرب ، وحسبوا أن وضعهم قد سُوِّى فى المجتمع الإسلامى مع أنهم ينزون فى قلوبهم حقداً على الإسـلام وأهله ، وتأكل قلوبهم الحسرة على كل درهم أو دينار دفعوه ، يعتبرونه خسارة باهظة نزلت بهم ، لكنهم لا مفر لهم من ذلك ، ويتحينون الفرصة ويتوقون إليها ، حيث ينتهى ظل هذا الكابوس الإسلامى عنهم ، بل ويستخفون بالمسلمين أن مضوا إلى لقاء بنى الأصفر ، وينتظرون بفارغ الصبر أن تأتيهم أخبار إبادتهم على أيديهم .

---

(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٦٧ .   (٣) القرطبى / ٨ / ٢٣٤ .

أما النموذج الثانى ، فهو :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

(أخرج سنيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية)[1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ يعنى استغفار النبى ﷺ)[2] .

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ قال : هذه ثنية الله من الأعراب ، وفى قوله : ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ قال : دعاء الرسول)[3] .

وهذا النموذج الصادق الذى خالط الإيمان بشاشة قلبه ، وأنفق خالصاً لله سبحانه ، يبقى نموذجاً محدوداً ، يتقبل الله منه صدقته وجهاده ، لكنه ليس هو المؤهل لأن يكون فى موقع القيادات للأمة ، فقد حدد القرآن الكريم القيادات فى الآية التالية لذلك ، لكنه يمكن أن يكون فى موقع الجندية المناسب .

يقول الإمام القرطبى :

(والعرب جيل من الناس ، والنسبة إليهم عربى بين العروبة ، وهم أهل الأمصار ، والأعراب منهم سكان البادية خاصة ، وجاء فى الشعر الفصيح أعاريب ، والنسبة إلى الأعراب أعرابى ؛ لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً لنبط ، وإنما العرب اسم جنس ، والعرب العاربة هم الخلَّص منهم ، وأُخذ من لفظه وأُكّد به ، كقولك : ليل لائل ، وربما قالوا : العرب العرباء ، وتعرَّب : أى تشبه بالعرب ، وتعرَّب بعد هجرته : أى صار أعرابياً ، والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلَّص ، وكذلك المتعرِّبة ، والعربية هى هذه اللغة ، ويعرب بن قحطان أول

(١) و (٢) و (٣) الدر المنثور / ٤ / ١١ ٢٦٨ .

من تكلم العربية ، وهو أبو اليمن كلهم ، والعُرْب والعَرَب واحد ، مثل العُجْم والعجم ، والعريب تصغير العرب قال الشاعر :

ومكن الضباب طعام العُرَيْب ولا تشتهيه نفوس العجم[1]

وإنما صغَّرهم تعظيماً كما قال : أنا جُذَيلُها المحكَّك ، وعُزيقُها المرجَّب ، كله عن الجوهرى .

وحكى القشيرى : وجمع العربى العرب ، وجمع الأعرابى أعراب وأعاريب . والأعرابى إذا قيل له : يا عربى فرح ، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب ، والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب ، وسميت العرب عرباً لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عربة وهى من تهامة فنسبوا إليها ، وأقامت قريش بعَربة وهى مكة ، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها)[2] .

وكان المهاجرون والأنصار يحرصون على البقاء فى المدينة والاستمرار فيها رغم أن بعضهم أو كثيراً منهم من قبائل مجاورة ، تعيش فى البادية ، ولهذا رأينا وصية عثمان رضى اللّه عنه لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه يوم اختار الربذة ليقيم فيها ، وهى ضاربة فى البادية على طريق حجاج العراق قال له :

تعهَّد المدينة حتى لا تصير أعرابياً ، فالمهاجرون والأنصار هم التربة العليا فى الأمة ، وهم الذين نطقت بهم الآية التالية .

* * *

ثانياً : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار :

يقول عز وجل :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾[3] .

---

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبد القدوس ، والمكن : بيضة الضبة والجرادة ونحوها .
(٢) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٣٣ . (٣) سورة التوبة : ١٠٠ .

يقول الشهيد سيد رحمه الله بصدد التقديم لهذه الآية وما تلاها :

(وبعد تصنيف الأعراب على وجه الإجمال يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله ، حاضره وباديه إلى أربع طبقات إيمانية : السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب ، والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والذين أرجىء الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه ...

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ، وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ، ومن المؤمنين المتخلفين كذلك ، سواء منهم من اعتذر صادقاً ، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحلَّهُ رسول الله ﷺ ، ومن لم يعتذر بشىء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم ، كما سيجىء ، وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة فى الجزيرة بعد غزوة تبوك وكان الله سبحانه يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين الخلَّص ، هذا الكشف النهائى الكامل قرب نهاية المطاف فى الجولة الأولى لهذا الدين ، فى موطنه الأول ، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد فى شتى الصور والأشكال .

ولابد للحركة الإسلامية حين تنطلق أن تنكشف لها أرض المعركة ، وما عليها ومن عليها ، فهذا التكشف ضرورى لكل خطوة ؛ حتى يعرف أصحاب الحركة مواضع أقدامهم فى كل خطوة فى الطريق .

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وهذه الطبقة من المسلمين بمجموعاتها الثلاث : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح – كما أسلفنا فى الجزء العاشر فى تقديم السورة – وكانت هى التى تمسك هذا المجتمع كله فى كل شدة ، وفى كل رخاء كذلك . فابتلاء الرخاء

كثيراً ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة .

والسابقون من المهاجرين ، نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار ، أما الذين اتبعوهم بإحسان - الذين يعينهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك - فهم الذين اتبعوا طريقهم ، وآمنوا إيمانهم ، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى ، وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر وهى أشد الفترات طبعاً .

وقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار ، فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر ، وقيل : هم الذين صلوا القبلتين ، وقيل : هم أهل بدر ، وقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية ، وقيل : هم أهل بيعة الرضوان ، ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكوُّن طبقاته الإيمانية أن الاعتبار الذى اعتبرناه أرجح والله أعلم)[١] .

لقد حسب عمر رضى عنه ابتداء أن الطبقة الأولى هى السابقون الأولون من المهاجرين فقط .

فقد (أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : مر عمر رضى الله عنه برجل يقرأ : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ ، فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبى بن كعب ، قال : لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم ، قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا : فقال أبى : تصديق ذلك فى أول سورة الجمعة : ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ وفي سورة الحشر : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ وفى الأنفال : ﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾[٢] .

(وأخرج أبو عبيد ، وسنيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصارى ، أن عمر بن الخطاب قرأ : ﴿ **والسابقون**

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٠٢ . (٢) و (٣) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٦٨ .

الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ﴾ فرفع الأنصار ولم يلحق الواو فى الذين ، فقال زيد بن ثابت : والذين ، فقال عمر : الذين ، فقال زيد : أمير المؤمنين أعلم ، فقال عمر رضى الله عنه : ائتونى بأبى بن كعب ، فأتاه فسأله عن ذلك ؟ فقال أبى : والذين ، فقال عمر رضى الله عنه : فنعم إذن فتابع أبياً .

وانتهى الرأى إذن بأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار معاً هم فى مستوى واحد ، ولم يميز القرآن بينهما ، اللهم إلا من حيث سبق ذكر المهاجرين على الأنصار بشكل دائم كذلك ، ولهذا دلالته فى داخل الطبقة نفسها ، حيث نعلم أن التفاوت فى الطبقة بين الدرجات قائم)[١] .

وقال ابن خويز منداد : (تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك فى المال والعطاء والرتبة فى الإكرام)[٢] .

كما يقول أبو منصور البغدادى : (أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ثم البدريون ، ثم أصحاب أحد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية)[٣] .

وفى تحديد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار خلاف :

فقد (أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم – فى المعرفة – عن سعيد بن المسيِّب فى قوله : **﴿ والسابقون الأولون ﴾** قال : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً)[٤] .

(وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم ، عن الحسن ومحمد بن سيرين فى قوله : **﴿ والسابقون الأولون ﴾** قال : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً ، وهم أهل بدر)[٥] .

ولا شك أن أهل بدر هم من الذين صلوا القبلتين جميعاً ، لكن هناك من صلى القبلتين وليس من أهل بدر ، مثل المهاجرين فى الحبشة ، والذين لم يشهدوا بدراً فى

---

(١) و (٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٢٦٥ و / ٢٦٣ .
(٣) و (٤) و (٥) الدر المنثور ٤ / ١١ / ٢٦٩ .

المدينة وكانوا من خيار المسلمين ولم يحضروها لأن رسول الله ﷺ لم يدع المسلمين جميعاً لها كما قال كعب بن مالك رضى الله عنه وهو أحدهم : (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، وابن حاتم ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم – فى المعرفة – عن الشعبى فى قوله : ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ قال : من أدرك بيعة الرضوان ، وأول من بايع بيعة الرضوان سنان بن وهب الأسدى)[1] .

﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ :

(واختلف العلماء فى التابعين ومراتبهم فقال الخطيب الحافظ : التابعى من صحب الصحابى ويقال للواحد منهم : تابع وتابعى . وكلام الحاكم أبى عبد الله وغيره مشعر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحديبية كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مسلمة الفتح ، لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبى ﷺ خالد بن الوليد فقال النبى ﷺ لخالد : « دعوا لى أصحابى فوالذى نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه »)[2] .

ولابد من أن نفرق بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم ، وبين المهاجرين والأنصار ، والصحابة والتابعين :

ففى المصطلح الأول : إذا اعتبرنا أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أهل الحديبية ، فالذين اتبعوهم من الصحابة اللاحقين ، حتى بعد فتح مكة ، وحتى وفاة الرسول ﷺ ، هم من الصحابة ، لكنهم ليسوا من التابعين فى المصطلح الحديثى الذى جعل التابعى هو من لقى الصحابى .

---

(١) الدر المنثور ٤ / ١١ / ٢٦٩ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٢٣٨ .

ويمكننا على ضوء ذلك أن نذكر هذه الطبقة على التسلسل الآتى :

أ ــ السابقون الأولون من المهاجرين .

ب ــ السابقون الأولون من الأنصار .

جـ ــ المهاجرون والأنصار .

د ــ الصحابة .

هـ ــ التابعون لهم بإحسان .

وهذا التوزع كله ضمن الطبقة الواحدة التى قال الله تعالى عنها :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وهكذا نرى أن السابقين الأولين قد غفر الله لهم جميعاً ووعدهم الجنة ، فهم معروفون بأشخاصهم وأعيانهم ، أما الذين اتبعوهم فالجنة مشروطة لهم بأن يكون الاتباع بإحسان ، فهم يدخلون معهم ، ولا غرابة فى ذلك ، فالأحاديث الصحيحة تقول :

« لعل الله اطلّع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

« لا يدخل النار إن شاء الله رجل بايع تحت الشجرة » .

فهؤلاء المشهود لهم بالجنة وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان من الصحابة والتابعين لهم نفس الجزاء .

لقد كوّن هذا الجيل العصبة المؤمنة التى حملت لواء الإسلام إلى الأرض ، ولعل هذا الجيل تمثل بجيل تبوك من الذين استجابوا ولبوا نداء الجهاد مع رسول الله ﷺ ، من داخل المدينة ، وخارجها على المستويين المتفاوتين بين القيادات الأولى من أهل بدر والحديبية ، التى اعتبرت السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والعناصر الجديدة التابعة لها ، سواءً كانوا من المهاجرين والأنصار أو من حولهم من الأعراب الذين انضموا لهذا اللواء .

لقد مثل جيل تبوك أعظم العناصر وأرق المستويات الإيمانية جنوداً وقادة ، وتمثلت به هذه الآية الكريمة ، فكان بحق موطن رضى الله عز وجل ، لتأتى الأجيال بعدها وتسير على خطاهم ، فينضم تحت هذه الراية عندما تكون التبعية بإحسان .

أخرج ابن مردويه عن طريق الأوزاعى حدثنى يحيى بن أبى كثير ، والقاسم ، ومكحول ، وعبدة بن أبى لبابة ، وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ قال رسول الله ﷺ : هذا لأمتى كلهم ، وليس بعد الرضا إلا السخط .

ونفقه من النص القرآنى أن السابقين الأولين هم جيل القادة ؛ لأن الذين جاؤوا بعدهم هم تابعون لهم ، وقد كانت القيادات الإسلامية من أهل بدر وأهل الحديبية ، والذين انضموا إليهم بعد ذلك وكلّفوا بمسؤوليات قيادية كانوا من قريش التى كانت هى موطن القيادة الأولى - الخلافة فى قريش - وكانوا بمثابة أهل الحل والعقد فى الأمة .

* * *

ثالثاً : المنافقون :

يقول الله عز وجل :

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾(١) .

(ولقد سبق الحديث والكشف عن المنافقين عامة - سواءً من منافقى المدينة أو منافقى الأعراب - ولكن الحديث هنا عن صنف خاص من المنافقين ، صنف حذق النفاق ومرن عليه ، ولجّ فيه ومرد ، حتى ليخفى أمره على رسول الله ﷺ ، مع كل فراسته وتجربته فكيف يكون ؟

والله سبحانه يقرر أن هذه الفئة من الناس موجودة فى أهل المدينة وفى الأعراب

---

(١) سورة التوبة : ١٠١ .

المحيطين بالمدينة ، ويطمئن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة ، كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة فى النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم ، فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً فى الدنيا والآخرة .

والعذاب مرتين فى الدنيا ، الأقرب فى تأويله أنه عذاب القلق النازل بهم من توقع انكشاف أمرهم فى المجتمع المسلم ، وعذاب الموت والملائكة تسألهم أرواحهم وتضرب وجوههم وأدبارهم ، أو هو عذاب الحسرات التى تصيبهم بانتصار المسلمين وغلبتهم ، وعذاب الخوف من انكشاف نفاقهم وتعرضهم للجهاد الغليظ ، والله أعلم بما يريد)[1] .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى – فى الأوسط – وأبو الشبل ، وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **ومن حولكم من الأعراب منافقون** ... ﴾ ، الآية قال : قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً فقال : « قم يا فلان فاخرج ، فإنك منافق » ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له ، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظنَّ الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر رضى الله عنه المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا ... فقال له رجل : أبشر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين اليوم ، فهذا العذاب الأول ، والعذاب الثانى عذاب القبر .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **ومن حولكم من الأعراب** .. ﴾ قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ قال : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبى ، والجد بن قيس ، وأبو عامر الراهب . .

والظاهر أن هذه الأسماء تنصب على قيادات المنافقين وعتاتهم وطغاتهم ، وكما يذكر التعبير النبوى : « وعظيم من عظماء النفاق » .

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٠٨ .

ولنا رأى فى الفرق العام بين « الأعراب » وبين « ممن حولكم من الأعراب » :

فالنوع الأول من الأمة قد جاء عاماً ، ذكر الأعراب فى أنواعهم وفى تكوينهم العام ، وذلك فى الفقرة الأولى من طبقات المجتمع المسلم ، ووردت رواية تذكر أن هؤلاء الأعراب هم أسد وغطفان أو تميم وغطفان .

أما « من حولكم من الأعراب » فهم قد انضموا إلى المجتمع المسلم ، وهم الذين ذكرهم رسول الله ﷺ أنهم مواليه ليس لهم من دون الله ولا رسوله مولى ، وذكرهم مع قريش والأنصار ، وهم الذين وردوا فى الرواية عن عكرمة « جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار » وهذه القبائل الخمسة قد فشا فيها الإسلام حتى يمكن القول أنه طغا فيهم فصاروا كأهل المدينة ، وبرز النفاق فى صفوفهم بعد أن أصبحت القبيلة كلها مسلمة ، ونذكر جواب رسول الله ﷺ لأبى رهم الغفارى :

« إن كان لمن أعز أهلى أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار ، وغفار ، وأسلم » .

وهذا الذى يفسر لنا ذكر المنافقين هنا فى المدينة ومن حولها من الأعراب ، ولم يذكرهم مع الفقرة السابقة مع الأعراب بشكل عام ، وسنجد ما يؤيد هذا المعنى فى الآيات التالية من السورة .

وحول العذاب مرتين ورد تفسير مجاهد : أنه الجوع والقتل . وقتادة : أنه عذاب القبر وعذاب النار . وتفسير الربيع رضى الله عنه قال : يبتلون فى الدنيا وعذاب القبر ﴿ **ثم يردون إلى عذاب أليم** ﴾ قال : عذاب جهنم .

* * *

رابعاً : الذين اعترفوا بذنوبهم :

قال تعالى :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده

ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم * وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾[١] .

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى – فى الدلائل – عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد ، وكان ممر النبى ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم ، فلما رآهم قال : « من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » ، قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، أوثقوا أنفسهم ، وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبى ﷺ ويعذرهم ، قال : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو عن المسلمين » ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ ، وعسى من الله واجب[٢] .

فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، قال : « ما أمرت أن آخذ أموالكم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ﴾ يقول : استغفر لهم ، ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة ، واستغفر لهم .

وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة ، لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين

---

(١) سورة التوبة : ١٠٢ – ١٠٦ .

(٢) الموجود فى الدر المنثور « وعسى من الله وأنه هو التواب الرحيم » ، وتقديرى أن فى النص خطأً مطبعياً مع تقديم وتأخير ، وبالعودة إلى رواية الطبرى فى تفسيره / ٧ / ١١ / ١٠ كانت الرواية التى أثبت « وعسى من الله واجب » .

والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ﴾ إلى آخر الآية : ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴾ إلى : ﴿ ثم تاب الله عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ يعنى إن استقاموا[١] .

(وأخرج البيهقى عن سعيد بن المسيِّب ، أن بنى قريظة كانوا حلفاء لأبى لبابة ، فاطلعوا إليه وهو يدعوهم إلى حكم رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا أبا لبابة ، أتأمرنا أن ننزل ؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح ، فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك ؟ » ، فلبث حيناً حتى غزا رسول الله ﷺ تبوك - وهى غزوة العسرة - فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلَّف ، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاءه أبو لبابة يسلِّم عليه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ففزع أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التى عند باب أم سلمة سبعاً من بين يوم وليلة فى حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة . وقال : لا يزال هذا مكانى حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله على ، فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية ، ثم تاب الله عليه فنودىْ أن الله قد تاب عليك ، فأَرسل إليه رسول الله ﷺ ليطلق عنه رباطه ، فأَبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فجاءه رسول الله ﷺ فأطلقه عنه بيده ، فقال أبو لبابة حين أفاق يا رسول الله ، إنى أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأنتقل إليك فأساكنك ، وإنى أختلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله ﷺ ، فقال : « يجزى عنك الثلث » ، فهجر أبو لبابة دار قومه ، وساكن رسول الله ﷺ ، وتصدَّق بثلث ماله ، ثم تاب ، فلم ير منه فى الإسلام بعد ذلك إلا خيراً حتى فارق الدنيا)[٢] .

(وأخرج أبو الشيخ ، وابن مندة ، وأبو نعيم - فى المعرفة - وابن عساكر بسند قوى عن جابر بن عبد الله قال : كان ممَّن تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ستة : أبو لبابة ، وأوس بن جذام ، وثعلبة بن وديعة ، وكعب بن مالك ، ومرارة ابن الربيع ، وهلال بن أمية ، فجاء أبو لبابة ، وأوس بن جذام ، وثعلبة فربطوا أنفسهم

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٧٥ .
(٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٧٦ .

بالسوارى وجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، خذ هذا الذى حبسنا عنك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أحلهم حتى يكون قتال » ، فنزل القرآن : ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ...** ﴾ الآية ، وكان ممَّن أرجئ عن التوبة وخُلف كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فأرجئوا أربعين يوماً ، فخرجوا وضربوا فساطيطهم ، واعتزلهم نساؤهم ، ولم يتولهم المسلمون ، ولم يقربوا منهم ، فنزل عليهم : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلّفوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **التواب الرحيم** ﴾ ، فبعثت أم سلمة إلى كعب فبشرته)[1] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾ قال : ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً** ﴾ : غزوهم مع رسول الله ﷺ ، ﴿ **وآخر سيئاً** ﴾ قال : تخلفهم عنه) [2] .

* * *

وقد اخترنا هذه الروايات الثلاث من بين مجموعة من الروايات لأنها تكمل بعضها بعضاً ، وإنما الخلاف فى العدد الذى يرتفع فى أعلاه إلى عشرة ، وينخفض إلى أربعة ، ولعل الرواية الأخيرة من حيث السند هى أقوى هذه الروايات ، وتتوافق مع رواية البخارى ومسلم فى توبة كعب رضى الله عنه ، والمدة التى أرجئوا فيها ، وحين نقف مع النماذج المختلفة فى المجتمع المسلم التى تخلفت عن المعركة ، نفقه التربية النبوية العظيمة فى التعامل معها ، وذلك من خلال أربعة نماذج :

١ ــ النموذج الأول :

نموذج المنافقين الذين أذن لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداء ، وهو يعلم أنهم كاذبون ، ثم فضحهم القرآن الكريم ، وقال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ ، وهذا النموذج ذكره القرآن الكريم ، بموقف آخر بعد العودة من تبوك ، بأنهم سيحلفون ليرضوا المؤمنين ، وأنهم يراوحون بين الإعلان على الرغبة فى المشاركة الفعلية بالجهاد للمرحلة القادمة ، وبين طلب الإعراض عنهم والسكوت عن جريمتهم وكان الموقف

---

(١) و (٢) المصدر نفسه / ٢٧٨ .

هو إسقاطهم نهائياً من المجتمع المسلم .

٢ ـ النموذج الثانى :

المعذرون من الأعراب وهم بضعة وسبعون ، وقد سكت رسول الله ﷺ عنهم ، ولم يكن هناك موقف حاسم معهم ، وإنما آلم رسول الله ﷺ تخلفهم ، ولم يبد أنه عذرهم .

٣ ـ ﴿ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ ، وندموا على تخلفهم ، وربطوا أنفسهم بسوارى المسجد حتى يطلقهم رسول الله ﷺ :

ترك رسول الله أمرهم إلى الله ولم يطلقهم حتى يتوب الله عليهم من السماء . إلى أن نزلت توبتهم بعد بضعة ليالٍ من ذلك.

٤ ـ المرجون لأمر الله والذين خلّفوا وهم الثلاثة :

وأولئك اتخذ رسول الله ﷺ منهم موقف صارماً ، فقال لكعب : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يحكم الله فيك » ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن كلامهم أربعين يوماً ، ثم عن كلام أزواجهم لهم عشرة أيام أخرى ، كما سيأتى فيما بعد ، إلى أن نزلت توبتهم من السماء بعد خمسين ليلة .

لقد كان ما عاقب به نفسه النموذج الثالث كافياً من الناحية المعنوية ، وتعبيراً حياً عن مدى السمو النفسى عندهم ، والألم النفسى كذلك للتخلف عن المعركة ، وعرّضوا أنفسهم لأشد أنواع اللوم من إخوانهم بحيث عرف به القاصى والدانى برجاء توبة الله عليهم ، ومغفرة الله تعالى لهم ، فكانت المدة أقصر ، والتوبة أسرع ، ولم يكونوا بحاجة إلى القطيعة ، بعد أن وضعوا أنفسهم على المشرحة أمام إخوانهم جميعاً ، بينما كان الثلاثة الآخرون رضى الله عنهم ، فى وضع عادى بعد التخلف ، فجاءت هذه العقوبة الشديدة من القطيعة وتأخر التوبة ، ليرتفع الإحساس النفسى عندهم بعظم الخطيئة التى اقترفوها بالتخلف .

لابد من القول : إن القضية ليست هى الخطيئة ، فكلنا بشر نخطئ ونصيب ، لكن القضية هى الموقف بعد الخطيئة ، والمد الشعورى فى الندم واللوم ، والتصرف الحى للإقلاع عنها هو الميزان لمعدن المسلم .

فالمنافقون يكذبون ويخطئون ،ويبررون، ويستخفون ، فكان الموقف منهم طردهم وإسقاطهم ، بينما كان تخلف البكائين ابتداء أن رفعوا إلى مستوى المجاهدين : « ... وهم معكم ، حبسهم العذر » ، وكم الفرق بين الذين فرحوا بتخلفهم خلاف رسول الله ، وبين الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ؟؟

والذين تخلفوا بدون عذر وأحسنوا التوبة والإنابة ، فتلقوا عقوبتهم ، ثم عادوا فانضموا إلى المجتمع المسلم بعد عفو الله تعالى عنهم .

وتبقى هذه الآية الكريمة : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** .. ﴾ ذات مدلول أبعد مع كل النفوس البشرية التى تسمو وتهبط ، وترتفع وتخفق ، لكن المجاهدة المستمرة هى التى تقودها إلى مرضاة الله .

(أخرج أبو الشيخ ، والبيهقى عن مطرف قال : إنى لأستلقى من الليل على فراشى ، وأتدبر القرآن فأعرض أعمالى على أعمال أهل الجنة ، فإذا أعمالهم شديدة : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾[1] ، ﴿ **يبيتون لربهم سجداً وقياماً** ﴾[2] ، فلا أرانى منهم .. فأعرض نفسى على هذه الآية : ﴿ **ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكنا نكذب بيوم الدين** ﴾ فأرى القوم مكذبين ، فأمر بهذه الآية : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم)[3] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب قال : قال الأحنف بن قيس : عرضت نفسى على القرآن ، فلم أجدنى بآية أشبه منى بهذه الآية : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾[4] .

وإذا كانت الآية بالنسبة لذلك الفريق أكدت توبة الله عليهم ، وعسى من الله واجبة ، فإن الباب مفتوح إلى يوم القيامة لقبول التوبة وتقبل الصدقة .

أخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبى هريرة

---

(١) سورة الذاريات : ١٧ . (٢) سورة الفرقان : ٦٤ .
(٣) و (٤) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٧٨ .

قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب طيّب – ولا يقبل الله إلا طيّباً ولا يصعد إلى السماء إلا طيب – فيضعها فى حق إلا كانت كأنما يضعها فى يد الرحمن ، فيربيها له كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ، حتى إن اللقمة أو التمرة لتأتى يوم القيامة مثل الجبل العظيم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾ »[1] .

﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلي عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .

أخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : مُرَّ بجنازة فأُثنى عليها ، فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » ، ثم مُرَّ بجنازة أُخرى فأُثنى عليها ، فقال : « وجبت » ، فسئل عن ذلك فقال : « إن الملائكة شهداء الله فى السماء ، وأنتم شهداء الله فى الأرض ، فما شهدتم عليه من شيء وجب ، وذلك قول الله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ .

وأصبح على هؤلاء المقصرين من المؤمنين أن يساهموا فى مسؤولياتهم فى المجتمع المسلم تحت الرقابة العامة ، تغسل حوبتهم نهائياً ، وهذه الرقابة من الله تعالى ورسوله ، ومن المؤمنين الصادقين الذين يشهدون لهم بسلامة الاستقامة ، وحسن العمل .

ونستطيع أن نقول بعد ذلك : إن المجتمع الإسلامى كان ابتداء قسمين :

القسم الأول : الأعراب .

القسم الثانى : المدينة وما حولها من الأعراب .

أما القسم الأول : فهو مجتمع جديد لم ينضم إلى مجتمع المدينة بعد ، ولا يزال غارقاً فى الجهل بعيداً عن الانصهار بالمجتمع الإسلامى الخالد ، فهو كما وصفه الله تعالى :

﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم** ﴾ .

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٨٢ .

وإذا كان الغالب فى هذا المجتمع الرديف ، الجهل بحدود الله ، والأرضية المهيأة للكفر والنفاق ، وهو لا يزال بعد يغلب عليه الكفر ، فإن هذا لا يعنى أنه مجتمع فاسد كله . إن فيه بعض النبتات الطيبة التى تنمو ، وتربو حتى تمتد أكثر فأكثر ، وتنقل هذا المجتمع الأعرابى إلى حظيرة الإسلام .

فهو مجتمع يسوده الكفر والنفاق ، وفيه فريق من المؤمنين الصالحين الصادقين .

أما المجتمع الثانى : فهو مجتمع المدينة وما حولها من الأعراب ، فهو مجتمع يسوده الإيمان الخالص ، وفيه بعض الشجر الخبث من المنافقين ، الذى لابد أن ينبت ، ويعزل حتى لا يمتد ويستشرى .

وهذا المجتمع على طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : طبقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والقيادات معظمها منهم .

الطبقة الثانية : طبقة الذين اتبعوهم بإحسان ، واقتفوا أثرهم ، واهتدوا بهداهم من بقية المهاجرين والأنصار أو التابعين .

الطبقة الثالثة : طبقة المقصرين والمخطئين ، ويمثلها نموذج المعذرين من الأعراب ، ونموذج الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فأولئك عسى أن يغفر لهم ، ونموذج المرجئين لأمر الله إما يتوب عليهم أو يعذبهم ، وقد تاب الله عليهم كما قال عز وجل : **﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾** .

وبقى هذا المجتمع المدنى الذى فرز ثلاثين ألف مجاهد يمضون إلى الشام فى الحر والقيظ والظمأ والجوع هو المجتمع النموذج فى الوجود ، الذى عادت فئاته المقصرة فانضمت إليه ، والذين التقوا بالجيش ابتداءً أمثال أبى ذر وأبى خيثمة رضى الله عنهما قد دخلوا فى خيرية الجيش دونما حاجة إلى عتاب أو لوم لأنهما سارا فى الوقت المناسب ، وانضما إلى الجيش .

وعند هذه الحصيلة الضخمة يعود بنا سيد رحمه الله ليستعرض بشكل دقيق

ومركز المراحل التى مرت بها الأمة حتى وصلت إلى هذا المستوى فيقول :

(لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة فى محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية ممثلة فى قريش تحس بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستمد من سلطان الله ، ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض ، والفرار منه إلى الله ، ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة الرسول ﷺ ؛ هذا التجمع الذى يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله . ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش ، والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية .

لم تكد الجاهلية – ممثلة فى قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة .. وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ، وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة .

لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده كله بكل ما يدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه ، وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ، وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد ، يتبع فى تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض .

وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان ، ويومئذ لم يكن يُقدم على شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والانضمام إلى المجتمع الإسلامى الوليد ، والدينونة للقيادة الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان .

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً فى المجتمع العربى ، فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ، وكان هذا النوع قليلاً ، فقد كان الأمر كله معروفاً ومكشوفاً من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداءً على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة ، ثم ليكونوا القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ بيعة العقبة قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين .. قال ابن كثير فى التفسير : وقال محمد بن كعب القرظى وغيره ، قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله ﷺ – يعنى ليلة العقبة –: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فما لنا إن نحن فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل .

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله ﷺ هذه البيعة ولا يرتقبون من ورائها شيئاً إلا الجنة ، ويوثقون هذا البيع ، فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ، ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ ، يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين ، بل كانوا مستيقنين أن قريشاً وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ، وأنهم لن يعيشوا فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة ، ومن بين ظهرانيهم فى المدينة .

فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة ، وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً فى هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر ولا الغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة ، ثم كان هذا مدى وعيهم بها ، ومدى حرصهم عليها ، فلا جرم أن يكونوا مع السابقين من المهاجرين – الذين بُنوا هذا البناء ، وأُعدّوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة .

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص وهذا النقاء ، لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة ، واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظاً بمكانتهم فيهم ، حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء ، عبد الله ابن أبى بن سلول : هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقاً ، ولابد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليداً ، ولو لم يكونوا منافقين ، ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه ، مما أنشأ تخلخلاً فى بناء المجتمع المدنى ، ناشئاً عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد ، بقيادة رسول الله ﷺ يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة ، ويعمل كذلك فى إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد .

وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبى - فإننا نطلع على مدى الجهد الكبير الذى بذله فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم ، وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ، ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد ، وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة .

ومع هذا الجهد كله ، كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة فى فترات الشدة - أعراض من الضعف والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر ، وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية ، والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة .

إلا أن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليماً بجملته بسبب اعتماده أساساً على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ، وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحياناً ، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتمسكها وتناسقها .

وشيئاً فشيئاً كانت هذه العناصر تنصهر وتظهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب من المنافقين ، ومن المترددين كذلك والمتهيبين ، ومن لم يتم فى نفوسهم الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين ، حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى

يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد ، نعم ، إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها ، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها .

تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وتميز أهل بدر ، وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية ، ثم بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها .

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية ، لم يكن مانعاً أن تتقارب المستويات الإيمانية ، وتتناسق مع مجتمع المدينة قبيل الفتح ، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضوح العقيدى ، والنفاق من ذلك المجتمع بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدنى بجملته هو القاعدة الإسلامية .

إلا أن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف – وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش فى الجزيرة – قد عاد فصبَّ فى المجتمع أفواجاً جديدة كثيرة دخلت فى الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون ، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ؛ وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ؛ ولا امتزاج بروحه الحقيقية .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بعد ذلك « بإحسان » يصل بهم إلى مستواهم الإيمانى ، وبلائهم الحركى ، وندرك حقيقة دورهم الباق فى بناء الإسلام ، وترجمته إلى واقع عملى يبقى مؤثراً فى التاريخ البشرى كله ، كما نستشرف حقيقة قوله سبحانه فيهم : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ .

ورضى الله عنهم هو الرضى الذى تتبعه المثوبة ، وهو فى ذاته أعلى وأكرم مثوبة ، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه والصبر على ابتلائه ، ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو

الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصفوة – من البشر – حتى ليبادلون ربهم الرضى ؛ وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون .. وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ، ولكن يُتنسم ويُستشرف ويستجلى من خلال النص القرآنى بالروح المتطلّع والقلب المتفتح ، والحس الموصول ، ذلك حالهم الدائم مع ربهم ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى : ﴿ **وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ ، ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

وأى فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟)[1] .

* * *

مسجد الضرار :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾[2] .

(سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية . وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٧٠٣ – ١٧٠٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٧ – ١١٠ .

من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ﷺ فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومنّاه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعته من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ، ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ،وأمرهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموا ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » ، فلما قفل عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجنود من الروم . وأخرج محمداً وأصحابه : فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلى فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **الظالمين** ﴾ ، وكذا روى عن

سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء)[1] .

وروى محمد بن إسحاق قال :

(ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا ، فتصلى لنا فيه ، فقال : « إنى على جناح السفر ، وحال شغل - أو كما قال ﷺ - ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه » ، فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بنى سالم ابن عوف ، ومعن بن عدى أو أخاه عاصم بن عدى ، أخا بنى العجلان ، فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه فخرجا سريعين ، حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلى ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين** ... ﴾ .

وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً : خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب من بنى أمية بن زيد ، ومعتِّب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد ، وعبَّاد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف ، وجارية بن عامر وابناه مجمَّع بن جارية وزيد بن جارية ونبتل بن الحارث ، من بنى ضبيعة ، وبجزج من بنى ضبيعة ، وبجاد بن عثمان من بنى ضبيعة ، ووديعة بن ثابت وهو من بنى أمية بن زيد ورهط أبى لبابة بن عبد المنذر)[2] .

(قال رسول الله ﷺ : « زمام خير من خذام ، وسوط خير من بجاد » ، وكان

---

(١) تفسير ابن كثير / ٣ / ٤٥١ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٥٢٩ .

عبد الله بن نبتل – وهو المُخبِّر بخبره – يأتى رسول الله ﷺ فيسمع حديثه ، ثم يأتى به إلى المنافقين فقال جبريل عليه السلام : « يا محمد إن رجلاً من المنافقين يأتيك فيسمع حديثك ، ثم يذهب به إلى المنافقين » ، قال رسول الله ﷺ : « أيهم هو ؟ » قال : « الرجل الأسود ذو الشعر الكثير الأحمر العينين كأنهما قِدران من صفر ، كبده كبد حمار فينظر بعين شيطان » .

وكان عاصم بن عدى يخبر يقول : كنا نتجهز إلى تبوك مع النبى ﷺ فرأيت عبد الله بن نبتل ، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار ، وهما يصلحان ميزاباً قد فرغا منه فقال : يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع ، فقلت فى نفسى : والله ما بنى هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق ، أسسه أبو حبيبة بن الأزعر ، وأخرج من دار خذام بن خالد ، ووديعة بن ثابت فى هؤلاء النفر ، والمسجد الذى بنى رسول الله ﷺ بيده يؤسسه جبريل عليه السلام يؤم به البيت ، فوالله ما رجعنا حتى نزل القرآن بذمه وذمِّ أهله الذين جمعوا فى بنائه وأعانوا فيه)[1] .

(وقوله : ﴿ **وليحلفن** ﴾ أى الذين بنوه ، ﴿ **إن أردنا إلا الحسنى** ﴾ أى ما أردنا ببنائه إلا خيراً ورفقاً بالناس ، قال الله تعالى : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أى فيما قصدوا وفيما نووا ، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له : الراهب ، لعنه الله ، وقوله : ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾ نهى له ﷺ – والأمة تبع له فى ذلك – عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً ، ثم حثَّه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » ، وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما أسَّسه أوَّل قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عيَّن له جهة القبلة ، والله أعلم .

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٤٨ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عويم بن ساعدة الأنصارى أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟ » قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً ، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه[1] .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبى والحسن البصرى ونقله البغوى عن قتادة وسعيد بن جبير . وقد ورد فى الحديث الصحيح : أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى)[2] .

(قال الحافظ ابن حجر : والجمهور على أن المسجد المراد به المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء وقيل : هو مسجد المدينة . قال : والحقُّ أن كلاً منهما قد أسس على التقوى ، وقوله تعالى : فى بقية الآية : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهَّروا** ﴾ يؤكد أن المسجد مسجد قُباء .

قال الداودى وغيره : ليس هذا اختلاف ، فإنَّ كلاً منهما أسس على التقوى . قال السهيلى : وزاد أن قوله : ﴿ **من أول يوم** ﴾ يقتضى مسجد قباء ؛ لأن تأسيسه كان من أول يوم وصلى النبى ﷺ بدار الهجرة)[3] .

* * *

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم

(١) روى الحديث الترمذى وابن ماجة والطبرانى وأبو داود ، وهو عند أحمد / ٦ / ٦و ٣ / ٤٢٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير / ٣ / ٤٥٤ .
(٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٩٧٩ .

الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾[1] .

(يقول تعالى : لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل فإنما بنى هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار ، أى طرف حفيرة ، مثاله ﴿ **فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ أى لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذى بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقال ابن جريج : ذُكِر لنا أنَّ رجالاً حفروا فوجدوا مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ، وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة . رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله : ﴿ **إلا أن تقطَّع قلوبهم** ﴾ أى بموتهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من السلف ، ﴿ **والله عليم** ﴾ أى بأعمال خلقه ، ﴿ **حكيم** ﴾ فى مجازاتهم عنها من خير أو شر)[2] .

(والتعبير القرآنى الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقوم إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ، وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفى وراءها نية خبيثة ، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين :

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

فلنقف لحظة نتطلع إلى بناء التقوى الراسى الراسخ المطمئن .. ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر لنشهد الحركة العنيفة السريعة فى بناء الضرار .. إنه قائم على شفا جرف هار .. قائم على حافة جرفٍ منهار .. قائم على تربية مخلخلة مستعدة للانهيار . إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق ! ... إنه ينهار إنه ينزلق ! إنه يهوى ! إن الهوة تلتهمه ! يا للهول ! إنها نار جهنم ، ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ الكافرين المشركين ، الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين ! إنه مشهد عجيب ، حافل

(١) سورة التوبة : ١٠٩ ، ١١٠ . (٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير / ٣ / ٤٥٧ .

بالحركة المثيرة ، ترسمه وتحركه بضع كلمات ! ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم ، فى مواجهة دعوات الكيد والكفر والنفاق ! وليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد والضرار !

ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآنى الفريد لآثار مسجد الضرار فى نفوس بناته الأشرار ، وبناة كل مساجد الضرار :

﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾ .

لقد انهار الجرف المنهار ، انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه ، انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته ، بقي فيها « ريبة » وشكاً وقلقاً وحيرة وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر ، إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور .

وإن صورة البناء المنهار لهى صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار، تلك صورة مادية ، وهذه صورة شعورية .. وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد ، وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان ، فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار .

وهذا هو الإعجاز الذى يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ، بمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء .

وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآنى فى كشف مسجد الضرار وأهله ، وفى تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانية الواضحة ، وفى كشف الطريق للحركة الإسلامية ، ورسم طبيعة المجال الذى تتحرك فيه من كل جوانبه .

لقد كان القرآن الكريم يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته ، وفى إعداده لمهمته الضخمة ، ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس فى مجاله الحركى الهائل ، ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة الضخمة فى مثل هذا

المجال)[1] .

* * *

أبعاد مسجد الضرار :

لا أبالغ إذا قلت : إننا أمام مؤامرة دولية تهيئ لانقلاب عسكرى فى المدينة ، واحتلال خارجى ، تهدف إلى الإطاحة برسول الله ﷺ ، وإقامة دولة المنافقين فى المدينة .. وليس مسجد الضرار إلا مركز الانطلاق لهذه الحركة .

وحتى تتضح أبعاد هذه الحركة لابد أن نوضح شخصية أبى عامر الراهب ، وقد تحدثت الروايات بإسهاب عنه كما مر معنا ابتداءً .

(سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة وظاهر فيها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ) .

ولابد أن نربط الخيوط ببعضها منذ البدء ، ونبحث عن مدى علاقته بعبد الله ابن أبى زعيم النفاق فى المدينة ، والناظر لأول وهلة يرى مواقف متناقضة من الرجلين ، لكنه عندما يغوص إلى الأعماق يستطيع أن يربط بين هذه المواقف .

ابن أُبى سيد الخزرج وأبو عامر سيد الأوس ، وكلاهما كان فى موقع الزعامة والشرف فى قومه ، وحين ندقق فنبحث عن مدى العلاقة بينهما ، ونمسك بخيط يوضح لنا هذه العلاقة ، نلاحظ أنهما أقدما على مصاهرة بينهما ، ومثل هذا قليل بين الأوس والخزرج ، فقد كانت جميلة بنت عبد الله بن أبى زوجاً لحنظلة بن أبى عامر الراهب ، نسارع فنقول : إن العروسين كانا من أرقى المستويات الإيمانية ، لكن الزواج السياسى الذى أمضاه ابن أبى وأبو عامر يجعلنا نقف موقفاً جديداً من كثير من القضايا على

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٧١١ .

الساحة الإسلامية ، فلابد أن تكون الصلات الوثيقة بينهما طبيعية وليس فيها أى غرابة ، ولولا هذا الزواج وهذه المصاهرة لكانت العلاقة مفضوحة ، إنها كيد للإسلام وأهله ، لكن إمضاء هذا الزواج يمكن أن يغطى كثيراً من الصلات المشبوهة بينهما ، فهما قريبان رغم تباعد قومهما الأوس والخزرج ، ويمكننا أن نقول على سبيل الترجيح لا القطع ما يلى :

أ ــ بعد غزوة بدر ، اختلف – ظاهراً – موقف الرجلين ، لكن هذا الاختلاف كان عن تخطيط ومكر ، فابن أبىّ كان دوره فى التخريب الداخلى ، وأبو عامر كان دوره فى التخريب الخارجى ونسج المؤامرات من الخارج ، ولهذا أعلن عبد الله بن أبى إسلامه بعد بدر قائلاً : إن هذا أمر قد توجه وانضم من كان معه من قومه إلى الإسلام ، حيث غدوا عاجزين عن المواجهة العلنية بعد النصر المؤزر فى بدر ، بينما فرَّ أبو عامر ومعه خمسون غلاماً من الأوس على أكبر تقدير أو خمسة عشر على أقل تقدير – كما تذكر الروايات – فرَّ هارباً إلى مكة ، حيث عاصمة دار الشرك آنذاك ، ليعمل بكامل حريته ضد الإسلام والمسلمين من هناك ، واتخذ إطار زواج ابن أبى عامر ببنت عبد الله ابن أبى تغطية للعلاقات الحميمة والمحمومة بينهما .

وحيث كان دور عبد الله بن أبى وحزبه أن يشكل جبهته من اليهود حلفائه – بنى قينقاع وبنى النضير – ورأينا دوره الخبث معهما ، حيث تجرأ بوقاحة سافرة لحماية تسعمائة من بنى قينقاع ما بين حاسر ودارع من القتل ، ثم ماذا كان فى أحد :

ب ــ إننا الآن وعلى ضوء هذا التفسير يمكن أن نقول : إن رأى عبد الله بن أبى الذى أشار به على رسول الله ﷺ بالبقاء فى المدينة إنما هدفه من ذلك ليس الانتصار على العدو كما زعم ، بل كان هدفه احتلال المدينة من قريش ، والذى تكفل بهذا الاحتلال هو أبو عامر الراهب ، حيث كان على رأس المحرضين لغزو المدينة ، وكان من عتاة الشياطين الذي زينوا لقريش غزو المدينة للثأر من قتلى بدر ، وقد منَّاهم بانهيار الجبهة الداخلية عند محمد رسول الله ﷺ ، إذ زعم لقريش أنه لو لقى قومه – أى الأوس – لم يختلف عليه منهم رجلان .

يقول الحلبى صاحب السيرة :

(وأبو عامر هذا هو الذى كان يسمى فى الجاهلية : الراهب ، فسماه رسول

الله ﷺ الفاسق ، وكان هو وعبد الله بن أبى بن سلول من رؤوس أهل المدينة وعظمائها المتوجين للرياسة على أهلها ، وكان أبو عامر هذا من الأوس ، ويقال له : ابن صيفى ، وكان عبد الله بن أبى من الخزرج . فعبد الله بن أبى أظهر الإسلام ، وأما أبو عامر فأصر علىٰ الكفر إلى أن مات طريداً وحيداً إجابة لدعاء الرسول ﷺ حيث دعا عليه بذلك ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى رحمه الله فى تائيته بقوله :

ومات ابن صيفى على الصفة التى ذكرت وحيداً بعد طرد وغربةِ[1]

وحتى يزول الشك عندنا من العروسين ننقل دورهما فى أحد ، ثم ننتقل للحديث عن دور المجرمين فى أحد من حيث التخطيط المشترك بينهما .

(وقتل حنظلة بن أبى عامر الفاسق .. وسبب قتل حنظلة رضى الله تعالى عنه أن حنظلة ضرب فرس أبى سفيان فوقع على الأرض فصاح ، وعلاه حنظلة رضى الله عنه يريد ذبحه فرآه شداد بن الأوس - كذا فى الأصل قيل : وصوابه شداد ابن الأسود - فحمل عليه فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم ، يعنى حنظلة لتغسله الملائكة » ، وفى رواية : « رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » ، فسئلت صاحبته أى زوجته وهى جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين أخت ولده عبد الله رضى الله عنهما ، فقالت : خرج جنباً ، فقال رسول الله ﷺ : « لذلك غسلته الملائكة » ، فإنه دخل عليها عروساً تلك الليلة التى صبيحتها أحد ، وقد كان استأذن رسول الله ﷺ فى ذلك : أى فى الدخول بها ، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ فلزمته ، فكان معها فأجنب منها ، ونادى منادى رسول الله ﷺ بالخروج إلى العدو فعجل عن الغسل إجابة للداعى ، وفى رواية : أنها قالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة : أى الصياح بالخروج للعدو ، وفى لفظ الهائعة ، وفى لفظ : الهيعة ، من الهياع وهو الصياح الذى فيه فزع . وقد جاء فى الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » ، وفى رواية : وقد كان غسل أحد شقيه ، فخرج ولم يغسل الشق الآخر ، وقد رأت هى تلك الليلة أن السماء قد فرجت فدخل فيها ثم أطبقت ، وجاء أنها أشهدت أربعة من قومها عليه بالدخول بها خشية أن يكون فى ذلك نزاع ،

(١) السيرة الحلبية للإمام برهان الدين الحلبى / ٢ / ٥٢٤ .

قالت لأنى رأيت السماء فرجت فدخل فيها ثم أطبقت ، فقلت : هذه الشهادة ، وعلقت منه بعبد الله بن حنظلة رضى الله عنه فى تلك الليلة ، وعبد الله هو الذى ولاه أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية ، وكان ذلك سبباً لوقعة الحرة ، ولم تمثل قريش بحنظلة رضى الله عنه لكون والده معهم الذى هو أبو عامر الراهب لعنه الله)[1] .

هذان العروسان ، أما أبو عامر الراهب فكما سبق وذكرنا كان يعد العدة لانضمام الأوس له عند ابتداء المعركة ، وأوهم قريشاً أنه لا يختلف عليه منهم رجلان ، بينما كان تخطيط عبد الله بن أبى أن ينخذل عن رسول الله ﷺ فى قلب المعركة ، وبذلك يجهز على المسلمين من الجانبين .

ومن تخطيط ابن أبى كذلك أن ينضم حلفاء عبد الله بن أبى من اليهود إليه ، وبذلك تعود القيادة من جديد لابن أبى وأبى عامر .

وحين فشل ابن أبى فى إقناع المسلمين بالمكوث فى المدينة ، نلاحظ أنه سار مع الجيش إلى ثلث الطريق ، وليس بعيداً حسب تسلسل الأحداث أن يكون قد أخبر أبا عامر بذلك ، واتفقا على الخطة الجديدة : أن ينسحب ابن أبى بثلث الجيش أو أكثر حزبه ، وخاصة حين رفض رسول الله ﷺ انضمام حلفاء ابن أبى المسلمين إلى الجيش ، وأن يبقى مجموعة داخل الجيش للانهزام فى اللحظة المناسبة ، ولا يبعد أن يكون بين الرماة الذين خالفوا الأمر بعض جنوده ، وسواءً كانوا هم الذين ابتدؤوا بالفرار ، أو استغلوا ظروف الهزيمة واستغلوا انكباب العصاة من الرماة على الغنيمة ، فقد تحقق الهدف المرجو .

وقد فشل كذلك أبو عامر ابتداءً فى ضم قومه له كما زعم :

(فلما جاء مع قريش نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . وقالوا له :

لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، أى وفى لفظ : قالوا له : لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق ولا مانع من صدور الأمرين منهم فلماسمع ردَّهم عليه قال لعنه الله : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتل قتالاً شديداً)[2] .

---

(١) السيرة الحلبية / ٢ / ٥٢٥ .

(٢) السيرة الحلبية / ٢ / ٥٢٤ .

وإن فشل فى جرِّ قومه إليه ، فإنه لم يفشل فى إيقاع رسول الله ﷺ فى إحدى الحفر التى حفرها ثم غطاها ، (ووقع ﷺ فى حفرة من الحفر التى حُفِرت للمسلمين : أى التى حفرها أبو عامر الفاسق والد حنظلة غسيل الملائكة رضى الله عنه ... فأغمى عليه ﷺ ، وجحشت ركبته - أى خدشت - فأخذ على كرَّم الله وجهه بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً)[1] .

(وهو الذى حفر الحفائر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، التى وقع فى إحداها رسول الله ﷺ كما تقدم ، أى وكان هو أول من أثار الحرب وضرب بأسهم فى وجوه المسلمين ، واستأذن ولده حنظلة رضى الله عنه رسول الله ﷺ فى قتله ، فنهاه عن قتله)[2] .

وحين وقعت الهزيمة ، كانت أقوال المنافقين تشى بالتواطؤ مع المشركين ، فكانوا يقولون : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول .

جـ - وخفت صوت النفاق بعد أحد ، وإن كان قد برز على يد عبد الله بن أبى فى غزوة بنى المصطلق ، كما سبق وذكرنا ، غير أنه هزم داخلياً ، وانتشى واستعاد أنفاسه بعد فتح مكة ، وفى أجواء إقبال الأعراب على الدخول فى الإسلام ، وإضافة دماء جديدة لحزبه ، فأعاد مؤامرته نفسها .

ونعود للربط هنا بين الأحداث كذلك ، فقد أيس أبو عامر من قريش بعد فتح مكة ، فأين يمضى ؟ وكان القرار أن يمضى إلى هرقل ملك الروم يستنجده بجيش يغزو المدينة ، ولربط الأحداث مع بعضها نرجح أن المخطط كان كما يلى :

يقوم عبد الله بن أبى بالتثبيط من الداخل ، وينخذل عن رسول الله ﷺ فى اللحظة المناسبة ، بينما يعبئ أبو عامر القوة من الخارج لغزو المدينة ، ولا نبعد أن تكون الإشاعات عن غزوة قيصر للمدينة ، وجمع الجيوش لاحتلالها ، أن تكون قد انطلقت بعد سفر أبى عامر الفاسق لقيصر ، وأمنيات المنافقين فى الجيش العرمرم الذى يغزو المدينة . ولاستكمال التخطيط أن يمضى المسلمون إلى الشام فيهلكوا على الطريق

---

(١) السيرة الحلبية / ٢ / ٥١٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٢/ ٥٢٤ .

جوعاً وعطشاً ، أو يهلكوا تشريداً وقتلاً وأسراً ، كما قال عبد الله بن أبى :

(يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال) .

هذا هو تصور المنافقين عن نتيجة الغزوة ، لكن الأعمق من ذلك هو التخطيط لانقلاب عسكرى على مستوى عالمى ، وبتعبير آخر مؤامرة دولية للإطاحة بدولة الإسلام كلها فى المدينة .

ومسجد الضرار هو أحد مظاهرها ، فعلاً أراد المنافقون فى تخطيطهم إسباغ الشرعية على هذا المسجد ليكون وكراً لتجمعهم ، ومنطلقاً لمؤامراتهم ، وحتى لا يلفتوا النظر فى تجمعاتهم المريبة .

ومن أجل ذلك جاؤوا لرسول الله ﷺ يطلبون منه الصلاة فيه :

(وجاء أهل مسجد الضرار إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، ونحب أن تأتينا فتصلى فيه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إنا فى شغل السفر ، وإذا انصرفت سيكون »[1] .

لكن هذا المسجد قد صدرت أوامر بنائه من أبى عامر الفاسق :

(ابنوا مسجدكم ، واستمدوا ما استطعتم فيه من قوة أو سلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتى بجيش من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ، فكانوا يرصدون قدوم أبى عامر الفاسق ، وكان خرج من المدينة محارباً لله تعالى ولرسوله ، فلما فرغوا من مسجدهم أرادوا أن يصلى فيه رسول الله ﷺ ليروّج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد ، فعصم الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ من الصلاة فيه ، فأتى جماعة منهم لرسول الله ﷺ وهو يتوجه إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، قال : « إنى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه » .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣٢ .

فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، ونزل بذى أوان – مكان بينه وبين المدينة ساعة – أنزل الله تعالى ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾(١) .

وبذلك ضمن المنافقون من الأوس عودة زعيمهم إليهم ظافراً منتصراً متوجاً عليهم .

فماذا عن عبد الله بن أبى ؟

كان من تخطيط عبد الله بن أبى بعد انخذال جماعته عن الجيش أن يبقى فريقاً منهم داخل الجيش الإسلامى ، لبث الفتنة وزرع الفساد داخل الصف ، والأخطر من هذا كله ، تكليف مجموعة فدائية من المنافقين لتقوم باغتيال الرسول ﷺ ، وهى خطوة حاسمة على الطريق لإنهاء الوجود الإسلامى ، وسبق أن تحدثنا عن هذا الموضوع ، وكيف كانت آمال وطموحات المنافقين من ورائها .

فطعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينة عندما حوكما من رسول الله ﷺ ، ذكر لهما ما كانا يتحدثان به . قال عبد الله بن عيينة : (اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل)(٢) .

ومرة بن الربيع هو الذى ضرب بيده على عاتق عبد الله بن أبى ، ثم قال : (تمطى ، والنعيم كائن لنا بعده ، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين)(٣) .

والملاحظ أن أسماء الذين شاركوا فى بناء مسجد الضرار ، شارك منهم اثنان فى المضى مع الجيش . ليكونـا عيناً للعدو فى الجيش الإسلامى ، وهما معتّب بن قشير ، ووديعة بن ثابت .

د ـــ ثم انهارت تلك الأحلام كلها ، وعاد رسول الله ﷺ ظافراً منتصراً إلى

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٧٥ ، وقد روى حديث مسجد الضرار عن ابن إسحاق والبيهقى وابن مردويه وابن أبى حاتم . (٢) و (٣) المصدر نفسه / ٦٧١ .

المدينة ، وقد بعث له قيصر ملك الروم يهادنه ، ويستعطفه ويتعاطف معه فى دينه ، فتحطمت مؤامرة أبى عامر .. وأخبر الله تعالى نبيه بخبر مسجد الضرار ، فبعث عليه الصلاة والسلام من يهدمه ويحرقه قبل الوصول إلى المدينة وفضح بناته ، وفضحت أهدافهم ومؤامراتهم .

وكان أحد الذين كلّفوا بهدمه هو الذى تميز غيظاً لبنائه ، كما مر من قبل :

(كان عاصم بن عدى يخبر يقول : كنا نتجهز إلى تبوك مع النبى ﷺ ، فرأيت عبد الله بن نبتل وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار ، وهما يصلحان ميزاباً قد فرغا منه ، فقالا : يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع ، فقلت فى نفسى : والله ما بنى هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق ، أسَّسه أبو حبيبة بن الأزعر ، وأُخرج من دار خذام بن خالد ووديعة بن ثابت فى هؤلاء النفر ، والمسجد الذى بنى رسول الله ﷺ بيده يؤسسه جبريل عليه الصلام يؤم به البيت ، فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بذمه وذمّ أهله الذين جمعوا فى بنائه ، وأعانوا فيه)[1] .

هذا ما رآه عاصم بن عدى فى حسّه الإسلامى ، قبل السفر إلى تبوك ، وجاء الأمر قبل دخول المدينة أن يكون على رأس الذين يهدمون هذا المسجد ويحرقوه :

(فدعا رسول الله ﷺ عاصم بن عدىّ العجلانى ، ومالك بن الدخشم السالمى فقال ، « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه ثم حرِّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا مسجد بنى سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدىّ : أنظرنى حتى أخرج بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه النار ، ثم خرجا سريعين يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء وهم فيه ، وإمامهم يومئذ مجمع بن جارية ، فقال عاصم : ما أنسى تشرُّفهم إلينا ، كأن آذانهم آذان السرحان ، فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذى ثبت فيه زيد بن جارية بن عامر ، حتى احترقت إليته ، فهدمناه حتى وضعناه بالأرض ، وتفرقوا)[2] .

ولم تكتحل عينا أبى عامر الفاسق بدخول المدينة والإقامة فى عرشه فى مسجد

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ١٠٤٨ .   (٢) المصدر نفسه / ١٠٤٦ .

الضرار ، وأصابته دعوة الرسول ﷺ ومات فى الشام طريداً بعد تبوك .

كما انهارت مخططات ابن أبى ، وقبض على الحفنة المجرمة التى أرادت الفتك برسول الله ﷺ ، ولم يعد أصحاب محمد مقرنين بالحبال كما وهم ابن أبى ، بل عادوا وقيصر الروم يهادنهم ويستعطفهم ، ولم يمر شهر واحد بعد تبوك حتى كان ابن أبى يلقى حتفه ، بعد أن كان يحلم بعودة التاج إليه خلال أيام ، وزبانيته يهزون أعطافه تيهًا بقرب استلامه ، وانتهى أن كان يرجو صدقة محمد أن يعطيه ثوبه يكفنه فيه .

لقد تحطمت المؤامرة الدولية كاملة ، بعد أن عُرّى أصحابها جميعاً ، وكان خاتمة هذه التعرية هى حرق مسجدهم وفضحهم أنهم وقود جهنم مع مسجدهم :

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾ .

لقد أورثهم نفاقاً فى قلوبهم على هذا الصنيع الشنيع ، كما أشرب عابدو العجل حبه ، إلا أن تقطَّع قلوبهم بالموت ، فتنتهى الريب ليروا الحق صراحاً بأعينهم يوم لا تنفع الظالمون معذرتهم ولهم اللعنة ولم سوء الدار .

لم يحترق مسجد الضرار فقط ، احترق معه النفاق كله والمنافقون . والقرآن الكريم ماضٍ فى تربيته ، ليتناول ضعاف الإيمان فينشلهم من وهدتهم ، وهم يرون هذه المعجزات الربانية . ويرتفع بهم خطوة خطوة بعيداً عن حزب النفاق ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً بهذا القرآن العظيم الذى فضح وكشف وعرَّى .. وجاء دور البناء من جديد .

* * *

عودة إلى البناء من جديد :

يقول عز وجل :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون

الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين * ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم * إن الله له ملك السمٰوات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[1] .

يحدثنا سيد رحمه الله عن بقية السورة بقوله :

(هذا المقطع من السورة - أو الدرس الأخير فيها - بقية فى الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع وغيره ؛ تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة الإسلام الذى أعلنه ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة .

● إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين ، الله - سبحانه - فيها هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع ، فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شىء من نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله - سبحانه - ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله ، فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدود ومعلوم هو الجنة ، وهو ثمن لا تعدله السلعة ، ولكنه فضل من الله ومنَّة : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

● والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة ، هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة ، منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون**

(١) سورة التوبة : ١١١ - ١١٦ .

الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

● والآيات التالية فى السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى ، فقد اختلفت الوجهتان واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم ، ولا لقاء فى دنيا ولا فى آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم ، وقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة ، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم : **﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾** .

● وولاء المؤمن يجب أن يتمحص لله الذى عقد معه تلك الصفقة ؛ وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة ، وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة ، ويعصم من كل ضلالة ، وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته ؛ فهم بها فى غنى عن كل ما عداه ، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه : **﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم * إن الله له ملك السمٰوات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير ﴾** .

● ولما كانت هذه طبيعة تلك البيعة ، فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة فى سبيل الله أمراً عظيماً ، تجاوز الله لمن علم عن نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف فتاب عليهم رحمة منه وفضلاً : **﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾** .

• ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة فى عناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، أولئك المقربون من رسول الله ﷺ الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية ، ومركز الانطلاق الإسلامى ، واستنكاراً لما وقع منهم من تخلف ؛ مع بيان ثمن الصفقة فى كل خطوة وكل حركة فى تكاليف البيعة : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

• ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد وبيان لحدود التكليف بالنفير العام ، وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد ، وأصبح بالإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه فى الدين ، ويبقى البعض للقيام بحاجيات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة الأرض ، ثم تتلاقى الجهود فى نهاية المطاف :

﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

• وفى الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية ، بعدما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه ، وأصبح الخط يتجه إلى قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

﴿ **يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ .

• وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركى ، يعرض السياق مشهداً من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموحيات الإيمان القلبية ، وبالتكاليف والواجبات العملية ، ويندد بالمنافقين الذين لا تهديهم التوجيهات والآيات ولا تعظهم النذر والابتلاءات : ﴿ **وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما**

الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

ويختم الدرس ، وتختم معه السورة بآيتين تصوّران طبيعة رسول الله ﷺ ، وحرصه على المؤمنين ورأفته ورحمته ، مع توجيهه ﷺ إلى الاعتماد على الله وحده والاستغناء عن المعرضين الذين لا يهتدون : **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إلٰه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾** .

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لمحتويات هذا المقطع الأخير من السورة يتجلى مدى التركيز على الجهاد ؛ وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ، وعلى الانطلاق بهذا الدين فى الأرض - وفقاً للبيعة على النفس والمال بالجنة للقتل والقتال لتقرير حدود الله والمحافظة عليها ، أى لتقرير حاكمية الله للعباد ، ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية !

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لهذه الحقيقة ، كذلك يتجلى مدى التهافت والهزيمة التى تسيطر على شراح آيات الله وشريعة الله فى هذا الزمان ؛ وهم يحاولون جاهدين أن يحصروا الجهاد الإسلامى فى حدود الدفاع الإقليمى عن « أرض الإسلام » ، بينما كلمات الله سبحانه تعلن فى غير مواربة عن الزحف المستمر على « من يلون أرض الإسلام » هذه من الكفار ، دون ذكر لأنهم معتدون ! فالاعتداء الأساسى يتمثل فى اعتدائهم على ألوهية الله سبحانه بتعبيد أنفسهم ، وتعبيد العباد لغير الله ، وهذا الاعتداء هو الذى يقتضى جهادهم ما استطاع المسلمون الجهاد !)[1] .

* * *

وبعد هذا العرض الشامل نعود للآيات بالتفصيل :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٧١٤ - ١٧١٦ .

الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(أخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو فى المسجد : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ... ﴾ الآية ، فكبَّر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ قال : « نعم » ، فقال الأنصارى : بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون** ﴾ يعنى يقاتلون المشركين ، ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ يعنى فى طاعة الله ، ﴿ **فيقتلون** ﴾ العدو ، ﴿ **ويقتلون** ﴾ يعنى المؤمنين ، ﴿ **وعداً عليه حقاً** ﴾ يعنى ينجز ما وعدهم من الجنة ، ﴿ **فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ فليس أحد أوفى بعهده من الله ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به** ﴾ الرب تبارك وتعالى بإقراركم بالعهد الذى ذكره فى هذه الآية ، ﴿ **وذلك** ﴾ الذى ذكر من الثواب فى الجنة للقاتل والمقتول ، ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ قال : ثامنهم والله فأغلى لهم الثمن ، ﴿ **وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ قال : وعدهم فى التوراة والإنجيل أنه من قتل فى سبيل الله أدخله الجنة .

قال عياش : وحدثنى إسحاق أن المسلمين كلهم قد دخلوا فى هذه الآية ، من كان منهم إذا احتيج إليه نفع وأغار ، ومن كان منهم لا يُغير إذا احتيج إليه ، فقد خرج من هذهِ البيعة .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا قد دخل فى هذه البيعة ، وفى لفظ : اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن إنه كان إذا قرأ هذه الآية : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ قال : أنفس هو خلقها ، وأموال هو رزقها)[1] .

(وأصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم من النفع ؛ فاشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم فى طاعته ، وإهلاكها فى مرضاته ، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضاً عنها إذا فعلوا ذلك ، وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوَّض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمَّى هذا شراء . وروى الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فوق كل بِرّ بِرٌّ حتى يبذل العبد دمه ، فإن فعل ذلك فلا برٌّ فوق ذلك » .

قال الشاعر فى معنى البر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشد الأصمعى لجعفر الصادق رضى الله عنه :

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... وليس لها فى الخلق كلهم ثمن
بها تشترى الجنات إن أنا بعتها ... بشىء سواها إن ذلكُمُ غَبَن
لئن ذهبت نفسى بدنيا أصبتها ... لقد ذهبت نفسى وقد ذهب الثمن[2]

بعد الحديث الطويل عن المنافقين ، وبعد الجو الذى أحدثه فى المدينة ، والهزة التى زلزلت هذه الآيات النفاق فيها ، جاء هذا الحديث مع القاعدة الصلبة وعنها ، عن هؤلاء الذين لبوا النداء ، واستجابوا للاستنفار ابتداء ، ومضوا فى هذه الغزوة العظيمة ، وحين جاؤوا رأوا – كما تقول الروايات – أن جو الجهاد قد انتهى ، وراح بعضهم يبيع السلاح بعد أن أقرت الجزيرة العربية بالإسلام ، جاء هذا النداء الجديد الذى يربط هذه الأمة بالجهاد ربطاً لا انفكاك عنه حتى تقوم الساعة ، فشراء النفس والمال مقابل الجنة ماضٍ لا ينقطع إلى يوم القيامة ، « وحتى يقاتل آخر أمتى الدجال » كما يقول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٤ . (٢) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٦١ .

وإذا كان الجيل الرائد قد نفذ عملياً هذه البيعة ، فجاءت الآية الآن لتؤكد الثمن الربيح وراء هذا الجهاد فى سبيل الله ، حتى لا تخلد هذه النفوس إلى الدنيا وتركن إلى الأرض ، وتتأهب للجولة القادمة التى لم يمر عليها سنتان إلا واشتعلت الأرض العربية بالجهاد من جديد ضد المرتدين ، ثم انساحت فى الأرض ، تفتحها مشرقاً ومغرباً على ضوء هذا الكتاب وهديه وتربيته ، وبقيت هذه الآية أغلى مرافق للمؤمنين فى الأرض فى حديثهم عن الجهاد ، فلا يكاد مسلم يسعى على الجهاد إلا وهو يحفظ هذه الآية ويتعامل معها .

لقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الجهاد والدعوة إلى النفير العام ، وها هو المقطع الأخير يعود من جديد ليحض على الجهاد ويدعو له ، وكان الحديث بينهما كله عن فضح الذين تخلفوا عنه ، فالقرآن يريد أن ينشئ أمة مجاهدة ، ترتبط حياتها بالجهاد ارتباطاً وثيقاً ، فإذا الشهادة حياة ، وإذا الموت فى سبيل الله إحياء للأمة ، واستنهاض لها ، وبعث لها من رقادها وموتها . لقد كان العرب لا ينفكون يقاتلون ، يغزو بعضهم بعضاً ، ويذبح بعضهم بعضاً لمغنم زائل ، أو مكسب رخيص ، أو غنيمة عارضة أو زعامة فارغة ، أو ثأر دفين ، أو تيه أجوف ، أو عز موهوم ، وتراق الدماء كلها لذلك ، وتمزق الأمة والقبيلة ، وتفنى النفوس بلا طائل ، فجاء الإسلام وأخذ هذا الغزو والصراع والاقتتال ، ووضع به روحاً جديدة ، وهدفاً جديداً ، ودفن تلك الروح السابقة ، ربط التضحية بالمال والنفس بالله وحده ، بمرضاته بجناته ولا شيء غير ذلك :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

وبذلك ارتفعت الأمة من أن يكون دينها أن يقتل بعضها بعضاً ، إلى أن يكون دينها أن تقاتل فى سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، ويكون الجزاء الجنة التى أعدها الله للمجاهدين فى سبيله .

وسقطت كل الدعاوى السابقة المكذوبة ، وسقطت كل دعاوى الطواغيت حيث يقتل الناس فى سبيل زعامتهم ، ويتربعون على جماجمهم ، ليكون الفداء كله ، والقتل كله ، والتضحية كلها فى سبيل الله وحده ، وسيان كان المجاهد قتيلاً أو قاتلاً ، إذا

---

(١) متفق عليه .

صدق الهدف ، وأخلص النية ، فلن يفوته شيء من الأجر ، ولم يربط الإسلام هذه الأمة والجهاد فيها بالحكم ، وتحكيم شريعة الله وانتهى الأمر ، إن هذا هدف ، ولقد كانت شريعة الله حاكمة ، وسيد الوجود محمد ﷺ هو الحاكم بشريعة الله ، ومع ذلك نزلت هذه الآية ، بعد العودة من تبوك .

ولقد عاش هذا الجيل هذه المعانى من لحظات البيعة الأولى فى العقبة ، ومضى صادقاً عليها ، لا يتوانى ولا يتراجع ولا يتخاذل ، والجيل ينمو ويتسع ، وينضم إليه أفواجاً جديدة ، فإذا به بعد أن كان ثلاثاً وسبعين فى بيعة العقبة غدا عدد المتخلفين عن الجهاد ثلاثاً وسبعين من ثلاثين ألف مقاتل .

فقد (أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره ، قال عبد الله ابن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » ، قال : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل . فنزلت : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾)[1] .

(وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت أن أسعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : يـأيها الناس ، هل تدرون علام تبايعون محمداً ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة ، فقالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم ، فقال أسعد بن زرارة : يا رسول الله ، اشترط على ، فقال : « تبايعوننى على أن تشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » ، قالوا : نعم ، قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يارسول الله ، فما لنا ؟ ، قال : « الجنة والنصر »)[2] .

(وأخرج ابن سعد عن الشعبى قال : انطلق النبى ﷺ بالعباس بن عبد المطلب – وكان ذا رأى – إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس : ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم . فقال قائلهم – وهو أبو أمامة أسعد –: يا محمد ، سل لربك ما شئت ،

---

(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٤ .

ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الله من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ، فقال :

« أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » .

فكان الشعبى يقول إذا حدث هذا الحديث : ما سمع الشيب والشبان بخطبة أقصر ولا أبلغ منها)[1] .

ووفّى أنصار الله ورسوله بهذه البيعة ، ولم يبخلوا بمال ولا نفس ، ومضوا والمهاجرون فى هذا الطريق مع رسول الله ﷺ ، حتى دانت الأرض للإسلام وبالإسلام ، ودخل فى هذه البيعة الجديدة كل مؤمن فى هذه الأرض إلى يوم القيامة ، فإن جاهد وباع روحه وماله لله ، فقد نفذ العقد ووجبت له الجنة ، وإن نكل أو تراجع أو تخاذل ، فقد برئ من البيعة ونقضها ، وفاته الثمن .

* * *

ونحن بصدد المنهج التربوى للسيرة النبوية ، يحسن فى هذا المقام أن نسوق طائفة من الأحاديث التى كان عليه الصلاة والسلام يربى عليها أصحابه فى إذكاء روح الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وفعلت فعلها فى النفوس فى ذلك الجيل ، وما تزال ، مع آيات الجهاد فى كتاب الله تفعل هذا الفعل فى بناء الطائفة الماضية على الحق لا يبطلها جور جائر ولا حكم حاكم :

١ ـ عن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » رواه مسلم .

٢ ـ وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من قاتل فى سبيل الله فواق[2] ناقة فقد وجبت له الجنة ، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد » رواه أبو داود والترمذى وصححه

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٤ .

(٢) فواق ناقة : الوقت بين الحلبتين للناقة .

والنسائى وابن ماجة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما وابن حبان إلا أنه قال : « ومن سأل الشهادة مخلصاً أعطاه الله أجر شهيد وإن مات على فراشه » .

٣ — وعن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » رواه البخارى ومسلم وابن حبَّان إلا أنه قال : « من جهَّز غازياً فى سبيل الله أو خلفه فى أهله كتب له مثل أجره حتى لا ينقص من أجر الغازى شيء » .

٤ — وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما فيها » البخارى ومسلم .

٥ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان وتصديق برسلى فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » البخارى ومسلم .

٦ — وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يجمع الله عز وجل فى جوف عبد غباراً فى سبيل الله ودخان جهنم ، ومن اغبرت قدماه فى سبيل الله باعد الله بينه وبين النار مسيرة ألف عام للراكب المستعجل ، ومن جرح جراحة فى سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء ، له نور يوم القيامة ، لونها مثل لون الزعفران ، وريحها مثل المسك ، يعرفه به الأولون والآخرون ، يقولون فلان عليه طابع الشهداء ، ومن قاتل فى سبيل الله عز وجل فواق ناقة وجبت له الجنة » رواه أحمد بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً .

٧ — وعن سبرة بن الفاكه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذرُ دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم فغُفِر له ، فقعد له بطريق الهجرة فقال له : تهاجر وتذرُ دارك وأرضك وسماءك فعصاه فهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل ، فتنكح المرأة ، ويغنم المال فعصاه فجاهد » ، فقال رسول الله ﷺ : « فمن

فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » رواه النسائى وابن حبان .

٨ ــ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

٩ ــ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما خالط قلب امرئ رهج[1] فى سبيل الله إلا حرَّم الله عليه النار » رواه أحمد بإسناد جيد .

١٠ ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « الخيل لثلاثة ، هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر . فأما الذى هى له وزر فرجل ربطها رياءً وفخراً ونواء[2] لأهل الإسلام فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى رقابها وفى ظهورها فهى له ستر ، وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طِوَلها فاستنت[3] شرفاً أو شرفين . إلا كتب الله تعالى عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مرَّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله تعالى له عدد ما شربت حسنات » رواه البخارى ومسلم .

١١ ــ وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، فمن ارتبطها عدة فى سبيل الله ، وأنفق عليها احتساباً فى سبيل الله ، فإن شبعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها فلاح فى موازينه يوم القيامة ، ومن ارتبطها رياء وسمعة ومرحاً وفرحاً فإن شبعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها خسران فى موازينه يوم القيامة » أحمد بإسناد جيد .

١٢ ــ عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو

---

(١) رَهج : هو خفقان القلب من خوف ونحوه . (٢) نِواء : مناوأة ومضادة .
(٣) استنت : اركضت .

على المنبر يقول : « ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » مسلم .

١٣ ـ وعن كعب بن مرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بلغ العدو بسهم رفع الله له درجة » ، فقال عبد الرحمن بن النحام : وما الدرجة يا رسول الله ؟ قال : « أما إنها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مائة عام » رواه النسائى وابن حبان .

١٤ ـ وعن أبى سعيد رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة » ، فعجب لها أبو سعيد ! فقال : أعِدْها علىَّ يا رسول الله ، فأعادها عليه ، ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم .

١٥ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » ، فأعادوا مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول : « لا تستطيعـونه » ، ثم قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » البخارى ومسلم .

١٦ ـ وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين ، وأثرين ، قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله ، وأما الأثران فأثر فى سبيل الله وأثر فى فريضة من فرائض الله » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

١٧ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو ضامن أن أدخله الجنة .. والذى نفس محمد بيده ما كَلْمٌ[1] يُكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك ، ، والذى نفس

---

(١) الكلْم : الجرح .

محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويُشقُّ عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأُقتل ثم أغزو فأُقتل ثم أغزو فأُقتل » رواه مسلم .

١٨ ـــ وعن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » النسائى .

١٩ ـــ وعن عامر بن سعد عن أبيه رضى الله عنه : أن رجلاً جاء إلى الصلاة والنبى ﷺ يصلى فقال حين انتهى إلى الصف : اللهم آتنى أفضل ما تؤتى عبادك الصالحين . فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قال : « من المتكلم آنفاً ؟ » ، قال الرجل : أنا يا رسول الله ، قال : « إذن يعقر جوادك وتستشهد » رواه البزار وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

٢٠ ـــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » النسائى وابن ماجة وابن حبَّان والترمذى وقال : حسن صحيح .

٢١ ـــ وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وماله على الأرض من شىء إلا الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » البخارى ومسلم .

٢٢ ـــ وعن كعب بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تعلُقُ من ثمر الجنة أو شجر الجنة » رواه الترمذى وقال : حديث صحيح .

٢٣ ـــ وعن المقدام بن معد يكرب ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال ، يغفر الله له فى أول دُفعة ، ويُرى مقعده فى الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجاً من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » البخارى ومسلم .

٢٤ ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ مر بخباء أعرابى فقال : « من القوم ؟ » فقيل : رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون الغزو فقال : « هل من عرض الدنيا يصيبون ؟ » قيل له : نعم يصيبون الغنائم ثم تقسَّم بين المسلمين ، فعمد إلى بَكْرٍ – جمل – له فاعتقله وسار معهم فجعل يدنو ببكره من رسول الله ﷺ وجعل أصحابه يذودون بكره عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوا لى النجدى ، فوالذى نفسى بيده إنه لمن ملوك الجنة » قال : فلقوا العدو فاستشهد فأخبر بذلك النبى ﷺ ، فأتاه فقعد عند رأسه مستبشراً أو قال مسروراً يضحك ، ثم أعرض عنه فقلنا : يا رسول الله رأيناك مستبشراً تضحك ، ثم أعرضت عنه ، فقال : « أما ما رأيتم من استبشارى – أو قال سرورى – فلما رأيت من كرامة روحه عند الله عز وجل ، وأما إعراضى عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه » البيهقى بإسناد حسن .

٢٥ ـ وعن عتبة بن عبد السلمى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « القتلى ثلاثة ، رجل مؤمن جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى قتل ، فذلك الشهيد الممتحن[١] ، فى جنة الله تحت عرشه ، لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة ، ورجل فَرِق[٢] على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله حتى لقى العدو ، قاتل حتى يقتل ، فتلك ممصمصة[٣] محت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء الخطايا ، وأدخل من أى أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقى العدو قاتل فى سبيل الله حتى يقتل ، فذلك فى النار ، إن السيف لا يمحو النفاق » رواه أحمد بإسناد صحيح وابن حبان[٤] .

* * *

(١) الممتحن : هو الذى شرح الله صدره . (٢) فرِق : جزع وخاف .
(٣) الممصمصة : المكفرة للذنوب .
(٤) هذه الأحاديث من ١ – ٢٥ من كتاب المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح للإمام الحافظ الدمياطى ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، ط ٣ ، ١٤٠٦ هـ .

(حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة - أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شيء .. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله ، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا .. كلا .. إنها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ، ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام ، والثمن هو الجنة ، والطريق هو الجهاد والقتل والقتال ، والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ من بايع على هذا ، من أمضى عقد الصفقة ، من ارتضى الثمن وأوفى فهو المؤمن . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، من رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، ولكنه كرَّم هذا الإنسان فجعله مريداً ، وكرَّمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها حتى مع الله ، وكرَّمه فقيده بعقوده وعهوده ، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ، ونقضه لها هو ارتكاسه إلى عالم البهيمة ، شر البهيمة : **﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾** ، كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .

وإنها لبيعة رهيبة بلا شك ، ولكنها فى عنق كل مؤمن قادر عليها ، لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ، ومن هنا تلك الرهبة التى أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات : **﴿ إن الله اشترى .. ﴾** عونك اللهم ، فإن العقد رهيب ، وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم (مسلمين) فى مشارق الأرض ومغاربها قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله فى الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها فى حياة العباد ، ولا يَقتلون ولا يُقتلون .. ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل أو القتال)[1] .

* * *

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧١٦ .

وإذا كانت الشهادة اصطفاءً من الله تعالى ، فلا يصطفى الله تعالى من عباده إلا من هم الصفوة المختارة بشرائط ومواصفات معينة ، يستحقون بها هذه المبايعة ، وهذا الثمن ، فالمؤمنون الذين يبايعون الله ويوفون بهذه البيعة ، هم الذين ذكرت مواصفاتهم فى الآية التالية :

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ [1] .

فقد اشترى الله ابتداءً من (المؤمنين) أنفسهم وأموالهم ، ومن يحملون هذه الصفات هم الذين يقول الله تعالى لرسوله عنهم : **﴿ وبشر المؤمنين ﴾** .

(أخرج ابن أبى شيبة ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع فهو فى سبيل الله : **﴿ التائبون العابدون ... ﴾** إلى آخر الآية)[2] .

(وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الشهيد من كان فيه التسع خصال : **﴿ التائبون العابدون ... ﴾** إلى قوله : **﴿ .. وبشر المؤمنين ﴾**)[3] .

(وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : **﴿ التائبون ﴾** قال : تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق ، وفى قوله : **﴿ العابدون ﴾** قال : عبدوا الله فى أحايينهم كلها ، أما والله ما هو بشهر ولا بشهرين ولا سنة ولا سنتين ولكن كما قال العبد الصالح : **﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾** ، وفى قوله : **﴿ الحامدون ﴾** قال : يحمدون الله على كل حال بالسراء والضراء ، وفى قوله : **﴿ الراكعون الساجدون ﴾** قال : فى الصلوات المفروضات ، وفى قوله : **﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾** قال : لم يأمروا بالمعروف حتى ائتمروا به ، ولم ينهوا الناس عن المنكر حتى انتهوا عنه ، وفى قوله : **﴿ والحافظون لحدود الله ﴾** قال : القائمون بأمر الله عز وجل ، **﴿ وبشر المؤمنين ﴾**)[4] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : **﴿ التائبون ﴾** الذين تابوا من الشرك ، ولم ينافقوا فى الإسلام ، **﴿ العابدون ﴾** قال :

---

(١) سورة التوبة : ١١٢ .
(٢) و (٣) و (٤) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٤ .

قوم أخذوا من أبدانهم فى ليلهم ونهارهم ، ﴿ **الحامدون** ﴾ قال : قوم يحمدون الله على كل حال ، ﴿ **السائحون** ﴾ قال : قوم أخذوا من أبدانهم صوماً لله عز وجل ، ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ قال : لفرائضه من حلاله وحرامه)[١] .

(واختلف أهل التأويل فى هذه الآية هل هى متصلة بما قبل أو منفصلة . فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها ، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، وإن لم يتصف بهذه الصفات فى هذه الآية الثانية أو بأكثرها . وقالت طائفة : هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط ، والآيتان مرتبطتان ، فلا يدخل تحت المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ، ويبذلون أنفسهم فى سبيل الله ، قاله الضحاك .

قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكملة من المؤمنين ، ذكرها الله ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا فى أعلى مرتبة .

وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله : ﴿ **التائبون العابدون ..** ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر ، أى ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ – إلى آخر الآية – لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناء وقعد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض فى الجهاد . واختار هذا القول القشيرى ، وهذا حسن ؛ إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين فى قوله : ﴿ **اشترى من المؤمنين** ﴾ لكان الوعد خاصاً بالمجاهدين)[٢] .

وإذا عدنا إلى نص الحديث السابق الذى يتحدث عن المجاهدين الثلاثة ، نرى أن المرتبة العليا هى للمجاهد المؤمن : « رجل مؤمن ، جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد الممتحن فى جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة » .

وهذا المجاهد الأعلى والأرقى يمكن أن تكون هذه الصفات التسع متمثلة به لأنه جاهد نفسه عن هواها ، واجتهد فى طاعة الله ، ورسخت قدمه فى العبادة ، وبذل مهجته ودمه فى سبيل الله .

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن / ٤ / ٨ / ٢٧١ .

وأما المجاهد الثانى ، فقد فاته بعض هذه الشروط أو أكثرها وكما يقول نص الحديث : « ورجل فَرِق على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله حتى لقى العدو قاتل حتى يقتل ، فتلك مُمصمصة محت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء الخطايا » .

والذى يحمل هذه المواصفات كذلك ، وفاته شرف الجهاد فى سبيل الله ، فالله تعالى يغفر له ، وذلك حين لا يكون الجهاد فرض عين على كل مسلم ، ولا يأثم من يتخلى عنه ويتقبله الله من المتقين ، والذى لا شك فيه ولا خلاف عليه أن الإسلام يمضى بالأمة الرائدة ، والقاعدة الصلبة إلى أن يتمثل بها الصفات العشر ، فذروة الإسلام الجهاد ، وحين يمضى المسلم قدماً بهذه الصفات التسع ﴿ **التائبون ، العابدون** ... ﴾ ومعها الجهاد فى سبيل الله ، فيكون قد تمثل الصيغة العليا للمؤمنين الصادقين ، وكما قال نص الحديث : « لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة » .

* * *

﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .

(أخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والنسائىُ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى - فى الدلائل - عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال النبى ﷺ : « أى عم ، قل لا إلـه إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وجعل النبى ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة ، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إلـه إلا الله ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ الآية ، وأنزل الله فى أبى طالب : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن**

الله يهدى من يشاء ﴾)[1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا عن الاستغفار للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله تعالى : **﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾** الآية ، يعنى استغفر له ما كان حياً ، فلما مات أمسك عن الاستغفار)[2] .

وبصدد هذه الآيات يقول الإمام القرطبى فى تفسيره ما نقتطف منه :

(هذه الآية **﴿ ما كان للمؤمنين ... ﴾** تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز ، فإن قيل فقد صح أن النبى ﷺ قال يوم أحد حين كسروا رباعيته وشجوا وجهه : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » فكيف يجتمع هذا مع منع الله تعالى رسوله والمؤمنين من طلب المغفرة للمشركين ؟ قيل له : إن ذلك القول من النبى ﷺ على سبيل الحكاية عمَّن تقدمه من الأنبياء ، والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وفى البخارى أن النبى ﷺ ذكر نبياً قبله شجه قومه فجعل النبى ﷺ يخبر عنه بأنه قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . قلت : وهذا صريح فى الحكاية عمَّن قبله لا أنه قاله ابتداءً من نفسه كما ظنه بعضهم ...

جواب ثالث : وهو أن الاستغفار للأحياء جائز لأنه مرجو إيمانهم ، ويمكن تألفهم بالقول الجميل ، وترغيبهم فى الدين ، وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ، ويستغفر لهم ما داما حيين ، فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفروا لموتاهم فنزلت ، فأمسكوا عن الاستغفار ، ولم ينههم عن الاستغفار للأحياء حتى يموتوا .

قوله تعالى : **﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾** فيه ثلاث مسائل :

---

(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

الأولى : روى النسائى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : أتستغفر لهم وهما مشركان ؟ فقال : أولم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فنزلت : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه** ... ﴾ ، والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ، فإن ذلك لم يكن إلا عن عدة . وقال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو لله ، فترك الدعاء له ، فالكناية فى قوله : ﴿ **إياه** ﴾ ترجع إلى إبراهيم والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ، أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركاً تبرأ منه . ودلَّ على هذا الوعد قوله : ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ . قال أبو بكر بن العربى : تعلق النبى ﷺ فى الاستغفار لأبى طالب بقوله تعالى : ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ ، فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبين الكفر منه ، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد ، وقد شاهدت موته كافراً ؟

الثانية : ظاهر حالة المرء عند الموت يحكم عليه بها ، فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حكم له به ، وربك أعلم بباطن حاله ، بيد أن النبى ﷺ قال له العباس : يا رسول الله ، هل نفعت عمك بشىء ؟ قال : « نعم » وهذه شفاعة فى تخفيف العذاب لا فى الخروج من النار ..

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ اختلف العلماء فى الأواه على خمسة عشر قولاً : أولاً : أنه الدَّعَّاء الكثير الدعاء ؛قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير . الثانى : أنه الرحيم بعباد الله ؛ قاله الحسن وقتادة .. الثالث : أنه الموقن ؛ قاله عطاء وعكرمة ، ورواه أبو ظبيان عن ابن عباس . الرابع : أنه المؤمن بلغة الحبشة ؛ قاله ابن عباس أيضاً. الخامس : أنه المسبّح الذى يذكر الله فى الأرض القفر الموحشة ؛ قاله الكلبى وسعيد بن المسيب . السادس : أنه الكثير الذكر لله تعالى ؛ قاله عقبة ابن عامر . وذكر عند النبى ﷺ رجلاً يكثر ذكر الله ويسبح قال : « إنه لأواه » . والسابع : أنه الذى يكثر تلاوة القرآن ، وهذا مروى عن ابن عباس . قلت : وهذه الأقوال متداخلة فى بعضها وتلاوة القرآن تجمعها . الثامن : أنه المتأوه ، قاله أبو ذر ، وكان إبراهيم عليه السلام يقول : آه من النار قبل ألا تنفع آه .. التاسع : أنه الفقيه ؛

قاله مجاهد والنخعي . العاشر : أنه المتضرع الخاشع ، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبى ﷺ ، وقال : أنس : تكلمت امرأة عند النبى ﷺ بشىء كرهه ، فنهاها عمر ، فقال النبى ﷺ : « دعوها فإنها أواهة » قيل : يا رسول الله ، وما الأواهة ؟ قال : « الخاشعة » . الحادى عشر : أنه الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها ؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر : أنه الكثير التأوه من الذنوب ، قاله الفراء . الثالث عشر : أنه المعلم للخير ؛ قاله سعيد بن جبير . الرابع عشر : أنه الشفيق ؛ قاله عبد العزيز ابن يحيى ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يسمى الأواه لشفقته ورأفته . الخامس عشر : أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى ؛ قاله عطاء ... الحلم الكثير الحلم ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى ، وقيل الذى لم يعاقب أحداً قط إلا فى الله ، ولم ينتصر لأحد إلا لله ، وكان إبراهيم عليه السلام كذلك ، وكان إذا قام يصلى سمع وجيب قلبه على ميلين)[1] .

(وما كان أحوج المجتمع المسلم إلى الحديث عن هذه المفاصلة الشعورية التامة بين المسلمين والمشركين ؟ لقد نزلت آيات المفاصلة العقيدية و الشعورية ، والمسلمون يتأهبون لفتح مكة ،وقد انضم إليهم فى هذا الجيش مجموعات مسلمة من القبائل المجاورة تحت راية التوحيد ، وبمناسبة حادثة حاطب رضى الله عنه نزل قوله عز وجل :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾[2] .

والمفاصلة كان لابد منها آنذاك لتبلور الكيان الإسلامى فى القبيلة عن الشرك .

وإذا كان الجيش المسلم آنذاك عشرة آلاف ، فالجيش الإسلامى المجاهد اليوم ثلاثون ألفاً ، وصار الوجود الإسلامى فى القبائل المجاورة حول المدينة هو الوجود الرسمى ، بينما كان الأفراد المؤمنون فى الأعراب الموغلون فى البادية أعداداً قليلة .

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / مقتطفات من ٢٧٢ – ٢٧٥ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

فلابد لمن يرتفع إلى ذلك المستوى العالى من الطاعة والعبادة والجهاد والتضحية فى سبيل الله أن يكمل مستواه الإيمانى بالمفاصلة الشعورية عن المشركين ، ابتداء من سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام القائد القدوة ، وانتهاء بكل مؤمن فى الأرض .

﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ ، وهذا التبين كما مر معنا لا يتم إلا إذا مات المشرك ، أباً أو أخاً أو قريباً على الشرك ، فلا يجوز الاستغفار له بعد ذلك ، أما فى حياتهم فقد بقيت آمال المسلمين فى هداية آبائهم يحنون إليها ، ويضرعون إلى ربهم أن يهدى أولى قرباهم ويغفر لهم ما جنت يداهم .

إن هذا المستوى الإيمانى الذى يريده الإسلام لهذه القاعدة الصلبة ، هو المستوى الأرقى والأعلى فى الوجود كله ؛ لأنهم حملة الرسالة إلى الأرض ، وهم المكلفون بالانسياح فيها فى هذا الوجود ، ونقل هذه الأمانة إلى أقصى المعمورة ، فلابد أن ينصهر التكتل الجديد ويلتحم ليكوّن الأمة المسلمة القوامة على البشرية ، وتحاسب حساباً خاصاً لتتمكن من تأدية هذه الأمانة على الوجه المطلوب .

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

إن الله لا يحاسب الناس إلا على ما بيّن لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه ، وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلاً .. ذلك أن الإنسان قاصر ، والله العليم بكل شىء ، ومنه البيان والتعليم .

ولقد جعل الله هذا الدين يسراً لا عسراً ، فبيَّن ما نهى عنه بياناً واضحاً ، كما بيَّن ما أمر به بياناً واضحاً ، وسكت عن أشياء ولم يبيِّن فيها بتاتاً – لا عن نسيان ولكن عن حكمة وتيسير ـ ونهى عن السؤال عما سكتَ عنه لئلا ينتهى السؤال إلى التشديد ، ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئاً من المسكوت عنه ولا أن ينهى عما لم يبيِّنه الله ، تحقيقاً لرحمة الله بالعباد ..

وفى نهاية هذه الآيات ، وفى جو الدعوة إلى التجرد من صلات الدم والنسب ، بعد التجرد من الأنفس والأموال ، يقرر أن الولى الناصر هو الله وحده ، وأنه مالك السمٰوات والأرض ، ومالك الموت والحياة :

﴿ إن الله له ملك السمٰوات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ .

فالأموال والأنفس ، والسموات والأرض ، والحياة والموت ، والولاية والنصرة ، كلها بيد الله دون سواه ، وفى الصلة بالله وحده كفاية وغناء .

وهذه التوكيدات المتوالية ، وهذا الحسم القاطع فى علاقات القرابة تدل على مدى ما كان يعتور بعض النفوس من اضطراب وأرجحة بين الروابط السائدة فى البيئة ، ورابطة العقيدة الجديدة بما اقتضى هذا الحسم الأخير فى السورة التى تتولى الحسم فى كل علاقات المجتمع المسلم بما حوله ، حتى الاستغفار للموتى على الشرك قد لقى هذا التشديد فى شأنه ، ذلك لتخلص القلوب من كل وشيجة إلا تلك الوشيجة .

إن التجمع على آصرة العقيدة وحدها هو قاعدة الحركة الإسلامية ، فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور ، كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق .. وهذا ما قررته السورة الحاسمة وكررته أيضاً[1] .

(يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الناس له سلطان السمٰوات والأرض وملكهما ، وكل من دونه من الملوك فعبيده ومماليكه ، بيده حياتهم وموتهم ، يحيى من يشاء منهم ، ويميت من يشاء ، فلا تجزعوا أيها المؤمنون من قتال من كفر بى من الملوك ، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة أو غيرهم ، واغزوهم وجاهدوهم فى طاعتى ، فإنى المعز من أشاء منهم ومنكم ، والمذل من أشاء ، وهذا حضٌ من الله جل ثناؤه للمؤمنين على قتال كل من كفر به من الممالك ، إغراء منه لهم بحربهم ، وقوله : **﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾** يقول : وما لكم من أحد هو لكم حليف من دون الله يظاهركم عليه إن أنتم خالفتم أمر الله فعاقبكم على خلافكم أمره يستنقذكم من عقابه ، ولا نصير ينصركم منه إن أراد بكم سوءًا يقول : فبالله ثقوا ، وإياه فارهبوا ،

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٢٢ .

وجاهدوا فى سبيله من كفر به ، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة ، تقاتلون فى سبيله فتقتلون وتُقتلون)[1] .

* * *

﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ [2] .

(يقول تعالى ذكره لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمداً ﷺ والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام ، وأنصار رسوله فى الله الذين اتبعوا رسول الله فى ساعة العسرة منهم فى النفقة والظهر والزاد والماء **﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾** يقول : من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق أو يشك فى دينه ويرتاب بالذى ناله له من المشقة والشدة فى سفره وغزوه ، **﴿ ثم تاب عليهم ﴾** يقول : ثم رزقهم جل ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه وإبصار الحق الذى كان قد كاد يلتبس عليهم ، **﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾** يقول : إن ربكم بالذى خالط قلوبهم لما نالهم فى سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم رحيم أن يهلكهم فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلوا فى الله ما أبلوا مع رسوله ، وصبروا عليه من البأساء ، والضراء)[3] .

(أخرج ابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقى معاً - فى الدلائل - والضياء - فى المختارة - عن ابن عباس ، أنه قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ، إن الله قد عوَّدك فى الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأهطلت ، ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر)[4] .

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبرى / ٣ / ١١ / ٣٩ .
(٢) سورة التوبة : ١١٧ .
(٣) المصدر نفسه / ٣ / ١١ / ٣٩ .
(٤) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٠٠ .

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ قال : هم الذين اتبعوا النبى ﷺ فى غزوة تبوك قبل الشام فى لهبان الحر على مايعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها أحدهم ثم يشرب عليها الماء ثم يمصها الآخر ، فتاب الله عليهم فأقفلهم من غزوتهم)[1] .

(وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقى – فى الدلائل – عن محمد ابن عبد الله بن عقيل بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ قال : خرجوا فى غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير ، وخرجوا فى حر شديد ، فأصابهم يوماً عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها ، فكان ذلك عسرة من الماء ، وعسرة من النفقة ، وعسرة من الظهر)[2] .

(واختلف العلماء فى هذه التوبة التى تابها الله على النبى والمهاجرين والأنصار على أقوال : فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبى لأجل إذنه للمنافقين فى القعود ، دليله قوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم : استنقاذهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدو ، وعبّر عن ذلك بالتوبة ، وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعانى ، إنما ذكر النبى ﷺ فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم ؛ لقوله : ﴿ **فأن لله خمسه وللرسول** ﴾[3])[4] .

لأول مرة يذكر فى السورة هذا التجمع الإسلامى الضخم من المهاجرين والأنصار وعلى رأسه قيادته العظيمة رسول الله ﷺ ، وذلك فى مجال الرضا الربانى ، والتوبة الربانية عليه ، وفى مجال الثناء على الاتباع فى ساعة العسرة التى كادت أن تودى بقلوب فريق منهم فتزيغ عن الحق ، وتضطرب فى خباب الشك والارتياب .

---

(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٠٩ .   (٣) سورة الأنفال : ٤١ .
(٤) القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٧٨ .

لقد كانت غزوة تبوك امتحاناً نفسياً من أعسر الامتحانات التى مر بها الجيل المسلم بعد الفتح ، فقد تواردت الأمواج الوافدة تعلن ولاءها للإسلام ولرسول الإسلام ، وانضمامها لهذا الدين الجديد ، وكان هذا الإعلان وهذا الانضمام غير كافٍ لسبر معادن الرجال ، وكشف مستوياتهم الإيمانية ، إذ أنه لا يعدو أن يكون دعوى فقط ، ومن خلال الجهاد وتكاليفه ، وظروفه الصعبة وتضحياته ، يكون المحك القوى لهذه المعادن ، وكما يقول كعب رضى الله عنه :

(وكان رسول الله ﷺ كلما يريد غزاة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنَّ ذلك سيخفى مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل ، وأنا إليها أصعر)[1] .

وكما رأينا فى غزوة الحديبية ، كيف أن الله امتحن ذلك الجيل فى قضية البيعة ، والله تعالى يعلم أن عثمان لم يقتل ، وكان الله تعالى قادراً أن يعلم نبيه أكذوبة إشاعة مقتله ، لكن الله تعالى أبقاه سراً ،لتبرز النوعيات والمعادن ، وعلم الله مافى قلوبهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ورضى الله عنهم إذ يبايعون تحت الشجرة .

وها هى الصورة اليوم تتكرر ، والله تعالى يعلم أكذوبة إشاعة جمع قيصر لغزو المدينة ، وكان الله تعالى قادراً على إعلام نبيه بذلك ، لكنه جل ثناؤه أبقى الأمر غيباً مخفياً ، ودفع المؤمنين جميعاً ليتصرفوا على أساس المواجهة للروم ، وذلك لاستنفار أقصى ما لدى هذه الأمة من قوة وعتاد وعدد ، وحتى لا يكون لمتخلف عذر عن القعود ، فبرزت النوعيات كلها ، والمستويات كلها ، والمعادن النفيسة والخسيسة كلها ، واستمرت التجربة قرابة شهرين أو تزيد ، فى هذا الحر واللظى ، وهذا الجوع والتعب ، وهذا الظمأ فى الهاجرة ، حتى ليذبحوا إبلهم ويعصروا كروشها ، ويبردوا أكبادهم بمائها .

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣١٠ .

ولأن الله تعالى قد تاب على هؤلاء الذين استجابوا لله ورسوله ، ولأن الله تعالى قد رضى عنهم ، فقد حفظ قلب الذين كادوا أن يزيغوا ويسقطوا من شدة الهول ، ومن شدة العسرة . ومن شدة القيظ والجوع والظمأ ، حفظ الله قلوبهم ، ورضى عنهم وتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم .

ولابد أن نوضح الفرق بين التعبيرين فى القرآن :

بين قوله عز وجل ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...** ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ .

فالرضا أعلى من التوبة ولا شك ، وهذا هو الفرق بين جيل الحديبية ، وجيل تبوك ، وأما حفظ الله تعالى للجيلين فواضح كذلك :

﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور** ﴾[1] .

﴿ **... من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم ...** ﴾ .

وتجاوز جيل تبوك القنطرة ، وهو جيل معد للتدريب على الطاعة والالتزام والجندية ، وأثبت كفاءة عالية فى هذه التدريبات العنيفة ، والخلل الذى ظهر فى الصف يمكن تجاوزه بحيث يدخل ضمن إطار المغفرة الربانية ، لكن هذا لا يعنى أن المنافقين فى الصف قد دخلوا فى هذه التوبة ، فأولئك فى ارتباطاتهم بقياداتهم فى المدينة وبمحاولاتهم ، كان لهم تقييم آخر مختلف تماماً ، فجزاؤهم جهنم ، ولعنهم الله بما قالوا ، وسخط الله عليهم ، إلى آخر ما ورد فى القرآن الكريم بحقهم .

إن الجيوش الحديثة تستعمل مصطلح المناورات العسكرية على التدريبات التى تتم على الحرب والمواجهة ، ونحن لا نرى استعمال هذا المصطلح ، لكننا نكتفى بالقول : إن هذه الدورة التدريبية العنيفة لثلاثين ألف مجاهد ، جعلتهم فى العموم فى قمة الطاعة والانضباط والالتزام وتحمل المسؤولية ، والاعتماد على الذات ، وأكرم الله تعالى

---

(١) سورة الأنفال : ٤٣ .

المهاجرين والأنصار بالتوبة حين وضع معهم سيد ولد آدم ضمن من تاب الله عليهم ، وذلك لرفع مستوياتهم ، وتغذية أرواحهم بأنهم مشمولون فى توبة الله عز وجل ، فسيدهم عليه الصلاة والسلام بينهم وواحد منهم .

ونلاحظ أخيراً كذلك ، أن جيل بدر والحديبية ، والمجلين منهم قد خصوا بآية سابقة ، خصوا بالرضا الربانى ، كما تحدث الله تعالى عنهم فى الحديبية :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وحيث لم يعرف بالضبط من اتبعوهم بإحسان ، ولم يعرف من دخل مع السابقين المعروفين بأشخاصهم وأعيانهم ضمن إطار الرضا الربانى فى الدنيا والآخرة ، وبقيت فى غيب الله عز وجل ، فجاءت هذه الآية لتشمل المهاجرين والأنصار جميعاً بأعيانهم والذين حضروا غزوة تبوك ، واتبعوا رسول الله ﷺ فى ساعة العسرة ، واستجابوا لندائه فى غزاة العدو ، فهم بأشخاصهم وأعيانهم قد تاب الله عليهم ، وإنه بهم رءوف رحيم .

ثم تأتى الآية التالية لتضم إليهم الثلاثة الذين تخلفوا ، وتخلف حكم الله تعالى فيهم وهم المرجون لأمر الله ، إما يتوب عليهم أو يعذبهم ، فقد تاب الله عليهم بعدها ، واعتبروا ممن شملهم عفو الله وتوبته رغم تخلفهم فى المدينة .

* * *

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ۝ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (١) .

ولا شىء أبلغ وأجمع مما وصف به كعب بن مالك رضى الله عنه ما عاناه هؤلاء الثلاثة ، وهو الصحابى الأديب الشاعر رضى الله عنه :

(روى ابن إسحاق ، وعبد الرزاق ، وابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، والشيخان

(١) سورة التوبة : ١١٨ ، ١١٩ .

عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر – وفى رواية : وإن كانت بدر أكثر ذكراً فى الناس منها – كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عن تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، وكان يقول : « الحرب خدعة » ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدداً كبيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم – وفى لفظ : أهبة عدوهم – فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرون – وعند مسلم : يزيدون على عشرة آلاف .

وروى الحاكم – فى الإكليل – عن معاذ رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً ، وقال أبو زرعة الرازى : لا يجمعهم كتاب حافظ – قال الزهرى : يريد الديوان – قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظنَّ أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله تعالى .

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فى قيظ شديد فى حال الخريف والناس خارفون فى نخيلهم ، وتجهز رسول الله ﷺ .. وتجهز المسلمون معه فخرج فى يوم الخميس ، وكان يحب إذا خرج فى سفر جهاد أو غيره أن يخرج يوم الخميس ، فطفقت أعدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه – وفى رواية : وأنا أقدر شيئاً فى نفسى على الجهاد وخفة الجهاد – وأنا فى ذلك أصبو إلى الظلال والثمار ، ولم يزل يتمادى بى الحال حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه يوم الخميس ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل يتمادى بى حتى أمعن القوم وأسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم – وليتنى فعلت –!! فلم يقدر لى ذلك ،

فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى ألا أرى إلا رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء – وعند عبد الرزاق : وكان جميع من تخلف عن رسول الله ﷺ بضعة وثمانين رجلاً – ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » ، فقال رجل من بنى سلمة – وفى رواية : من قومى – قال محمد بن عمر : هو عبد الله بن أنيس السلمى لا الجهنى – : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يارسول الله ما علمت عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ توجّه قافلاً ، حضرنى همى ، وطفقت أُعدّ عذراً لرسول الله ﷺ وأهيئ الكلام وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ، واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أخرج منه أبداً بشىء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وعرفت أنه لا ينجينى منه إلا الصدق ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً – قال ابن سعد : فى رمضان – قال كعب : وكان إذا قدم من سفر لا يقدم إلا فى الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ، ثم يدخل على فاطمة ، ثم على أزواجه ، فبدأ بالمسجد فركعهما ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى فجئته ، فلما سلمت عليه ، تبسم تبسُّم المُغضب ، فقال : « تعال » ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه – وعند ابن عائذ فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، لم تعرض عنى ؟ فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت – قال كعب : فقال لى : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » ، فقلت : بلى ، إنى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت ، أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنى – والله – لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدَّثتك اليوم حديث صدق تجد علىَّ فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله عنى ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلَّفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله تعالى فيك ما يشاء ، فقمت فمضيت ، وصار رجال

من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا : ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ مما اعتذر به إليه المخلّفون ، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله مازالوا يؤنبوننى ، حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسى ، فقلت : ما كنت لأجمع أمرين : أتخلف عن رسول الله ﷺ وأكذبه ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العَمرى ، وهلال ابن أمية الواقفى – وعند ابن أبى حاتم من مرسل الحسن أن سبب تخلف الأول أنه كان له حائط حين زها ، فقال فى نفسه : قد غزوت قبلها فلو أقمت عامى هذا ؟! فلما تذكر ذنبه قال : اللهم إنى أشهدك أنى قد تصدقت به فى سبيلك ، وأن الثانى كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا ، فقال : لو أقمت هذا العام عندهم ، فلما تذكر قال : اللهم لك علىَّ ألا أرجع إلى أهلى ولا مالى .

قال كعب : فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا – وعند ابن أبى شيبة : فطفقنا نغدو فى الناس فلا يكلمنا أحد ، ولا يسلم علينا أحد ، ولا يرد علينا سلاماً – عند عبد الرزاق : وتنكَّر لنا الناس حتى ما هم بالذى نعرف ، وتنكَّرت لنا الحيطان حتى ما هى بالتى نعرف – ما من شىء أهمَّ إلىَّ من أن أموت فلا يصلى علىَّ رسول الله ﷺ ، أو يموت فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمنى أحد ولا يصلى على – حتى تنكرت لى الأرض حتى ما هى بالتى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف الأسواق فلا يكلمنى أحد ، ولا يردُّ على سلاماً ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم عليه وأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى أقبل علىَّ ، فإذا التفتُ نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى – أى من بنى سلمة وليس هو ابن عمه أخو أبيه الأقرب – قال كعب : وهو أحب الناس إلىَّ ، فسلمت عليه ، فوالله ماردَّ على ، فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته فلم يكلمنى ،

حتى إذا كان فى الثالثة أو الرابعة قال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسوَّرت الجدار ، قال : فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا بنبطى من أنباط الشام ممَّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدُل علي كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون إلى ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وعند ابن أبى شيبة من بعض من بالشام كتب إلَّى كتاباً فى سرقة حرير فإذا فيه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك فأقصاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فإن تك متحولاً فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، قد طمع فىَّ أهل الكفر ، فتيممت بها التنور فسجرته بها .

وعند ابن عائذ : أنه شكا قدره إلى رسول الله ﷺ وقال : مازال إعراضك عنى حتى رغب بى أهل الشرك ، قال كعب : حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذ رسول رسول الله ﷺ يأتينى – قال محمد بن عمر: وهو خزيمة بن ثابت، وهو الرسول إلى مرارة وهلال بذلك – قال كعب : فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك .. فقلت : أطلِّقها أو ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبىَّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . قال كعب : وجاءت امرأة هلال بن أمية – أى خولة بنت عاصم – لرسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم – وعند ابن أبى شيبة : إنه شيخ قد ضعف بصره – فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » ، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء !! والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال كعب : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لهلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا .

وعند عبد الرزاق : وكانت توبتنا نزلت على النبى ﷺ ثلث الليل ، فقالت أم سلمة : يا نبى الله ، ألا نبشر كعب بن مالك ؟ قال : « إذا يحطمكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة » . قال : وكانت أم سلمة تجيئه فى ثانى عشرة بأمرى ، فلما صليت

الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال الذى ذكره الله تعالى قد ضاقت علىَّ نفسى ، وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوتاً صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر – وعند محمد بن عمر رحمه الله تعالى : أن الذى أوفى على سلع أبو بكر الصديق رضى الله عنه فصاح : قد تاب الله على كعب بن مالك : يا كعب أبشر وعند ابن عقبة : أن رجلين سعيا يريدان كعباً يبشرانه فسبق أحدهما ، فارتقى المسبوق على سلع فصاح : يا كعب أبشر بتوبة الله تعالى . وقد أنزل الله عز وجل فيكم القرآن ، وزعموا أن اللذين سعيا أبو بكر وعمر – قال كعب : فخررت ساجداً أبكى فرحاً بالتوبة ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبىَّ مبشرون ، وركض إلىَّ رجل على فرس – وعند محمد بن عمر : هو الزبير بن العوام رضى الله عنه وسعى ساعٍ من أسلم حتى أوفى على الجبل – وعند محمد بن عمر أنه حمزة بن عمر الأسلمى قال كعب : وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته ، وهو حمزة الأسلمى يبشرنى ، نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين من أبى قتادة – كما عند محمد بن عمر – فلبستهما . قال وكان الذى بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد ، فما ظننت أنه يرفع رأسه حتى تخرج – أى من الجهد – فقد كان امتنع عن الطعام حتى كان يواصل الأيام صياماً لا يفتر عن البكاء ، وكان الذى بشر مرارة بن الربيع بتوبته سلطان بن سلامة أو سلامة بن وقش .

قال كعب : وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئوننى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره لا أنساها لطلحة . قال كعب : فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » فقلت : يا رسول الله ، أمن عندك أم من عند الله ؟ قال : « لا ، بل من عند الله ، إنكم صدقتم الله فصدقكم الله » ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست

بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالى كلّه صدقة إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » ، قلت : نصفه ؟ قال : « لا » قلت : ثلثه ؟ قال : « نعم » ، قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يارسول الله ، إنما نجانى الله تعالى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذباً ، وإنى أرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ ، فوالله ما أنعم الله على من نعمة بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ ألا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال فى الذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ .

قال كعب : وكنا قد تخلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله سبحانه وتعالى فيه بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا** ﴾ وليس الذى ذكر الله مما تخلفنا من الغزو ، وإنما تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

وروى ابن عساكر عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت توبتى قبّلتُ يد رسول الله ﷺ)[1] .

(وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت توبتى أتيت النبى ﷺ فقبّلتُ يده وركبتيه وكسوت المبشر ثوبين)[2] .

(وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن رضى الله عنه قال :

لما غزا رسول الله ﷺ تبوك تخلف كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٧٨ – ٦٨٥ . (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣١٤ .

الربيع ، قال : أما أحدهم فكان له حائط[1] حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة فقال : غزوت وغزوت وغزوت مع النبى ﷺ ، فلو أقمت العام فى هذا الحائط فأصبت منه ، فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه دخل حائطه فقال : ما خلفنى عن رسول الله ﷺ وما استبق المؤمنون فى الجهاد فى سبيل الله إلا ضنّ بك أيها الحائط ، اللهم إن أشهدك أنى تصدقت به فى سبيلك ، وأما الآخر فكان قد تفرّق عنه من أهله ناس واجتمعوا له فقال : غزوت مع رسول الله ﷺ وغزوت ، فلو أنى أقمت العام فى أهلى ، فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه قال : ما خلفنى عن رسول الله ﷺ وما استبق إليه المجاهدون فى سبيل الله إلا ضنّ بكم أيها الأهل ، اللهم لك على ألا أرجع إلى أهلى ومالى حتى أعلم ما تقضى فىَّ ، وأما الآخر فقال : اللهمَّ لك على أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو انقطع ، فجعل يتتبع الدقع[2] والحزونة[3] حتى لحق بالقوم[4] ، فأنزل الله : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾ قال الحسن رضى الله عنه : يا سبحان الله ، والله ما أكلوا حراماً ، ولا أصابوا دماً حراماً ، ولا أفسدوا فى الأرض غير أنهم أبطأوا عن شيء من الخير – الجهاد فى سبيل الله ، وقد – والله – جاهدوا وجاهدوا وجاهدوا ، فبلغ منهم ما سمعتم ، فهكذا يبلغ الذنب من المؤمن .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : دعا الله إلى توبته من قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾[5] وقال : ﴿ **ما علمت لكم من إلٰه غيرى** ﴾[6] ، ومن آيس العباد من التوبة بعد هؤلاء فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه وهو قوله : ﴿ **ثم تاب الله عليهم ليتوبوا** ﴾ فبدء التوبة من الله عز وجل[7] .

وحديث توبة كعب رضى الله عنه عنده وقفات عدة ، يحسن أن نملى معانيها ، ونحن بصدد الحديث عن المنهج التربوى للسيرة النبوية :

---

(١) الحائط : البستان . (٢) الدقع : الأرض لا نبات فيها ولا تراب . (٣) الحزونة : الأرض الوعرة الصعبة .

(٤) المعروف أن الثلاثة مكثوا فى المدينة ، ولم يلحقوا بالجيش . اللهم إلا ما همَّ به كعب باللحاق بالقوم .

(٥) سورة النازعات : ٢٤ . (٦) سورة القصص : ٣٨ . (٧) الدر المنثور/٤/١١/٣١٤ ، ٣١٥ .

١ ـ لقد كان كعب رضى الله عنه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وحضر اللحظات الأولى لتخطيط الانقلاب الإسلامى العالمى فى الأرض ، فكان أحد السبعين الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية على نهكة الأموال والأولاد ، وعلى حرب الأحمر والأسود من الناس مع رسول الله ﷺ ، وعلى حماية رسول الله ﷺ مما يحمى منه المرء نفسه وأهله وولده ، وكان من جهة ثانية علماً بين هؤلاء الأنصار السبعين ، وكأنما هو الناطق الرسمى باسمهم ، يقول رضى الله عنه عن أول لقاء له مع رسول الله ﷺ :

(خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ... نسأل عن رسول الله ﷺ ، وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، فقال : هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمَّه ؟ قلنا : نعم ، قال : وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً ، قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ، ورسول الله ﷺ جالس معه فسلَّمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : « هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » قال : نعم ، هذا البراء ابن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ؟ قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » قال : نعم)[١] .

فكعب وهو فى مقتبل الشباب وشرخ الفتوة طار صيته فى العرب حتى عرفه رسول الله ﷺ بالشاعر ، وكعب هو الذى أعلن أسماء النقباء الاثنى عشر الذين كانوا كفلاء على قومهم ، فنحن إذن أمام رجل ساهم فى بناء اللبنات الأولى للدولة المسلمة من اللحظات الأولى لقيامها ، وشارك فى كل أحداثها ، ولم تفته إلا غزوة بدر كما يقول : (غير أنى كنت تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد) .

وإذا عرفناه الشاعر الذى ملأ دنيا الحجاز بشعره ، حتى كان علماً عليه فى أول لقاء له مع رسول الله ﷺ ، ورأينا أن تخلفه عن بدر كان عن غير ضعف ، إذ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : /١ / ٤٤٠ .

الخروج كان اختيارياً للقافلة ، ولم يكن لمواجهة عدو ، فقد كان فى أُحد أحد الفدائيين العظام فيها ، فهو أول من أعلن للدنيا عن حياة رسول الله ﷺ بعد إشاعة مقتله : (وكان أول من عرف رسول لله ﷺ - كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى - كعب ابن مالك قال: عرفت عيناه تُزهران من تحت المِغفَر ، فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إلىّ رسول الله ﷺ أن أنصت)[1] .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، وكما فعل الفدائىُّ الأول على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم نام فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة بأمر قائده عليه الصلاة والسلام ، اختير كعب ليكون الفدائىَّ الثانى ، فألبسه رسول الله ﷺ لأمته -أى ثياب حربه - ولبث ثياب كعب ، وانهالت الضربات من كل جانب على رأس كعب رضى الله عنه تحسبه رسول الله ﷺ ، كمايقول رضى الله عنه : (لما كان يوم أحد وصرنا إلى الشعب كنت أول من عرف رسول الله ﷺ ، فقلت : هذا رسول الله ، فأشار إلىّ بيده أن اسكت ، ثم ألبسني لأمته ولبس لأمتى ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة - أو قال : بضعاً وعشرين جراحة - كل من يضربنى يحسبنى رسول الله ﷺ)[2] .

فنحن أمام طراز من الرجال من أعلى المستويات الإيمانية ، ولو كان ما لقيه كعب فى أحد ، لقيه قائد فى أيامنا المعاصرة ، لاستحق أعلى الأوسمة والنياشين ، وعفى من حضور أى معركة بعد ذلك ، وأصبح الشخص الأول فى القيادة والحكم ، لكن كعبا رضى الله عنه مضى مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن معركة قط ، وكانت غزوة تبوك .

٢ - وحين يحدثنا عن تخلفه نجد عظمة العرض ، فلا يخفى علينا شيئاً من حركة جسده ، أو تحركات نفسه ، وكيف كان يحاول ويهمل ويمضى وينثنى ولما يقض شيئاً بعد ، وترتفع همته مع قرب خروج الرسول ﷺ ، ثم تفتر ، ويمضى رسول الله ﷺ مع جيشه ، فيصمم على المتابعة واللحوق ، ثم يذكر حائطه وأهله فيفتر ، ثم ييأس

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ٨٣ .
(٢) شرح المواهب للزرقانى / ٢ / ٤٤ ، وقال : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

عن إمكانية اللحوق بالجيش ، ويخلد إلى المدينة .

لقد اثاقل إلى الأرض ، ولم يستجب لنداء النفير ، ولا عذر له بذلك ، كما يحدثنا رضوان الله عليه . وهو درس حي لكل داعية فى الأرض ، كما يقول الحسن البصرى – رضى الله عنه – وعن أخويه : (يا سبحان الله ، والله ما أكلوا مالاً حراماً ، ولا أصابوا دماً حراماً ولا أفسدوا فى الأرض ، غير أنهم أبطأوا عن شيء من الخير ، الجهاد فى سبيل الله ، وقد – والله – جاهدوا وجاهدوا وجاهدوا) .

فالمستوى المطلوب من القاعدة الصلبة ، ومن قيادات القاعدة الصلبة ، لا يغفر فيه مثل هذا التخلف ولا يعفى عنه مثل هذه الخطيئة ، ولا يعذر فيه مثل هذا الذنب .

إن الجنود العاديين فى هذه القاعدة الصلبة لم يقبل منهم هذا التخلف ، وهم المعذرون من الأعراب ، الثمانون من غفار ، وكيف آلم رسول الله ﷺ تخلفهم وهم من جيل ما بعد الحديبية ، وقال عنهم : « إن كان لمن أعز أهلى علىَّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش ، والأنصار ، وغفار ، وأسلم » ، فكيف يقبل من قيادات هذه القاعدة ، ومن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فيه ؟؟

٣ – وحيث إن هذا الجيل يعيش – كل فرد فيه – فى قلب وعقل قائده عليه الصلاة والسلام ، وحيث انتهت فرصة لحاق المتخلفين بالجيش بعد الوصول إلى تبوك ، وبحث عليه الصلاة والسلام عن أعز جنوده عنده كعب بن مالك ، فلم يجده فسأل ما فعل كعب بن مالك ؟ وليس كعب نكرة أو غمراً بين الناس حتى ينسى ، إنه أحد أعمدة هذه الدعوة وهذه الدولة ، ويعز عليه الصلاة والسلام عليه أن يتخلف عنه ، وعلى الطريق عندما لاح راكب من بعيد قال عليه الصلاة والسلام : « كن أبا ذر » ، وعندما لاح الراكب الثاني وقبل أن ينشق عنه الغبار قال : « كن أبا خيثمة » ، إنه عليه الصلاة والسلام يعرف جنده ، ويعرف رجاله ويرعاهم بعينه ، ويعرف المستوى الإيمانى الذى بلغوه ، ومن أجل هذا صدق حرصه عليه الصلاة والسلام فى الراكبين أبى ذر وأبى خيثمة رضى الله عنهما ، وانضما للركب بعد تخلف ومسير .

ومن أجل هذا كذلك سأل رسول الله ﷺ عن كعب بن مالك يوم افتقده فى الصف ، وسأل عن النفر الحمر الطوال النطانط ، وعن النفر السود القصار الجعاد

الحلس الذين تخلفوا من غفار ، فهو يعرف القيادات عنده بأشخاصهم وأعيانهم ، ويعرف جنوده بأوصافهم ، وأنسابهم ، والأصل ألا يتخلف من القاعدة الصلبة أحد ، سيان كان راعياً فيها أم جندياً عادياً .

٤ ـ وتطالعنا نفسية كعب كذلك والصراع بينه وبين الشيطان ، الشيطان الذى يود أن يهبط به إلى درك النفاق ، ولو مرة واحدة فيحدث ويكذب ويخرج من سخط رسول الله ﷺ بعذر ، وإيمانه الذى يحوطه بسياج حديدى من العدو ، واللدود الشيطان الرجيم الذى يحول بينه وبين هذه السقطة ، فهو لا يرضى رضى الله عنه ، ولو مرة واحدة ، أن يشبه المنافقين بسلوكهم فيكذب بين يدى رسول الله ﷺ ؛ لـئلا تكون خصلة عنده .. فهو يعلم : (لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدثتك اليوم حديث صدق تجد به على إنى لأرجو فيه عفو الله عنى) ، فقد تربى رضى الله عنه بحكم شخصه ومعدنه أولاً ، ثم بحكم إيمانه وعقيدته ثانياً على الصدق ، « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلّا الخيانة والكذب »[1] ، فبينه وبين المنافقين سدود وحدود ، لا يلتقى معهم أبداً ، ورأينا رسول الله ﷺ لا يسأل عن المنافقين أبداً ، ولا عن تخلفهم ، بل يرتاح لتخلفهم كما قال عز وجل : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾ ، ويسمو رضى الله عنه كذلك حين يرتفع عن الكذب ويدحض الشيطان بقوله : (ما كنت أجمع أمرين أتخلف عن رسول الله ﷺ وأكذبه) . ولم يستطع هذا الشيطان الرجيم أن يستجره ليتبع خطواته . إنها زلة لابد بعدها من رفعة ، وليست كخطوات الساقطين الذين يجرون من أنوفهم خطوة بعد خطوة حتى يستأسرهم الشيطان ، إنها سمة المجاهد المسلم الذى يعيش فى المجتمع المسلم .

٥ ـ والذى دفع كعبا رضى الله عنه إلى الثبات على موقفه هو موقف رفيقيه :

(حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى .. ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من

---

(١) أخرجه أحمد عن أبى أمامة / ٥ / ٢٥٢ .

هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى) . إنهم الرفاق الثلاثة من الجيل الأول ، لم يجمعوا كذباً مع تخلف ، ولم يطبعوا على خلق الكذب أو خلق الخيانة ، فهم مؤمنون ، فجاء تصرفهم واحداً ، دون تشاور بينهم فى ذلك ، والذى عصم كعباً رضى الله عنه عن اقتحام الزلة الثانية ، ما طُبع عليه من الصدق ، وملء الإيمان قلبه بالله الذى لا تخفى عليه خافية ، وزاده إصراراً على موقفه ، موقف صاحبيه البدريين هلال ومرارة ؛ لأنهما هما اللذان يمثلان مستواه ، لا أولئك المنافقين المنبوذين فى حسه الإسلامى وفى مجتمعه الإسلامى .

إنه يصف المفاصلة بينه وبينهم حين يقول :

(فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء) .

وكان هذا الأمر يدفعه أكثر وأكثر إلى أعماقه وذاته ، وينفره من أولئك الأراذل الفاسقين ، ولئن التقى لحظات معهم فى موقف سلوكى ، فلن يلتقى لحظة واحدة معهم فى موقف شعورى ، إنه متخلف معهم صحيح ، لكن شتان بين قلبه الذى يتقطر دماً ، ويتقطر أسىً على تخلفه ، وبينهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ .

٦ ـــ وحتى نشهد تلألؤ الإيمان فى هذه النفوس الثلاثة ، وأنها تصدر عن مشكاة واحدة ، نستمع إلى هلال بن أمية الواقفى رضى الله عنه يحدثنا عن تخلفه فيقول :

(والله ما تخلفت شكاً ولا ارتياباً ، ولكن كنت مقوياً فى المال ، قلت : أشترى بعيراً ، ولقينى مرارة بن الربيع فقال : أنا رجل مقوٍ فأبتاع بعيراً وأنطلق به ، فقلت : هذا صاحب أرافقه فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلحق بالنبى ﷺ ، ولا يفوت ذلك ، نحن قوم مُخِفُّون على صدر راحلتين ، فغداً نسير ! فلم نزل ندفع ذلك

ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج ، فجعلت لا أرى فى الدار ولا فى غيرها إلا معذوراً أو منافقاً معلناً فأرجع مغتماً بما أنا فيه وكان أبو خيثمة قد تخلّف معنا ، وكان لا يتهم فى إسلامه ولا يغمص عليه ، فعزم على ما عزم ..)[1] . وكما قال عنه الحسن البصرى رضى الله عنه فى الرواية الأخرى : (فجعل يتبع الدقع والحزونة حتى لحق بالقوم) . وقال عن أخويه هلال ومرارة : (أما أحدهم فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة ، فقال : غزوت وغزوت وغزوت ، فلو أقمت هذا العام فى هذا الحائط .. وأما الآخر فكان تفرق عنه من أهله ناس واجتمعوا له فقال : غزوت مع رسول الله ﷺ وغزوت وغزوت ، فلو أنى أقمت العام فى أهلى ..) .

لقد كان الركون إلى الدنيا والاستثقال إلى الأرض ، هو الذى دفعهم إلى التخلف ، ولكن وهج الإيمان وحرارته سرعان ما صهرت زيف هذه الدنيا ، وأشعرتهم بأنهم فى هوة سحيقة بعيدون عن موقفهم الحقيقى فى الصفوف الأولى من المجاهدين .

يقول الأول : (فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه دخل حائطه وقال : ما خلفنى عن رسول الله ﷺ وما استبق المؤمنون فى الجهاد فى سبيل الله إلا ضن بك أيها الحائط ، اللهم إنى أشهدك أنى تصدقت به فى سبيلك) .

ويقول الثانى : (فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه قال : ما خلفنى عن رسول الله ﷺ وما استبق المؤمنون من الجهاد فى سبيل الله إلا ضن بكم أيها الأهل ، اللهم إنَّ لك علىَّ ألا أرجع إلى أهلى ، ومالى حتى أعلم ما تقضى فىَّ) .

وأما الثالث ، الذى زهت الدنيا بعينيه فى عريشيه وامرأتيه ، فقال : (اللهم إن لك على أن ألحق بالقوم حتى أدركهم . أو أنقطع)[2] .

٧ ـ وكانت العقوبة الربانية الرادعة التى نفذها عليه الصلاة والسلام بهم : (ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا – وعند ابن أبى شيبة : فطفقنا نغدو فى الناس لا يكلمنا

---

(١) المغازى للواقدى / ٣ / ٩٩٨ .

(٢) الثالث هنا هو أبو خيثمة رضى الله عنه وليس كعب بن مالك ، لأن أبا خيثمة لحق برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأدركه فى تبوك .

أحد ، ولا يسلم علينا أحد ، ولا يرد علينا سلاماً وتنكرَّ لنا الناس حتى ما هم بالذى نعرف وتنكرت الحيطان حتى ما هى بالتى نعرف .

لقد كانت شديدة الوطأة ، ثقيلة الوقع ، فإذا بأحب الناس إليهم لا يكلمهم ، وما أعتقد أن أمة فى الوجود يمكن أن تلتزم بهذه الأوامر ، إلا هذه الأمة التى يربيها النبى عليه الصلاة والسلام ، وتصنع على عين الله ، فكعب يؤكد لنا أن عشرات الألوف جميعاً نفذوا أوامر المقاطعة بدقة ، ولم يتم ولو خلل واحد من فرد واحد فى التطبيق ، أى طاعة وأى انضباط فى هذا الوجود يعدل هذا الانضباط وهذه الطاعة ، لم يصدر الأمر بالسجن أو الاعتقال أو الإقامة الجبرية، فكعب رضى الله عنه يغشى المجالس ، ويرتاد المسجد ويلتقى بالناس ويلقى السلام ، ولكن دون جدوى فالأوامر صارمة فى المقاطعة ، أما صاحباه فلزما بيتهما يبكيان ، لكنه أشب القوم .

(هكذا كان الضبط ، وهكذا كانت الطاعة فى الجماعة المسلمة - على الرغم مما وقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة فى ساعة العسرة - .. نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة ، فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ، ولا مخلوق يلقى كعباً بأنس ، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطى حتى ابن عمه وأحب الناس إليه وقد تسوَّر عليه داره لا يرد عليه السلام ، ولا يجيبه على سؤال ، فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته ولم يسكن قلقه ، إنما قال : (الله ورسوله أعلم) .

وكعب فى لهفته - وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التى كان يعرف - يتلمس حركة بين شفتى الرسول ﷺ ، ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف)[1] .

إنه ما من حاكم يجرؤ على إصدار مثل هذا القرار ؛ لأنه يعلم أن هذا القرار حبر على ورق كما يقال ، إلا إذا جند أزلامه ومخابراته لمراقبة أية صلة ، وأية همسة ، وأى لقاء ، وأى حديث ، وهدد وتوعد بالسجن لكل من تُسوِّل له نفسه الاتصال بهم .. أما فى المجتمع النبوى ، فهذا يتم بمجرد أمر يلتزم به أبناء الأمة جميعاً ، بل تصل القضية فى أبعادها إلى أعمق من ذلك ، تصل إلى حد الدخول بين الرجال وأزواجهم ، فبعد

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٣١ .

أربعين يوماً من المقاطعة العامة ، جاءت الأوامر بالمقاطعة الخاصة : (إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك) .

عجيب أمر هذا المجتمع الربانى ، لقد صار الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فى حس كل مسلم ، صار هذا واقعاً حياً وليس تهويمات عاطفية ، فيأتى الأمر بالاعتزال ، وعلى التو يصدر كعب توجيهاته لزوجه أن تغادر إلى أهلها ، بينما يستأذن صاحباه بخدمة زوجيهما لهما مع المحافظة على الاعتزال التام بينهما .

إنها أيام ثقيلة ، هدَّت أركان هؤلاء الإخوة الثلاثة رضوان الله عليهم ، واثنان منهما ، لا عمل لهما إلا البكاء على خطيئتيهما ، والجميع ينتظرون الفرج من السماء ، والتوبة من الله .

وكيف كان حال المسلمين من إخوانهم الذين يقاطعونهم ؟! إن الأسى ليحز فى نفوسهم ، ويعيش مأساتهم كل جندى وكل عضو فى هذا المجتمع ، فالمدينة كلها حزينة لفقد ثلاثة من أبنائها ومقاطعتهم ، وهى لا تدرى إلام يمتد هذا الوضع .

٨ ــ وفى ظل هذا الجو المأسوى الرهيب الذى يمزق نياط القلب ، جاءت محنة أعنف وأرهب ، فالطابور الخامس فى المدينة ، وجواسيس العدو ينقلون هذا الخبر الضخم فى مقاطعة ثلاثة من القيادات الإسلامية ، ليس من رسول الله ﷺ فقط ، ولكن من كل المسلمين فى المدينة :

(وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعامه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى ، حتى جاء فدفع إلَّى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعة فالحق بنا نواسك) .

وهذه والله خاصية كذلك من خصائص هذا المجتمع النبوى نفسه ، فالنبطى يسأل عن كعب بن مالك ، وكعب الذى قاطعه المسلمون جميعاً ، فلا يجدون حرجاً من أن يدلوه عليه ، لم يعتقل القبطى ، أو يلقى بكعب فى السجن ، أو تتابع المخابرات خيوط المؤامرة ، حتى تقبض عليهم بالجرم المشهود . والرسالة من أين ؟ من ملك غسان من قائد العدو إلى أحد القيادات المسلمة ، إنها دعوة إلى تكرمة ، قد تكون

وزارة ، ومشاركة فى حكم ، وذلك حين اسودت المدينة والأرض وضاقت بكعب ، حين لا يوجد حوله من يرد عليه السلام ، وبرز أثر التربية النبوية العظيمة لهذا الجيل الرائد ، فلم يتردد ، ولم يناقش ، ولم تتلمظ نفسه ويسيل لعابه للملوك ، والعز والتيجان عندهم .

إنه الحس الإسلامى الأصيل ، إنها التربية الربانية النبوية .

لقد زاد بؤسه ، وتضاعف ألمه وهمه ، وتفتت كبده : (قد طمع فىَّ أهل الكفر) .

(فقلت : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها) .

إنه لم يخش أن يشك به قائده عليه الصلاة والسلام ، فيمضى سريعاً إليه ويريه الرسالة ، حتى لا يتهمه بالصلات مع العدو الخارجى ، فهو واثق من ثقة نبيه فيه ، ولم يتردد فى أن يرميها فى التنور فيحرقها ، ويحرق معها كل الأصابع الخبيثة التى تريد أن تلوِّثه فى دينه .

إنه همَّ أن يكذب ليرفع سخط رسول الله ﷺ عنه ، وعصمه الله من ذلك ، ووصل شيطان الجن عنده إلى حد أن يهم بالكذب ، أما شيطان الإنسان فكان أسقط وأعجز من أن يصل به إلى مرحلة الهم بالأمر أو التفكير فيه أو التردد به ، لم يكن الأمر عنده إلا مدعاة للسخرية ، وتيمم بالرسالة التنور فسجرها به ، وتضاعفت آلامه أن أصبح بهذا الضياع والهوان ، فيطمع به أهل الكفر .

٩ ــ المدينة السعيدة : صحيح أن المسلمين قد نفذوا الأوامر بدقة فى مقاطعة أخيهم كعب وأخويه ، لكنهم نفذوها وأكبادهم تتفتت من الألم ، لما أصاب إخوانهم الثلاثة بذلك ، لقد كانت المدينة كلها هى المدينة الحزينة ؛ لأنها فقدت ثلاثة من بنيها فتخلفوا عن المعركة ، فذاقوا عقوبة هذا التخلف ، وفى قلب كل مسلم همٌّ لما نزل بهؤلاء الإخوة ، وإذن فعندما يأتى الفرج ستزغرد المدينة كلها فرحاً أن عاد إليها بنوها ، ستعج بالفرج رجالاً ونساءً وأطفالاً أن عاد الإخوة أعضاء فى هذا المجتمع بعد توبة الله عليهم ، إنهم جميعاً يعيشون وينامون ويستيقظون مع الله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وآياته تتلى عليهم صباح مساء ، وتقدم أحياناً السجل اليومى ، لما يقولون وما يفعلون ، ولذلك سيكون للتوبة أبعادها وأمجادها وأفراحها .

مثل هذا ابتداء : أم سلمة زوج النبى ﷺ :

يقول كعب : (وكانت توبتنا نزلت على النبى ﷺ ثلث الليل ، فقالت أم سلمة : يا نبى الله ، ألا نبشّر كعب بن مالك ؟ . قال : « إذن يحطمكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة ») .

هذا هو النجاح ، وهذا هو الفوز ، فرسول الله ﷺ يعرف من نفسه ومن صحابته مدى ما يعتلجهم من ألم لوضع كعب ، ويقابل هذا الألم عمق الفرحة فى قلب كل مسلم لتوبة كعب ، فكان تقديره عليه الصلاة والسلام : أن الناس سيحطمون البيت ، ولن تنام المدينة هذه الليلة بهذه الفرحة ، ومن أجل هذا أجّل رسول الله ﷺ الإخبار حتى الفجر .

وبرزت هذه السعادة الغامرة ثانياً ، عند تلقى خبر التوبة .. فلم يتمالك المسلمون أن يصعد أحدهم الجبل ويصرخ بأعلى صوته ، يا كعب بن مالك ، أبشر بتوبة الله عليك ، بينما يمتطى الآخر فرسه يسابق الريح لينقل البشرى إليه ، إن هذه الصورة الحية الصادقة عن هذا المجتمع الحى ، تقاصرت دونها كثيراً أحلام المدينة الفاضلة التى بشر بها الفلاسفة من أفلاطون وغيره . إن الخبر يخص كل مسلم فى المدينة ، ولا يخص كعباً فقط ، فلذلك يصرخ المسلم فى ظهر سلع بتوبة كعب ، حتى يصل الخبر إلى كل بيت ، وإلى كل قلب ، وإلى كل حى ، فيعيش الفرحة الغامرة بعودة الثلاثة إلى مواقعهم فى الصف ، وتوبة الله عليهم بذلك . وحين نرى أن القضية ليست خاصة ببنى سلمة ، ولا بالخزرج ولا بالأنصار ، إنها خاصة بكل هذا الجيل المسلم ، فأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد ، وطلحة بن عبيد الله ، يشاركون فى هذه الفرحة ، ويسارعون فى البشارة ، وتلقيها ونقلها .. أربعة من العشرة المبشرين بالجنة من المهاجرين ، يقومون بإعلان الفرحة ، وإعلام الناس بتوبة الله على كعب ابن مالك رضى الله عنه .

هذا الود الغامر ، وهذه الفرحة العظيمة ، وهذه السعادة الفائقة ، تحول المدينة كلها من مأتم حزين إلى عرس جديد ، فقد فاز الثلاثة الراسبون ، وانضموا إلى الجيل الرائد ، وعادوا فاستلموا مواقعهم الشاغرة لهم .

١٠ ــ وكعب ، وما أدراك ما كعب ، الذي خر ساجداً لله ، مع صوت

البشير ، وهو كما يقول عن نفسه : (فخررت ساجداً أبكى فرحاً بالتوبة ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا . وذهب قبل صاحبيَّ مبشرون ، ولا يتمالك رضى الله عنه حين يلقى البشير أن يخلع ثوبيه فيهديهما له ، وهو لا يملك غيرهما ، ويستعير ثوبين ليقابل أحب خلق الله إليه ، وأعظم مخلوق فى الوجود بعد قطيعة استمرت قرابة شهرين ، وشتان بين اسمه ويصرخ به نبطى من الشام ليعطيه كتاباً من ملك غسان ، وبين اسمه ويصرخ به أخ حبيب إليه ليعطيه كتاباً من ملك الملوك بتوبة الله عليه ، وشتان بين لقائه مع رسول الله ﷺ فى كل صلاة وهو لا يرد عليه السلام ، ويقبل ولو تحريك شفتيه بها ، وبين هذا اللقاء السعيد ، كما وصفه رضى الله عنه بأسلوبه الأخاذ : وما يكاد يصل إلى رسوله وحبيبه ﷺ من الناس ، فالأفواج تنطلق من كل مكان تتلقاه على الطريق قائلة : لتهنك توبة الله عليك : (حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلَىّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال – وهو يبرق وجهه من السرور –: « أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » . وحين ندخل إلى خفقات قلب كعب نشهد ذلك السؤال العميق الغور: يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله ؟ .

إن السماء لا تظله والأرض لا تقله ، والدنيا لا تسعه بعد ذلك الحرمان الذى عاناه ، وهو يود أن يتأكد من أن رب السمٰوات والأرض قد رحمه وتاب عليه وغفر له ، وأجابه حبيبه عليه الصلاة السلام : « بل من عند الله » .

إن عظمة العقيدة فى حس هذا الجيل ، لتبلغ شأوها عظمة ، إنه يريد أن تكون التوبة من عند الله جل وعلا لا من عند رسول الله ﷺ فقط ، إنه التجرد الخالص لله ، والارتباط الكامل بالله ، فهو الغفور الرحيم الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السوء .

ويتقدم بعدها من شكره لله أن ينخلع من ماله كله صدقة فى سبيل الله .

ماله كله ؟ هو التعبير الحى الذى جسَّد هذه الفرحة الغامرة بهذه التوبة ، والشكر والإنابة على هذه المنة العظيمة ، إن هذا الانخلاع من هذا المال لم يكن قبل نزول التوبة ، ولم يكن نذراً يستخرج به من البخيل ، إنما كان شكراً خالصاً لله على

نعمته بتوبته عليه .

ألم يقل له رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ؟ » ، فليحسب نفسه أن أمه ولدته الآن ، ولينفض يده من كل ما جناه فى عمره من المال صدقة لله تعالى وقرباناً منه ، وليبدأ من نقطة الصفر ، لقد ولد من جديد ، ولم يرض له رسول الله ﷺ ، وأذن له بالثلث فقط ، أن يتصدق فيه .

وأحس بمنّ الله عليه سبحانه يوم صدق الله تعالى فصدقه : (وقلت : يا رسول الله ، إنما نجانى الله تعالى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت ، ومع ذلك فهو مدعو لأن يكون مع الصادقين ، وأن ينسلخ الكاذبون والمنافقون من هذا الطهر ، فقال عز وجل : ﴿ .. **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب الله عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يـأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

وندع للشهيد سيد رحمه الله ينقل لنا بعض هذه الخفقات من توبة كعب:

(هذه هى قصة الثلاثة الذين خلفوا – كما رواها أحدهم كعب بن مالك – فى كل فقرة منها عبرة ، وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامى ، ومتانة بنائها ، وصفاء عناصرها ، ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة ، ولتكاليف الدعوة ، وقيمة الأوامر ولضرورة الطاعة .

فهذا كعب بن مالك وزميلاه يتخلفون عن ركب رسول الله ﷺ فى ساعة العسرة ، يدركهم الضعف البشرى الذى يحبب إليهم الظل والراحة ، فيؤثرونهما على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب ، ولكن كعباً ما يلبث بعد خروج رسول الله ﷺ أن يحس بما فعل ، يشعره به كل ما حوله : فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أن لا أرى لى أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله ، يعنى ممن عذر الله الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون .

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله ﷺ إلى الغزوة البعيدة الشقة ، لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق ، وإلا العاجزون الذين عذرهم

الله ، أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحاً فى العسرة ، وأصلب عوداً فى الشدة . هذه واحدة .

والثانية هى التقوى ، التقوى التى تلجئ المخطئ إلى الصدق والإقرار ، والأمر بعد ذلك لله : « فقلت : يا رسول الله ، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنّى به ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علىَّ فيه إنى لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » .

فالله حاضر فى ضمير المؤمن المخطئ ، ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله ﷺ ، وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويترك المسلم مرموقاً بالأنظار ،أومهملاً لا ينظر إليه إنسان ، مع هذا فإن مراقبة الله أقوى وتقوى الله أفضل ، والرجا من الله أوثق .

« ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه ، فاجتنبنا الناس – أو قال: تغيروا لنا – حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه فى مجلسه بعد الصلاة ، وأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، فإذا التفت نحوه ، أعرض عنى ، حتى إذا طال علىَّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوَّرت حائط أبى قتادة – وهو ابن عمى وأحب الناس إلى – فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علىَّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك الله تعالى : هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسوَّرت الجدار » .

... وكعب فى لهفته – وقد تنكرت له الأرض ، فلم تعد الأرض التى كان يعرف – يتلمس حركة بين شفتى الرسول ﷺ ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول

الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ! ولم يكتب له الذبول والجفاف .

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقى إليه مخلوق من قومه بكلمة ولو على سبيل الصدقة تجيئه من قبل ملك غسان يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه .. ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله ، وما يزيد على أن يلقى الكتاب بالنار ، وبعد هذا يقيه من البلاء ويصبر على الابتلاء .

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه ، لتدعه فريداً طريداً من الأُنس كله مخلفاً بين الأرض والسماء ، فيخجل أن يراجع رسول الله ﷺ فى امرأته لأنه لا يدرى كيف يكون الجواب .

هذه صفحة والصفحة الأخرى هى صفحة البشرى ، بشرى القبول ، بشرى العودة إلى الصف ، بشرى التوبة من الذنب ، بشرى البعث والعودة إلى الحياة .. « فبينما أنا جالس ... » .

هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوم فى هذه الجماعة ، وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم ، بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف به راكب الجمل ليكون أسرع بشارة ، وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلاً لا ينساه الطريد الذي رُدَّ إلى الجماعة ، واتصلت بها وشائجه ، فهو فى يوم كما قال عنه رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » قالها ﷺ ووجهه يبرق من السرور – كما قال كعب – فهذا القلب الكبير الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته . تلك هى قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم ، وهذه بعض لمحات من دلالتها الواضحة على حياة الجماعة الإسلامية ، وعلى القيم التى كانت تعيش بها .

والقصة كما رواها أحد أصحابها تقرب إلى نفوسنا معنى الآية :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه .. ﴾ .

﴿ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ :

فما الأرض ؟ إن هى إلا بأهلها ، إن هى إلا بالقيم السائدة فيها ، إن هى إلا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها ، فالتعبير الصادق فى مدلوله الواقعى فوق صدقه فى جماله الفنى ، الذى يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين ، وتتقاصر أطرافها ، وتنكمش رقعتها ، فهم منها فى حرج وضيق .

﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ :

فكأنما هى وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغطهم فتتكرب أنفاسهم .

﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ :

وليس هناك ملجأ من الله لأحد ، وهو آخذ بأقطار السمٰوات والأرض ، ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا فى هذا الجو المكروب ، يخلع على المشهد ظلاً من الكربة واليأس والضيق لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب .

ثم يجىء الفرج : **﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ :**

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ، ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة فى كل ما سيأتى ، ومصداق هذا فى قول كعب : قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » ، فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ، إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا – فى ظلال القرآن – مع هذه القصة الموحية ، ومع التعبير القرآنى الفريد ، فحسبنا هنا ما وفق الله إليه فيها)[1] .

ويعلق الشهيد سيد رحمه الله فى هامش الظلال بقوله :

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٣٠ ، وما بعدها .

(نرجو توفيق الله « فى ظلال السيرة » للوقوف طويلاً أمام هذه المواقف الموحية فى السيرة .

ونحن نقول بدورنا :

نرجو أن نكون قد وفقنا إلى تمام ما فاته الشهيد رحمه الله فى هذا المجال ، وعلى خطاه ومن منهله ، فله دور الريادة على كل الدعاة إلى الله فى العصر الحديث .

* * *

يقول عز وجل :

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون * يٰأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1] .

(إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه ، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة ، وقد أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة .. فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه ، وحين يخرج رسول الله ﷺ فى الحر أو البرد ، فى الشدة أو الرخاء ، فى اليسر أو العسر ، ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة أصحاب الدعوة ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ، ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله صلوات الله عليه .

(١) سورة التوبة : ١٢٠ – ١٢٣ .

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله ، وأن يكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع ، وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان)[1] .

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

يقول الإمام القرطبى :(فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : **﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾** ظاهره خبر ، ومعناه أمر ؛ كقوله : **﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾** وقد تقدم ، **﴿ أن يتخلفوا ﴾** فى موضع رفع اسم كان ، وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب ، وقبائل العرب المجاورة لها كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم على التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، والمعنى : ما كان لهؤلاء أن يتخلفوا ؛ فإن التغير كان فيهم ، بخلاف غيرهم ، فإنهم لم يستنفروا فى قول بعضهم ، ويحتمل أن يكون الاستنفار فى كل مسلم وخصَّ هؤلاء العتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحق بذلك من غيرهم .

الثانية : قوله تعالى : **﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾** أى لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة ورسول الله ﷺ فى المشقة ؛ يقال : رغبت عن كذا ، أى ترفعت عنه .

الثالثة : **﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ﴾** أى عطش – وقرأ عبيد « ظماً » بالمد وهما لغتان مثل خطأ وخطاء ، **﴿ ولا نصب ﴾** عطف ، أى تعب ، و « لا » زائدة للتوكيد ، وكذا **﴿ ولا مخمصة ﴾** أى مجاعة ، وأصله ضمور البطن ؛ ومنه : رجل خميص ، وامرأة خُمصانة ، وقد تقدم ، **﴿ فى سبيل الله ﴾** أى فى طاعته .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٣٣ .

الرابعة : ﴿ **ولا يطؤون موطئاً** ﴾ أى أرضاً ، ﴿ **يغيظ الكفار** ﴾ أى بوطئهم إياهم ، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للموطئ أى غائظاً ، ﴿ **ولا ينالون من عدو نيلاً** ﴾ أى قتلاً وهزيمة ، وأصله من نِلت الشيء أنال ، أى أصبت – قال الكسائى : هو من قولهم أمر مَنيلٌ منه ؛ وليس هو التناول إنما المتناول من نُلته العطية . قال غيره : نُلتُ أنول من العطية من الواو ، والنيل من الياء ، تقول : نِلته فأنا نائل أى أدركته ، ﴿ **ولا يقطعون وادياً** ﴾ العرب تقول : واد وأودية على غير قياس .. ﴿ **إلا كُتب لهم به عمل صالح** ﴾ قال ابن عباس : بكل روعة (خوف) تنالهم فى سبيل الله سبعون ألف حسنة وفى الصحيح : « الخيل ثلاثة ...» ، وفيه : « وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات » الحديث . هذا وهى فى مواضعها فكيف إذا أدرب[1] فيها .

الخامسة : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلة ، فلما كثروا نُسِخت ، وأباح الله التخلف لمن شاء ؛ قاله ابن زيد . وقال مجاهد : بعث النبى ﷺ قوماً إلى البوادى ليعلموا الناس ، فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا ؛ فأنزل الله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ ، وقال قتادة : كان هذا خاصاً بالنبى ﷺ إذا غزا بنفسه ، فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة ، وقول ثالث : أنها محكمة ؛ قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعى وابن المبارك ، والفزارى والسبيعى وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هذه الآية : إنها لأول هذه الأمة وآخرها ، قلت : قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك ، والله أعلم .

السادسة : روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه » قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونوا معنا وهم فى المدينة ؟ قال :

---

(١) أدرب فيها : دخل أرض العدو .

« حبسهم العذر » خرّجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فقال : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض » .

فأعطى ﷺ للمعذور من الأجر مثل ماأعطى للقوى العامل ، وقد قال بعض الناس : إنما يكون الأجر للمعذور غير مضاعف ، ويضاعف للعامل المباشر . قال ابن العربى : وهذا تحكم على الله تعالى وتضييق لسعة رحمته ، وقد عاب بعض الناس فقال : إنهم يعطون الثواب مضاعفاً قطعاً ، ونحن لا نقطع بالتضعيف فى موضع ، فإنه مبنى على مقدار النيات ، وهذا أمر مغيَّب ، والذى يقطع به أن هناك تضعيفاً ، والله أعلم بمن يستحقه ، قلت : الظاهر من الأحاديث والآى المساواة فى الأجر منها قوله عليه السلام : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله ... »)[1] .

وبعد هذه الجولة مع الإمام القرطبى ، نعود مع الإمام ابن جرير وآرائه وترجيحاته فى هذه الآيات ، يقول رحمه الله :

(القول فى تأويل قوله : **﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ... ﴾** .

يقول تعالى ذكره : لم يكن لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب سكان البوادى الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وهم من أهل الإيمان أن يتخلفوا فى أهاليهم ولا دارهم ، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فى صحبته فى سفره ، والجهاد معه ، ومعاونته على ما يعانيه فى غزوه ذلك . يقول : إنه لم يكن لهم هذا بأنهم لا يصيبهم فى سفرهم هذا إذا كانوا معه **﴿ ظمأ ﴾** وهو العطش ، **﴿ ولا نصب ﴾** يقول : ولا تعب ، **﴿ ولا مخمصة فى سبيل الله ﴾** يعنى : ولا مجاعة فى إقامة دين الله ونصرته وهدم منار الكفار ، **﴿ ولا يطؤون موطئاً ﴾** يعنى : أرضاً ، يقول : ولا يطؤون أرضاً يغيظ الكفار وطؤهم إياها ، **﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾** يقول : ولا يصيبون من عدو الله وعدوهم شيئاً فى أموالهم وأنفسهم وأولادهم إلا كتب الله لهم بذلك كله عمل صالح قد ارتضاه **﴿ إن الله لا يضيع أجر**

(١) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى /٤ / ٨ / ٢٩٠ وما بعدها .

المحسنين ﴾ يقول : إنه لا يدع محسناً من خلقه أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره ، وانتهى عما نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على صالح عمله ، فلذلك كتب لمن فعل ذلك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ما ذكر فى هذه الآية من الثواب على كل ما فعل فلم يضيع له أجر فعله ذلك .

وقد اختلف أهل التأويل فى حكم هذه الآية ، فقال بعضهم : هى محكمة ، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إذا غزا خلافه فيقعد عنه إلا من كان ذا عذر ، فأما غيره من الأئمة والولاة فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف خلافه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة ، ذكر من قال ذلك : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله : **﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾** هذا إذا غزا نبى الله بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه ، ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال : « لولا أن أشقَّ على أمتى ما تخلفت خلف سرية تغزو فى سبيل الله ، لكنى لا أجد سعة فأنطلق بهم معى ، ويشق على أو أكره أن أدعهم بعدى » ، حدثنا على بن سهل قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : سمعت الأوزاعى وعبد الله ابن المبارك والفزارى والسبيعى وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز ، يقولون فى هذه الآية : **﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب .. ﴾** : إنها لأول هذه الأمة ولآخرها من المجاهدين فى سبيل الله .

وقال آخرون : هذه الآية نزلت وفى أهل الإسلام قِلة ، فلما كثروا نسخها الله ، وأباح التخلف لمن شاء فقال : **﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾** ذكر من قال ذلك : حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله : **﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب .. ﴾** فقرأ حتى بلغ **﴿ .. ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾** قال : هذا حين كان الإسلام قليلاً ، فلما كثر الإسلام بعد قال : **﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة .. ﴾** إلى آخر الآية .

والصواب من القول فى ذلك عندى : أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله : **﴿ وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم .. ﴾** الآية ، ثم قال جل ثناؤه : ما كان لأهل المدينة الذين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ ، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه أن يتخلفوا خلافه ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وذلك

أن رسول الله ﷺ كان ندب فى غزوته تلك كل من أطاق النهوض معه إلى الشخوص إلا من أذن له أو أمره بالمقام بعده ، فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلف ، فعدد جل ثناؤه من تخلَّف منهم ، فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً ، وعذر من كان تخلُّفه لعذر ، وتاب على من كان تخلُّفه تفريطاً من غير شك ولا ارتياب فى أمر الله إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل ، فأما التخلُّف عنه فى حال استغنائه فلم يكن محظوراً إذ لم يكن عن كراهته منه ﷺ ذلك ، وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم ، فليس يُفرض على جميعهم النهوض معه إلا فى حال حاجته إليهم لما لابد للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم ، فيلزمهم حينئذ طاعته ، وإذا كان ذلك معنى الآية لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخة للأخرى ، إذ لم تك إحداهما نافية حكم الأخرى من كل وجوهه ، ولا جاء خبر يوجه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى)[1] .

* * *

ومن خلال عرض الرأيين للعالِمَينِ الكبيرين والمروى عن عمد التفسير نلاحظ مايلى :

١ ــ لقد أصبحت المدينة النبوية ، ليس ما كان يطلق عليه يثرب فيما مضى ، لقد انضم إليها ذلك الحشد الضخم من القبائل المجاورة التى ذكرها القرطبى : كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ، وأصبحت المدينة الإسلامية تأخذ فى المفهوم الإسلامى وفى الواجبات العامة من داخل المدينة وخارجها ، ومن المحظور عليهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا خرج على رأس الجيش واستنفرهم للجهاد ، فنحن أمام مجتمع جديد جُنِّد كل أفراده ليكونوا مجاهدين فى الجيش الإسلامى . وليس فيه من يُعفى من الجهاد إلا بمهمة خاصة أو عذرٍ خاص ، نحن مع مجتمع مجاهد معبأ للمواجهة ، معدٍ للقتال ، قد تلقى أكبر قسط ممكنٍ من التربية على يد رسول الله ﷺ ، والقرآن الكريم يتنزل عليه غضاً طرياً ، فيخرجه من الظلمات إلى النور :

﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما

---

(١) جامع البيان فى أحكام القرآن للإمام ابن جرير الطبرى ٤ / ١١ / ٤٧ .

يجمعون ﴾ [1] .

٢ ــ ونلاحظ أن الآية قد عرضت الجانبين معاً الترهيب والترغيب ، فقد حظرت ابتداءً جواز التخلف عن رسول الله ﷺ حظراً تاماً ، والتخلف لا يستقيم مع دعوى الإيمان أبداً ، أن يكون رسول الله ﷺ فى الحر والهاجرة ، فى الجوع والظمأ ، وأن يكون المسلم فى الظل الظليل والطعام المهيأ ، والماء البارد ، فما كان للمسلم ذلك ، أن يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ ، ويأتى الجانب الثانى ليتحدث عن الأجر العظيم للمجاهد الذى ينضم إلى الصف الإسلامى ويرافق رسول الله فى جهاده ، فكل حركة وسكنة ، وتعب ووصب ، وظمأ وجوع ، وإرهاق وجراح ، كل ذلك محسوب فى ميزان الله عز وجل للمجاهد ، يضاعف له به الأجر والمثوبة ، حتى الشوكة يشاكها له فيها صدقة .

وكان لابد من طرح هذه المعانى والتربية عليها فى قلب هذا الجيل العظيم ؛ لأنهم مضوا إلى تبوك ولم يواجهوا عدواً ، ولم يشهروا سيفاً ولم يخوضوا معركة ، ولم يقاتلوا مشركاً ، اللهم إلا ما كان من بعثة خالد وسريته لأكيدر بن عبد الملك ، فقد يحيك فى النفس أنهم لم يحققوا الهدف الذى خرجوا من أجله ، وأن الذين تخلفوا لم يكن لتخلفهم خطر طالما أن المعركة لم تقع مع العدو ، ولمثل هذه الخواطر أو هذه المشاعر جاءت الآية القرآنية لتؤكد تأكيداً قاطعاً أن الأصل فى الأمر هو الالتزام والطاعة ، وتنفيذ الأوامر ، سواء أجرت معركة أم لم تجر ، فالأجر واقع ، والذين فى المدينة معذورون هم مثل المجاهدين فى البيد ، سواء بسواء ، طالما أنهم تخلفوا بإذن رسول الله ﷺ ، والذين خرجوا مع المجاهدين . وكانوا يخططون بقتل النبى ﷺ ، أو يستهزئون بالمؤمنين ، أو يثيرون الفتنة ، ويحيكون المؤامرات ، هؤلاء لا يبرئهم أنهم تحت راية رسول الله ﷺ ، وأنهم لاقوا ما لاقى من التعب والجوع والحر والعناء والظمأ ، بل نزلت عليهم لعنة الله ، وفضحوا بكفرهم ، ووعدوا بجهنم يصلونها وبئس المصير ، وهم تحت الراية المحمدية .

إن الأمر فى المفهوم الإسلامى ليس أمر ضرب وطعان ، وأمر قتل وسفك ، وأمر كلام أو دعوى، إن الأمر أعمق من ذلك، هو هذا القلب، وما يجيش به من مشاعر، وما يحمل

---

(١) سورة يونس : ٥٧ ، ٥٨ .

من عقائد، وما يتربى عليه من طاعة، والمظاهر الخارجية تبقى تمثيلاً له، وقد لا تستطيع أن تمثله على حقيقته ، فرفقة الرسول ﷺ خلال هذين الشهرين ، وهذه الدورة العظيمة التى سعد بها كل من حضرها ، والنظر إلى رسول الله ﷺ ، والسماع منه وتلقى تعليماته ، وفقه خلقه ، والتعرف على سمته ، وفقه هديه ، هذه أمور مستهدفة ابتداء فى الخروج معه عليه الصلاة والسلام ، والتدريب على الشقة ، والجوع والعطش ، والانضباط والالتزام والتلقى المباشر من رسول الله ﷺ ، هى أمور مستهدفة ابتداءً كذلك ، وليست أمراً طارئاً أو أمراً ثانوياً لا وزن له فى هذه الغزوة ، ولهذا وجدنا الآية التالية تتناول هذا الموضوع مباشرة ؛ موضوع الفقه فى دين الله ، ومن رسول الله ﷺ بالذات ، لينطلق هذا الجيل بعد ذلك هادياً مهدياً ، ونوراً يضيء للعالمين .

٣ ــ ورحم الله الإمام ابن جرير ، الذى لم ير بعمق نظره أى تعارض بين الآيتين ، فكلتاهما تمثل جانباً لا يمثله الآخر ، والعمل بكليهما قائم : (وإذا كان ذلك معنى الآية لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخة للأخرى ، إذ لم تكن إحداهما نافية حكم الأخرى من كل وجوهه ، ولا جاء خبر يوجِّه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى) ، فهذه الآية تربط المسلمين بقيادتهم وتنفيذ أوامرها والخروج للجهاد معها ولا عذر للتخلف عنها ، والآية الثانية تتحدث عن تفرغ فريق من المسلمين للفقه فى دين الله ، وسنعالج معناها تفصيلاً فيما بعد ، ليتم طريق التربية مذللاً مهيأ بلا انقطاع .

٤ ــ وكما يقول الوليد بن مسلم : (سمعت الأوزاعى وعبد الله بن المبارك ، والفزارى والسبيعى وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هذه الآية : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** .. ﴾ إلى آخر الآية : أنها لأول هذه الأمة وآخرها من المجاهدين فى سبيل الله) .

إذ حددت هذه الآية الكريمة المنهج الجهادى فى الأمة ، وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم ، فليس يفرض على جميعهم النهوض معه إلا فى حال حاجته إليهم لما لابد للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم ، فيلزمهم حينئذ طاعته .

فالأمة على مدار التاريخ مرتبطة بإمامها وقيادتها ، تستجيب لداعي الجهاد حين يدعوها لذلك ، وتلبى النداء حين يقال لها لتنفر فى سبيل الله ، ولا عذر لأحدٍ بالتخلف حين يكون الاستنفار عاماً وشاملاً لكل قادر على حمل السلاح ، وأجر الله تعالى ومثوبته متوفران للمجاهدين والمخلصين : ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم نصب ولا ظمأ ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

* * *

﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

(ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ، والتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ﷺ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة ، مما اقتضى بيان حدود النفير العام – فى الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعية – فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين بالإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم – بعد تخلف المتخلفين فى تبوك – نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذى لم يتهيأ من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين ، وقد آن أن تتوزع الجهود فى الجهاد وفى عمارة الأرض ، وفى التجارة وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ، وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية ، ونزلت الآية التالية تبين هذه الحدود فى جلاء : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ..** ﴾)[1] .

وها هنا نسوق المعانى المتعددة التى وردت فى هذه الآية ، ثم ننتهى إلى الرأى الأرجح فيها :

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٣٤ .

(أخرج أبو داود - فى ناسخه - وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ و ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ..** ﴾ قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ يقول : لتنفر طائفة وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون فى الدين ، وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يحذرون ما نزل بعدهم من قضاء الله فى كتابه وحدوده)[1] .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ..** ﴾ يعنى : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا النبى ﷺ وحده ، ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة** ﴾ يعنى : عصبة ، يعنى السرايا ، فلا يسيرون إلا بإذن ، فإذا رجعت السرايا ، وقد نزل قرآن تعلَّمه القاعدون من النبى ﷺ ، قالوا : إن الله أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمنا ، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم ، ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ **لعلهم يحذرون** ﴾)[2] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ قال : ليست هذه الآية فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسول الله ﷺ أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم إلى عشائرهم ، وحذَّر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله : ﴿ **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾)[3] .

(وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عبيد بن عمر قال : كان المؤمنون يحرضهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها ، وتركوا النبى ﷺ فى رقة من الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ أُمروا إذا بعث النبى ﷺ سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة ، فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن ، وما يسن من السنن ، فإذا رجع إخوانهم

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٢ . (٢) و (٣) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٥ .

أخبروهم بذلك وأعلموهم ، وإذا خرج رسول الله ﷺ لم يتخلف عنه أحد إلا بإذن أو بعذر)[1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن عكرمة قال : ولما نزلت ﴿ **إلا تنفروا ..** ﴾ ﴿ **وما كان لأهل المدينة ..** ﴾ الآية قال المنافقون : هلك أهل البدو الذين تخلفوا عن محمد ﷺ ولم يغزوا معه ، وقد كان ناس خرجوا إلى البدو ، وإلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ الآية ، ونزلت : ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة ..** ﴾ (الآية)[2] .

(وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ الآية قال : ناس من أصحاب النبى ﷺ خرجوا فى البوادى ، فأصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال لهم الناس : ما نراكم إلا تركتم أصحابكم وجئتمونا ، فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبى ﷺ ، فقال الله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة** ﴾ خرج بعض ، وقعد بعض يبتغون الخير ، ﴿ **ليتفقهوا فى الدين** ﴾ وليسمعوا ما فى الناس ، وما أنزل بعدهم ، ﴿ **ولينذروا قومهم** ﴾ قال : الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ، ﴿ **لعلهم يحذرون** ﴾)[3] .

(**الأولى:** قوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون** ﴾ وهى أن الجهاد ليس على الأعيان ، وأنه فرض كفاية كما تقدم ، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال ، فليخرج فريق منهم للجهاد ، وليقم فريق يتفقهون فى الدين ويحفظون الحريم ، حتى إذا عاد النافرون ، أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبى ﷺ ، وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ **إلا تنفروا** ﴾ وللآية التى قبلها على قول مجاهد وابن زيد ...

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **ليتفقهوا** ﴾ الضمير فى « ليتفقهوا ، ولينذروا » للمقيمين مع النبى ﷺ ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما للفرقة النافرة ،

---
(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٥ .
(٣) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٤ .

واختاره الطبرى . ومعنى ﴿ **ليتفقهوا فى الدين** ﴾ أى يتبصروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ، ونصرة الدين ، ﴿ **ولينذروا قومهم** ﴾ من الكفار ، ﴿ **إذا رجعوا إليهم** ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نبيه ﷺ ، وأنهم لا يدان لهم بقتالهم ، وقتال النبى ﷺ ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقتادة أبين ، أى لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله ﷺ عن النفور فى السرايا ، وهذا يقتضى الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام)[1] .

* * *

وليس من الصعوبة الجمع بين هذه الروايات ، فالفقه فى الدين مرتبط أساساً برسول الله ﷺ ، فإن كان عليه الصلاة والسلام قد أقام وبعث السرايا تجاهد فى سبيل الله ، فلابد أن يوجد منهم أو من قومهم القاعدين ، من هو مع رسول الله ﷺ يتفقه منه ، ويتعلم منه ، ويذود عنه إذا اقتضى الأمر ، كما روى عن عبيد ابن عمر : (كان المؤمنون يحرضهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها وتركوا النبى ﷺ بالمدينة فى رقة من الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ أمروا إذا بعث النبى ﷺ سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة ، فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن وما يسن من السنن) .

وعندما يخرج رسول الله ﷺ على رأس الغزوة ، ويستنفر المسلمين ، فلابد أن يلبوا النداء جميعاً ، ويتفقهوا فى الدين ، من خلال صحبته عليه الصلاة والسلام والسماع منه ، فالجهاد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم ، ومن أجل هذا كان نفيراً على الحالتين.

ونعود إلى الإمام ابن جرير الطبرى الذى اختار ربط الفقه بالجهاد ودلل عليه بقوله : (وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب أن يقال : تأويله : وما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا رسول الله ﷺ ، وأن الله نهى بهذه الآية المؤمنين به أن يخرجوا فى غزو وجهاد وغير ذلك من أمورهم ، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً ، ولكن عليهم إذا سرى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معها من كل قبيلة من قبائل

---

(١)جامع أحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٢٩٤ .

العرب ، وهى الفرقة الطائفة ، وذلك من الواحد إلى ما بلغ من العدد كما قال الله جل ثناؤه : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة** ﴾ يقول : فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة . وهذا إلى ها هنا على أحد الأقوال التى رويت عن ابن عباس وهو قول الضحاك وقتادة . وإنما قلنا : هذا القول أولى الأقوال فى ذلك بالصواب ؛ لأن الله تعالى ذكره حظر التخلف خلاف رسول الله ﷺ على المؤمنين به من أهل المدينة مدينة رسول الله ﷺ ، ومن الأعراب ، لغير عذر يعذرون به ، إذا خرج رسول الله ﷺ لغزو أو جهاد وقبل هذه الآية بقوله : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ..** ﴾ ثم عقَّب ذلك – جل ثناؤه – بقوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ..** ﴾ ، فكان ذلك معلوماً بذلك ، إذا كان قد عرَّفهم فى الآية التى قبلها اللازم لهم من فرض النفر والمباح لهم من تركه فى حال غزو رسول الله ﷺ ، وشخوصه عن مدينته لجهاد عدو ، وأعلمه أنه لا يسعهم التخلف خلافه إلا لعذر بعد استنهاضه بعضهم وتخليفه بعضهم . أن يكون عقيب تعريفهم ذلك ، تعريفهم الواجب عليهم عند مقام رسول الله ﷺ بمدينته وإشخاص غيره عنها ، كما كان الابتداء بتعريفهم الواجب عليهم عن شخوصه وتخليفه بعضهم)(١) .

فقد اعتبر رحمه الله أن الآية الأولى : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ..** ﴾ تعالج حالة معينة ، هى حالة نفير رسول الله ﷺ ، واستنفار المؤمنين معه ، فلا عذر لأحد بالتخلف عنه .

واعتبر الآية الثانية : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ..** ﴾ تعالج حالة جديدة مغايرة للحالة الأولى ، وهى حالة مقام رسول الله ﷺ وبعثه السرايا للجهاد ، فهذه السرايا بعضها يمضى للجهاد ، وبعضها يبقى مقيماً بجوار رسول الله ﷺ يحمى بيضة المدينة ، ويتفقه على يد معلم البشرية عليه الصلاة والسلام .

ثم يتابع رحمه الله ترجيحه فى موضوع الفقه والإنذار بقوله :

(وأما قوله : ﴿ **ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ فإن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : ليتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهل دينه ، وأصحاب رسول الله على أهل عداوته والكفر به ، فيفقه ذلك من

---

(١) جامع البيان للإمام ابن جرير الطبرى / ٧ / ١١ / ٥١ .

معاينته حقيقة علم أمر الإسلام ، وظهوره على الأديان ، من لم يكن فقِهه ، ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ ،فيحـذروهمأن ينزل بهم من بأس الله مثل الذى نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم ، ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ يقول : لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً أن ينزل بهم مثل ما نزل بالذى أخبر خبرهم .

وإنما قلنا : ذلك القول أولى بالصواب – وهو قول الحسن البصرى الذى رويناه عنه – لأن النفر قد بينا فيما مضى أنه إذا كان مطلقاً بغير صلة بشيء أن الأغلب من استعمال العرب إياه فى الجهاد والغزو ، فإذا كان ذلك هو الأغلب من المعانى فيه ، وكان – جل ثناؤه – قال : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة .. ﴾ علم أن قوله : ﴿ ليتفقهوا ﴾ إنما هو شرط للنفر لا لغيره إذ كان يليه دون غيره من الكلام ، فإن قال قائل : وما تنكر أن يكون معناه ليتفقه المتخلفون فى الدين ؟ قيل : ننكر ذلك لاستحالته ، وذلك أن نفر الطائفة النافرة لو كان سبباً لتفقه المتخلفة وجب أن يكون مقامها معهم سبباً لجهلهم وترك التفقه ، وقد علمنا أن مقامهم لو أقاموا ولم ينفروا لم يكن سبباً لمنعهم من التفقه .

وبعد ، فإنه قال جل ثناؤه : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ عطفا به على قوله : ﴿ ليتفقهوا ﴾ ، ولا شك أن الطائفة النافرة لم ينفروا إلا والإنذار قد تقدم من الله إليها ، وللإنذار وخوف الوعيد نفرت ، فما وجه إنذار الطائفة المتخلفة الطائفة النافرة وقد تساوتا فى المعرفة بإنذار الله إياهما ، ولو كانت إحداهما جائزة أن توصف بإنذار الأخرى ، لكان أحقهما بأن يوصف به الطائفة النافرة لأنها قد عاينت من قدرة الله ونصرة المؤمنين على أهل الكفر به ما لم تعاين المقيمة ، ولكن ذلك إن شاء الله كما قلنا من أنها تُنذِر من حيها وقبيلتها من لم يؤمن بالله إذا رجعت إليه أن ينزل ما أنزل بمن عاينته ممن أظفر الله به المؤمنين من نظرائه من أهل الشرك)[1] .

ونخلص من هذا العرض إلى النقاط التالية :

١ ــ أن تلازم الفقه بالجهاد هو الصورة الحية فى الإسلام ، وأن الذين يفصلون بين التربية والجهاد ، باعتبار كل منهما مرحلة تلى الأخرى ، هو تصور غير سديد ،

(١) جامع البيان للإمام ابن جرير الطبرى / ٧ / ١١ / ٥٢ . « »

فالفقه يتم من خلال المعاناة والحياة بالإسلام فى الواقع ، لا من خلال القراءة بالكتب فقط .

٢ ــ والمجتمع الإسلامى النموذج أيام رسول اللّه ﷺ ، قد مثّل هذا الواقع تمام التمثيل . فالنفير والفقه والإنذار أشياء مترابطة لا تنفك عن بعضها البعض ، والذين صحبوا رسول الله ﷺ فى جهاده وغزواته ، وعاشوا معه ، كانوا هم أفقه الناس بدين الله وأعلمهم به ، والذين تخلفوا أو كانوا من الأعراب كانوا أقل فقهاً من غيرهم ، و لم يكن الجهاد يوماً من الأيام عائقاً دون التفقه ، بل كان دافعاً إليه .

٣ ــ والتربية من خلال الجهاد ، تربية قلوب ونفوس ومشاعر ، وبناء لهذه النفوس والقلوب والمشاعر على مفهوم الإسلام ، ويختلف هذا كثيراً عن الحديث عن الجهاد وأثره فى البناء ، فهل نحن اليوم ونحن ندرس عن بدر وتبوك والخندق نملك من الأحاسيس والثقة بنصر الله والإيمان برسوله مثل الذين عاشوا هذه الأحداث ، ونزلت بهم الآيات . إن الفرق بين الصورتين كالفرق بين السماء والأرض ، بل نقول أكثر من ذلك ، إن من رأوا الصحابة والتقوا بهم ، هم أعلى مقاماً ممن جاء بعدهم ، فالسابقون الأولون – كما رأينا – الذين صنع الإسلام بهم ، هم أعلى كعباً من كل من جاء بعدهم ، وهم خيرة أهل الأرض علماً ، وفقهاً وجهاداً . والذين اتبعوهم بإحسان من جيل الصحابة الأول هم أرفع مقاماً وأعلى كعباً ، للقدر الذى شاركوا فيه فى صنع أحداث الإسلام وبناء تاريخه ، والذين جاؤوا من بعدهم ، ومضوا على نهجهم ، يبقى فضل الصحبة عند السابقين لا يبلغ شأوه أحد .

ويبقى إدراك الأجيال اللاحقة للمعانى الإيمانية وفقهها ،مرتبطاً بما يعانونه حقاً من جهاد وبذل وتضحية ،فيعيشون بالإسلام وللإسلام واقعاً وسلوكاً .. لا علماً فى الكتب ، ودروساً تلقى على المنابر .

٤ ــ كما أنه لابد من الإشارة كذلك إلى أن الفقه عندما انفصل عن الجهاد ، وقعت الثغرات الكبيرة ، فى المجتمعات الإسلامية اللاحقة ، وانفصلت السياسة عن الدين ، بحيث أصبحت مهمة العالم بعلمه ، والوزير بوزارته ، ووقع الانفصام الذى بدأ يبعد الإسلام رويداً رويداً عن الساحة ، حتى انتهى بإقصائه عنها فى القرون الأخيرة ، بل أصبحت مهمة الحكم هى حرب الدعاة إلى الله والقضاء عليهم ، والدعاة

هم الذين أدركوا صلة هذا الدين بالحياة ، وضرورة عودته لاستئناف رسالته من جديد ، وأدركوا أن هذا الانفصام لا يلتقى مع روح الإسلام بحال .

٥ ــ وكلمة نبثها فى أذن الدعاة إلى الله كذلك ، وفى أذن شباب الحركة الإسلامية وقياداتها خاصة ، هى أن الذين يتصدون للجهاد والمواجهة والمعاناة ، لابد أن يكونوا على مستوى هذه المسؤولية ، فليس الجهاد فى الإسلام ضرباً وطعناً فقط ، وليس قتلاً وسفكاً فقط ، إن الإسلام والجهاد فيه أعظم من هذا بكثير ، ويوم يتصدى للجهاد شباب متحمسون ، لم يفقهوا الإسلام ورسالته وآداب الجهاد وأحكامه وواقعه ، الذى عاشته الأجيال الإسلامية الأولى ، أقول : يوم يتصدى للجهاد هذه النماذج دون أى أساس شرعى مكين ، وفقه جهادى متين ، سوف يعيدون صوراً جاهلية كثيرة تحت لبوس الإسلام ،وسوف يسيئون كثيراً لهذا الدين ورسالته ، يوم يتبعون أهواءهم القابعة فى كيانهم من الرغبة فى الانتصار ، وحب السيطرة ؛ ويبرزونها فى ملامح إسلامية قشيبة هى العمل لإقامة دولة الإسلام فى الأرض ، فالجيل الجهادى الأول كان على رأسه معلم البشرية محمد ﷺ ، وهو الذى أنشأ هذا الطراز العظيم من الرجال الذين استنارت بهم الأرض .

إننا نلح إلحاحاً شديداً ، ومن واقع الحركة الإسلامية القائم ، أن يكون على رأس الحركة فقهاء فى دين الله ، لا فقهاء كتب فقط ، ولا فقهاء مساجد فقط ، إنما إضافة إلى فقه الكتب والمساجد والعلم الذى توارثته الأمة جيلاً عن جيل عن النبوة ، فقه بناء الأمة ، وإقامة الدولة ، وجهاد العدو ، ومواجهته من خلال دراسة حركات البناء الإسلامى الحية فى التاريخ ، والتى كانت السيرة النبوية هى النبراس الحى فى هذا الوجود لها .

الفقيه الحق الذى نريده ليكون على رأس الحركة الإسلامية الجهادية ، هو الذى فقه فى دين الله ، وعرف أحكامه ، وفقه فى بناء الأمم وغاص فى أعماقها ، وفقه فى بناء الرجال ، وغاص فى طرائقها ومارسها ، هؤلاء الذين يمثلون الأمل الحى فى إعادة الخلافة فى الأرض للإسلام وأهله .

وما هذه الكتابات فى المنهج التربوى للسيرة النبوية التى نضعها بين يدى هذا الجيل المسلم ، إلا مساهمة متواضعة فى تقديم كيفية البناء الأول فى الجيل الإسلامى

الأول ، وكيفية الدور الذى أداه الجهاد فى بنائها ، ليتقدم الفقيه القائد بحركته ، فيبنى على منوالها ، ويصوغ على طريقتها .. فيعيد للإسلام دولته فى الوجود ، ويكون الدين لله .

وأنسحب هنا بعد هذه الملاحظات ، لأقدم الفقه الحركى الذى قدَّمه سيد رحمه الله فى ظلال هذه الآية الكريمة :

(ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين ، وتنذر قومها إذا رجعت إليهم ، والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة – على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون – لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة .

والوجه فى هذا الذى ذهبنا إليه – وله أصل من تأويل ابن عباس رضى الله عنهما ، ومن تفسير الحسن البصرى ، واختيار ابن جرير ، وقول لابن كثير – أن هذا الدين منهج حركى لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به ، أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولافقهوا فقههم ، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ ، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه .

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ! ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين .. إن الحركة هى قوام هذا الدين ، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره فى واقع الناس ، وتغليبه على الجاهلية بالحركة العملية ، والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون فى الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ، مهما تفرغوا لدراسته فى الكتب دراسة باردة ! وأن اللمحات الكاشفة فى هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره فى حياة الناس ؛ ولا تتجلى للمستغرقين فى الكتب العاكفين على الأوراق !

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة ، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة ، والذين يعكفون على الكتب والأوراق فى هذا الزمان لكى يستنبطوا منه أحكاماً فقهية « يجددون » بها الفقه الإسلامى أو « يطورونه » - كما يقول المستشرقون من الصليبيين ! - وهم بعيدون عن الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد ، وردهم إلى العبودية لله وحده ، وبتحكيم شريعة الله وحدها ، وطرد شرائع الطواغيت - هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين !

إن الفقه الإسلامى وليد الحركة الإسلامية .. فقد وجد الدين أولاً ثم وجد الفقه ، وليس العكس هو الصحيح . وجدت الدينونة لله وحده ، وجد المجتمع الذى قرر أن تكون الدينونة لله وحده ، والذى نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها ، وتقاليدها ، والذى رفض أن تكون شرائع البشر هى التى تحكم أى جانب من جوانب الحياة فيه ، ثم أخذ هذا المجتمع بزوال الحياة فعلاً وفق المبادئ الكلية فى الشريعة - إلى جانب الأحكام الفرعية التى وردت فى أصل الشريعة - وفى أثناء مزاولته للحياة الفعلية فى ظل الدينونة لله وحده ، واستحياء شريعته وحدها تحقيقاً لهذه الدينونة ، جدَّت له أقضية فرعية بتجرد الحالات الواقعية فى حياته ، وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية ، وبدأ نمو الفقه الإسلامى ...

الحركة بهذا الدين هى التى أنشأت ذلك الفقه ، والحركة بهذا الدين هى التى حققت نموه ، ولم يكن قط فقهاً مستنبطاً من الأوراق الباردة ، بعيداً عن حرارة الحياة الواقعة !.. من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين فى الدين ، يجيء فقههم للدين من تحركهم به ، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حى ، يعيش بهذا الدين ، ويجاهد فى سبيله ، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة .

فأما اليوم .. « فماذا » ؟ أين المجتمع المسلم الذى قرَّر أن تكون دينونته لله وحده ، والذى رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ، والذى قرر أن تكون شريعة الله شريعته ؛ والذى رفض بالفعل شرعية أى تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعى الوحيد ..

إن الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم ، والمجتمع المسلم أنشأ الفقه الإسلامى ،

ولابد من هذا الترتيب ، لابد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة لله وحده ، مصمم على تنفيذ شريعته وحدها ، ثم بعد ذلك - لا قبله - ينشأ فقه إسلامى مفصل على قدِّ المجتمع الذى ينشأ ، وليس « جاهزاً » معداً من قبل ! ذلك أن كل حكم فقهى - هو بطبيعته - تطبيق للشريعة الكلية على حالات واقعية ، ذات حجم معين ، وشكل معين ، وملابسات معينة .. وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة داخل الإطار الإسلامى لا بعيداً عنه ، وتحدِّد حجمها وشكلها وملابساتها ، ومن ثم « يفصَّل » لها حكم مباشر على « قدِّها » فأما تلك الأحكام الجاهزة فى بطون الكتب فقد فصلت من قبل لحالات معينة فى أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة الله فعلاً ، ولم تكن وقتها « جاهزة » باردة ! كانت وقتها حية مليئة بالحيوية ، وعلينا اليوم أن « نفصِّل » مثلها للحالات الجديدة .. ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذى يقرر ألا يدين لغير الله فى شرائعه ، وألا يفصِّل حكماً شرعياً إلا من شريعة الله دون سواها .

وفى هذا يكون الجهد الجاد المثمر ، اللائق بجدية هذا الدين ، وفى هذا يكون الجهاد الذى يفتح البصائر ، ويمكن من التفقه فى الدين حقاً .. وغير هذا لا يكون إلا هزلاً ترفضه طبيعة هـذا الدين ، وإلا هـروباً من واجـب الجهـاد الحقيقي تحـت التستر بستار « تجديد الفقه الإسلامى » أو « تطويره » !.. هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير ، وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين)[1] .

* * *

(بعد ذلك ترد آية تضع خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك ، وهما الخطة والمدى اللذان سار عليهما رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم يشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعية)[2] .

﴿ يـأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [3] .

(فيه مسألة واحدة ، وهو أنه سبحانه عرَّفهم كيفية الجهاد ، وأن الابتداء

---

(١) و (٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١١ / ١٧٣٤ وما بعدها .
(٣) سورة التوبة : ١٢٣ .

بالأقرب فالأقرب من العدو ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبى ﷺ بقتال المشركين فهى من التدريج الذى قبل الإسلام .

وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب ، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** .. ﴾ وقد رُوى عن ابن عمر أن المراد بذلك الديلم ، ورُوى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال : بالروم . وقال الحسن : هو قتال الديلم والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى)[1] .

والإمام ابن جرير رحمه الله فى هذه الآية يقول :

(يقول – تعالى ذكره – للمؤمنين به وبرسوله : يـٰأيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بعد منهم ، يقول لهم : ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً دون الأبعد فالأبعد . وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم ، لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق ، فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد فإن الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم ، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحى بلاد الإسلام ، فإن اضطروا إليهم لزمهم عونهم ونصرهم ؛ لأن المسلمين يد على من سواهم ، ولصحة كون ذلك كذلك ، تأول كل من تأول هذه الآية أن معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء .. وأما قوله : ﴿ **وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ فإن معناه وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم فيكم – أى منكم – شدة عليهم ، ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ يقول : أيقنوا عند قتالكم إياهم أن الله معكم وهو ناصركم عليهم فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه)[2] .

* * *

وحيث إن الآيات منصبة على الجهاد ، فقد استنفرت الأمة كلها عند خروج

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٩٧ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى / ٧ / ١١ / ٥٢ ، ٥٣ .

رسول الله ﷺ إلى حرب العدو ، ثم استنفرت طوائف منها عند إقامة رسول الله ﷺ وبعث سراياه للجهاد ، ثم أوضحت أن خط الجهاد ماضٍ لا يتوقف ، وأن تصور انتهاء الحرب بعد غزوة تبوك وبيع الأسلحة هو تصور خاطئ ، وأن الجهاد ماضٍ لا يبطله جور جائر ولا ظلم ظالم ، فإما أن تحمل الأمة كلها الجهاد ، أو تحمله الطائفة الظاهرة على الحق إلى قيام الساعة ، والجهاد ماضٍ لا يتوقف طالما أن هناك كفراً فى الأرض يواجه الإسلام ، وكلما انضمت رقعة إلى الأرض الإسلامية أو استسلمت ودانت لله ، من الذين يلونهم ، فتنتقل المعركة إلى الذين يلونهم بعدها الأقرب فالأقرب ، هكذا دون حدود أو قيود أو ارتباط بقبيل أو جيل ، أو زمان أو مكان .

هكذا ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ ، وكلما انحسر الكفر ودولته عن صقع وكان قبل مجاوراً للأمة المسلمة ، أصبح الذى يليه هو المعد للمعركة والمواجهة ، وثبت هذا الأمر فى حس المسلمين فى الجيل الأول ، ومن أجل ذلك تابع الجهاد الخلفاء الراشدون المهديون بعد رسول الله ﷺ ، والملوك بعدهم حتى غزو الأرض كلها استسلاماً أو مهادنة أو حرباً ، وهذا الجيل الذى تربى على يد معلم البشرية محمد ﷺ هو الذى حمل الراية بعد ، ومضى بها إلى أقصى المعمور ، حيث وقف عقبة بن نافع على حدود الأطلسى يقول :

والله لو أعلم أن وراء هذا البحر أحداً لمضيت مجاهداً فى سبيلك .

وعلم الذين بعده ، فتابعوا المسيرة الجهادية ، حتى دانت الأرض لهم بالطاعة

(فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من « يلون » دار الإسلام ويجاورونها مرحلة فمرحلة ، فلما أسلمت الجزيرة العربية أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام - بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم ، ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوباً ، ووُحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ .. ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت ، أو على أساس القوميات ! وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم

وما يزالون يعملون ، وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام « أمة واحدة » فى « دار الإسلام » المتصلة الحدود – وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان – ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ ، وتدرك أسرار القيادات الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين .

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ .

فنجد أمراً بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار ، لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولاعلى ديارهم .. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير ، الذى يجعل الانطلاق بهذا الدين هو الأصل الذى ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد « الدفاع » كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة فى المدينة .

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد فى القرآن ، أن يتلمسوا لهذا النص النهائى الأخير قيداً من النصوص المرحلية السابقة ، فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآنى بذاته مطلق ، وهو النص الأخير ! وقد عودنا البيان القرآنى عند إيراد الأحكام أن يكون دقيقاً فى كل موضع ، وألا يحيل فى موضع على موضع ؛ بل يتخير اللفظ المحدد ، ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصصات فى ذات النص ، إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص ...

إن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام ، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام ، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هى أحكام الإسلام ، وأن يكون الله سبحانه قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار ، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار ، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار ! يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلـٰهى هكذا ، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ، ويجدون هذه القيود وفى النصوص المرحلية السابقة : إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد فى الإسلام جهاد « فى سبيل الله » ، جهاد لتقرير ألوهية الله فى الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله .. جهاد لتحرير « الإنسان » من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله والانطلاق من العبودية للعباد .. حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . وأنه ليس جهاداً لتغليب مذهب بشرى على مذهب بشرى مثله ، إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ! وليس جهاداً لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم ، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد ! وليس جهاداً لإقامة مملكة لعبد ، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله فى الأرض .. ومن ثم ينبغى له أن ينطلق فى الأرض كلها لتحرير « الإنسان » كله .. بلا تفرقة بين ما هو داخل فى حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها ، فكلها « أرض » يسكنها « الإنسان » وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد !

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعاً أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج ، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم .. إنها فى هذا الوضع لا تستساغ ! وهى فعلاً لا تستساغ ! لولا أن الأمر ليس كذلك وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش ! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية ، فليس لواحد منها أن يقول : إنه هو وحده صاحب الحق فى البقاء ! وليس الحال كذلك فى نظام إلٰهى يواجه أنظمة بشرية ؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ، ويديرها كى يطلق البشر جميعاً من ذلة العبودية للعباد ، ويرفع البشر جميعاً إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك !

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبياً منظماً لئيماً ماكراً خبيثاً يقول لهم : إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف ، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية ؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد !

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة .. لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق .. إن الإسلام يقوم على قاعدة : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ ، ولكن لماذا ينطلق بالسيف مجاهداً ؛ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد ! لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير « الإنسان » فى الأرض من العبودية للعباد يواجه دائماً طواغيت فى الأرض يخضعون العباد للعباد ، ويواجه

دائماً أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد ، تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية فى صورة من الصور ، وتحول دون الناس فى داخلها ، ودون سماع الدعوة الإسلامية ؛ كما تحول دونهم ، ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم ، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل .. وفى هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله .

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ، ويدمر هذه القوى التى تحميها .. ثم ماذا ؟ .. ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحراراً حقاً فى اختيار العقيدة التى يريدونها . إن شاؤوا دخلوا فى الإسلام فكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكانوا إخواناً فى الدين للسابقين فى الإسلام ، وإن شاؤوا بقوا على عقائدهم ، وأدوا الجزية ، إعلاناً عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ؛ ومشاركة منهم فى نفقات الدولة المسلمة التى تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد ، وتكفل العاجز منهم والضعيف كالمسلمين سواء بسواء .

إن الإسلام لم يكره فرداً على تغيير عقيدته ؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ ، تذبح وتقتل وتبيد شعوباً بأسرها – كشعب الأندلس قديماً ، وشعب زنجبار حديثاً – لتكرههم على التنصر ، وأحياناً لا تقبل منهم حتى التنصر ، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون ، وأحياناً لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصرانى مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية ، وقد ذهب مثلاً اثنا عشر ألفاً من النصارى فى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن معاً ! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية ، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية .. إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية ! وأخيراً فإن صور الانطلاق فى الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحياً فى هذا الزمان وتتعاظمهم ؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم ، وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر .. وهو يهول فعلاً ! فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين ، وهم شعوب مغلوبة على أمرها ؛ أو قليلة الحيلة عموماً ! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون فى الأرض يواجهون أمم الأرض جميعاً بالقتال ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ؟ ! إنه لأمر لا يتصور عقلاً ، ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلاً .

ولكن فات هؤلاء جميعاً أن يروا متى هذا الأمر ؟ وفى أى ظرف ؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله ؛ دانت لها الجزيرة العربية ، ودخلت فى هذا الدين ، ونظمت على أساسه ، وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التى باعت نفسها لله بيعة صدق ، فنصرها الله يوماً بعد يوم ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة .. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث محمداً ﷺ ليدعو الناس فى جاهليتهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فجاهد والقلة التى معه حتى قامت الدولة المسلمة فى المدينة ، وأن الأمر بالقتال مرَّ بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة .. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .. ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله .. ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذى تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء ؛ والذى تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية ، ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة ، التى ترفع راية لا إلٰه إلا الله ، ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعاراً ، ولا تتخذ لها مذهباً ولا منهجاً من صنع العبيد فى الأرض ، إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله .

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم فى مثل ما هم فيه من الهزال ! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون فى حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده فى الأرض ، ومكافحة ألوهية الطواغيت !

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ؛ الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق ، وحفظ ما فى متون الكتب ، والتعامل مع النصوص فى غير حركة لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلاً له فى يوم من الأيام .

وأخيراً فإن الظروف التى نزل فيها قول الله عز وجل : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم .. وهم أهل كتاب .. ولكن سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى .. بما فى عقيدتهم من انحراف ، وما فى واقعهم من تحكيم شرائع العبيد .

وهذه لفتة لابد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل

الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! .. وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون راضين إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه ، فى أى زمان وأى مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هذا الأمر بقوله : ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ .

ولهذا التعقيب دلالته ، فالتقوى هنا ، التقوى التى يحب الله أهلها ، هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ، وتقاتلهم « فى غلظة » أى بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكن ينبغى أن نعرف وأن يعرف الناس جميعاً أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم ، وفى حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب !

إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال ، ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد – فى حالة الخوف من الخيانة – والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام أو أداء الجزية ؛ ولا عهد فى غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالة تشبه الحالة التى هم فيها .

وهذه آداب المعركة كلها من وصية رسول الله ﷺ :

عن بريدة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم من الغنيمة والفىء شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ،

وإن أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفُّ عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى وقاتلهم » أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان . أخرجه الشيخان .

وأرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى أهل اليمن فكانت وصيته له :

« إنك تأتى قوماً أهل كتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخد من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وأخرج أبو داود بإسناده عن رجل من جهينة أن رسول الله ﷺ قال : « لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم ، فيصالحونكم على صلح ، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك ، فإنه لا يصلح لكم » .

وعن العرباض بن سارية قال : « نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ، ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً ، فأقبل على النبى ﷺ فقال : يا محمد ، لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال : « يا بن عوف ، اركب فرسك ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلاة » ، فاجتمعوا ، ثم صلى بهم ، ثم قام فقال : « أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما فى القرآن ؟ ألا وإنى وعظت ، وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر ، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا هم أعطوا الذى عليهم » .

ورفع إليه ﷺ أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبى ﷺ وقال ما معناه : « إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين ، فإياكم وقتل الأولاد ، إياكم وقتل الأولاد » .

وهذه التعليمات النبوية هى التى سار عليها الخلفاء من بعده :

روى مالك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : ستجدون قوماً زعموا أنفسهم أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا ولداً ولا كبيراً هرماً .

وقال زبيد بن وهب : أتانا كتاب عمر رضى الله عنه ألا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، واتقوا الله فى الفلاحين .

ومن وصاياه : « لا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » .

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامى فى قتاله لأعدائه وفى آدابه الرفيعة ، وفى الرعاية لكرامة الإنسان ، وفى قصر القتال على القوى المادية التى تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وفى اليسر الذى يعامل به حتى أعداءه ، أما الغلظة فهى الخشونة فى القتال والشدة ، وليست هى الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، غير المحاربين أصلاً ، وليست تمثيلاً بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين فى هذا الزمان ، وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين ، ولاحترام بشرية المحاربين ، إنما المقصود هو الخشونة التى لا تميع المعركة ، وهذا الأمر ضرورى لقوم أمروا بالرحمة والرأفة فى توكيد وتكرار ، فوجب استثناء حالة الحرب ، بقدر ما تقتضى حالة الحرب ، دون رغبة فى التعذيب والتمثيل والتنكيل)[1] .

* * *

يقول جل وعلا :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل

(١) فى ظلال القرآن / ٤ / ١١ / ١٧٣٦ - ١٧٤١ .

يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾[1] .

(يقول - تعالى ذكره - وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله فى هذه السورة من يقول : أيها الناس أيكم زادته هذه السورة إيماناً ، يقول : تصديقاً بالله وآياته ، يقول الله : فأما الذين آمنوا من الذين قيل لهم ذلك فزادتهم السورة التى أنزلت إيماناً وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين .

فإن قال قائل : أوليس الإيمان فى كلام العرب التصديق والإقرار ؟ قيل : بلى ، فإن قيل : كيف زادتهم هذه السورة تصديقاً وإقراراً ؟ قيل : زادتهم إيماناً حين نزلت ؛ لأنهم قبل أن تنزل السورة لم يكن لزمهم فرض الإقرار بها والعمل بها بعينها - إلا فى جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله فحق - فلما أنزل الله السورة لزمهم فرض الإقرار بأنها بعينها من عند الله ، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده ، وفرائضه ، فكان ذلك هو الزيادة التى زادتهم نزول السورة حين نزلت من الإيمان والتصديق بها ...

﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى نفاق وشك فى دين الله فإن السورة التى أنزلت زادتهم رجساً إلى رجسهم ، وذلك أنهم شكوا أنها من عند الله فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا ، فكان ذلك زيادة شك حادثة فى تنزيل الله لزمهم الإيمان به عليهم بل ارتابوا بذلك فكان ذلك زيادة نتن فى أفعالهم إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق ، وذلك معنى قوله : ﴿ **فزادتهم رجساً إلى رجسهم** ﴾ ، ﴿ **وماتوا** ﴾ يعنى هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا ، ﴿ **وهم كافرون** ﴾ يعنى وهم كافرون بالله وآياته .

والقول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ..** ﴾ .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال : إن الله عجَّب عباده المؤمنين من هؤلاء المنافقين ، ووبخ المنافقين فى أنفسهم بقلة تذكرهم وسوء تنبههم لمواعظ الله التى يعظهم بها ، وجائز أن تكون تلك المواعظ الشدائد التى يُنزلها بهم من الجوع والقحط ، وجائز

(١) سورة التوبة : ١٢٤ - ١٢٧ .

أن تكون ما يريهم من نصرة رسوله على أهل الكفر به ، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم ، وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه ، ولا خبر يوجب صحة بعض ذلك دون بعض من الوجه الذى يجب التسليم له . ولا قول فى ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو : أولايرون أنهم يختبرون فى كل عام مرة أو مرتين بما يكون زاجراً لهم ثم لا ينزجرون ولا يتعظون ...

والقول فى تأويل قوله : **﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾** :

يقول – تعالى ذكره –: وإذا ما أنزلت سورة من القرآن فيها عيب هؤلاء المنافقين الذين وصف – جل ثناؤه – صفتهم فى هذه السورة وهم عند رسول الله ﷺ ، نظر بعضهم إلى بعض ، فتناظروا هل يراكم من أحد إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به ، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ ولم يستمعوا لقراءة السورة التى فيها معايبهم ، ثم ابتدأ – جل ثناؤه – قوله : **﴿ صرف الله قلوبهم ﴾** فقال : صرف عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين ، **﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾** يقول : فعل الله بهم هذا الخذلان ، وصرف قلوبهم عن الخيرات من أجل أنهم لا يفقهون عن الله مواعظه استكباراً ونفاقاً)[1] .

كانت الجولة السابقة مع المؤمنين ، تتوجه بهم إلى الفداء والتضحية والبذل ، وتثنى على المجلين منهم والسابقين الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، وتتميز بهم عن الكافرين ولو فى الاستغفار لهم ، وتذكرهم بضرورة الالتحام مع الصف المؤمن ، والمضى فى الجهاد ومع المجاهدين ، وتضم الذين خلفوا إليهم بعد توبة الله عليهم ، وتذكرهم بأن الجهاد ماض إلى قيام الساعة ، لا ينقطع أجره ، ولا يرتفع فرضه ، ويربطهم بالقيادة النبوية العظيمة ، بحيث يكونون رهن إشارتها ، وطوع أمرها ، ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسها .

وبعد هذا الالتحام بين المؤمنين السابقين منهم ، والتابعين لهم بإحسان والذين تاب الله عليهم من الذين خلفوا ، لابد من الإشارة ثانية إلى أن هناك أمة أخرى ،

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / ٧ / ١١ / ٥٣ – ٥٥ .

قد تتشابه مظاهرها بعض التشابه مع ضعاف المؤمنين ومع المقصرين من المؤمنين ، لكنها من خارج الصف ، أو من خارج الإيمان والمؤمنين ، هى الأمة المنافقة التى لا تزال تقيم بين ظهرانى المؤمنين .. وهى تسبح عكس التيار ، وتمضى فى حرب دفينة مع الإسلام ، فقلوبها تشتعل بالحقد والكره والكفر .

وحيث تسبح أرواح المؤمنين مع القرآن وتسمو وترق وترتفع ، وما تنزل سورة إلا ويهتز الكيان خشوعاً ، وتقشعر الجلود خوفاً وطمعاً ، وتطمئن القلوب بذكر الله ، وتستبشر بتحقيق موعود الله ، وتتحدث بفيض عطاء الله تعالى لها بما مكَّن الله تعالى لهذا الدين حيث دانت له رقاب العرب واستسلمت لله ، وحيث تسير الأمة المؤمنة فى الصعود والسمو والارتقاء – نجد المنافقين الذين التفوا على بعضهم التفاف الحية الرقطاء ، يتعشش السم فى نفوسهم وقلوبهم فينفثونه حقداً وكفراً وغيظاً من انتصار المؤمنين ، ويأكلون قلوبهم فرقاً من التمكين لهذا الدين ، فإذا أنزلت السورة زادتهم رجساً إلى رجسهم ، وتراكم الكفر على قلوبهم ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن أين يأتيهم النور ، وقد توجهوا لإطفاء نور الله بأفواههم وأيديهم ، وحجبوا الهدى الإلـٰهى عن قلوبهم ، بما ورثوا من ضغينة ورغبة دفينة فى السيطرة ، والعزة ، والجاه ، فأعمى هذا بصائرهم عن النور فلا يرونه ، وكلما زاد النور عليهم زادهم عمى ، فهو فى قلوبهم عمى ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون .

لقد وجدنا نماذجهم ، وكيف تأتى الفتنة عقب الفتنة عليهم ، يكشف الله تعالى خبث طوياتهم بالشعور بما يحملون تجاه المسلمين فلا يرعوون ، ويكشف نتن أقوالهم حيث قالوا كلمة الكفر ، وحيث يلمزون المطوعين من المؤمنين ، وحيث يلمزون الرسول ﷺ فى الصدقات ، وجاءت الفاضحة المبعثرة المدمرة ، وكشفت كل مخبوء ، وهتكت كل مستور ، وبدل أن يرعووا ويعوا ويفيئوا إلى الله ، ويتوبوا ويعتصموا بالله ويخلصوا دينهم لله ، وينضموا للمؤمنين ، بدل هذا كله ، يصرون على الكفر ، ويصرون على الضلالة ، ويكشف القرآن نتن أفعالهم حين هموا بما لم ينالوا ، وحين أقاموا مسجد الضرار كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، ثم يعودون ليحلفوا إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون .

لقد آن الأوان بعد الاستقرار فى المدينة ، وبعد أن نشرت كل صفحاتهم المطوية ،

وبعد أن رأوا تمكين الله تعالى للعصبة المؤمنة ، وعلى رأسها سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، وكيف هابه ملوك بنى الأصفر ، وهادنوه ، وكيف عاد مظفراً منصوراً بنصر الله وتمكينه ، ويرون هذا كله ، ولا يزدادون إلا عناداً ،واستكباراً فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

لقد كان ما تم من النصر والتمكين فى تبوك من جهته ، وما رأوا من الآيات المعجزات فى تبوك من جهة ثانية ، حيث أطعم الله جنده وسقاهم على يد حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما رأوا من كشف كل أوضاعهم فيما نزل بهم بعد تبوك من جهة ثالثة ، كان هذا كافياً إلى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويتخلوا عن نفاقهم ، لكن هذه الآيات جميعاً زادتهم رجساً إلى رجسهم ، وجعلتهم يتقوقعون على أنفسهم وينظر بعضهم إلى بعض أنهم ما زالوا على العهد ، منافقين كفرة ، مرتابين ، وينصرفون بهذه الروح الخبيثة المنتنة ، فصرف الله قلوبهم عن الهدى بعد أن اختاروا حرب الهدى والمهتدين ، وأبعدهم الله تعالى عن دينه بعد أن دفعوا هذا الدين بكل ما يملكون من هوى وحقد ، وزادوا رجساً إلى رجسهم بإصرارهم على جحد الآيات البينات التى استيقنتها أنفسهم وجحدوا بها ظلماً وعلواً ، واستكباراً فى الأرض ، لابد أن يبقى فى حس المسلمين فى هذه المدينة السعيدة أنه لا يزال بينهم منافقون مردوا على النفاق ، ومنافقون ينشؤون من جديد فى هذه المدرسة ، ومنافقون يتواصلون من أقصى الأرض العربية ويخططون لحرب هذا الدين ، ولابد أن يبقى المؤمنون يقظين لوجود أمثال هذه الإنتانات فى صفوفهم ، فلا يغفلوا عنهم لأنهم أعداء لهذا الدين وأهله وشيعته .

* * *

قال تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إلـه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

وآن الأوان فى الختام أن تتعرف هذه الأمة على نبيها وقائدها ، هذا النور المكنون الذى تلألأ فى صلب آدم ، وكان نبياً وآدم بين الماء والطين ، آن الأوان أن يسمعوا ثناء الله تعالى على أحب خلقه له : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ...** ﴾ فهو من العرب عليه الصلاة والسلام ، فأين هو وأين العرب وأين قريش وهاشم من هؤلاء العرب جميعاً ، وهو قائم بين هذا الجيش الذى ربا على الثلاثين ألفاً من كل العرب قد جمع ، وجمع من العجم ، فمن هو هذا الذى بينهم ؟

أ ــ فهو ابن العرب جميعاً :

فقد (أخرج عبد بن حميد ، والحارث بن أسامة – فى مسنده – وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم – في دلائل النبوة – وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبى ﷺ ، مضريها وربيعيها ويمانيها)[1] .

ولذلك فمن حق كل عربى أن يعتز بقرابة رسول الله ﷺ له .

ب ــ وهو من أشرف ولد آدم :

فقد (أخرج عبد الرزاق – فى المصنف – وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى – فى سننه – وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح »)[2] .

(وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ما معنى ﴿ **أنفسكم** ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس فيَّ من آبائى من لدن آدم سفاح كله نكاح »)[3] .

(وأخرج البيهقى – فى الدلائل – وابن عساكر عن أنس قال : خطب النبى ﷺ فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة

---

(١) و (٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٧ .   (٣) المصدر نفسه / ٣٢٧ وهو عند البيهقى /٧ /١٩٠ .

ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً »)(١) .

جـ ـ وهو من خير ولد آدم :

(أخرج ابن سعد والبخارى والبيهقى – فى الدلائل – عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه »)(٢) .

(وأخرج ابن سعد ، ومسلم ، والترمذى ، والبيهقى – فى الدلائل – عن واثلة ابن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »)(٣) .

د ـ وهو خير خلق الله :

فقد (أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقى معاً – فى الدلائل – عن العباس بن عبد المطلب قال : « إن الله حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خيرهم نفساً ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » .

وفى رواية : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وجعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » وأخرجه الترمذى وصححه والنسائى عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب)(٤) .

---

(١) الدر المنثور / ٣٢٨ وفى دلائل البيهقى . (٢) المصدر نفسه / ٣٢٨ هو عند البخارى .
(٣) المصدر نفسه ، وهو عند مسلم / ٤ / ٤٣ / ١٧٨٢ حديث رقم / ٢٢٧٦ .
(٤) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٢٩ وهو عند الترمذى ٣٦٠٧ ، وهو حديث صحيح .

هذا هو رسول الله ﷺ خير خلق الله وسيد ولد آدم ، وقد جعل الله به من الخصائص والصفات ما لم يجعله فى أحد من خلقه ، وهو الذى يزكيه جل وعلا فيقول عنه :

﴿ ... عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ .

وما عرف قائد فى البشرية حرص على سعادة أمته ، وخوفها من الإرهاق كما عرف عنه عليه الصلاة والسلام ، فهو الذى راجع ربه مرات حتى خفض الصلاة من الخمسين للخمس ، وهو الذى كان لا يداوم على صلاة التراويح فى المسجد حتى لا تفرض عليهم ، وهو الذى كان يتخلف خلف السرية حتى لا يشق على أمته فيفرضها عليهم ، وهو الذى وصف نفسه بقوله :

« مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى » .

﴿ ... بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ :

فهو الرحمة المهداة للبشرية كافة ، يشفع لها عند ربها حين تعز الشفاعة من النبيين والمرسلين :

« .. اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق، فآتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله على ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعط ، واشفع تشفع ... »[1] .

وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين خاصة :

« ... فأرفع رأسى فأقول : يا رب ، أمتى أمتى ، فيقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب .. »[2] .

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما

---

(١) من حديث رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد .

(٢) من الحديث السابق .

من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر »[1] .

وإذا كان الأنبياء قد وعدهم ربهم بدعوة خاصة مستجابة . فماذا عن دعوة الرسول ﷺ :

« إن لكل نبي دعوة ، قد دعا بها فى أمته فاستجيب له ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة »[2] .

(يقول ابن الجوزى : هذا من حسن تصرفه ﷺ ، لأنه جعل الدعوة فيما ينبغي ، ومن كثرة كرمه لأنه آثر أمته على نفسه ، ومن صحة نظره ، لأنه جعلها للمذنبين من أمته ، لكونهم أحوج إليها من الطائعين .

وقال النووى : فيه كمال شفقته ﷺ على أمته ، ورأفته بهم ، واعتناؤه بالنظر إلى مصالحهم ، فجعل دعوته فى أهم أوقات حاجتهم)[3] .

﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إلـٰه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ :

(يقول - تعالى ذكره -: فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك فأدبروا عنك ، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة فى الله ، وما دعوتهم إليه من النور والهدى **﴿ فقل حسبى الله ﴾** يكفينى ربى **﴿ لا إلـٰه إلا هو ﴾** لا معبود سواه **﴿ عليه توكلت ﴾** وبه وثقت وعلى عونه اتكلت ، وإليه وإلى نصره استندت فإنه ناصرى ومعينى على من خالفنى ، وتولى عنى منكم ومن غيركم ومن الناس **﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾** الذى يملك كل ما دونه ، والملوك كلهم مماليكه وعبيده ، وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه - نفسه بأنه رب العرش العظيم الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده وفى ملكه وسلطانه لأن العرش العظيم إنما كان يكون للملوك فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم دون غيره ، وأن من دونه فى سلطانه وملكه جار عليهم حكمه وقضاؤه)[4] .

---

(1) صحيح الجامع الصغير للألبانى / ٢ / ٢١ ورواته : أحمد والترمذى وابن ماجة .

(2) البخارى ومسلم وأحمد عن أنس ، وهو عند مسلم كتاب الإيمان / ٢٠٠ / ٣٤٣ .

(3) شرح السنة للبغوى / ٥ / ٦ ، ٧ . (4) جامع البيان للإمام الطبرى / ٧ / ١١ / ٥٦ .

و (خص العرش لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره)[1] .

وأخرج أبو داود عن أبى الدرداء موقوفاً وابن السنى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يصبح وحين يمسى : حسبى الله لا إلـٰه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة »[2] .

* * *

ولهاتين الآيتين موقع وقصة ، تعطيانا صورة حية عن علاقتهما بالسورة .

فهما آخر ما أنزل من القرآن ، والتوبة آخر سورة أنزلت منه :

أخرج ابن أبى شيبة ، وإسحاق بن راهويه ، وابن منيع - فى مسنده - وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى - فى الدلائل - من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبى ﷺ - وفى لفظ : إن آخر ما نزل من القرآن - ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..** ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن الضريس - فى فضائل القرآن - وابن الأنبارى - فى المصاحف - وابن مردويه عن الحسن أن أبى بن كعب كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله - وفى لفظ : بالسماء - هاتان الآيتان : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..** ﴾ إلى آخر السورة .

يقول الإمام القرطبى :

هاتان الآيتان فى قول أبى : أقرب القرآن بالسماء عهداً - وفى قول سعيد بن جبير[3] : آخر ما نزل من القرآن - ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ﴾ على ما تقدم فيحتمل أن يكون قول أبى : أقرب القرآن بالسماء عهداً بعد قوله : ﴿ **واتقوا**

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٣٠٢ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٣٤ .

(٣) وقد رُوى كذلك عن عكرمة عن ابن عباس ، والضحاك والعوفى عن ابن عباس ، قال ابن جريج يقولون : إن النبى ﷺ عاش بعدها تسع ليالٍ وبدأ يوم السبت ، ومات يوم الاثنين ، والظاهر أن هذا هو الأرجح ، وانظر تفسير ابن كثير / ١ / ٥٩٢ ، والقرطبى / ٣ / ٣٥٠ .

يوماً ترجعون فيه إلى الله ... ﴾ .

وكل ما ورد إذن أن يكون بعد هاتين الآيتين آية واحدة هى : **﴿ واتقوا يوماً .. ﴾** ، فالآيات الثلاث إذن أحدث عهداً بالله عز وجل .

ولماذا كانت هاتان الآيتان فى آخر سورة التوبة ؟

(أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل – فى زوائد المسند – وابن الضريس – فى فضائله – وابن أبى داود – فى المصاحف – وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى – فى الدلائل – والخطيب – فى تلخيص المتشابه ، والضياء – فى المختارة – من طريق أبى العالية عن أبى بن كعب ، أنهم جمعوا القرآن فى مصحف فى خلافة أبى بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويملى عليهم أبى بن كعب حتى انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة : **﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾** ، فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن ، فقال أبى بن كعب : إن النبى ﷺ قد أقرأنى بعد هذا آيتين : **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إلـه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾** ، فهذا آخر ما نزل من القرآن .قال: فختم الأمر بما فتح به بلا إلـه إلا الله ، يقول الله : **﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون ﴾**)[1] .

وإن كان الوارد فى الصحيح أنهما وجدتا مع خزيمة بن ثابت رضى الله عنه :

فقد (أخرج ابن سعد ، وأحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن أبى داود – فى المصاحف – وابن حبان ، وابن المنذر ، والطبرانى ، والبيهقى – فى سننه – عن زيد بن ثابت قال :

أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى أرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر :

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٣١ .

هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد : وعمر جالس عنده لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرانى به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع[1] والإكاف[2] والعسب[3] وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم** ﴾ إلى آخرهما ، وكانت الصحف التى جُمع بها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حين توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر)[4] .

لقد كانت سورة التوبة هى آخر سورة تامة نزلت من القرآن :

فقد أخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى ، والنسائى ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، والنحاس – فى ناسخه – وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن البراء رضى الله عنه قال : آخر سورة نزلت تامة براءة .

* * *

لقد كانت هاتان الآيتان فى ختام هذه السورة ، تربطان الأمة بنبيها وربها ربطاً وثيقاً محكماً .. فقد عرَّفت الأمة إلى قيام الساعة بسيدها وقائدها ونبيها ، كما ربطت الخلق ببارئهم وخالقهم ، توكلاً عليه ، وثقة ورجاء به ، واعتماداً عليه .

وأن تأتى هاتان الآيتان فى ختام سورة براءة ، السورة التى ميزت الصف ، وكشفت النفاق ، وحددت طبقات الأمة ، وجعلت الجهاد ماضياً إلى يوم القيامة ، ورسمت معالم التربية الربانية والنبوية لهذه الأمة ، وبعد آخر جولة للصحابة مع رسول

---

(١) الرقاع : الخرق .
(٢) الإكاف : برذعة الحمار . (٣) العسب : جريد النخل .
(٤) الدر المنثور / ٤ / ١١ / ٣٣٢ وهى عند البخارى / ٢ / ٦ / ٨٩ .

الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فربطت القلوب والمشاعر والنفوس برب الخلق ، وسيد الخلق ، معلنة أن تولى الكفار والمشركين ، لابد أن يقابله تمسك بحبل الله واعتماد عليه ، وطلب النصرة والعون والمد منه - الدليل على دور التربية وأهميتها فى بناء الجيل المسلم ، وبناء الأجيال المسلمة على ضوء هذا البناء وفقه هذه التربية .

لقد كانت التربية الجهادية فى المنهج التربوى للسيرة النبوية تسير فى خطا واضحة محددة ، منذ أن كان المسلمون ثلاثة فى الوجود : (فوالله ما أعلم على ظهر الأرض ، أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة) ، إلى أن انطلقت أول سرية فى سبيل الله فى المدينة بثلاثين راكباً ، إلى أن كان أول لقاء حفل القرآن بذكره تفصيلاً وبناءً فى سورة الأنفال فى ثلاثمائة ونيف عشر ، إلى أن كان آخر غزوة للمسلمين فى ثلاثين ألفاً ونيف . تربى هذه الأجيال ، على الجهاد ، وتربى المجاهدين بهذا القرآن الكريم الذى يعقب تلك المعارك ، ومن قدر الله العظيم أن تكون السورتان - الأنفال والتوبة اللتان جمعتا بين بدر والثلاثمائة فيها ، وبين تبوك والثلاثين ألفاً فيها - متتابعتين حتى بدون بسملة فيها ، لدرجة أن حسبهما بعض المسلمين سورة واحدة .

وقال الله تعالى لنبيه فى بدر : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ، كما قال بعد تبوك : ﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾ .

ولئن نصر الله تعالى المؤمنين فى بدر وهم أذلة ، فقد دانت الجزيرة العربية بعد تبوك للمسلمين وأعلنت هذه الدينونة والسيادة للإسلام ولدين الله عز وجل فى حج السنة التاسعة ، وبعد تبوك بثلاثة أشهر، حين مضى أبو بكر رضى الله عنه نائباً عن رسول الله ﷺ على الحج ، ومضى على رضى الله عنه نائباً عن رسول الله ﷺ فى تبليغ صدر سورة التوبة ، وآيات براءة إلى العرب كافة :

(فقد أخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغيرهم . أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال : « إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل أبو بكر رضى الله

عنه فطاف فى الناس بذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يبيعون فيها وبالموسم كله . فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهى الأشهر الحرام المتسلخات المتواليات ، عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الأول ، ثم عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا)[1] .

(وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد والترمذى وحسنه ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : بعث النبى صلى الله ﷺ ببراءة مع أبى بكر رضى الله عنه ، ثم دعاه فقال : « لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى » ، فدعا علياً فأعطاه إياه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بعث علياً رضى الله عنه بأربع :

ــ لا يطوفَّن بالبيت عريان .

ــ ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم .

ــ ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى عهده .

ــ وأن الله برىء من المشركين)[2] .

وروى ابن جرير عن أبى معاوية البجلى من أهل الكوفة يقول : (سمعت أبا الصهباء البكرى وهو يقول : سألت علياً – رضى الله عنه – عن يوم الحج الأكبر فقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يقيم للناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال : « قم يا على فأدّ رسالة رسول الله ﷺ » ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ، ثم صدرنا فأتينا منى ، فرميت الجمرة ونحرت البدنة ، ثم حلقت رأسى ، علمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبى بكر يوم عرفة ، فطفت بها أتتبع الفساطيط أقرأها عليهم ، فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ، ألا وهو يوم عرفة)[3] .

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ١٢٢ .
(٢) المصدر نفسه / ١٢٣ .
(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / ١٠ / ٤٩ .

ونذكر من هذه الأربعين الآيات العشرين الأولى منها ، والتى تمثل الصورة النهائية للجهاد فى الإسلام[1] :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون * ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين *

---

(١) سبق أن عرضنا تفسير الآيات من ٢٥ إلى نهاية السورة .

أجعلم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم * يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(1) .

ولابد أن نختم بهذه الآيات بحثنا فى التربية الجهادية بصفتها آخر ما أنزل من القرآن الكريم فى الجهاد ، وأحكامه النهائية ، التى تعطينا الصورة الأخيرة للجهاد فى الإسلام .

(والسورة بهذا الاعتبار ذات أهمية خاصة فى بيان طبيعة المنهج الحركى للإسلام ، ومراحله وخطواته حين تراجع الأحكام النهائية التى تضمنتها مع الأحكام المرحلية التى جاءت فى السورة قبلها ، وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج ، وعن مدى حسمه كذلك ، وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد ، كما يقع كلما انتزعت الآيات التى تضمنت أحكاماً مرحلية فجعلت نهائية ، ثم أريد للآيات التى تتضمن الأحكام النهائية ، أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية ، وبخاصة فى موضوع الجهاد الإسلامى ، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى ..)(2) .

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرى معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ .

---

(1) سورة التوبة / ١ – ٢٤ .   (2) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٦٤ .

(واختلف العلماء فى كيفية هذا التأجيل ، وفى هؤلاء الذين برئ الله منهم ورسوله ، فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر ليرتاء لنفسه ، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين ، يُقتل حيثما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر ، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأربعة أشهر الحرم عشرون من ذى الحجة والمحرم . وقال الكلبى : إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر ، ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذى أمر الله أن يتم له عهده بقوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ وهذا اختيار الطبرى وغيره . وذكر مجاهد وابن إسحاق وغيرهما أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة ..)[1] .

﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾ .

لقد أصبح الحكم النهائى فى جزيرة العرب هو قتل كل مشرك لا عهد له ، كما أخرج ابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه قال : (كان عهد بين رسول الله ﷺ وبين قريش أربعة أشهر بعد يوم النحر ، كانت تلك بقية مدتهم ، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم ، فأمر الله نبيه ﷺ إذا مضى هذا الأجل أن يقاتلهم فى الحل والحرم وعند البيت حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وروى ابن زيد فى ﴿ **واحصروهم** ﴾ قال : ضيقوا عليهم ، ﴿ **واقعدوا لهم كل مرصد** ﴾ قال : لا تتركوهم يضربون فى البلاد ولا يخرجون لتجارة)[2] .

(وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾ قال : فإنما الناس ثلاثة نفر مسلم عليه الزكاة ، ومشرك عليه الجزية ، وصاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله)[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٤ / ٨ / ٦٨ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ١٣١ .   (٣) المصدر نفسه : ١٣٣ .

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ .

(أخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضى الله عنه فى قوله : **﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ... ﴾** قال : أمر من أراد ذلك أن يأمنه ، فإن قبل فذاك وإلا خلى عنه حتى يأتى مأمنه ، وأمر أن ينفق عليهم على حالهم ذلك)[1] .

(إن هذا يعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يثوب ، وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والإحسان ، ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه ، فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب .. وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم ، ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الإسلام ، ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة ، وهذه منها .. هذه الحراسة للمشرك ، عدو الإسلام والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين ، هذه الحراسة له حق يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام .

إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام)[2] .

إن الإسلام الذى فض هذه التجمعات المعادية وأعلن أنه حرب عليها ، يعلم أن القيادات عندما تنهار ، والسلطان عندما يتحطم ، تتفتح كثير من العيون ، وتتيقظ كثير من القلوب ، لترعوى إلى الله بعد أن أعماها السلطان والطغيان ، فتفكر فى هذا الدين ، وتود لو تعرف حقيقته ، بعيداً عن الإرهاب ، وبعيداً عن القوة وبعيداً عن السيف ، هذا شأن القيادات ، فكيف بالجماهير المستضعفة التى كانت صامتة تحت وطأة إرهاب حكامها وطغاتها ، وقد تكون النفوس لكثير من هذه الجماهير تتشوف إلى الإسلام ، وترغب التعرف عليه ، وترنو إلى فهم أسراره ، فجاءت هذه الآيات

---

(١) الدر المنثور للسيوطى / ٤ / ١٠ / ١٣٣ . (٢)فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦٠٢ .

القرآنية فى هذا الموقع بالذات ، بعد الأمر بالقتل والحصر ، وأخذ كل مرصد للمشركين – بعد هذا الأمر تفتح الباب على مصراعيه إلى طلبة الهدى أن يتقدموا إليه ، فى أمن وطمأنينة ، يتعرفون على الإسلام ، يسلمون أو يبقون على شركهم على خير ، ولهم الأمان لو بقوا على شركهم أن يعيدوهم معززين مكرمين إلى مأمنهم وموطنهم ، فالإسلام لا يغدر ولا يطعن من الخلف ، ولا يغرر بالناس فيدعوهم إلى الإسلام ، ثم يفترسهم فى أرضه ، بل يعيدهم بحراسة حرابه وجيشه إلى موطن شركهم ، فأى خوف إذن من القدوم للإسلام ؟

﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ .

(وعن مقاتل قال : كان النبى ﷺ قد عاهده أناس من المشركين ، وعاهد أيضاً أناساً من بنى ضمرة بن بكر وكنانة خاصة . عاهدهم عند المسجد الحرام وجعل مدتهم أربعة أشهر وهم الذين ذكر الله : **﴿ إلا الذين عاهدتم .. ﴾** ، أما السدى فيقول : هم بنو خزيمة بن فلان . وقتادة يعيدها على بنى بكر وخزاعة فيقول : هو يوم الحديبية ، **﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾** قال : فلم يستقيموا ونقضوا العهد ، وأعانوا بنى بكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبى ﷺ)(١) .

﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴾ .

روى عن مجاهد وعكرمة أن (الإل) هو الله ، وأخرج الطستى عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرنى عن قوله عز وجل **﴿ إلًّا ولا ذمة ﴾** قال : الإل : القرابة ، والذمة العهد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

جزى الله إلًّا كان بينى وبينهم جزاء ظلوم لا يؤخر عاجلا(٢)

وأخرج ابن الأنبارى – فى كتاب الوقف والابتداء – عن ميمون بن مهران رضى الله عنه أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضى الله عنهما : أخبرنى عن قول الله

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ١٣٤ . (٢) المصدر نفسه / ١٣٥ .

عز وجل : ﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلّا ولا ذمة ﴾ قال : الرحم ، وفيه قال حسان ابن ثابت :

لعمرك إن إلّك من قريش كإل السقب[1] من رال[2] النعام

(وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **وأكثرهم فاسقون** ﴾ قال : ذم الله تعالى أكثر الناس)[3] .

﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ :

(يعنى المشركين فى نقضهم للعهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان ؛ قال مجاهد وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا ، ﴿ **فصدوا عن سبيله** ﴾ أى أعرضوا ؛ من الصدود ، أو منعوا عن سبيل الله ؛ من الصد)[4] .

﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلّا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾ :

(قال النحاس : ليس هذا تكريراً ، ولكن الأول لجميع المشركين ، والثانى لليهود خاصة ، والدليل على هذا : ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ يعنى اليهود ؛ باعوا حجج الله وبيانه بطلب الرياسة وطمع فى شىء ، ﴿ **وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى المجاوزون الحلال إلى الحرام فى نقض العهد) [5] .

(لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين ، فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده فى المقطع الثانى من السورة . وأما المشركون . فقد كان هذا رأيهم من المسلمين على مدار التاريخ .

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ إنما ختم بهذه الرسالة ، وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين الله على الإطلاق ، فإن أبعاد المعركة تترامى ، ويتجلى الموقف على حقيقته ، كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة عن مدار التاريخ البشرى كله بلا استثناء !

---

(١) السقب : ولد الناقة . (٢) الرال : ولد النعامة . (٣) الدر المنثور / ٤ / ١٠ / ١٣٥ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٨٠ .
(٥) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير / ١٣ / ٢١٣ وما بعدها .

ماذا صنع المشركون مع نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وشعيب ، وموسى ، وعيسى ، عليهم الصلاة والسلام ، والمؤمنين بهم فى زمانهم ؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك ، إنهم لم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم .

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثانى للشرك على أيدى التتار ؟ وماذا يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرناً بالمسلمين من كل مكان ؟ إنهم لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، كما يقرر النص القرآنى الخالد .

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين فى بغداد وقعت المأساة الدامية التى سجلتها الروايات التاريخية والتى نكتفى منها بمقتطفات سريعة من « تاريخ البداية والنهاية » لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ هـ[1] :

« ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس فى الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ، وكانت الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، نتفتحها التتار ، إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم ، فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة – فإنا لله وإنا إليه راجعون – كذلك فى المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى ، وطائفة من التجار أخذوا أماناً بذلوا عليه أموالاً كثيرة حتى سلموا وسلمت أموالهم ، وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها ، كأنها خراب ، ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة ...

وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة ، فقيل : ثمانمائة ألف ، وقيل : ألف ألف ، وقيل : بلغت القتلى ألفى ألف نفس – فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم ، ومازال السيف يقتل فى أهلها أربعين

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦١٠ .

يوماً ، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، وعفى قبره ، وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر ، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام ، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وله خمس وعشرون سنة ، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة ، وأسر ولده الأصغر مبارك ، وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم .

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، وكان عدو الوزير ، وقتل أولاده الثلاثة ، عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم وأكابر الدولة واحداً بعد واحد ، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين إيبك وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد ، وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس ، فيخرج بأولاده ونسائه ، فيذهب إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة ، فيذبح كما تذبح الشاة ، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه ، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على ابن النيار ، وقتل الخطباء والأئمة ، وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات عدة شهور ببغداد .

ولما انقضى الأمر المقدر ، وانقضت الأربعون يوماً ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات ، كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر ، فتغيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون – فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما نودى ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد ، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى » .

هذه صورة من الواقع التاريخى ، حينما ظهر المشركون على المسلمين ، فلم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة ، فهل كانت صورة تاريخية من الماضى البعيد الموغل فى الظلمات ، اختص بها التتار فى ذلك الزمان ؟ كلا ! إن الواقع التاريخى الحديث لا تختلف صوره

عن هذه الصورة !.. إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار فى ذلك الزمان البعيد .. إن ثمانية ملايين من المهاجرين من المسلمين من الهند – ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين فى الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط . أما الملايين الخمسة فقد قضوا بالطريق ، طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيداً ، والتى يهيمن عليها ناس من الكبار فى الحكومة الهندية ، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق ، وتركت جثثهم نهباً للطير والوحش بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة ، لا تقل إن لم تزد على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد ! أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت فى ركاب القطار الذى نقل الموظفين المسلمين فى أنحاء الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين فى دوائر الهند إلى باكستان ، واجتمع فى هذا القطار خمسون ألف موظف .. ودخل القطار بالخمسين ألف موظف فى نفق بين الحدود الهندية والباكستانية يسمى (ممر خيبر) .. وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة فى القطار ! لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة ، القطار فى النفق ، ولم تسمح له بالمضى فى طريقه إلا بعد أن تحوَّل الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء ! وصدق قول الله سبحانه : ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًا ولا ذمة** ﴾ ، وما تزال هذه المذابح تتكرر فى صور شتى .

ثم ماذا فعل خلفاء التتار فى الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ لقد أبادوا من المسلمين فى خلال ربع قرن ستة وعشرين مليوناً .. بمعدل مليون فى السنة ، وما تزال عمليات الإبادة ماضية فى الطريق .. ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التى تقشعر لهولها الأبدان .

وفى هذا العام وقع فى القطاع الصينى من التركستان المسلمة ما يغطى على بشاعات التتار ، لقد جىء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة فى الطريق العام ، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية – التى تتسلمها الدولة من الأهالى لتستخدمها فى السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام – فيلقوها على الزعيم المسلم فى حفرته ، وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق فى الحفرة على هذا النحو حتى مات .

كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها ، حتى أبادت منهم مليوناً منذ الفترة التى صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ، وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشى - التى من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالاً ونساءً فى مفارم اللحم التى تصنع لحوم (البوبوليف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء - ماضية إلى الآن !!!

وما يجرى فى يوغسلافيا يجرى فى جميع الدول الشيوعية والوثنية الآن فى هذا الزمان ، ويصدق قول الله سبحانه : ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة** ﴾ ، ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلًّا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** ﴾ .

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية فى الجزيرة العربية ، ولم تكن حال طارئة ولا وقتية فى بغداد ، إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية ، حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ، ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله فى كل زمان وفى كل مكان .

ومن ثم فإن تلك النصوص ، وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة فى الجزيرة ، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركى الجزيرة إلا أنها أبعد مدى فى الزمان والمكان ، لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائماً فى كل زمان ومكان ، والأمر فى تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ فى مثل هذه الحالة التى نفذت فيها فى الجزيرة العربية ، ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذى لا يتبدل على الزمان) .

لقد كان سيد قطب - رحمه الله - يكتب هذه الكلمات عام ١٩٦٥ م ، ولم يكن يدرى أنه سيكون القربان على مذبح الشيوعية ، بعد عام واحد فقط ، حيث صدر أمر محاكمة الإخوان المسلمين من موسكو - وكر الشيوعية العالمية - على لسان حاكم مصر عبد الناصر ، وانتهى الأمر بإعدامه وزملائه ثمناً لحربه للشيوعية العالمية والصليبية العالمية ، وكان الأمر يتم باسم حكام وطنيين وتحت الراية القومية الاشتراكية .

ويتابع المرتدون والرافضة والملاحدة حربهم ضد الإسلام والمسلمين حين يظهروا عليهم وقد مر على ذلك العرض قرابة ربع قرن من الزمان ، وفى الأرض التى كانت بؤرة الإسلام فى الأرض .

يقوم النصيرى المرتد حافظ أسد بحرب الإبادة المعروفة فى حماة الباسلة .

فطوال شهر شباط ، فبراير عام ١٩٨٢ استباحت قوات أسد المعززة بالطائرات والدبابات والصواريخ وكل أنواع الأسلحة ، استباحت مدينة حماة رابع مدن سوريا ، وأمضت فيها تقتيلاً وتنكيلاً ، ودمرت بالقصف والتفجير والنسف أجزاء كبيرة من المدينة ، ومعظم معالمها الدينية والتاريخية ، وما غادرت المدينة إلا بعد أن خلّفت خمسة وعشرين ألف قتيل رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ودماراً هائلاً شبهته الصحافة الأجنبية بتدمير إحدى مدن الحرب العالمية الثانية ، فضلاً عن اعتقال الآلاف من سكانها، وتشريد عشرات الألوف الآخرين داخل سورية وخارجها .

وفى مجزرة حماة هذه جعلت عصابات أسد الكيلانية هدفاً لها فأمطرتها بقذائف الدبابات والمدفعية وراجمات الصواريخ ، وأتبعت ذلك بعمليات النسف والتفجير لتمسحها كلياً من الوجود مع شقيقاتها من أحياء الزنبقى والعصيدة والشمالية وبين الحارين ، فقد أصبحت أثراً بعد عين .

وقبل مجزرة حماة ، بادر النظام الطائفى المرتد إلى حل النقابات العلمية ومجالسها وفروعها ومؤتمراتها العامة واعتقل أعضاءها ، كما اعتقل عدداً كبيراً من أساتذة الجامعات والمحامين والأطباء والصيادلة والمدرسين وعلماء الدين ، وآلافاً من طلاب الجامعات والمدارس الثانوية وقتل المئات منهم وألقى بجثثهم فى الشوارع وأغلق عدداً كبيراً من دور العبادة ، ودمر قسماً منها وصار الجنود يدخلون المساجد بأحذيتهم يطلقون النار على المصلين ، ويمزقون المصاحف ،ويتحدون مشاعر المسلمين ، وبدأ عهد مرير من الإرهاب ، دونه عهود محاكم التفتيش ، وارتكب النظام جرائم لا عهد لأبناء أمتنا بمثلها ، فقد أقدم النظام على مجازر جماعية لم تتوقف حتى هذه الأيام من أجل سحق المعارضة التى تشكل أكثر من ٩٠ ٪ من مجموع أبناء الشعب فى قطاعاته وفئاته وأحزابه ونقاباته كلها ، وابتدع النظام طريقة للإرهاب وهى الاعتداء على حرمة المساكن واختطاف النساء والفتيات ، والسطو على الأموال والممتلكات ، وقتل الأزواج والتمثيل بهم أمام الزوجات والأولاد ، أقدم النظام على هذه الجرائم تحت اسم (تمشيط المدن والقرى) ، إذ تقوم الحوامات والدبابات والقوى المحمولة بتطويق المدن والقرى التى يراد تمشيطها ، ويؤمر الناس بمنع التجول والمكوث فى بيوتهم ، وتقسم المدينة إلى قطاعات ، تتولى كل قطاع مجموعة كبيرة من الجنود والوحدات الخاصة وسرايا الدفاع ،ويستبيحون كل شىء فى أثناء التمشيط ، يسرقون وينهبون ويدمرون ،

ويعتدون على الناس والحرمات والمقدسات ، ويقتلون كل من يرفع صوته محتجاً على هذه الانتهاكات ، زاعمين أنه من الإخوان المسلمين ، وكثيراً ما أبادوا أسراً كاملة وقطعوا أيدى النساء وأصابعهن من أجل الأساور والخواتم الذهبية ، يسحلون من يقتلونهم بالسيارات والدبابات أمام الناس ، لنشر الذعر والرعب والإرهاب فى قلوب المواطنين ، ولم تكن تخلو مدينة أو قرية من القطر إلا تعرضت للتمشيط ، فحلب - مثلاً - مشطت مرتين وحماة مشطت تسع مرات وهكذا سائر المدن والقرى .

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾

(قوله تعالى : **﴿ فإن تابوا ﴾** ، أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام ، **﴿ فإخوانكم ﴾** أى فهم إخوانكم ، **﴿ فى الدين ﴾** . قال ابن عباس : حرَّمت هذه الآية دماء أهل القبلة ، وقد تقدم هذا المعنى . وقال ابن زيد : افترض الله الصلاة والزكاة وأبى أن يفرق بينهما ، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال ابن مسعود : أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له ، وفى حديث : أن النبى ﷺ قال : « من فرق بين ثلاث فرَّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة ، من قال : أطيع الله ولا أطيع الرسول ، والله تعالى يقول : **﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾** ، ومن قال : أقيم الصلاة ولا أوتى الزكاة ، والله تعالى يقول : **﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾** ، ومن فرَّق بين شكر الله وشكر والديه ، والله عز وجل يقول : **﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾** » ، قوله تعالى : **﴿ ونفصل الآيات ﴾** أى نبينها ، **﴿ لقوم يعلمون ﴾** خصهم لأنهم المنتفعون بها ، والله أعلم)[1] .

إن الانتقال من القتل والحصر والأخذ فى كل مرصد إلى الأخوة المباشرة فى الدين ، لهو أمر عجب حقاً فى غير هذا الدين ، لكنه فى شريعة الله وفى دولة الفكرة يمثل قمة كذلك من قمم هذا الدين العظيم ، لأن الدين لله ، وليس لأحد من البشر بينه وبين الله رحم ، فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه أقرب إلى الله لنسبه ، ولا نسب لله إلا طاعته ، ومن أجل هذا عندما ينضم أحد إلى هذا الدين ، وكان قبل لحظات من اليوم ، ويؤدى واجبات هذا الدين من الصلاة والزكاة ، فقد ملك كل الحقوق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٤ / ٨ / ٨١ .

التى يملكها المسلم قبلة منذ عشرين عاماً ، أو أكثر ، وهذا ما قاله خالد رضى الله عنه لقائد الروم وهو يدعوه إلى الإسلام بعد أن قال له جرجة : فما منزلة من يجيبكم ويدخل فى هذا الدين ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا . شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا . قال جرجة : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل. قال : كيف يساويكم ، وقد سبقتموه ؟ فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة ، وبايعنا نبينا وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتاب ، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا فمن دخل منكم بهذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا ؟ قال جرجة : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ؟ قال : بالله لقد صدقتك وأن الله ولى ما سألت عنه ، فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال : علمنى الإسلام)[1] .

والجزيرة العربية معقل الإسلام ومنطلقه إلى الأرض ، لابد أن تتحول كلها إلى قاعدة صُلبة لهذا الدين فلا يبقى فيها جيوباً ، أو تجمعات مشركة أو كافرة ، لابد أن تبقى خالصة للإسلام بعد أن دانت له ، واستسلمت له ، عن قناعة وطواعية ، أكثر مما دانت له بقوة السيف . فجميع من قتل فى الحرب النبوية لا يصل إلى خمسمائة قتيل من المشركين ، وعندما كانت حجة الوداع كان عدد المسلمين الذين انضموا للرسول ﷺ ما ينوف عن مائة ألف مسلم ، فقد كانت الحرب المباشرة بين قريش ورسول الله ﷺ هى التى حسمت الموقف لصالح الإسلام ، وكانت الحديبية بداية الفتح المبين ، والانطلاقة الإسلامية ، ثم كان فتح مكة إيذاناً بفتح الجزيرة العربية كلها .

ولا شك أن الردة التى وقعت بعد وفاة الرسول ﷺ هى لأن الإسلام لم يتمكن فى القلوب بعد لدى كثير من الزعامات العربية ، واختلط الأمر بشخص الرسول ﷺ ، ووفاة الرسول لم تغير من واقع القوة والسلطان شيئاً ، إنما غيرت من الواقع النفسى الذى ربط الإسلام برسول الإسلام ، ولم تتعمق مفاهيم الوحدانية لله وحده بعد فى نفوسه .

وكان لابد لهذه المعانى من فتح باب التوبة للإخوة فى الدين أمام الجماهير العربية

(١) البداية والنهاية لابن كثير / ٤ / ٧ / ١٣ .

فى الحج وبكلام الله عز وجل ، وتبليغه للعرب على لسان رجل من أهل بيت النبى ﷺ ، لابد أن يعرف هؤلاء نهاية الخطين الأصليين فى الجزيرة ، فإما الحرب ، وإما الإسلام حتى يهلك أحد الفريقين ، لأن الجزيرة لابد أن تبقى المعقل الإسلامى الرئيسى للإسلام فى الأرض .. وإن كان قد اعترف بوجود أهل الكتاب فهو وجود مؤقت ، إنما آل الأمر إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ : « أخرجوا اليهود من جزيرة العرب » .
وقد حدد عليه الصلاة والسلام معالمها يوم وصل إلى أقصاها فى تبوك ، وقال : هاهنا شام وهاهنا يمن » والشام خارج جزيرة العرب حسب ما فهمه الفقهاء ذلك ، لأن اليهود الذين أجلوا عن خيبر إنما مضوا إلى الشام فأقاموا فيها .

وإذا كان هذا هو الباب المفتوح إلى التوبة ، والإسلام ، والإخوة فى الدين ، فما هو الطريق الثانى الذى يقابله ؟

﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ .

(استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن فى الدين إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه .. وأما الذمى إذا طعن فى الدين انقض عهده فى المشهور فى مذهب مالك لقوله : **﴿ وإن نكثوا أيمانهم ﴾** الآية فأمر بقتلهم وقتالهم وهو مذهب الشافعى رحمه الله . وقال أبو حنيفة : إنه يستتاب ، وإن مجرد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النكث ؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما : نقض العهد ، والثانى : طعنهم فى الدين .. **﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾** . المراد صناديد قريش فى قول بعض العلماء .. وهذا بعيد ، فإن الآية فى سورة « براءة » حين نزلت وقرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش ، فلم يبق إلا مسلم أو مسالم ، فيحتمل أن يكون المراد **﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾** أى من أقدم على نكث العهد ، والطعن فى الدين يكون أصلاً ورأساً فى الكفر ؛ فهو من أئمة الكفر على هذا ، ويحتمل أن يعنى به المتقدمون والرؤساء منهم ، وأن قتالهم قتال لأتباعهم وأنهم لا حرمة لهم .. **﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾** أى لا عهود لهم ، أى ليست عهودهم صادقة يوفون بها ... **﴿ لعلهم**

ينتهون ﴾ أى عن الشرك ... وفى البخارى عن زيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقى من أصحاب هذه الآية يعنى : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ إلا ثلاثة ، ولا بقى من المنافقين إلا أربعة ، فقال أعرابى : إنكم أصحاب محمد تخبرون أخباراً لا ندرى ما هى ! تزعمون ألا منافق إلا أربعة ، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ، ويسرقون أعلاقنا[١] ؟. قال : أولئك الفساق . أجل لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[٢])[٣] .

وما ذهب إليه القرطبى سديد ، فحيث كانت براءة تنزل ، ويعلن بها فى أرجاء مكة والمشاعر ؛ كانت دعوة حارة إلى أن تكون الحرب على أساس العقيدة منذ اليوم ، ولم تجر بعد براءة ، قرابة سنة أو أكثر شيء من الحروب والمعارك ، لكن كان تطبيق الآية صارخاً بعد الردة لمقاتلة أئمة الكفر العتاة ، كالأسود العنسى ، وسجاح بنت الحارث ، ومسيلمة الكذاب ، والذين ادّعوا النبوة ، أو منعوا الزكاة ، أو ارتدوا عن الدين ، وكانت هذه الآيات قد تخمرت فى نفوس المسلمين ، وبنت جيل العقيدة ، واختلطت بأرواحهم وأفئدتهم ، فما أن شمرت الفتنة والردة عن ساقيها حتى كان المسلمون المجاهدون ، على رأسهم الصديق رضى الله عنه ، يمضون لمقاتلة أئمة الكفر ، وسالت الدماء أنهاراً ، وسقى المسلمون الأرض الزكية بدمهم الطاهر . حتى انتهى أئمة الكفر ، فمنهم من قتل ، ومنهم من تاب وارعوى ، ثم انضم بعد إلى الصف الإسلامى ، وما ذكره حذيفة رضى الله عنه حق ، فقد كان بعد أن ألقى الإسلام بجرانه فى الأرض ، ودانت الجزيرة بالطاعة والولاء لله ورسوله ، وذلك أيام الخليفة الصديق ، وانطلقت فلول المرتدين الذين تابوا وأخلصوا دينهم لله واعتصموا بالله مع المؤمنين إلى أرض الله فى فارس والروم لتحقيق موعود الله .

﴿ **ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

ولا شك أن هذه الآية ، تأتى للذين يتلقون الوحى من فم على رضى الله عنه ، وتدعوهم إلى القتال لله وحده ، وهم اليوم فى مكة ، لابد أن يعرف هؤلاء الناس أن ما كانت عليه قريش هو كفر بواح ، ولو كانوا سدنة البيت وحراسه ، وأن الذين

(١) أعلاقنا : نفائس أموالنا . (٢) لما وجد برده : لذهاب شهوته وفساد معدته .
(٣) مقتطفات من القرطبى / ٤ / ٨ / ٨١ - ٨٥ .

يطوفون اليوم عراة ، أو يحجون وهم مشركون على دين قريش قد أفل نجمهم ، وأعطوا أربعة أشهر للمواجهة النهائية ، ولابد أن تنتزع من قلوب العرب جميعاً الزعامة الدينية لقريش ، الذين نكثوا أيمانهم ، وحاربوا حزب الله فى أقدس أرضه فى مكة ، وهموا بإخراج الرسول ، (ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه) ، وهم بدؤوا النقض أول مرة ، فقادوا الجيش اللجب الذى قوامه ألف مقاتل ، لينهوا المسلمين عن آخرهم ، فقد انتهى ظلمهم وآبوا إلى الله ، ولا وجود لهم أو شوكة على الساحة بعد أن استسلمت مكة وقريش منقادين لله رب العالمين ، فعلام يتمسك الكافرون بكفرهم ، والمشركون بشركهم ، وكل قيادات قريش انضوت تحت راية لا إلٰه إلا الله ، ولم يكن قتالهم ابتداءً إلا لأنهم بغوا وأشروا وبطروا : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ (١) .

هؤلاء الكفار سابقاً ، وأمثالهم لاحقاً لابد من قتالهم ، وقد كان آخر عهدهم بالنقض قبيل الفتح .

﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم** ﴾ .

(فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة الشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم ، وهذا ما كان فعلاً ، وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ، وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء التائبين ، ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات ، حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات .

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوى قلوباً كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ ، وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق

(١) سورة الأنفال : ٤٧ ، ٤٨ .

حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد ، لم يكن يعدها وهى فى مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعداً واحداً : هو الجنة ، ولم يكن يأمرها إلا أمراً واحداً : هو الصبر .. فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ، وجعل يحرضها عليها ويشفى صدورها به ، ذلك أن القلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته ، وإن هى إلا ستار لقدرته .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ، وأن يقف المسلمون إزاءهم صفاً ، لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا ، والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة ، لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، ليتكشف الذين فى قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة فى المعسكرات المختلفة .

* * *

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾ .

لقد كان فى المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة ــ فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار ، وتتقن استخدام الأعذار ، وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها ، استجلاباً للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات فى المفاصلة بين المعسكرات ، فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تنتهك الأستار ، وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل : **﴿ والله خبير بما تعملون ﴾** .

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم، وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء، وتتميز الصفوف، وتتمحص القلوب، ولا يكون ذلك كما يكون إلا بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات)[1].

ولو سرنا بهذه الآية: ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ... ﴾ قدماً أقل من سنتين لوجدناها واقعاً حياً يوم وقعت الردة الخبيثة الرهيبة فى الأرض العربية، وحين يسيطر الكفر على القبيلة، وتسيطر الردة، فيكون سيد القبيلة أول المتنبئين والمرتدين، فما هو موقف المسلمين الصادقين فى هذه القبيلة، هل ينضمون إلى هذه الردة ويعذرون لقوة شكيمة الكفار والمشركين فيها؟ أم أن عليهم أن يجاهدوا ولا يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة؟ لقد جاء الامتحان الصعب لوضع هذه الآية موضع التطبيق، ولكشف مدى التجاوب معها وتنفيذ مضمونها.

لقد جاءت الأوامر من الخليفة الأول الصديق رضى الله عنه تقول للمسلمين:

(من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه ...

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله وجهلاً لأمره، واستجابة للشيطان و ... وإنى قد بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل، فإن أجاب وأقر وعمل صالحاً قبل منه، وأعانه عليه، وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله، ثم لا يبغى على أحد منهم قدر عليه ... ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذنوا وكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم)[2].

وكان الامتحان أعسر وأشد فى الخطاب الذى وجهه النبى ﷺ بعد تنبؤ الأسود العنسى إلى عماله فى اليمن، ولم يترك المسلمون قبل أن يجاهدوا فى سبيل الله ولم يتخذوا

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦١٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير / ٦ / ٣٥٦.

من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ...

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد بن عبد الله النبى ﷺ لمن أسلم من فارس وحمير ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وقتل المشرك وفارقه ، وأعطى الخمس من المغنم ، فإنه آمن نفسه وماله بذمة الله وذمة محمد ﷺ »[1] .

﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين * أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

وليست هذه الآيات إلا المضمون الأساسى لأوامر الرسول ﷺ :

« ألّا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » .

فهذا البيت هو بيت الله تعالى الذى أقامه لعبادته وتوحيده منذ أن خلق الخلق ، والشرك طارئ عليه ، توارثه الآباء عن الأجداد ، وامتدت المعركة الضارية بين الإسلام والشرك عشرين عاماً أو تزيد ، حتى سقط المشركون حماة هذه الوثنية ، وسقطت أصنامهم ، وهوت إلى غير رجعة ، فلا لات ولا عزى بعد اليوم . وهذا الحج لم يفرغ الرسول ﷺ لإجلاء كل المشركين عنه فلم يرض حضوره ، وبعث إنذاره العام للعرب قاطبة وغيرهم: ألا يحج بعد العام مشرك ، فقد انتهى الشرك من أرض التوحيد ، ودانت لله عز وجل ، فلا يعمر مساجد الله الشاهد على نفسه بالكفر ، إنما يعمرها المسلم الصادق الغيور على دينه ، وإسلامه .

وارتبطت الكعبة أول بيت أقيم للناس لعبادة الله ، ومن وراءها البيوت التى يذكر فيها اسمه ، ويسبح له فيها بالغدو والآصال بالتوحيد بمن آمن بالله واليوم الآخر وأقام

---

(١) الوثائق السياسية فى العهد النبوى / ٣٣٤ .

الصلاة وآتى الزكاة ، ومن الآن فصاعداً فلن يذكر فى بيت الله الحرام إلا اسم الله ، ولن ترتفع إلا راية لا إلـٰه إلا الله فوقها .

ولن تتوازن الكفتان ، فسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام دون إيمان بالله وإسلام له وإقرار بالربوبية المطلقة والرسالة الخاتمة ، تلغى كل عمل ، ولو كان خدمة الحجيج وسقيهم ، وإعمار المسجد الحرام ، وإطعام أهله ، إنها بدون الشهادة ملغاة محبطة ، وفوقها الخلود فى النار ، وذلك ليعرف بقايا من تبقى على حلة الشرك أنه مهترئ ومنتن مع ملته ، وعقيدته ، ولن يستوى أبداً الإيمان والكفر .

إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، لابد لهم من تكاليف لمقتضيات هذا الإيمان ، ومقتضيات هذه العقيدة ، ومن مقتضياتها أنهم بعد أن آمنوا هاجروا وانضموا إلى معسكر المسلمين ودار الإسلام ، وجاهدوا بعد الهجرة وقدموا الثمن غالياً من دمائهم وأرواحهم وأموالهم ، ولم يكن الجهاد لدنيا يصيبونها ، أو حمى لجاهلية يثأرون لها ، أو رغبة فى منصب يتسنمونه ، أو طمعاً فى مغنم يتلقونه ، لقد كان جهاداً خالصاً لله وحده لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

والذين قدموا هذا الثمن لمقتضى لا إلـٰه إلا الله ، بعد المفاصلة عن الأهل والولد ، والعشيرة والوطن ، ولم يعد لهم وطن إلا حيث تقوم شريعة الله ، وحاربوا أهلهم وذويهم فى سبيل الله ، هؤلاء هم الفائزون ، الذين يستحقون بشارة الله تعالى بالجنات والنعيم المقيم .

وكما أن الفريق الأول : حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون .

فالفريق الثانى : أثمرت أعمالهم ، و ﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان** ﴾ ، فقد فازوا برضا الله عز وجل ، وفازوا برحمته ، وفازوا بنعيمه ﴿ **وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً** ﴾ .

لقد كانت مفاخر الجاهلية ومآثرها التى ذهبت بها قريش عشراً ، وقد وزعت على بطون قريش ، وكان أعلى هذه المآثر السقاية والرفادة والحجابة ، حيث كانت السقاية والرفادة فى بنى هاشم ، وكانت الحجابة فى بنى عبد الدار ، وجاء الإسلام فقال على لسان رسوله ﷺ : « ألا إن كل مأثرة أو دم من مآثر الجاهلية تحت قدمى

هاتين ، إلا سقاية الحاج وحجابة البيت » ، وانضمت السقاية ومعها الرفادة إلى بنى هاشم المسلمين ، حيث كان العباس عم رسول الله ﷺ يقوم بها ، فقد أصبحت تنطلق من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وانضمت الحجابة إلى بنى عبد الدار ، إلى عثمان ابن شيبة بن طلحة، وانطلقت معه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وألغيت بقية المآثر الجاهلية تحت قدمى رسول البشرية محمد عليه الصلاة والسلام .

لقد أبلغت هذه المعانى إلى حجيج العام التاسع الذى كان على رأسه الصديق ؛ وكان وزير إعلامه علياً رضى الله عنه الذى يبلغ « براءة » فى المحافل والمجالس والمنتديات والفساطيط .

وكان لابد مع هذا الإعلان كذلك أن يسمع الناس كما قال عليه الصلاة والسلام لأهل مكة : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .

فجاءت آيات براءة لتعلن قيام دولة العقيدة ، وسقوط دولة العصبية والحمية والقومية ، جاءت آيات براءة لتعلن أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة :

﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

لقد نزلت هذه المعانى فى آيات شبيهة عقب بدر فى ذلك المجتمع الإسلامى الصغير الذى كان جيشه لا يربو على ثلاثمائة إلا قليل ، وها هى الآيات تترى هنا فى كل أصقاع الأرض العربية ، لتعلن انتهاء رابطة القبيلة والعشيرة :

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وانتهت الولاية على أساس القبيلة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

لتقوم رابطة العقيدة والإيمان فى أرض التوحيد :

﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

ولم تأت هذه الآية لتبت كل الروابط الأخرى من روابط الدم والأهل ، والوطن ، والمصالح ، إنما جاءت لتجعل رابطة العقيدة فوق هذه الروابط جميعاً ، ولايعلو عليها راية ، ولا يسمو فوقها رابطة ، فهى الأحب من كل رابطة أخرى .

إن بالإمكان أن تبقى تلك الروابط ، إذا لم تتعارض مع رابطة العقيدة ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله ، وكانت ردفاً لها ، أما إذا تعارضت فتسقط أمام الرابطة العليا .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

فالجهاد فوق الأب والأم والأخ والزوج ، وفوق مصلحة المال والوطن والتجارة ، إنه يحكم هذه جميعاً إذا اقتضت المصلحة ذلك ، وتبقى لهذه الروابط دورها دون أن تعطل الجهاد أو ترتفع فوق قدرها الذى أعطاها الله .

إنها مواصفات هذا الجيل الذى يعد لمواجهة أمم الأرض أن ينطلق بتميزه ، ومفاصلته ، وإخلاصه ، وولائه لله ورسوله ، وبيع نفسه وماله لله عز وجل ، إنه الجيل الربانى النبوى الذى صنع على عين الله ، ورعاه رسول الله ﷺ حتى أثمر وأينع ، فكان معداً لتغيير الأرض ، وتحرير الإنسانية ، وأثبت بتربيته الجهادية العالية أنه خير جيل ، وخير أمة أخرجت للناس ، **﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** ، فتحقق به موعود الله فى الأرض ، ولن يتحقق هذا الموعود من جديد ، وفى ظلال الحركة الإسلامية اليوم إلا بهذه المواصفات ، وعلى ضوء هذا المنهج ، وعلى آثار ذلك البناء :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ... ﴾ .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

(ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض ، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة ، وبالزوج والعشيرة ، ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ، ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق - من غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتباره لوناً من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده ، وهم يذكرون أنه الرزاق المنعم الوهاب)[1] .

(وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة ، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة ترتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ، ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله .

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد ، لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضىء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ، ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك)[2] .

---

(١) و (٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٦١٥ ، ١٦١٦ .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

★ لقد ربى النبى ﷺ الجيل الأول حتى غدا خير القرون من جهة، وغدا المثال الذى يحتذى به من جهة ثانية، فحقق الله به موعوده فى أحسن صورة وأكملها.

★ وهذا الكتاب يتناول -فى أجزائه الثلاثة- تربية النبى ﷺ لأصحابه التربية الجهادية، فى محاولة للوقوف على الكيفية التى تمت بها هذه التربية، والخطوط العريضة التى قامت عليها.

★ واختار المؤلف أن يكون الأساس فى البحث آيات القرآن الكريم لا تسلسل الأحداث فى السيرة، باعتبار أن الله - تعالى جل شأنه - هو الذى كان ينزل الآيات بعد كل حدث أو معركة فيعرض فيها مايحتاجه الجيل المسلم من الاحداث لتتم التربية على ضوئه .

★ كما أن منهج الكتاب إنما يقوم على تغذية الآيات بالحدث من السيرة ، وحشد كل ما يساعد على فهم النص أو فقهه، مع متابعة أثر هذه الآيات فى الصف المسلم، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، ثم بان كيف بنى النبى ﷺ هذه الأمة بهذا القرآن .

ودار الوفاء

إذ تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام ، إنما تسأل الله أن ينفع ويهدى به إلى أقوم سبيل . والله من وراء القصد .

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب : ٢٣٠

ت : ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس : ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM